

السنة الإلهية الفائلة و أثرها في التطور الإقتصادي في القراة الكرير

مع المقارنة بفلسفات معاصرة في التطور
ومعه ملحق بعنوان :
“ الفاسفة الاقتصاءية لابن خلدون ”
(دراسة مقارنة)



تأليف:

جيهان محمد رفعت



راجعته:

عبد المهز كامل عبد النبك
باحث في الدراسات الإسلامية و الإقتصاءية

قدم له:

د. عيد رشاد عبد القادر
مدرس الاقتصاء-كلية التجارة - جامعه عين شمس

" السنن الإلهية الفاعلة وأثرها في التطور الاقتصادي في

القرآن الكريم "

(مع المقارنة بفلسفات معاصرة في التطور)

{ ومعه ملحق بعنوان : " الفلسفة الاقتصادية لابن خلدون "

(دراسة مقارنة) }

تأليف:

جهان محمد رفعت

قدم له:

د. عيد رشاد عبد القادر

مدرس الاقتصاد - كلية التجارة - جامعة عين شمس

راجعته:

عبد المعز كامل عبد النبي

باحث في الدراسات الإسلامية والاقتصادية

م ٢٠٢١

ترجمة المؤلف

جيهان محمد رفعت ،، مواليد يناير ١٩٦٩م - القاهرة، أحبت العلم والتعلم، وخاضت مراحل تعليمية كثيرة ودراسات متنوعة. وبعد حصولها على الثانوية العامة التحقت بالمعهد العالي التجاري ، ثم درست وتخرجت من المعهد العالي للبصريات بحكم عمل عائلتها في البصريات.

لم يمنحها الزواج وتربية الأولاد من الالتحاق بالتعليم المفتوح؛ فحصلت على بكالوريوس التجارة من جامعة القاهرة. واستمر بعد ذلك شغفها لتعلم المزيد من العلم؛ فالتحقت بالمعهد العالي للدراسات الإسلامية بميت عقبة، وهناك بدأت رحلتها للحصول على درجة الماجستير في الاقتصاد الإسلامي، وكان ابن خلدون هو المحرك لجميع أفكارها؛ فحصلت بالفعل على درجة الماجستير في الاقتصاد برسالة عنه، وهي موضوع هذا الكتاب (السنن الإلهية الفاعلة وأثرها في التطور الاقتصادي في القرآن الكريم) (مع المقارنة بفلسفات معاصرة في التطور).

ثم بدأت في رحلة الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد مع ملهمها ابن خلدون، حتى إنها تطرقت للاقتصاديين الغربيين وفكرهم الاقتصادي لبيان مدى تأثيرهم بفكر وعلم ابن خلدون، وذلك مثل : ماركس وجون كيت جالبريث وجورج نايهانز وكينز...

وبعد أن شرعت في كتابة فصلين في رسالة الدكتوراه (وقد ضمناها لأخر الكتاب كملحق) وافتها المنية وذهبت للقاء ربها قبل أن المشوار العلمي الذي بدأته، حيث كانت وفاتها في يناير من عام ٢٠٢١.

وندعو الله - عز وجل - أن يتقبل منها هذا العمل، وأن يكون في ميزان حسناتها، وأن ينفع بها، فهو ولي ذلك والقادر عليه.



تقديم زوج المؤلفة

زوجتي الحبيبة ...

يذهب الناس إلى خالقهم وتبقى أعمالهم باقية لخلقه، فكم كان يسعدك وجود الكتاب بين أيدي الناس في حضورك، ويشاء المولى - عز وجل - أن يجعل سعادتك به أكثر وأنتي لديه.

(علم ينتفع به) هذا هو موروثك وشاهد على إتمام رسالتك العلمية.

أسرة المستشفيات وحلقات المدارس حولك من أساتذة وطلاب يشهدون أنك كم تمنيتي الشفاء، ليس حبًا في دنيا، ولكن حبًا في إكمال رسالتك العلمية. رحمك الله رحمة واسعة، وجعل تعبك وجدك في ميزان حسناتك، ونفع الله برسالتك.

زوجك الحبيب

تقديم الدكتور/عيد رشاد عبد القادر

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله - ﷺ - وبعد، فيسعدني كتابة هذا التقديم لهذا العمل لواحده من أعز وأهم وأنجب باحثه تعاملت معها، وهي الأخت العزيزة جيهان رفعت - رحمها الله رحمة واسعة وأسكنها الفردوس الأعلى من الجنة - . فقد التقيتها لأول مرة في محاضرة البحث العلمي والتي عادة ما ألقياها على طلاب الماجستير والدكتوراة قبل دخول السيمينار العلمي للقسم، فقد حضرت إلى مكنتي بعد المحاضرة وعرفني بنفسها وبدأت في الحديث عن رسالتها للماجستير وعن ابن خلدون وكم تحبه وتعشقه وتتمنى تسجيل رسالة الدكتوراة عنه وعن فلسفته الاقتصادية وكم هو سابق لعصره.

عرضت الأمر على أستاذي العزيز الأستاذ الدكتور محمد رضا العدل - رحمه الله رحمة واسعة - بصفته متخصصاً في تاريخ الفكر الاقتصادي، وهذا الموضوع يدخل في تخصصه؛ فرحب على الفور عندما رأى إصراراً من جيهان - رحمه الله عليها - للتسجيل في هذا الموضوع، ودائماً ما كان يتم رفض التسجيل في القسم لهذه الموضوعات لعدة أسباب، منها صعوبة الكتابة في هذه الموضوعات، وعدم وجود الطالب المؤهل للكتابة في تاريخ الفكر الاقتصادي، أو لعدم وجود مشرفين متخصصين في هذه النقطة البحثية - باستثناء الأستاذ الدكتور محمد رضا العدل.

واستمرت جيهان - رحمه الله عليها - في التواصل معي بشأن هذا الموضوع، وجلسنا أكثر من ٦ جلسات لمناقشة وكتابة مشروع البحث لهذا الموضوع، واستقر الأمر على اختيار العنوان التالي: "الفلسفة الاقتصادية لابن خلدون: دراسة مقارنة" ، وعند دخول السيمينار كانت

هناك معارضة شديدة لتسجيل هذا الموضوع في مجلس القسم، واستمات في الدفاع عن الموضوع بالحجة والإقناع لأساتذتي حتى نجحت أخيراً بإقناع أساتذتي بالموافقة على تسجيل هذا الموضوع. كانت جيهان - رحمة الله عليها - فرحة أيما فرح وسعيدة سعادة بالغة لتسجيل هذا الموضوع.

وبدأت جيهان الكتابة في هذا الموضوع وكانت تتواصل معي باستمرار حتى أتمت كتابة فصلين، وبدأت في التعب ودخلت المستشفى، وعندما زرتها في المستشفى - ولم أكن أعلم حينها أنها الزيارة الأخيرة - تحسنت نفسيتها على الرغم من تعبها وبدأت الحديث عن ابن خلدون واستمرت الزيارة قرابة الثلاث ساعات. ولم يمهلهما القدر لإتمام هذا العمل؛ فرحلت إلى بارئها في يوم الخامس العشرين من يناير ٢٠٢١، وعندما علم أستاذي العزيز الأستاذ الدكتور رضا العدل بوفاتها حزن حزناً بليغاً، وطلب مني كتابة نعي لها على وسائل التواصل الاجتماعي، وقد تم ما أراد، وبعدها بجوالي خمسة أشهر لحق بها أستاذي العزيز الأستاذ الدكتور رضا العدل، فرحم الله جيهان وأستاذي العزيز رحمة واسعة وأسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة والحقنا بهم على خير.

ستظل جيهان محفورة في ذاكرتي لن أنساها ما حييت كطالبة علم فريدة من نوعها وأخت عزيزة فاضلة لم أر منها سوى الخير، ومن ثم فإن هذا الكتاب الذي بين أيديكم يتضمن رسالتها للماجستير والفصلين التي كتبتها من الدكتوراة التي لم تكتمل، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتها وأن يكون سبباً في دخولها الجنة.

دكتور/ عيد رشاد عبد القادر

مدرس الاقتصاد بكلية التجارة جامعة عين شمس والمشرف المشارك على الرسالة

إهداء المؤلف

أتقرب بهذا العمل لله تعالى ثم إلى رسوله الكريم ونبيه العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، والذي علمنا أن زاد المرء في حياته هو تقوى الله.
وأهدى هذا العمل إلى روح أبي وأمي، وإلى زوجي وأبنائي تقديراً لجهودهم وصبرهم معي لإنهاء هذا البحث.

شكر وتقدير المؤلف

لا يسعني بعد الانتهاء من إعداد هذا البحث إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير والثناء لمن كان لهم الفضل في إتمامه تقديراً لجهودهم التي بذلوها معي، معترفة بفضلهم وحسن متابعتهم أثناء إعدادهم، وأخص بالذكر أستاذي الفاضل أ.د/ رفعت السيد العوضي، وأ.د/ عبد الحميد مذكور اللذين منحاني الكثير من وقتهما، وأفاضا عليّ من علمهما الواسع، وأرشداني به رغم كثرة انشغالهما وضيق وقتهما، جزاهم الله عنى خير الجزاء.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر والتقدير للأساتذة الفضلاء:

أ. د / رفعت السيد العوضي

أستاذ الاقتصاد الإسلامي بكلية التجارة، جامعة الأزهر.

أ. د / عبد الحميد مذكور

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

أ. د / محمد نجيب عوضين

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، جامعة القاهرة.

أ. د / عادل حميد يعقوب

أستاذ الاقتصاد الإسلامي ووكيل كلية التجارة السابق، جامعة الأزهر.

لتفضلهم مشكورين بمناقشة هذا البحث من أجل إظهاره بأفضل صورة
وأحسن حال.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لإدارة المعهد العالي للدراسات الإسلامية
وموظفيه وكل من قدم لي المساعدة والنصح والإرشاد وإبداء الملاحظات
حتى أستطيع تقديم هذا العمل.

المقدمة

أولاً: موضوع البحث وأهميته

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فقد خلق الله الإنسان وفطره على الفطرة السليمة، وفضله على جميع مخلوقاته، وسخر له الكون العظيم محكوماً بنظام وسنن، وهي كالقانون الحاكم، الهدف منه السير للوصول للنجاح في إدارة الكون، قال تعالى: " مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا " (الأحزاب: ٣٨) فعندما ابتعد الإنسان عن اتباع القانون الإلهي (السنة الربانية) أرسل الله تعالى الرسل للتبنيه على المنهج والتذكير به ليكون الثبات على الحق باتباع هذا المنهج لحسن إدارة الكون، وذلك حتى لا يحدث انحراف في التطبيق يترتب عليه انحراف في النتائج، وانضباط التطبيق يؤدي للفوز بحسن التسخير والاستفادة من جوانب الكون بأكمله، حتى وإن كان المطبق غير مسلم. وعندما غابت الثقافة السننية والفهم السنني توقف عن العالم الإسلامي التقدم والازدهار، بل وزاد سوء حال العالم الإسلامي بالتبعية الفكرية للأكثر تفوقاً منه في إدارة الكون، رغم أن العالم الإسلامي هو صاحب المنهج الإلهي القويم لحسن إدارة الكون وتسخيرها.

والعلم والتطبيق لسنن الله بأنواعها يؤدي إلى التطور في جميع مناحي الحياة حسب طريقة التطبيق، فيما أن تؤدي للتطور الإيجابي أوالتطور السلبي، ومن هنا جاء سبب اختياري لهذا الموضوع، وجاءت فكرة البحث، وهي استخراج هذه السنن الإلهية الاقتصادية المؤثرة على كيفية سير التطور، ثم يكون الكشف عن بعض المشكلات الاقتصادية في المجتمع، ومحاولة البحث عن حلها في سنن الله من كتاب الله نفسه، ونحاول التوجيه لاتباع هذه السنن، ووضعها في سياسات لنضمن معها التطور بصورة نتلاشى فيها هذه المشكلات.

والبحث المقدم باسم: (السنن الإلهية الفاعلة وأثرها في التطور الاقتصادي في القرآن الكريم)

(مع المقارنه بفلسفات معاصرة في التطور)

وبعد استشارة الأساتذة أباونا لي أهمية موضوع السنن الربانية وجدارته بالدراسة، وعندئذ قمت بالقراءة في الموضوع، فلم أجد ضمن القراءات تأثير السنن الربانية على التطور الاقتصادي في المجتمعات، فوجدت أنه موضوع يستحق البحث لاستخراج هذا النوع من السنن، فقامت بإعداد خطة البحث، وتقدمت بها، وتمت الموافقة عليها بفضل الله تعالى، ومن ثم بدأت في جمع المادة العلمية، فوجدت الكثير من الكتابات والرسائل العلمية في ذلك.

ثانياً: أهداف البحث

١ - توضيح التطور في الفكر الغربي لوضعه أمام أعيننا ومقارنته بالتطور في الفكر الإسلامي من خلال البحث.

- ٢ - توضيح ماهية السنن الإلهية وأراء المفكرين الإسلاميين في السنن الإلهية فيها، وتأثيرها على التطور الاقتصادي.
- ٣ - محاولة التعرف على فكر ابن خلدون في التطور وكذلك على فكره السنني، ومحاولة توضيحه في الشق الاقتصادي.
- ٤ - محاولة استخراج السنن الربانية الفاعلة والمؤثرة في قيام العمران الاقتصادي.
- ٥ - محاولة استخراج السنن التي تؤدي للهلاك الاقتصادي وفساد العمران، وذلك لتفادي الوقوع فيها.

ثالثاً: تساؤلات البحث

- نتساءل في الفصل التمهيدي عن معنى التطور في الفكر البشري، وذلك بمحاولة توضيح تفسير المفكرين الغربيين لفكرة التطور، ومحاولة معرفة تفسيراتهم للتطور وماهية القوى الفاعلة للتطور.
- ونتساءل في الفصل الأول عن ماهية السنن الإلهية، ومحاولة معرفة أنواعها وأهميتها، وهل للتطور الاقتصادي علاقة بالسنن الإلهية؟ وهل السنن الإلهية كانت في فكر وكتابات المفكرين الإسلاميين أم لا؟
- ونتساءل في الفصل الثاني عن ابن خلدون، ومرجعيته، وهل كان للتطور عامة والتطور بالسنن خاصة مساحة في فكر وكتابات ابن خلدون؟
- ونتساءل في الفصل الثالث عن مفهوم العمران، وهل تستطيع السنن الربانية أن تكون فاعلة في التطور الإيجابي وتستطيع أن تؤدي للعمران الاقتصادي؟
- نتساءل في الفصل الرابع عن السنن الربانية، وإمكانية أن تؤدي إلى التطور السلبي بفساد العمران، مع محاولة استخلاص هذه السنن.

رابعاً: منهج البحث

وقد استخدمت عدة مناهج بحسب الظواهر التي درستها بالبحث؛ فقد استخدمت منهج البحث التاريخي لبحث الظواهر التاريخية، مثل الفقر والهلاك الاقتصادي والطغيان السياسي. وقد استخدمت المنهج الاستنباطي لاستخراج آيات القرآن الكريم الدالة على ما ذهبت إليه، وكذلك استخدمت منهج التحليل التاريخي لتحليل أحداث وقعت في الماضي وإلقاء الضوء عليها، وذلك حتى يمكن التنبؤ بما يمكن أن يحدث في المستقبل.

وكذلك استخدمت المنهج الاستدلالي، وهو " البرهان الذي يبدأ من قضايا يسلم بها، ويسير إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة، دون الالتجاء إلى التجربة "، وقد استخدمت هذا المنهج في إثبات إسلامية كتابات ابن خلدون، وكذلك في إسهام المفكرين الإسلاميين في الفكر السني.

خامساً: خطة البحث

المقدمة

ذكرت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وتساؤلات البحث، وأهدافه، ومنهج البحث المتبع، وبالمقدمة توضيح لخطة البحث المتبعة.

(١) عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات ش فهد السالم الكويت، ط٣، د .

فصل تمهيدي: فلسفات غريبه عن التطور

في هذا الفصل نحاول توضيح ماهية التطور في بعض الأراء والفلسفات الغربية، وكذلك أسباب التطور في فكر وكتابات الفلاسفة الغربيين، وقد حاولت تفسير ماهية التطور مع الإشارة لنظرية "دارون" عن التطور كمفكر معاصر بعد الإشارة إلى فكرة التطور والدين. وقد أعطيت إشارة إلى التطور في فكر كل من "هيجل" و"ماركس" وتفسيرهما للتطور. وقد أبرزت فكر "فوكوياما" والحتمية بعد شرح مختصر لمعنى الحتمية وأنواعها، مع توضيح حتميه نهاية التاريخ عند فوكوياما.

الفصل الأول: السنن الإلهية والتطور الاقتصادي

في هذا الفصل حاولت الإجابة على تساؤلين:

التساؤل الأول: هل للسنن الإلهية تأثير على التطور الاقتصادي؟

والتساؤل الثاني: هل المفكرون الإسلاميون اهتموا بموضوع السنن الإلهية في كتاباتهم أم أهملوها؟

وقمت بتقسيم الفصل إلى قسمين، كل قسم للإجابة على سؤال، فالقسم الأول خصصت له جزءًا تناولت فيه خصائص السنن وأنواعها وأهميتها.

والقسم الثاني تناولت فيه تصنيف الدراسات الاقتصادية، وشرحت فيه بعض المفاهيم، وكذلك قمت بشرح دور الباحث الاقتصادي. ثم قمت بمحاولة إثبات علاقة التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية في عدة نقاط، منها: أنّ التمسك بالسنن كقاعدة تؤدي للتطور، وأنّ للسنن دورًا في ضبط التطور،

وأنَّ الاعتماد على السنن في عملية التطور يضمن إعمار الأرض، وأنَّ السنن تحدد أهداف النشاط الاقتصادي.

وقد خصصت مبحثًا للإجابة على التساؤل الثاني، وهو : هل المفكرون الإسلاميون اهتموا بموضوع السنن؟ وقد قمت باستعراض آراء المفكرين الأقدمين في السنن الإلهية، وأثبتت أنَّ كتاباتهم ليست بقليلة، وكذلك باستعراض آراء مفكرين معاصرين عن السنن وجدت اهتمامهم بها ومطالباتهم بتحويلها لعلم من العلوم. وقد وجدت أنَّ أخصص للمفكر الإسلامي ابن خلدون فصلًا كاملاً عن كتاباته عن التطور وعن السنن، فقامت بتخصيص فصل مستقل عن ابن خلدون وهو الفصل الثاني.

الفصل الثاني: فكر ابن خلدون في التطور الاقتصادي

بعد استعراض آراء المفكرين الإسلاميين عن التطور كان يجب تخصيص فصل كامل للمفكر ابن خلدون لأقوم فيه بسرد فكره عن التطور والإجابة على تساؤل: هل لابن خلدون مساهمة في الفكر السنني ؟ وفيه ترجمة ابن خلدون، وفيه توضيح لمرجعياته الإسلامية من خلال كتاباته، مع توضيح تأثير ابن خلدون في الفكر الغربي من خلال ريادته في إنشاء علم الاجتماع، ومن خلال ريادة ابن خلدون كمؤرخ.

ثم تناولت التطور في فكر ابن خلدون، وقد تناولته من حيث التطور الاجتماعي من وجهة نظر ابن خلدون، ثم تناولت التطور الاقتصادي من وجهة نظر ابن خلدون، ثم تناولت شق تطور العمران وتأثيره على التطور الاقتصادي لإظهار التطور من وجهه نظر ابن خلدون، وحتى أظهر الفكر

السنني عند ابن خلدون. وقد حاولت توضيح تطور العمران الاقتصادي بالسنن عند ابن خلدون من خلال سنن التطور الاجتماعي في فكره، مثل سنة دراسة التاريخ لاستخراج سنن التغيير والتطوير، وسنة التغيير والتدافع، وسنة الهلاك للقرى بسوء أخلاق أهلها، وسنة أن الاجتماع البشري يحتاج لقوانين تنظمه، وسنة أن الترف يزيل الشجاعة.

ثم حاولت شرح مذهب ابن خلدون الاقتصادي من خلال تجاذب كل من المذهب الاشتراكي والمذهب الرأسمالي لآرائه، وقد حاولت إثبات إسلاميه آرائه الاقتصادية، ثم أخيراً ذهبت لاستخراج سنن التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون، مثل: سنة زوال الموارد نتيجة الترف، وسنة أن الاحتكار يؤدي للخسران، وسنة تواجد الإنسان حيث يتواجد رزقه، وسنة أن الكسب يكون نتيجة الأعمال البشرية.

الفصل الثالث: السنن الإلهية لقيام العمران

في هذا الفصل نحاول أن نجيب على تساؤل: هل السنن الربانية تستطيع أن تكون فاعلة في التطور الإيجابي؟ وهل تستطيع أن تؤدي إلى التطور للعمران الاقتصادي؟

فحاولت تفسير ماهية العمران، ومفهومه، وأنواعه، ومقوماته، ثم طبقت مقومات العمران على التطور في القصص القرآني لإظهار كيفية تأثير السنن الربانية على التطور، وظهور ذلك جلياً في القصص القرآني كأمثلة عملية أوضحها الله تعالى للاسترشاد بها كسنة للتعلم منها. وقد حاولت توضيح العمران في الفقه الإسلامي، وتوضيح علاقة العمران بمقاصد الشريعة الخمسة،

وقمت بإجراء مقابلة بين مصطلحي العمران والتنمية، ثم باقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي، وذلك في محاولة لتحويل السنن الربانية لمجموعة من السياسات المؤدية إلى العمران الهادف، والذي هو معناه أوسع من التنمية، حيث إنه يشتمل على إعمار في الحجر والبشر، وقد قمت فيه باستخراج السنن الربانية الفاعلة في التطور الإيجابي، وحاولت إثبات أن العمل المصحوب بالإيمان يحقق الرزق، وتوضيح معنى الرزق ومعنى العمل والإيمان، وكيف يحققان الرزق، وكذلك لأثبت أن العدل والأمانة يحققان الأمن الاقتصادي، وذلك بعد شرح كل من معنى العدل والأمانة وتوضيح معنى الأمن الاقتصادي.

وكذلك لأثبت أن الشكر بشقيه المادي والمعنوي وكذلك الاستغفار يحققان الطمأنينة الاقتصادية. وشرحت معنى الطمأنينة الاقتصادية. وحاولت جاهدة استخراج جميع الآيات القرآنية الدالة على هذه المعاني والمتعلقة بهذه الموضوعات وأيضاً شرحها.

الفصل الرابع: السنن التي تؤدي لفساد العمران

في هذا الفصل نجيب على تساؤل: هل يوجد سنن ربانية يمكن اتخاذها كقانون للحماية من التطور السلبي الذي يؤدي لفساد العمران؟

وفي هذا الفصل بحثت مباشرة عن السنن التي يجب تحويلها لقوانين للحماية من الانهيار الاقتصادي. ففيه قمت باستخراج سنن من القرآن الكريم تثبت أن الظلم والزهو والغرور من أسباب وقوع العذاب، وذلك بعد شرح معنى كل من الظلم وأنواعه، والزهو والغرور وأنواعه. وقد قمت باستخراج السنن الإلهية

في الظلم الاقتصادي، وحاولت توضيحها وشرحها، وحاولت إثبات أنَّ الإفساد والبغي من أسباب وقوع الهلاك الاقتصادي، وذلك بعد شرح معنى الإفساد ومعنى البغي، وكذلك معنى الهلاك الاقتصادي. وقد قمت باستخراج آيات السنن الإلهية التي تدل على معنى الإفساد والبغي اللذين يؤديان إلى التدهور الاقتصادي. وقد قمت بمحاولة إثبات أنَّ العلو والطغيان السياسي من أسباب تحقق الفقر، وقمت باستخراج آيات السنن الدالة على ذلك، وقد قمت بشرح معنى كل من الطغيان السياسي والعلو. ومعنى الفقر، وكذلك أنواعه من المنظور الإسلامي. وقد قمت بتوضيح الآيات السننية التي تبين الارتباط بين الفقر والطغيان السياسي.

فصل تمهيدي

فلسفات غربية تحدثت عن التطور

نحاول في هذا الفصل التعرف على معنى التطور، والبحث عن معنى التطور في بعض الآراء والفلسفات الغربية، وكذلك التعرف على أسباب التطور في المجتمعات من آرائهم وكتاباتهم، ونقسم هذا الفصل كما يلي:

المبحث الأول: ماهية التطور.

المبحث الثاني: هيجل وماركس والتطور.

المبحث الثالث: فوكوياما والحتمية.

المبحث الأول: ماهية التطور

أولاً: التطور في اللغة والاصطلاح

الطور: التارة: تقول: طورًا بعد طور، أي تارة بعد تارة.

الطور: الحال وجمعه أطوار. قال تعالى: " وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا " (نوح: ١٤)، معناه ضرورًا وأحوالًا مختلفة. وقال ثعلب: أطوارًا: أي خلقًا مختلفة، كل واحد على حدة. وقال الفراء: أطوار: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظمًا. وقال الأخفش: طور علقة، وطور مضغة. وقال غيره: أراد اختلاف المناظر والأخلاق.

الأطوار: الحالات المختلفة^١

تطور الموقف: تعدل وتحول تدريجيًا من حال إلى حال (تطور المجتمع في العصر الحديث – تطورت الأسلحة الفتاكة تطورًا مخيفًا – تطور الطب العلاجي).

طَوَّر المصنع: عدله وحسنه، ونقله من حال إلى حال أفضل (طور أسلحته – طور الوزير المستشفيات – سعت الدولة بجهود مكثفة لتطوير التعليم).

تَطَوَّر (مفرد): والجمع تطورات.

التطور الاجتماعي: التقدم، انتقال من حال إلى حال، تغيير واضح.

(١) انظر: الإمام ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة، مادة طور، ص ٢٧١٧، ٢٧١٨.

نظرية التطور: نظرية دارون في تطور الإنسان.

تطور (حي): نموتدرجي في بنية الكائنات الحية وسلوكها خلال العصور التاريخية.

التطور الكبير: نشوء متعلق بأنواع كاملة أو مجموعات كبيرة من الكائنات الحية، تغير تدريجي يحدث في تركيب المجتمع والعلاقات والنظم والقيم السائدة فيه.

تطورية (مفرد): اسم مؤنث منسوب إلى تطور، مصدر من تطور، نظرية فلسفية أو علمية تقول بالتطور، أي تحول الكائنات الحية تدريجيًا خلال العصور التاريخية.^١

و(الطور) بالفتح التارة، وفعل ذلك (طورًا) بعد (طور) أي مرة بعد مرة، و(الطور) الحال والهيئة، والجمع (أطور) مثل ثوب وأثواب.^٢

" إنَّ مصطلح التطور من حيث معناه اللغوي يعد مصطلحًا جديدًا على المعاجم والقواميس العربية، حيث لم يرد في المعاجم القديمة إلا لفظ " طور"، وورد في القرآن في صيغة الجمع " أطور"؛ فقد جاء لفظ " طور" ليبدل على

(١) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، مادة طور، ص ١٤٢.

(٢) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، دار الآفاق العربية، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م)، مادة ط ور، ص ١٩.

معنى " التارة "، فنقول: طورًا بعد طور، أي تارة بعد تارة، والناس أطوار، أي أطياف على حالات شتى^١.

وهناك اختلاف بين تطور الإنسان وتطور الطبيعة " في أنه في الطبيعة لا تفعل مفعولها سوى القوى العفوية وغير الواعية، بينما الناس هم الذين يصنعون الحياة الاجتماعية، وقد وهبتهم الطبيعة الوعي والإرادة، فيطرحون أمامهم أهدافا ومهام معينة^٢. ولا يعني وضع الإنسان للأهداف المطلوبة أوللتطور المرجوأنَّ الإنسان بقدرته يستطيع تحقيق ما يصبوإليه، فأحيانًا يسير التطور على غير الخطط الموضوعة لها.

وعندما نتحدث عن التطور يجب ألا نغفل الفكر الغربي وأشهر نظرياته عن التطور متمثلة في نظرية دارون وما قاله عن التطور كما سيأتي.

ثانيًا: دارون ونظرية التطور

دارون^٣ هو صاحب أشهر نظرية عن التطور في الغرب، ونحاول التعرف على التطور في نظريته، ونظرية التطور هي نظرية شغلت العالم، وهي تبحث في تفسير لأصل الحياة وأصل الإنسان ونشأتها، وهو موضوع محور لاهتمام كل إنسان، سواء من الناحية العلمية، أو من الناحية العقائدية، واعتبر كثير من البشر أن هذه النظرية هي البديل عن قصة الخلق، ويجب أن نعترف أن أي اختيار لنظرية دارون هو اعتراف بقصة الخلق.

(١) محفوظ على عزام، نظرية التطور عند مفكري الإسلام، دار الهداية، ط ٢ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، ص ١٢، ١١.

(٢) غليريرمان، قوانين التطور الاجتماعي: طبيعتها واستخدامها، ترجمة: دار التقدم موسكو ١٩٨٣ م، طبع في الاتحاد

السوفيتي، ص ١٢٤.

(٣) انظر ملحق الأعلام.

يجب معرفة أنّ " الادعاء بمجىء الأحياء بعضها من بعض عن طريق التطور ادعاء قديم يرجع تاريخه إلى القرن السادس قبل الميلاد في بلاد الإغريق، فقد قدم بعض الفلاسفة عددًا من الفرضيات عن تطور الحياة من الأنواع البسيطة إلى الأنواع المعقدة عن طريق الصدفة. " ١

نظريته: حاول دارون تفسير وجود الكثير من الأحياء فكتب بأنّ " ظهور هذه الأحياء المتعددة عن طريق "الصدفة" فإنها تحاول أيضًا انقسام هذه الأحياء إلى هذه الأنواع الموجودة حاليًا عن طريق "الانتخاب الطبيعي" إذ يرى دارون أن التغييرات التي حدثت في الأحياء هي نتيجة للصدف وللظروف المختلفة، وتؤدي هذه التغييرات إلى ظهور أحياء مختلفة، ونتيجة للصراع الموجود في الحياة فإن الأقوياء يبقون وينقلون صفاتهم إلى أنسأهم عن طريق الوراثة، بينما تضمحل وتزول الأنواع الضعيفة التي لا تثبت أمام هذا الصراع، وذلك بفعل الانتخاب الطبيعي بين الأحياء" ٢.

وقد أثر على أفكار دارون بحث قام بنشره اقتصادي إنكليزي وهو توماس روبرت مالتوس، وكان يدور حول أن الحياة عبارة عن صراع، وأن زيادة عدد السكان فيها مع قلة الغذاء يحتم وجود المجاعات والأمراض والحروب؛ لأن هذه الأمور تحدث نوعًا من التوازن بين السكان والغذاء، ومن هذه الفكرة قام

(١) شمس الدين قبلوت، دارون ونظرية التطور، ترجمة عن التركية: أورخان محمد علي، دار الصحوة القاهرة، ط٧

(١٩٨٠)، ص١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨.

دارون بالتوصل لفكرة الانتخاب الطبيعي، وبذلك لا يهدأ الصراع في الحياة، ويكون نتيجة إزالة الضعيف وإبقاء القوي"^١.

ونلاحظ أنّ فكرة الانتخاب عن دارون أثرت على الفكر الغربي عامة حتى في الشق الاجتماعي من حيث إمكانية الانتخاب بين الحضارات، وقد اعتبروا " الإنسان الغربي والحضارة الغربية أكثر بني الإنسان تقدمية، وأكملهم حضارة"^٢، وقد تجاهلوا الحضارات الأخرى، واعتبروها جزءاً من حضارتهم.

ونلاحظ أنّ نظرية دارون عن التطور هي بعيدة كل البعد عن فكرة الخالق وإرادته - سبحانه وتعالى - في الخلق؛ ولذلك نحاول أن نتحدث عن التطور في الدين كما سيأتي.

ثالثاً: التطور والدين

عندما نتحدث عن التطور في الدين نجد أن التطور يظهر في موضعين:
الأول: التطور في الشريعة من حيث ثبات مبادئها وتطور تطبيقاتها. والثاني: هو التطور في الخلق على إرادة الخالق. وإذا تحدثنا عن الدين نجده أمراً ثابتاً، فالإيمان بالله وملائكته ورسوله والغيبيات هي أمور ثابتة راسخة في العقل والنفس؛ فالعقيدة في وجود الخالق ووجود المخلوقات - أيضاً - أمر ثابت؛ لذلك نجد الأديان السماوية ثابتة العقائد، فقال تعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ " (الأعراف: ٥٩)، وقال تعالى: " وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوَ دَا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا

(١) المرجع السابق.

(٢) إحسان نراقى، التراث والتطور، ترجمة: عبد الوهاب علوب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط ١، (١٩٩٨م)،

اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ " (الأعراف: ٦٥)، وقال تعالى: " وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " (الأعراف: ٧٣)، وقال تعالى: " وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ " (الأعراف: ٨٥)، ونجد العقيدة ثابتة وواحدة عند كل الأنبياء، وهي عقيدة التوحيد.

أما التطور في الأمور الدينية فهو يأتي في جانب التشريعات والتنظيمات، وجاءت التشريعات والتنظيمات بصورة متطورة جيلاً بعد الآخر لتناسب مع قدرات العقل والتحمل والاستيعاب للبشر، والتطور في التشريعات هو متناسب مع الفطرة البشرية التي هي بدورها تميل إلى التطور المستمر، فنجد أن " التطور الذي يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد في نفس الإنسان هو التنمية الدائمة للرغبات الفطرية الموجودة من قبل في حالة كامنة بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق "١

ونجد أنه بسبب الميل بالفطرة للتطور تتطور التشريعات لتناسب التطور في شخصية الإنسان، ويأتي الدين الإسلامي خاتم الأديان نزولاً على الأرض بتشريعات تتناسب في تطبيقها وتنفيذها مع كل التطورات الإنسانية حتى قيام الساعة، فهي من المرونة التطبيقية التي تسمح بتطبيقها في كل العالمين بنفس الكفاءة والمرونة، فقال تعالى: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " (الفرقان: ١).

(١) سيد قطب، التطور والنبات في الحياة البشرية، دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة (٢٠٠٩م)، ص ١٨، ١٩.

أما التطور في الدين من حيث الخلق نجد أن للخلق خالقًا ومنظمًا لخلقه، وهذا ما لا يعترف به دارون؛ لأنَّ الاعتراف بالخالق هي قضية إيمانية، ونظرية دارون تخالف الإيمان بالله، والخالق هو المنظم لكل الأطور، قال تعالى: " وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا " (نوح: ١٤) أ،ي: هو الذي جعل خلقكم طورًا بعد طور من نطفة إلى علقة ثم إلى مضغة إلى كمال خلقكم^١. وقد فسر بعضهم أنه " إخلافهم في الطول والقصر، والقوة والضعف، والهلم والتصرف، وأأن الأطور اختلافهم في الأخلاق والأفعال"^٢.

وهناك تطور في الإنسان من حيث نموه وهيئته وعقله وثقافته ومع هذا التطور للإنسان يظهر تطور المجتمع لأن الإنسان هو لبنة تكون المجتمع. وهناك تطور في الطبيعة من نمو وتغير في أحوال المناخ وغيره.

المبحث الثاني

هيجل وماركس والتطور

أولاً: هيجل والتطور

فلسفة هيجل^٣ هي الفلسفة المثالية الهيجلية والتي تجعل من الفكر أساساً لها. والفكر هو أساس كل شئ وحقيقة كل شئ، والفكر لا يحده إلا الفكر؛ لذلك هو لامتناهي؛ وذلك " لأن اللامتناهي الحقيقي هو الذي يجد نفسه

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، الدار التدمرية للنشر والتوزيع بالرياض، مجلد ٩، ص ٢٣١.

(٢) ابن الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصرى، النكت والعيون تفسير الماوردي، دار الكتب العلمية، مجلد ٦، ص ١٢.

(٣) انظر ملحق الأعلام.

بنفسه^١، وهذا يعني أن " ما يضاد الفكر - كالمادة مثلاً - ليس هو الحقيقة، والمادة متناهية، وإذن فكل ما هو متناه غير حقيقي؛ وعلى ذلك فالأشياء الموجودة أمامنا، والتي يزخر بها العالم الخارجي ليست هي الحقيقة، ووجودها لا يمثل الوجود الحقيقي أو الحقيقة النهائية^٢ .

وللدين علاقة بالفلسفة الهيجلية؛ حيث إن الدين يدعم المثالية في الفكرة الأساسية " فالعالم في نظر الدين ليس هو الوجود الحقيقي؛ لأنه وجود متناه، كما أنه ليس شيئاً نهائياً أو مطلقاً؛ لأن العالم مجرد ظاهرة أو مظهر خارجي، أما الحقيقة النهائية فهي الله، الذي هو فكر خالص أو عقل محض على حد تعبير الفلاسفة المسلمين؛ ولهذا فإنه هو - وحده - الوجود المطلق^٣ .

والجدلية توضح فلسفة كل من هيجل وماركس، ونستطيع القول بأنَّ " الجدلية تقول بالتناقض أساساً في نسيح الأشياء، وأنَّ الأشياء في تحول وتغير دائمين، وأنَّ التناقض هو قانون تحولها وتغيرها، ومع أنَّ للجدلية جذوراً تعود إلى زمن بعيد إلا أن المعترف به أن الجدلية بدأت بالمعنى الصحيح بنظرية هيغل، فهي أول منهج فلسفي لدراسة الظواهر الطبيعية. ولقد تسلح كل من كارل ماركس وفريدريك أنجلز بهذا الديالكتيك الهيجلي نفسه، ولكنهما أقاماه على أساس مادي. وهكذا نشأت المادية الجدلية التي هي علم القوانين العامة الأساسية للتطور في الطبيعة والمجتمع والفكر. إن لب النظرية الجدلية هو الاعتقاد بأنَّ

(١) إمام عبد الفتاح إمام، دراسات هيجلية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (١٩٨٤م)، ص ١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤.

التناقض هو نسيج الأشياء، فكل شئ يحتوى في داخله على جانب إيجابي وآخر سلبي، وفي كل شئ جانب ينمو، وآخر يموت"^١.

التطور عند هيغل هو يحدث أولاً في عالم الفكر، ثم ينتقل ليظهر التطور في عالم المادة نتيجة لما يحدث أولاً في الفكر، أي أنه تطور فكري يؤثر على التطور الموضوعي في عالم المادة. ويأتي السؤال: هل المجتمعات في حالة ثبات أم في حالة تطور؟ وإجابة هيغل عن ذلك هي "أنَّ المجتمعات تخضع لقواعد التطور، وليس لقواعد الثبات، ويعني ذلك أنَّ التاريخ الإنساني في حركة دائمة بحيث ينتقل من مرحلة تطورية معينة إلى مرحلة تطورية تالية"^٢. ويجب أن نعرف أنَّ الفكر هو المحرك الرئيسي للتطور في فلسفة هيغل، ولكن كيف تتم عملية التطور في المجتمعات " وإجابة هيغل عن ذلك هي أن التغيير يبدأ أولاً في العقل الإنساني، أي في عالم الفكر، ويقود هذا إلى كل أنواع التغييرات الأخرى في عالم المادة، ومن هنا تسمى فلسفة هيغل الفلسفة المثالية"^٣.

ويرى هيغل أن التغيير له ميكانيكية ليتم، وذلك بوجود الفكرة ونقيضها، وبذلك فإنَّ " كل حدث أو تغيير يوجد في الكون هو ناتج من الموضوع والنقيض، ومحصلة صراعهما هو التركيب، وكل هذا في حيز الأفكار، ويتضمن ذلك أن الوجود المادي يوجد في هذا الإطار الذي تسبق فيه الفكرة الواقع، ويعطي هذا تفسيراً كاملاً لخلق كل الظواهر في الكون"^٤.

(١) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. ت، الجزء الثاني، ص ٤٩.

(٢) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، ص ٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٢، Haruper Row, New York, William editin, Loucks،

P.٨١/٢٠١٩٦٤

وإذا كان التغيير عند هيغل يبدأ من العقل الإنساني في مرحلة الفكر، فنستطيع القول بأنّ الأفكار هي سبب التغيير، وإذا استطعنا أن نحكم الأفكار بمبادئ معينة تجعل التطور يسير في اتجاه محكوم نستطيع حينئذ أن نتحكم في سير التطور من مرحلته الأولى في عالم الفكر لنسيرة في الاتجاه الإيجابي، وبذلك نستطيع التحكم في الظواهر، ونظرية هيغل هي الأقرب لفكرة القدرة على التحكم في التطور من خلال الفكر.

ثانيًا: ماركس والتطور

ماركس^١ هو فيلسوف له فلسفته الخاصة وقد " اعتقد ماركس أن فلسفة هيغل المثالية تقف على رأسها وأنه جعلها تعادل واقفة على رجليها يجعلها مادية مع تفسيره الاقتصادي للتاريخ نحن في القلب من الماركسية ذلك أنّ شاغله الرئيسي كان في فهم تطوير المجتمعات وانتقالها من مرحلة تطويرية إلى المرحلة التالية في التطور، وكانت أدواته في ذلك كله نظريته، وتركزت في تفسيره المادي أو الاقتصادي للتاريخ"^٢.

ونستطيع تعريف المادية التاريخية بأنها " نظرية عامة للمسيرة التاريخية تمت صياغتها على أساس دراسة تطور التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية، وهي إلى جانب ذلك أسلوب لمعرفة الظواهر الاجتماعية"^٣.

(١) انظر ملحق الأعلام.

(٢) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٣) غليزيرمان، قوانين التطور الاجتماعي: طبيعتها واستخدامها، مرجع سابق، ص ٢.

وكذلك يمكن القول " إن التفسير المادي أوالاقتصادي للتاريخ يعني أن العلاقات الاقتصادية في أي عصر من العصور والوسائل التي يستمد بها الناس طرائق حياتهم ومعاشهم وتبادلهم للسلع والخدمات تؤثر أعظم الأثر في صياغة شكل المجتمع، وفي تشكيل العلاقات السياسية والاجتماعية بين الناس"^١.

التطور عند ماركس هو تطور المجتمع، فنجد أن الماركسية تعتبر " تطور المجتمع هو مسيرة تاريخية طبيعية، وأن هذه الحقيقة تعني أولاً أن هذا التطور يجري حسب قوانين موضوعة لا تتوقف لا على إرادة الناس ولا على رغباتهم، وثانياً هو مسيرة تاريخية ينجم عنها تغيرات دائمية في المجتمع، وهو يجرى على مراحل مختلفة من تطوره"^٢.

ويؤمن ماركس بأن المحرك للتغيير هو الموضوع ونقيضه، وذلك مع " التركيب الذي ينتج من الظاهرة المرئية يصبح بدوره موضوعاً ثم نقيضاً، وهو الذي يلعب دوره في خلق ظاهرة تركيبية جديدة"^٣.

وقد اتجه ماركس لتحديد آليات التطور أوميكانيكية التطور عن طريق الظاهرة الاقتصادية، وعوامل الإنتاج، وقد " جعل ماركس التاريخ الإنساني كله خاضعاً لنموذج تحليله بفروضه وميكانيكته، ويكون لهذا انتقال المجتمعات من مرحلة تطويرية إلى مرحلة التآليه لها أمراً حتمياً. ذلك أن قوى الإنتاج تملك بطبيعتها الداخلية ميلاً للتغيير المتصل والمستمر، ويقود ذلك

(١) صلاح الدين نامق، النظم الاقتصادية المعاصرة وتطبيقاتها، دار المعارف، ص١٧٥.

(٢) غليزيرمان، قوانين التطور الاجتماعي طبيعتها استخدامها، مرجع سابق، ص٦٢.

(٣) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص٢٢

بالحتم الهياكل الاجتماعية إلى تغيير يلائم الطبيعة أوالذاتية التي عليها قوى الإنتاج^١.

ونستطيع القول بأنَّ التطور عند ماركس هو تطور موضوعي يؤثر على التطور الفكري.

المبحث الثالث

فوكوياما والحتمية

أولاً: معنى الحتمية وأنواعها

(حتم) الحتم: القضاء. قال ابن سيده: الحتم إيجاب القضاء، وفي التنزيل العزيز " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا " (مریم: ٧١)، وجمعه حتوم، وحتمت علي الشيء: أوجبت، وحتم الله الأمر بحتمه: قضاة، والحتم: أحكام الأمر^٢.

وهناك نوعان من الحتمية، النوع الأول: هو حتمية كونية، وهي تتعلق بالنظام الكوني على عمومته، وهذا النوع يؤمن به العلماء؛ لأنه في العلوم والطبيعات حيث " يفرض العالم مقدماً مدركات عقلية أوقضايا أولية يستخدمها في مقدماته دون أن يعرض للبحث في صوابها أوخطئها لأن ذلك يخرج العالم من نطاق علمه موضوعاً ومنهجاً فيترك البحث في صوابها للفيلسوف، فمن ذلك أن العالم الطبيعي يسلم مقدماً في بداية بحثه بمبدأ الحتمية.....أي القول بأن

(١) المرجع السابق، ص ٢٣

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، مادة حتم، ص ٧٧١.

لكل ظاهرة علة توجب وقوعها، ولكل علة معلول ينشأ عنها فالظواهر يتحتم وقوعها متى توافرت أسبابها ويستحيل أن تقع مع غياب هذه الأسباب"^١.

ويجب معرفة أنّ " الكون كله يتحرك ضمن نظام دقيق بموجب قانون العلية، وهذا النظام يجري ضمن حلقات متسلسلة، كل حلقة منها ترتبط بالحلقة السابقة واللاحقة ضمن نظام حتمي لا يمكن أن يتغير، ولا يمكن أن يتخلف"^٢.

والنوع الثاني من الحتمية هو الحتمية التاريخية، وهي تخص الإنسان وأفعاله وتصرفاته وهي " الإيمان بحتمية السلوك الإنساني، وتعطيل إرادة الإنسان، وسلب أي دور لإرادته في سلوكه"^٣. وتكون الأحداث في هذا النوع من الحتمية " ضرورية محتومة، وليست ممكنة محتملة؛ لأنها تحدث حتمًا عند توافر الظروف التي تكفي لوجودها"^٤.

ثانيًا: حتمية نهاية التاريخ عند فوكوياما

فوكوياما^٥ ونهاية التاريخ، ولا يعني الكاتب الأمريكي توقف أحداث العالم، بل يعني توقف التطور والوصول إلى نهاية التطور بسير العالم كله واستسلامه للنظام الليبرالي بكل فروع، وخاصة بعد سقوط الشيوعية بجميع أنظمتها في معظم أنحاء العالم فيقول: " ليست هناك أيديولوجية ما يمكن أن تحل محل

(١) توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، سلسلة عالم المعرفة الكويت، ص ٤٧.

(٢) الأمر بين الأمرين دراسة في مسألة الجبر والاختيار، مركز الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية (٥)، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣.

(٤) توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص ٩.

(٥) هو كاتب أمريكي من أصل ياباني يعيش بأمريكا ويتجنس بالجنسية الأمريكية.

التحدي الديمقراطي التقدمي، ويصدق هذا على أغلب أجزاء العالم الحديث، فالملكية بأشكالها المتعددة قد اضمحلت على نطاق واسع مع بداية هذا القرن، والفاشية والشيوعية - وهما المنافسان الرئيسيان للديمقراطية - لم يصدقا في طرحهما السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وحتى الذين لم يتبنوا الديمقراطية كمنهاج سوف يضطرون إلى التحدث بلغة الديمقراطية من أجل تبرير انحرافهم عن نظام عالمي أصبح الآن شبه متفق عليه^١.

ونستطيع القول بأن فوكوياما له حتمية خاصة بفكره، وحتمية فوكوياما هي حتمية سيادة النظام الاقتصادي الحر، وذلك بعد سقوط منافسيها. ونجده في كتابه يستثني النظام الإسلامي من هذه الحتمية في المناطق التي يوجد فيها جاذبية للإسلام، ويعتبره نظاماً له صمود وقي؛ لأنه نظام متجانس ومنظم، وأن هذا النظام ليس له رنين بين الشباب في برلين، وشبابه لا يقبلون إلا الليبرالية؛ لذلك يسهل اختراق العالم الإسلامي بالأفكار التحررية^٢.

ونجد فوكوياما يريد أن يوقف أي تطور فكري لعقول البشرية بأكملها على الليبرالية، ويقول بحتمية سيادة النظام الليبرالي في جميع أنحاء العالم؛ وذلك لأن من وجهة نظره أن هذا النظام من أصلح الأنظمة التي أنتجها العقل البشري، فهو يشبه العالم بكل أنظمتها وكأنه " قطار طويل من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهاً إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الأباش (الهنود الحمر) فضل الطريق،

(١) فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق: حسين الشيخ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، ص ١١ - ١.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ١١.

والبعض الثالث أنهكته الرحلة الطويلة فقرر اختيار مكان وسط في الصحراء للإقامة فيه، وتنازل عن فكرة الوصول إلى المدينة، بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طرق بديلة للوصول إلى المدينة، وفي النهاية يجد الجميع أنفسهم مجبرين على استعمال نفس الطريق - ولوعبر طرق فرعية مختلفة - للوصول إلى غايتهم، وفعلاً تصل أغلب هذه العربات إلى المدينة في النهاية".^١

ونلاحظ أن فوكوياما حكم على الفكر والأنظمة عامة بالتوقف عند النظام الليبرالي، وقد حكم بالفشل مسبقاً على أي محاولة للتطوير من الفكر أو النظام، وتجاهل فوكوياما كل الظواهر السلبية الناتجة عن النظام الليبرالي مثل الاحتكار، والفوارق الاجتماعية الكبيرة بين أفراد المجتمع الواحد وغيره، والتي تثبت فشل هذا النظام في احتواء كل العالم بأفكاره، وأنه يجب البحث عن أنظمة أخرى أكثر صلاحاً وأقل سلبيات من هذا النظام الحتمي المفروض على العالم.

وأخيراً من محاولة استعراض فكرة التطور في نظرية كل من هيغل وماركس وفكر فوكوياما سنحاول البحث في التشريع الإلهي الإسلامي عن أنظمة تقوم بضبط عملية التطور في المجتمع من الناحية الاقتصادية، وهي ما يطلق عليها مسمى السنن الإلهية، في محاولة لإثبات أنها قانون حاكم لعملية التطور في المجتمعات، وذلك بمحاولة استخراجها ودراستها في الفصول القادمة.

(١) المرجع السابق، ص ١٢.

الفصل الأول

السنن الإلهية والتطور الاقتصادي

في هذا الفصل سنحاول الإجابة على تساؤل هل للسنن الإلهية تأثير على التطور الاقتصادي؟ وهل اهتم المفكرون الإسلاميون بموضوع السنن الإلهية في كتاباتهم ام أهملوه؟ وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: ماهية السنن الإلهية وأهميتها.

تمهيد: السنة لغة واصطلاحًا.

المطلب الأول: خصائص السنن

المطلب الثاني: أنواع السنن

المطلب الثالث: أهمية السنن

المبحث الثاني: السنن وتأثيرها على التطور الاقتصادي.

المطلب الأول: تصنيف الدراسات الاقتصادية وشرح بعض المفاهيم.

المطلب الثاني: الاقتصاد في الإسلام ودور الباحث الاقتصادي.

المطلب الثالث: علاقه التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية.

المبحث الثالث: آراء بعض المفكرين الإسلاميين في السنن.

المطلب الأول: السنن في فكر بعض المفكرين الأقدمين.

المطلب الثاني: السنن في فكر بعض المفكرين المعاصرين.

المبحث الأول

ماهية السنن الإلهية وأهميتها

سوف نستعرض هذا المبحث معنى السنه لغة واصطلاحًا وخصائص السنن وأنواعها وأهميتها، وسيكون ذلك في عدة مطالب كما يلي:

تمهيد: السنة لغة واصطلاحًا

المطلب الأول: خصائص السنن

المطلب الثاني: أنواع السنن

المطلب الثالث: أهمية السنن

تمهيد

معنى السنة في اللغة والاصطلاح

سنَّ الطريق: مهده، والأمر: بينه. والله سنه: بين طريقًا قويمًا. والمشرع سنَّ القانون: وضعه. وفلان سنَّ السنة: وضعها. وكل من ابتداء أمرًا عمل به قوم من بعده فهو الذي سنه.

(والسنن) الطريقة والمثال. يقال بنوا بيوتهم على سنن واحدة. ومن الطريق: نهجه وجهته.

(والسنة) الطريقة والسيرة، حميدة كانت أوزميمة، (وسنه الله) : حكمه في خليفته^١.

السنة هي: "الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق. والسنة في الأصل سنه الطريق وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلکاً لمن بعدهم. وسنّ فلان طريقاً من الخير يسنه إذا ابتدأ أمراً من البر لم يعرفه قومه فاستسنوا به وسلکوه"^٢ وسنة الله: أحكامه وأمره ونهيه (هذه عن اللحياني)، وسنها الله للناس بينها، وسنّ الله سنة: أي بيّن طريقاً قويمًا. قال تعالى: " مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرَ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا " (الأحزاب: ٣٨)، وتصب سنة الله على إرادة الفعل، أي سنّ الله ذلك في الذين نافقوا الأنبياء، وأرجفوا بهم أن يقتلوا أينما ثقفوا، أي وجدوا.

والسنة: السيرة حسنة كانت أوقبيحة.

وسننت لكم سنه فاتبعوها. والأصل فيه الطريقة والسيرة، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهي عنه وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب والسنة أي القرآن والحديث"^٣.

(١) المعجم الوسيط، مجموعه من الأساتذة بمجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، (١٤٢٥هـ -

٢٠٠٤م)، الجزء الأول، مادة (سنن)، ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، الجزء الثالث عشر، مادة سنن، ص ٢٢٦.

(٣) المرجع السابق، مادة سنن، انظر من ص ٢١٢٢: ٢١٢٥.

والمعنى المستخدم للسنة في البحث هو الطريق والقانون الذي حدده الله في صورة أوامر ونواهي ليسيير عليه البشر في حياتهم وتعاملاتهم وفق إرادتهم لضبط تصرفاتهم الاقتصادية مثل تجنب الربا، وضبط الجهد والعمل للحصول على الرزق، والتكافل بين الأفراد، وذلك للوصول للنتائج المرجوة من سن هذه القوانين.

ويجب أن نفرق بين القانون الإلهي (السنة) في مجال الطبيعيات وهي قوانين حتمية الحدوث - ماعدا الخوارق والمعجزات - ويسهل إثباتها بالوسائل والطرق العلمية (الملاحظة - التجربة - الإحصاء) مثلاً، وبينها في المجال الاجتماعي فهي متوقعة الحدوث عادة إذا توافرت شروط حدوثها، ولكن تحتاج لوقت طويل لإثباتها.

المطلب الأول

خصائص السنن

تحدث المفكرون الإسلاميون والعلماء عن خصائص السنن مثل الشيخ رشيد رضا^١، وقد ذكر فيها خصائص السنن بصورة متفرقة ومتداخلة، وكذلك الدكتور راشد سعيد شهو ان^٢ والدكتور حازم زكريا محبي الدين^١، وسنذكر بعضاً من خصائص السنن الاجتماعية:

(١) انظر تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، بجميع الأجزاء.

(٢) انظر: راشد سعيد شهو ان، السنن الريانية في التصور الإسلامي، الأكاديميون للنشر والتوزيع، طبعه أولى، (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

أولاً: الربانية والتوازن

" الرب: يطلق على الله تبارك وتعالى معرفاً بالألف واللام ومضافاً، ويطلق على مالك الشيء الذي لا يعقل مضافاً إليه فيقال " (رَبِّ الدِّينِ) و(رَبِّ المَالِ) " .^٢

" الرباني: العالم المتأله: العالم المعلم العامل الرأسخ في العلم والدين والجمع، فإنَّ حُرْمَ خصلة فليس رباني " .^٣

" وعلم ربوبي: منسوب إلى الرب على غير قياس " .^٤

" ووازنه: عادله وقابله. (وحاذاه): كان على زنته " .^٥

" وقوله تعالى: " وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ " (الحجر: ١٩): جرى على وزن من قدر الله لا يجاوز ما قدرة الله عليه، لا يستطيع خلق زيادة فيه ولا نقصاناً. " .^٦

والسنن الإلهية هي قانون الله الموزون منه سبحانه الحاكم لكونه على مراده، فقال تعالى: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (القمر: ٤٩).

(١) انظر: حازم زكريا محيي الدين، مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي (السيد محمد رشيد رضا نموذجاً)، دار النوادر، طبعه ثانية، (١٤٣٣هـ-٢٠١٢م).

(٢) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، مادة ر ب ب، ص ١٢.

(٣) أحمد رضا، معجم متن اللغة العربية، دار مكتبة الحياة بيروت، (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م)، المجلد الثاني، مادة "ر ب ب"، ص ٥٢٧.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة رب، ص ١٥٤٦.

(٥) أحمد رضا، معجم متن اللغة العربية، مرجع سابق، المجلد الخامس، مادة "وزن". ص ٧٥.

(٦) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مادة "وزن"، ص ٤٨٢٨.

وقال تعالى: " وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)" (الحجر: ١٩ - ٢١)، (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) أي: أنبت فيها من كل شئ معلوم ومقدر مما يحتاجه خلقه من الأشجار والنباتات لمعاشهم وأرزاقهم..... (وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) أي فما بالك لو أنزل الله المطر بغير حاجة خلقه لكان فيه ضرر لهم، ولو أنبتت لهم الأشجار والنباتات أكثر من حاجتهم لصعب عليهم ذلك.^١

والسنن الإلهية من أسرار هذا الكون التي أهداها الله لعبادة ليستطيعوا اكتشافه والتعامل معه في كل المجالات.. الطبيعيات والاجتماعيات، ويلاحظ أنّ السنن الإلهية موزونة ومترابطة في تناسق ملحوظ؛ وذلك لأنها ربانية الصنع. وكذلك نجد السنن " وحدة كليها مرتبطة بعضها ببعض أشد الارتباط، فالنظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها كلها نظم جزئية - أو أحداث صغيرة - داخل العملية أو النظام الحضاري والدائرة الكبرى، كما أنّ هذه الجزئيات ليست منعزلة التأثير بعضها في بعض، بل هي كالجسد الواحد وأساسها ومحورها الإنسان، وروحها العدل.^٢ والسنن الربانية جزء من القرآن الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى لقوله تعالى: " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)" (النجم: ٤، ٣) فتتصف بكل ما يتصف به القرآن بأنها من الوحي، وأنها ربانية الإصدار وموزونة الأحكام ومنضبطة ومتناسقة بعضها البعض؛ وذلك لأنها من الله تعالى الذي

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٨٧، ٨٨.

(٢) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارة وسقوطها، المعهد العالي للفكر الإسلامي (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، ص ٣٢.

"وضع للإنسان المنهاج الذي يتفاعل من خلاله مع أحداث حياته الواقعية، وهذا المنهاج هو طريق سعادته في الدنيا والآخرة."^١

ثانيًا: الثبات والاطراد

"(ثبت) ثباتًا وثبوتًا: استقر، (أثبت) الأمر حقيقه وصححه."^٢

"ثبت الشيء: جعله رأسحًا مستقرًا ودعمه وقواه ومكنه."^٣

"ثبت الشيء (يثبت ثبوتًا) دام واستقر فهو (ثابت) وبه سمي."^٤

"(واطرِد) تتابع وتسلسل، وعلى هذا قولهم: اطرِد الكلام أو الحديث: جرى مجرى واحدًا متسقًا."^٥

وقال تعالى: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الأحزاب: ٦٢) "أي لا يبدل الله سنته، بل يجريها مجرى واحدًا في الأمم."^٦، وهو المنهج الإلهي "الذي سنه للمؤمنين جميعًا وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطرد في غايته وأهدافه، هو منهج العصبة المؤمنة من قبل

(١) راشد سعيد شهو ان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، جزء أول، ص ١١.

(٢) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة ث ب ت، ص ٩٣.

(٣) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، ص ٣١.

(٤) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية ف المصباح المنير، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٥) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة ط ر د، ص ٥٥٣.

(٦) سعيد حوى، الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، طبعة ٢، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)،

الجزء الثامن، ص ٤٤٨٢.

ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون".^١

وثبات واطراد القوانين الإلهية هو أن تتكرر أحداث التاريخ إذا تكررت مقدماتها وتشابهه إلى حد كبير نتائجهما، ولذلك فهي لا تتخلف أبداً؛ وذلك لأن من ورائها سنناً ثابتة مطردة وضعها الخالق، والثبات هنا في السنن هو بمثابة صدور القانون الإلهي بطريقه نهائية، ولكي نستطيع فهم معنى الثبات والاطراد في سنن الله تعالى سنستشهد بما حدث في موقعة أحد لنثبت أن للسنن الإلهية والقوانين الاجتماعية الربانية ثباتاً واطراداً، فهي بمثابة قانون إذا تحققت مقدماته تشابحت نتائجه، فمثلاً نجد أنّ النصر يستلزم الصبر والطاعة، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران: ٢٠٠) " والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والاشواك. والمرابطة الإقامة على مواقع الجهاد وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء، ومن ثمّ يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل، وينوط بها الفلاح في هذا المضمار(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^٢. " ويأتي المؤمنون الخطأ في موقعة أحد عندما خالفوا إرشادات قائدهم رسول الله ﷺ، ونزلوا عن مواقعهم استعجالاً لنيل الغنائم، ويترتب على هذه المخالفة الهزيمة، وهذا يؤكد ثبات واطراد السنن؛ لأن مخالفتهم لقاعدة الصبر في الحروب والمرابطة على أماكنهم أدت بهم للهزيمة مع إيمانهم، فإذا التزم المؤمنون بأسباب النصر لفازوا به لا محالة؛ وذلك لأنّ نصر المؤمنين سنة ثابتة لقوله تعالى "

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م)، مجلد ٢، ص ٦٣١.

(٢) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٥٥١- ٥٥٣.

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " (الروم: ٤٧)، وقوله تعالى: " وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأُدْبَارُ لَمْ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) " (الفتح: ٢٢، ٢٣)، وهنا نجد سبحانه يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل، فأية سكينه؟ وأية ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقتهم واستقامتهم الاستقامة التي عرفها الله لهم، وأتعلق بتهيئة الجوالذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين.^١

وهنا نستطيع توضيح أن من سنته - سبحانه - نصر المؤمنين، وأن من سنته - أيضًا - النصر مع الصبر والمرابطة في الحروب، فنجد المسلمين خالفوا سنته في الصبر والمرابطة؛ فحسروا المعركة، وفقدوا اطراد سنة الله فيهم في نصرهم على الكافرين؛ وذلك لأن اطراد السنة - استمرارها - هو بشرط الاستدامة على قول الله في افعل ولا تفعل. والاطراد في السنن الإلهية يجعل الإنسان في حاله اطمئنان، ويساعده على البحث والتأمل، ويزيد من قدرة الإنسان على تسخير الكون والتعامل معه، سواء في السنن الكونية أو الاجتماعية؛ فالعالم في الطبيعيات مطمئن أنه إذا وضع الماء في درجة الغليان ستتحقق النتيجة بالغليان - مثلا - وكذلك في السنن الاجتماعية، ويجب أن نعرف أن اطراد السنن هو إرادة الخالق في كونه، وهو التنظيم الذي أراده الله لسير هذا الكون، فقال تعالى: " لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص ٣٣٢٧.

فَلَلِكِ يَسْبَحُونَ " (يس: ٤٠) " والأمر لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ويعلمها للناس كي لا ينظروا

الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة.^١

ونجد لثبات السنن واطرادها فوائد كبيرة، وهو أنها " بثبات القانون الإلهي تثبت النفس، وتطمئن، ويحيطها الاستقرار الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل أمرئ وما عليه، فيعتبر المبصر، ويجذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماه فيحجم أو يقدم مستنداً إلى ظنه لمصيره ومآله في دنياه وأخراه".^٢ فالثبات والاطراد للسنن يطمئن الإنسان للوصول لهدفه، طالما وجدت المقدمات فيطمئن الإنسان للوصول للنتائج المرجوة من هذه المقدمات؛ وذلك لأن المقدمات والنتائج ثوابت.

ثالثاً: العموم

" (عمّ) الشيء عموماً: شمل. (والعام) الشامل خلاف الخاص.^٣

العموم في السنن يعني أنها تجري على الجميع دون محاباة بين مسلم وغير مسلم، وأامة عن أمة، والأمثلة كثيرة في آيات الله تعالى.

(١) المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(٢) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)، ص ١.

(٣) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة ع م م، ص ٦٢٩.

قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (يونس: ٤٤) وهذه الآية ترشد إلى أن الظلم يأتي للإنسان من أعماله، وأن الخالق هو العدل المطلق، وصفه العموم في السنن هي أكبر دليل على هذا العدل.

قال تعالى: " لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا " (النساء: ١٢٣) ويفسر الشيخ رشيد رضا هذه الآية فيقول: " فبينه - عز وجل - بصيغة العموم، والمعنى أن كل من يعمل سوءًا يلحق جزاءه؛ لأن الجزاء بحسب سنة الله - تعالى - أثر طبيعي للعمل، لا يتخلف في أتباع بعض الأنبياء، وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون."^١

وقال تعالى: " أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ " (القمر: ٤٣).

فالعموم في السنن الإلهية هو ما يجعل بلاد الكفر تتفوق على بلاد الإسلام بتمسكها بالسنن في العلم والبحث وتصنيع السلاح ونحوها، وهي سنن الأخذ بأسباب التمكين، فممكنهم الله بالرغم من كفرهم لالتزامهم بسنن التمكين، وهذا هو العدل الإلهي الذي حدده الله لمن يتمسك بسننه، ومن أكبر الأدلة على العموم للسنن استفادة الغرب مما قدمه ابن خلدون من استخراج قواعد وسنن إلهية في مجال الاجتماع، فقد " استفاد غير المسلمين مما كتبه في ذلك، وبنوا عليه، ووسعوه، فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين."^٢

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٣٧٢.

(٢) حازم زكريا محيي الدين، مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي "السيد محمد رشيد رضا نموذجًا"، مرجع سابق،

وعموم السنن يجعل المؤمن حذرًا من التواكل على إسلامه، ويجعله في حالة عمل وبحث دائمين على أسباب النجاة، لأنه يعلم جيدًا أنه لا محاباة لأحد على حساب أحد، ولا نصرة لمتكاسل على عامل مجتهد، فمن يتمسك بأسباب النجاح فسوف ينجح وإن كان ملحدًا أو كافرًا؛ ليعلم المؤمن أن العمل والسعي والبحث عن السنن واتباعها هو طريق النجاة؛ لأن القرآن وجه للاعتبار بالأمم السابقة، والنظر لسنن الله - تعالى - في تقدير العواقب " التي تحل بالبشر على ما يصدر من سعيهم ونشاطهم وخطئهم وإصابتهم وطاعتهم ومعصيتهم وتمسكهم بالمنهج وتفريطهم فيه."^١

ونستطيع تطبيق خاصية العموم على واقعة أحد - أيضًا - وذلك لأن الخسارة جاءت للمؤمنين لعدم تمسكهم بأسباب النصر، ولولا عموم السنن لما كانت الخسارة للمؤمنين "فجاء القرآن يبين للناس أنَّ مشيئة الله - تعالى - في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة، وطرائق قويمه، فمن سار على سنته في الحرب - مثلاً - ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكبها خسر وإن كان صِدِّيقًا أو نبيًا، وعلى هذا يتخرَّج انهزام المسلمين في واقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي - ﷺ - فشجوا رأسه، وكسروا سنَّته".^٢ فلولا عموم السنن لما توصلوا لرسول الله، "فنجد في حادثة أحد الإرشاد عامًا، وأن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، وهي تدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة على الإسلام إذ قالوا لو كان محمد - ﷺ - رسولاً من عند الله لما نيل منه. فكأنه يقول

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٤٥٩.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٢١.

لهم: إِنَّ سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه كما هي حاكمة على سائر خلقه " ١، وهذا من عموم السنن الإلهية.

وأخيراً: " إِنَّ لسير الناس في الحياة سنناً يؤدي بعضها إلى الخير والسعادة، وبعضها إلى الهلاك والشقاء، وإنَّ من يتبع تلك السنن فلا بد أن ينتهي إلى غايتها، سواء كان مؤمناً أو كافراً كما قال سيدنا علي: إِنَّ هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم، وحُذِلتم بتفرقكم على حقكم " ٢.

المطلب الثاني

أنواع السنن

قسم العلماء السنن الإلهية لأقسام، ومنهم الشيخ رشيد رضا في تفسيره الشهير بتفسير المنار، والشيخ محمد الصادق عرجون في كتاب سنن الله في المجتمع من خلال القرآن.. وغيرهما من المفكرين. ويظهر من تقسيماتهم التصنيف التالي:

السنن الإلهية تنقسم لنوعين رئيسيين:

أولاً: السنن الخارقة

تحدثنا في المطلب السابق عن خصائص السنن وهي ربانيتها، وتوازنها، وثباتها، واطرادها، وكذلك عموم السنن الإلهية، وأنَّ هذه الصفات والخصائص للسنن هي من مقتضى عدل الله وإرادته المطلقة في كونه. ولكن الله - سبحانه

(١) المرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٢٣.

(٢) المرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٢٢.

وتعالى- إذا أراد أن يخرج كونه من هذه النواميس التي حددها بمشيئته لإحداث المعجزة - وهي الخروج عن المألوف، وهي الأمر الخارق للعادة كما يقول علماء العقيدة - فإنه على كل شئقدير.

قال تعالى: " إِمَّا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (النحل: ٤٠).

وقال تعالى: " إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ " (يس: ٨٢).

وعندما يخرج الله هذه السنن الإلهية من الثبات والاطراد والعموم والقوانين التي تحكمها تحدث الخوارق للعادات أوظاهرة السنن الخارقة، والتي يحدثها الله - تعالى - لنصرة نبي أولعقاب قوم أولإظهار قدرته - تعالى - أمام المؤمن والكافر.

ولهذه الخوارق أهمية في شعور البشر بعظمه الخالق وزيادة الإيمان " فإذا حدثت معجزة مخالفه للسنن أمام المؤمن فإن ذلك لا يثير عجبه أودهشته بقدر ما يثير فيه دلالة على الشعور بعظمة الله -عز وجل -، ويرى فيه دلالة على القدرة المطلقة، كما يرى في الأمور التي تحدث حسب سنن الله الجارية، وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة أنه يزداد إيماناً و يقيناً^١

ومن أمثلة المعجزات أوالخوارق قصة نبي الله إبراهيم - عليه السلام - في سورة الأنبياء، وقد حجب الله عن النار صفة الحرق، فقال تعالى: " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ " (الأنبياء: ٦٩)، وكذلك حجب قدرة السكين عن

(١) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في القرآن الكريم، وزارة الاوقاف المجلس الاعلى للشئون الإسلامية، دراسات إسلامية، عدد (١١١)، (رمضان ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، ص ٢٤.

القطع في قصة نبي الله إبراهيم لابنه إسماعيل - عليه السلام - في سورة الصافات فقال تعالى: "وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ" (الصافات: ١٠٧).

وأيضاً ابتلاع الحوت ليوونس ونجاته بأمر الله كما في سورة الأنبياء "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)" (الأنبياء: ٨٧، ٨٨).

والقصص القرآني يزخر بالخوارق الخارجة عن الناموس الكوني، ويكون ذلك إما لإثبات نبوة نبي، أو لالتنبية لقدر النبي عند الله، أو لإثبات القدرة الإلهية عمومًا، وخروج السنن عن ثباتها، واطرادها وعمومها يعد هزة لأصحاب العقول المفكرة؛ وذلك لأن "معجزات الأنبياء - عليهم السلام - لم تكن لتؤدي دورها في إقناع الناس إلا على قاعدة ثبات السنن وعمومها، أي لولا ثبات السنن وعمومها واطرادها لما كان هناك أي قيمة لأي خرق أو تغيير في السنن لأن اعتياد الناس على هذا الخرق يبطل احتجاج الرسل بهذه المعجزات، وبالتالي تفقد هذه المعجزات قيمتها والهدف منها".^١

ثانيًا: السنن الجارية

هذا النوع من السنن ينقسم إلى أنواع؛ منها ما يخضع للإجبار، ومنها ما هو اختياري، ويسمى النوع الأول:

(١) حازم زكريا محيي الدين، مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، السيد محمد رشيد رضا نموذجًا، مرجع سابق، ص ١٥، وانظر تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار، ط ٢، دار المعارف، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)، (١١/٢٢٧ - ٢٨٨).

(١) السنن الجارية الكونية:

وهي التي تخضع للإجبار الإلهي، مثل حركة الكواكب والنجوم، قال تعالى: " لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس: ٤٠) وهذا النوع من السنن لا يتخلف أبداً إلا بإرادة الله ولغرض ما، وهو ما نطلق عليه الإعجاز، وقد سبق شرحه.

ويمكن تعريف السنن الجارية الكونية بأنها: " تلك القوانين التي تحكم نظام الدنيا، ونراها منتشرة في الكون وفي الحياة وفي سلوك الإنسان على السواء، وبهذه السنن الجارية تدور الكواكب في مداراتها لا تتخلف عن دوراتها، ولا يقع بينها التصادم أثناء حركتها، ولا يخرج الواحد منها عن مداره، ولهذا الكواكب وظائفها وآثارها كلّ في حدود ما خُلق من أجله "١.

ومن هذا النوع ما هو يتصل بالبشر، وما هو قدري، أي ليس للإنسان تدخل فيه مثل الولادة والنمو والموت والحياة والأوصاف الخلقية، وكل ما هو غير إرادي بالبشر. وهذا النوع - أيضاً - يوجد منه معجز مثل ولادة نبي الله عيسى، فقال تعالى على لسان العذراء مريم: " قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا " (مريم: ٢٠)، وقال تعالى: " قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا " (مريم: ٢١)، وهذا العلم "هو علم الفطرة، ويقابله في عرف الثقافة اليوم ما يسمونه بالعلوم الطبيعية، أي علوم ما طبعت عليه الأشياء، فالعلوم الطبيعية وعلوم الفطرة وعلم سنن الله الكونية كلها بمعنى، إلا أن هذا الاسم الأخير يمتاز عن الاسمين قبله بتوكيده علاقة المخلوقات بخالقها، والفطرة بفطرها، فضلاً عن اشتراكه

(١) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٢.

مع الاسمين الآخرين في توكيده طبائع المخلوقات نفسها، ففي العلوم الطبيعية يبحث عن طبائع الأشياء حباً في الوقوف على حقيقتها من ناحية، والانتفاع بها في الحياة من ناحية أخرى، أما علم سنن الله الكونية فيبحث في طبائع الأشياء من الناحيتين السالفتين، وأيضاً من ناحية دلالة هذه الأشياء وطبائعها على فاطر الكون.^١ ونستطيع أن نقول أن الفطرة في القرآن الكريم كما ذكرنا بها المولى تعالى في آياته الحكيمة " فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " (الروم: ٣٠).

" وعلم سنن الله الكونية إذا فهم على إطلاقه يشمل المعلوم من العلوم الطبيعية كلها من طبيعة وكيمياء وطب وحيوان ونبات وفلك ونفس..... إلخ، بل يذهب إلى ما وراء ذلك، ويشمل ما يمكن أن ينشأ في المستقبل من علوم لا يعرفها الإنسان اليوم"^٢، وكل هذه السنن جعلها الله - تعالى - ثابتة لمساعدة الإنسان على البحث فيها وتسخيرها والانتفاع بها حتى يستطيع تحقيق فكرة إعمار الأرض.

وقد حث الإسلام على التفكير والتدبر في الكون والبحث فيه والسير فيه لاكتشافه وللتنقيب عن أسراره فقال تعالى: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (الجاثية: ١٣)، " قُلْ

(١) محمد أحمد الغمراوي، في سنن الله الكونية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة أولى (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م)،

ص ١.

(٢) المرجع السابق، ص ١.

سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (العنكبوت: ٢٠).

٢) السنن الجارية الاجتماعية:

هي سنن تخضع للاختيار، وهي الأشياء القائمة على إرادة الإنسان، ويكون الشخص فيها له اختيار، اما بالطاعة أو العصيان، ونستطيع أن نقول أن للفرد تأثيراً فيها وتفاعلاً معها بقصد وقوعها أو منعها أحياناً، وأنها "تلك التي تضبط سلوك الناس الصادر عنهم باختيارهم، ويشعر الإنسان معها أنه قادر على الإحجام والإقدام، وأنه يستطيع الفعل كما يستطيع الترك، ولكنه حين يحجم أو يقدم لا يحصل على نتيجة واحدة، وإنما هناك نتائج تترتب على الإقدام وأخرى تترتب على الإحجام، أي أن هناك نتائج تشبه أن تكون محتومة تترتب على كل من الفعل والترك." ^١ وهي الأشياء القائمة على إرادة الإنسان، وفيها يكون له الاختيار ما بين الطاعة والعصيان، وهذا النوع يمكن أن نطلق عليه السنن الجارية في الأفراد لأن لهم إرادة، وتدخل فيها، ويدخل في هذا النوع سنن اجتماعية، وسنن تاريخية، وسنن نفسية، وسنن أخلاقية، وهذا النوع من السنن هو ما يخص دراستنا، حيث إننا ندرس سنناً اقتصادية، وهي نوع من السنن الاجتماعية.

إنَّ القرآن يدعو لحضارة تزدهر في كل المجالات الروحية والأخلاقية والطبيعية، ولكن يصاحب هذه الدعوة قيم ومعايير دينية وأخلاقية لضبط هذا التطور والازدهار، فمثلاً أحلَّ اللهُ البيع وحرَّم الربا، فقال تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا

(١) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص ٣٧.

سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: ٢٧٥)، وكذلك حرم الله - تعالى - الاحتكار والاكتمال والإسراف والترف، وهي أفعال تفتقر للعدل والأمانة، واللذان يحققان الامن الاقتصادي، وكذلك تندرج في السنن الاجتماعية؛ وكلها تصرفات فيها الإقدام والإحجام. والسنن الجارية الاجتماعية عبارة عن القوانين الإلهية بالجزاء الذي يكون متوافقاً مع العمل ومتناسباً معه، ونستطيع القول بأن السنن الربانية هي القانون الإلهي الموجه لتصرفات الإنسان؛ فإن أراد الجزاء تصرف بالطريقة التي تؤدي لنيل هذا الجزاء، وإن خاف من البلاء تصرف بالطريقة التي تبعده عن البلاء، وبذلك تكون السنن الربانية موجهاً عملياً لتحرك الإنسان نحو الهدف الذي يخططه ويريده في حياته، ويجب على الإنسان المسلم أن يسرع في استخراج هذه القوانين؛ لأن أي تباطؤ في استخراجها يؤدي لتأخر البشرية؛ لأن عدم الفهم لهذه القوانين يجعل الإنسان يفسر التاريخ على أنه مجموعة من الأحداث ليس بها عبرة ولا دروس مستفادة، وهذا ما أنكره القرآن الكريم الذي نبه العقل البشري إلى وجود سنن وقوانين يجب اكتشافها والتعرف عليها حتى تستطيع أن تتحكم بالمجتمع والطبيعة، وإلا تحكمت هي بك. فقال تعالى: " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " (الأحزاب: ٦٢)، وقال تعالى: " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ " (آل عمران: ١٣٧) ، وأراد الله - سبحانه - أن يتقرب إليه المؤمنون بالأعمال على سنن الصالحين، ويجب أن ينظروا إلى " من تقدمكم من الصالحين والمكذبين، فإذا أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم، وإن سلكتم

سبل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم، وفي هذا تذكير"^١، ويكون هذا التقرب لله بالسعي والعمل والاجتهاد لإعمار الأرض بواسطة خليفه الله عليها، فقال تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " (البقرة: ٣٠).

وأخيرا فجميع أنواع السنن الكونية أو الاجتماعية كلها ترجع إلى مصدر واحد، وهو علم الله - تعالى - وإرادته وقدرته وتصريفه للوجود على حسب عنايته وحكمته، وذلك لأنه " لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ " (فصلت: ٤٢)، والسنن طبيعية أو اجتماعية تخضع للإثبات، وقد أراد الخالق - سبحانه وتعالى - تقريب الفكرة للذهن البشري عن طريق اقتران أنواع السنن ببعضها في آيات القرآن الكريم، و" كثر أن نبه القرآن العقول إلى الحكمة التي اقتضت المناسبة بين خلق ما في السماوات والأرض وما بينهما متلبسًا بالحق، وبين جزاء المكلفين على أعمالهم على القانون الذي أقامته الشرائع لهم في مختلف أجيالهم وعصورهم وبلدانهم إلى أن عمتهم الشريعة العامة الخاتمة شريعة الإسلام"^٢

قال تعالى: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) " (آل عمران:

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٢.

(٢) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٨.

١٩٠ - ١٩٢)، ويلاحظ أن في الآيات ارتباطاً بين السنن الكونية المتمثلة في السماوات والأرض، وبإدخال المذنب لجهنم، وذلك يكون بعد عمل السيئات بعدم اتباع السنن الاجتماعية من أعمال تنافي السنن مثل الربا والاكتناز والترف والإسراف وغيره، و"سنن الله - بصفة عامة سواء أكانت كونية أم بشرية - مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض، وتتماسك في اتساق حتى تكون نظاماً كونياً متناسقاً أبدع ما يكون التناسق"^١

المطلب الثالث

أهمية السنن

هناك أهمية كبيرة لدراسة السنن واستخراجها من النصوص الشرعية وذلك لتجديد الفكر الديني لدى المسلمين، حيث يجب استخراج السنن من القرآن وهي تكون أحيانا صريحة مثل قوله تعالى: " وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: ٢٧٥)، والبحث في أحداث التاريخ والتأمل في صيرورته وتحليلها واكتشاف أسبابها وعوامل تطورها قال تعالى: " أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ " (غافر: ٢١)، ثم نستخلص القوانين، ونعتبر وننتفع بها.

(١) محمد الصادق عرجون، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، (١٣٩٧هـ -

١٩٧٧م)، ص ١١٠.

وهناك فوائد من معرفة هذه السنن سأحاول توضيح جزء منها في النقاط التالية:

أولاً: معرفة السنن هي جزء من معرفة الدين

السنن الإلهية مودعة في القرآن الكريم، والبحث عنها واستخراجها هو بحث ودراسة في الدين، ومعرفة السنن جزء من معرفة الدين، فهي القوانين التي توضح لنا الطريق الصحيح والطريق الخطأ والجزاء المترتب على السير في أي منهما.

ويجب أن نعرف أنّ " استخراج قوانين لها هذه القوة وذلك الأحكام - بحيث تصير صالحه لكل زمان ومكان - يتوقف حقاً على تجارب علمية دقيقة، وهو أمر لم يتحقق لأحد في ذلك الزمان ولا فيما جاء بعده؛ ولهذا لم يكن الناس يصدقون أن هذا من عند محمد - ﷺ - فكانوا يقولون: درست. ولكنهم لم يستطيعوا أن يعينوا المدرسة التي درس بها، فأحلم الله عليها بقوله: " اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) " (العلق: ٣ - ٥). أي أنّ مدرسته هي الوحي."

وإن استطاع المسلم أن يدرس دينه ويفهمه، ويستخرج سننه وقوانينه، ويسير عليها، ويكمل عليها بقوانين وضعية لما يستجد من الأمور، فسوف يشعر بالفخر؛ وذلك لأن " السنن الأساسية التي تحكم الحياة والأحياء عندهم

(١) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص١٢٥، ١٢٤، وانظر: نظريات الإعجاز القرآني، ص١٢٦.

يقينية؛ لأنها ليست من وضع الإنسان، إنما يستمدونها من الوحي من علم الله المنزه عن الخطأ، وأقداره النافذة، وقد بسطها القرآن وبينتها السنة^١.

ثانيًا: معرفة السنن والعمل بها سبيل لتحقيق الإعمار والتقدم

قال تعالى في محكم آياته: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ " (الدخان: ٣٨). وقال تعالى: " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعِفَرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ " (هو د: ٦١).

ومن هاتين الآيتين وبالربط بينهم يتضح لنا:

أنَّ وراء هذا الخلق العظيم خالقًا مقتدرًا منظمًا لهذا الكون على سنن وقوانين، بحيث يخدم بعضها بعضًا لتحقيق فكرة الإعمار عن طريق الإنسان الذي اختاره الله وأمده بالعقل ليستخلفه لإعمار هذا الكون الكبير، فالكون - بكل مكوناته من سماء وأرض وكواكب وفلك وأشجار وحيوان وإنسان ومواد مختلفة - خاضع لقوانين إلهية تنسجم مع بعضها البعض لخدمة هذا الإنسان المسؤول عن هذا الإعمار. وعلى هذا الإنسان أن يبحث بعقله ليكتشف القوانين في شتى المجالات التي تساعد على هذا الإعمار والنهضة.

" والقرآن الكريم يرد المسلمين إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور فهم ليسوا بدعًا في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس^٢"

(١) المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٤٧٨.

ونلاحظ أنَّ أمة الإسلام في سابق عهدها قد تحضرت وتقدمت بفهمهم وإدراكهم لهذه السنن، وكان فقهاء الجيل الأول قد " استنبطوا منها عددًا من النظم التشريعية. ودارس التاريخ الإسلامي يعلم تمام العلم أنَّ ما يقرب من نصف انتصارات الإسلام - بوصفه قوة اجتماعية وسياسية - إنما كان الفضل فيه لما تحلى به هؤلاء الفقهاء من عمق ودقه في التشريع"^١، وهذا يعني أنَّ فهمنا فهم صحيح وتطبيقنا لهذا الفهم يزيد من تقدمنا، ويسهل على الإنسان حينئذ إعمار الأرض على مراد خالقها. ونلاحظ أنَّ الغرب استفاد من الحضارة الإسلامية والعلوم القرآنية عن طريق نقلهم لنصوص علماء الإسلام كابن خلدون وغيره وتمحيصها ودراستها واستخراج علم الاجتماع منها، بل وتطبيقه والاستفادة منه، " ويجب على المسلمين اتباع السنن الإلهية في كل المجالات حتى يضمنوا النجاح في كل المجالات، والتقصير في تحصيل السنن لن يؤدي بالأمة إلا للفشل؛ وذلك لأن خالق الكون هو أعلم بخلقه، وهو من أرشدنا لكيفية إدارته، والواقع يبين لنا أيضًا أنَّ المسلمين عندما أغفلوا هذه الحقيقة وركنوا إلى التواكل والتقليل من شأن العلم دارت عليهم الدائرة، وتراجعوا حضاريًا، وتوقفوا، وسار غيرهم في طريق العلم دون توقف."^٢

(١) محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة: عباس محمود، دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع، ط ٢،

(١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ص ١٩٨.

(٢) محمود حمدي زقزوق، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، السنن الإلهية وأثرها في نفضة الأمم، المحاضرة الافتتاحية للمؤتمر، برعاية د. على عبد الرحمن،

(٢٩، ٢٨ أبريل ٢٠٠٣)، ص ١٥.

ثالثًا: العلم بالسنن يعطي الإنسان قيمًا معنوية

"الإنسان بدون القيم المعنوية يهبط إلى أسفل السافلين في الحياة الحيوانية، ويعيش عيشة الضنك والشقاء، ولعل الحضارة الغربية المعاصرة هي عنوان هذا الانحراف والانزلاق، لقد قامت الحضارة الإسلامية على أعظم قدر من القيم التي تقوم عليه حضارة في تاريخ البشرية، وعلى أقل قدر من المظاهر المادية التي كانت مجموعة من الخيام وبيوت الطين وبساتين النخل ومجموعة من الخيل والإبل والأغنام والسهام والسيوف، ولكن هذه القيم صنعت رجال الحضارة الذين استطاعوا أن يعوضوا النقص المادي بفضل البناء العقيدي للإنسان والتطور الفكري للحضارة. وكل الحضارات الثانوية لم يستطع الكم الهائل من الإنتاج المادي الذي وصلت إليه أن يعوض لديها التخلف الروحي والمعنوي"^١.

وتكون القيم المعنوية حاکمة في كل التعاملات، وما يخصنا منها هنا هو القيم الاقتصادية، فيمارس الإنسان التجارة ولا يغش ولا يحتكر، ويتداول النقود ولا يأكل الربا ولا يكتنز، ويتعامل بالموازين ولا يطفف، ويكسب الأموال، ويتكافل مع الفقراء، ويعيش في سعة ولا يسرف ويتعد عن الترف، كل هذه قيم معنوية يعطيها الفهم الصحيح للسنن وتطبيقها.

فبدون القيم المعنوية تنشأ حضارات مادية هشة، حتى وإن كانت قوية اقتصاديًا، ولكنها حضارات بلا أخلاق يسهل القضاء عليها؛ لأن حضور

(١) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص ٥٢، ٥١، وانظر: محمد قطب،

مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص ٢٤٨-٢٤٦.

الأخلاق في بناء الحضارة يعطيها قوة واستمرارية تدفعها للتقدم دائماً. ويلاحظ أنّ من أسباب تخلف الحضارة الإسلامية تديني القيم المعنوية مثل ظهور الترف والإسراف؛ لذلك علينا الالتزام بالسنن الإلهية وما تحمله من قيم معنوية للوصول لما نبتغيه لأمتنا الإسلامية. قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " (الأعراف: ٩٦)، ويلاحظ في الآية الربط بين التقوى والإيمان، وهما من القيم المعنوية بزيادة الرزق. وكذلك في كل مجالات الحياة والتي تغطيها السنن الربانية، فمثلاً "من القيم المعنوية تكون السياسة ذات الأخلاق القائمة على البر، والتقوى، والحياء، والتواضع، وعدم التكبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحق، والعدل، والصدق..... وفي الناحية الاجتماعية تكون علاقات الناس قائمة على التواد والتحاب والتكافل والتعاون والوفاء بالمواثيق، ويستوى في ذلك المواثيق والعهود الفردية والمعاهدات الدولية. وإقامة الحياة كلها على هذه القاعدة الأخلاقية جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة"

رابعاً: العلم بالسنن يحمي المسلمين من الأزمات ويخرجهم منها

قال تعالى: " أُولَٰئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (الروم: ٩)، وقال: " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ " (آل عمران: ١٣٧). وقد حث الله - تعالى - المؤمنين على السير في الأرض، والاعتبار من قصص الماضين للتعلم مما حدث لهم، وخصص الماضين هي "

(١) المرجع السابق، ص ٥١، وانظر: محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص ٢٤٣.

التاريخ " ومن لم يهتم بدراسة وفهم التاريخ يعرض نفسه للسقوط في أخطاء السابقين، وعلى عكس ذلك فالذي يتعلم ويدرس قصص السابقين يستطيع أن يخرج من الأزمات بما تعلمه من أخطاء الآخرين. قال الأستاذ الإمام محمد عبده "والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي. نعم إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ويفيده عظة واعتباراً " ١ .

وقد وجه القرآن الكريم إلى ضرورة وأهمية فهم حركة الوجود وقوانين الكون وطبائع الحياة وسنن العمران والتاريخ ومناهج الاستخلاف وسبل التحضر، ونبه إلى أن فهمها يحمي من الوقوع في أخطاء السابقين، وكذلك يحمي من نفس العقاب الذي ناله السابقون.

والقصص القرآني جزء من الدين، وكذلك هو شرح لأجزاء من التاريخ، والعلم بالتاريخ هو سبب للخروج من الأزمات، وإذا نظرنا للتاريخ نظرة تدبر واعتبار وتأمل فسوف نستطيع معرفة سبل الخروج من كل أزماتنا بالخبرة المستفادة من قصص القرآن وسنن أحداثها.

خامسا: السنن تنفي وجود الصدفة

قال تعالى: " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (القمر: ٤٩). وقال: " وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) " (الحجر: ٢٠، ٢١).

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٢٢.

ويقول سعيد حوى: " إنا خلقنا كل شى بقدر، أي بتقدير سابق، أو خلقنا كل شى مقدرًا محكمًا مرتبًا على حسب ما اقتضته الحكمة، أو مقدرًا مكتوبًا في اللوح المحفوظ، معلومًا قبل كونه، وقد علمنا حاله وزمانه"،^١، والسنن نستخرجها من القرآن الكريم، والقرآن ينفي وجود الصدفة بآياته الصريحة، ويؤكد أن لهذا الكون خالقًا ينظمه بقدر معلوم وبدقة يثبتها العلم يومًا تلو الآخر، وهل يكون لكون بهذه الدقة أن يكون محض صدفة؟

" ليتخيل العاقل أن الكون أو العالم يسير فوضى وبصدفة عشوائية دون نظام ولا قانون ولا مدبر - كما تعتقد بعض المذاهب الفلسفية الضالة - فكيف تكون الحياة. وإن استقلالية الكون وانفصاله عن الخالق وسير حركة التاريخ تلقائيًا قضيه ساورت القدماء من فلاسفة الحضارات الغابرة، وكان الاعتقاد سائدًا إلى عهد قريب، أولعله مازال قائمًا وأن للكواكب والنجوم والافلاك إرادة ذاتية، بمعنى أنها قادرة على تحريك نفسها بنفسها، وعلى التأثير في مجرى الحياة حولها"^٢.

وقد أنكر القرآن الكريم هذا المعنى، وأكد أنّ سير هذه الكواكب والنجوم بتنظيم خالق هذا الكون، فقال تعالى: " لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس: ٤٠)، وقال سعيد حوى في تفسيره: " ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار لا يتجاوزه في جريانه أودورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة. فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر نحو ثلاثة وتسعين مليونًا من الأميال. والقمر يبعد عن

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، مرجع سابق، الجزء العاشر، ص ٥٦١٧.

(٢) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص ٥٢، ٥٣.

الأرض بنحو أربعين ومئتي ألف من الأميال..... وهذه المسافات - على بعدها - ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا.... وقد قدر الله - خالق هذا الكون الهائل - أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب، ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع^١، ونجد في آيات القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تدل على السنن الكونية، وتحدث عن السماوات والأرض وحركة الكواكب والنجوم، وكلها آيات ومعان تنفي وجود الصدفة في الكون. ولا يعني عدم معرفتنا بالسنن الكونية أن نقر الصدفة أبداً، " والحق أن الكون بُني على قواعد ونظم، فلم يترك أمر تكوينه ومجرى الأحداث فيه للمصادفة أولاً هو، وتعرف هذه القواعد والنظم بالقوانين الطبيعية أو السنن الربانية التي لا تتغير ولا تتبدل، وما أمر السنن في نظام الكون والحضارة إلا كأمر القوانين في نظام الدول والحكومات، بل أدق وأعدل."^٢

سادساً: السنن تنفي فكرة الصراع

قبل أن نتحدث عن فكرة الصراع نحاول توضيح الفرق بين "الصراع" و"الاختلاف" فالصراع يعني المقاتلة.

(صرع) الصرع: الطرح على الأرض، وخصه في (التهذيب) بالإنسان.^٣

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، مرجع سابق، جزء ثامن، ص ٤٦٤٣.

(٢) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، مجلد ثاني، مادة صرع، ص ٢٤٣٣.

أما الاختلاف فهو سنة ربانية في الكون وبين البشر، فقال تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (هو د: ١١٨)، وهناك دعاة لفكرة الصراع يدعون أن الصراع يؤدي للتقدم، وهم لا يعرفون إلا السنن المادية البحتة، والتي تكون التغيرات بها كمية " لذا ليس بغريب عند الذين يجهلون سنن الأنفس والآفاق أن يحركوا العدا والبعضاء بين الناس ويتبنوا الصراع والاقتيال من أجل المادة كمنهج لدراسة حركة التاريخ وتصادم الهوى والتعقل والرغبة والإرادة والظن واليقين داخل النفس يؤدي إلى القلق والاضطراب والحيرة والشك وداخل المجتمع، يؤدي هذا التصادم والتضارب إلى النتيجة نفسها على المستوى الجماعي، ومع هذا يعتقد دعاة الصراع أن هذه النزاع الذاتية هي الأصل، ويجب تقويتها في النفس والمجتمع ليقوى النشاط والحيوية في الأمة، والحق أن هذه النظرة عامل تفكك يذهب بقوة الأمة"١.

ولكن في الفكر الإسلامي المدرك للسنن الإلهية يكون الأمر مختلفًا. فالإسلام يدعو إلى التقارب والتعاون على الخير والإيثار والبر والتقوى والتمسك بشرع الله حتى لا يختلف المسلمون؛ لأن لديهم منهجًا يجمعهم يعودون إليه إذا اختلفوا ليحكم بينهم.

قال تعالى: " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " (آل عمران: ١٠٣).

(١) محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، مرجع سابق، ص ٥٨.

وقال: " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (الأنعام: ١٥٣).

وقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا " (النساء: ٥٩).

وهنا يظهر دور فهم وحسن تطبيق السنن الإلهية، والتي يؤدي فهمها مع حسن تطبيقها لنبد فكرة الصراع، إذن إذا تعلم المسلم السنن وأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى النجاح فسوف يصل إلى المبتغى من سعيه بدون أي صراع ولا عداة بين البشر، حيث إنَّ المسلم متيقن أنَّ رزقه بيد خالقه.

أخيراً، لما كانت معرفة واستكشاف السنن الإلهية من الأهمية للتمكين والاستخلاف والإعمار فكان يجب الاهتمام بها بقدر أهميتها ومكانتها " وليس من المعقول أن يغيب هذا المفهوم العظيم وهذا المصدر الإلهي الغني للقوة والاقتماد والمكنة والفعالية عن وعى الأمة، وعن قرائح وعقول جموع علمائها ورجالها الذين حملوا رسالاتها الحضارية والاستخلافية للعالم عندما فهموا هذه السنن، وسخروها، وانسجموا في فهمهم وممارساتهم معاً لردح طويل من الزمن^(١)، وذلك لأن كمال وتفوق الأمم يأتي بدراستها للسنن الكونية والاجتماعية، وتكون الدراسة والتمحيص والتدقيق للتعلم من السابقين واستنتاج القوانين التي تؤدي لنتائج ايجابية، وإن كان لأمة الإسلام قوانين وسنن ربانية جاء بها كتابها العزيز، فهذا يجعلنا نقول أن " كمال الأمم

(١) عبد العزيز برغوث، قضيه السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر، ضمن مجلة إسلامية المعرفة، السنه الحادية عشرة، العدد ٤٤، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، ص ٦.

هو أن تجمع في فقهها وتطبيقاتها بين (السنن الكونية) الماضية على الكون وما فيه ومن فيه (والسنن التشريعية) الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة للفرد والجماعة على هذه الأرض والسعادة الأبدية في الدار الآخرة"^١، وكتابنا وتعاليمه زأخر بالقصص القرآني والعبر التي نستطيع استخراج القوانين السننية منها؛ وذلك لأن " القرآن يربط ماضى البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها."^٢

(١) مجدى محمد محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٤٧٩.

المبحث الثاني

السنن وتأثيرها على التطور الاقتصادي

قد تحدثنا في المبحث السابق عن معنى السنن وأهميتها، وسنتحدث في هذا المبحث عن ارتباط السنن بالاقتصاد، وتأثيرها على عملية التطور الاقتصادي، وكان يجب أن نتعرف على تصنيف الدراسات الاقتصادية، ثم نعرف علم الاقتصاد، ثم نعرف التطور، ونوضح علاقة السنن بالتطور الاقتصادي. وذلك عن طريق عدة نقاط؛ منها دور الباحث الاقتصادي في عملية كشف السنن واستخراجها وتوضيح أن معرفة السنن هي جزء من الدين، وأنه لا يوجد انفصال بين الدين والاقتصاد، وأن الوصول للتطور المطلوب لا يتم إلا بالتمسك بالسنن؛ لأن السنن تضبط التطور، وتؤدي إلى إعمار الأرض، ونوضح أيضًا أن السنن يمكنها تحديد النشاط الاقتصادي في المجتمع، وسوف يتم ذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: تصنيف الدراسات الاقتصادية وشرح بعض المفاهيم.

المطلب الثاني: الاقتصاد في الإسلام ودور الباحث الاقتصادي.

المطلب الثالث: علاقة التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية.

المطلب الأول

تصنيف الدراسات الاقتصادية وشرح بعض المفاهيم

أولاً: تصنيف الدراسات الاقتصادية

" تصنف الدراسات الاقتصادية إلى فروع هي: المذهب الاقتصادي، والنظام الاقتصادي، وعلم الاقتصاد. يحدد المذهب المنطلقات الأساسية للمجتمع، إنَّها بمثابة الرؤية الكلية في كل مناحي الحياة، ومنها ما يتعلق بالاقتصاد، وهذا الأخير هو الذي يعرف باسم المذهب الاقتصادي (وفي هذا الجزء تكون مرحلة استخراج السنن من كتاب الله تعالى)، والنظام الاقتصادي هو الشكل التطبيقي للمذهب الاقتصادي، والذي تترجم فيه أصول المذهب إلى إجراءات، فتطبيق المذهب الاقتصادي في شكل نظام اقتصادي يوجد واقعاً اقتصادياً، بينما علم الاقتصاد مهمته تفسير هذا الواقع الاقتصادي وكشف الارتباطات القائمة بين متغيراته الاقتصادية؛ لذا فإن المذهب الاقتصادي والنظام الاقتصادي وجهان لعمله واحدة."^١

ويجب أن نفرق بين النظم الوضعية الاقتصادية والتشريعات الإلهية في مجال الاقتصاد.

فالأولى " من صنع الإنسان نفسه، فهو الذي ابتدعها وخلقها وشكلها ووجهها هذه الوجهة أوتلك؛ ومن هنا فهي تختلف عن الأديان السماوية التي أنزلها الله - سبحانه وتعالى - لتنظيم الكون البشري. ومعنى آخر فليست النظم الاقتصادية عقائد غير قابلة للتغيير والتبديل، وإنما هي نظم مرنة قابلة

(١) رفعت السيد العوضي، الوسطية الاقتصادية في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، (١٤٣٤هـ).

- (٢٠١٣م)، ص ١٨٥.

للتغيير طالما أن الإنسان نفسه - مبدعها وخالقها- هو نفسه قابل للتغيير، فالإنسان في حياته العادية يسرُّ اللوائح والقوانين، ويصدر مختلف التشريعات والإجراءات، ثم هو يعلن الثورة المسلحة أو الثورة السلمية من وقت لآخر^١.

وأما الثانية وهي التشريعات الاقتصادية الإلهية في الإسلام فهي مبادئ اقتصادية أخلاقية عامة؛ وذلك لأن " القرآن والسنة لم ينصَّ على نظرية أو تطبيق اقتصادي معين، وإنما نص القرآن والسنة على أصول ومبادئ اقتصادية معينة صالحة لكل زمان وغير قابلة للتغيير أو التبديل، وإنه بناء على هذه الأصول والمبادئ الاقتصادية الإلهية المتفق عليها نستخلص منها على المستوى النظري والفكري نظرية أو نظريات اقتصادية معينة، وعلى المستوى العملي والتطبيقي نظامًا أو نظامًا اقتصاديًا معينًا، وهذه النظريات أو النظم الاقتصادية اجتهادية، ومن ثمَّ فهي متعددة، وتختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا تعتبر إسلامية إلا بقدر تعبيرها عن الأصول والمبادئ الاقتصادية التي وردت بنصوص القرآن والسنة ولا تتجاوزها"^٢، وإن كانت هذه المبادئ تختلف في فهمها ومحاولات تطبيقها من وقت لآخر، ومن مكان لآخر، ومن وضع اقتصادي لوضع اقتصادي آخر.

ثانيًا: ماهية علم الاقتصاد

(قصد): في النفقة: لم يسرف ولم يقتر، ويقال: اقتصد في النفقه.

(الاقتصاد): علم يبحث في الظواهر الخاصة بالإنتاج والتوزيع.^٣

(١) صلاح الدين نامق، النظم الاقتصادية المعاصرة وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص ١٣.

(٢) محمد شوقي الفنجري، المذهب الاقتصادي في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠٠٦ م)، الطبعة الرابعة، ص ١٨.

(٣) المعجم الوسيط، تأليف مجموعه من الأساتذة، مرجع سابق، مادة قصد، ص ٧٣٨.

و"علم الاقتصاد هو العلم الذي يدرس الظواهر الاقتصادية ويحللها بقصد استخلاص القوانين الاقتصادية التي تحكمها، كقانون تناقص المنفعة، وقانون الغلة المتزايدة، وقانون العرض والطلب، وقانون أقل مجهود أو أقل تكلفة. فهو ذو طابع نظري، ويدرس ما هو كائن فعلاً ولا علاقته له بالأخلاق أو السياسة أو اتجاهات الدولة الاقتصادية أو مفهوم المجتمع لفكرة العدالة" وبهذا التعريف نستطيع أن نقول أنه علم محايد لا دين ولا جنسية له، وذلك بالنظر إليه كعلم، ولكن أحيانا يتأثر الاقتصاد بالثقافة السائدة في المجتمع، ومن أهم عناصرها الدين، فالإقتصاد في ظل الثقافة المسيحية مختلف عن الإقتصاد في ظل الثقافة الإسلامية.. وهكذا.

ثالثاً: ماهية التطور

قد سبق شرح ماهية التطور في المبحث الأول ص ١٣

رابعاً: ماهية التطور الاقتصادي

التطور هو التغيير المستمر، فعندما نقوم بدراسة الظواهر الاقتصادية، ثم نقوم بتطوير النظم الاقتصادية لتلافي عيوب هذه النظم، عندئذ نستطيع أن نتلاشى عيوب هذه النظم وتطويرها وتغييرها، وحتى نستطيع التطوير والتغيير فإن هذه "النظم الاقتصادية المعاصرة - التي هي صدئ للقيم الإنسانية والبيئة والظروف التاريخية- لا بد وأن تكون نظماً مرنة قابله للتغير، فهي لا تنشأ تلقائياً وبشكل متشابه، ثم هي لا تنشأ بفعل قوى الطبيعة، وإنما تظهر عن طريق التفاعل الخلاق داخل البيئة ذاتها بين وسائل الإنتاج والقوانين والتشريعات

(١) محمد شوقي الفنجرى، المذهب الاقتصادي في الإسلام، مرجع سابق، ص ٦١.

الملائمة التي يرتضيها المجتمع، ويؤكد بها ذاته، ناهيك عن أثر التقاليد والعادات والقيم المعنوية التي تتطور هي الأخرى بالأفكار الإنسانية البناءة، وبالعلم والتكنولوجيا، وطبقا لما يسود المجتمع من ظروف اجتماعيه متعددة معقدة^١، وبذلك نستطيع أن نقول بأن التطور الاقتصادي هو قابلية الظاهرة للتغيير والتعديل لتناسب مع الزمان والمكان وطرق الإنتاج والعلاقات بين الناس والثقافة السائدة والقائمة بين الناس في أي مجتمع و" التغيير الذي يلزم تطبيق النظم الاقتصادية المعاصرة عامل مشترك يجمعها جميعًا سواء أكانت رأسمالية أم ماركسية أم اشتراكية، فطالما أن وسائل الإنتاج تتغير دائمًا بتغير وتطور العلم والتكنولوجيا الحديثة، وطالما أن أساليب معيشة الناس في جميع أنحاء العالم تتغير ببطء ملحوظ في بعض الجهات وفي سرعة شديدة ملموسة في جهات أخرى، وطالما أن الإنسان - خليفة الله في أرضه - لا يثبت على حال من جهة الثقافة والعلم والتطور، فإن النظم الاقتصادية المعاصرة - التي هي انعكاس مباشر لجميع هذه القوى - لا بد وأن تتصف هي الأخرى بالمرونة والتغيير"^٢.

ويجب أن يحدث التغيير بصورة علميه مخططة، وليست عشوائية، أي بأنظمة تحكمها قوانين قد تكون وضعية، وقد تكون إلهية.

(١) صلاح نامق، النظم الاقتصادية المعاصرة وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

المطلب الثاني

الاقتصاد في الإسلام ودور الباحث الاقتصادي

أولاً: الاقتصاد في الإسلام

حتى نستطيع أن ندخل إلى مناقشة الاقتصاد في الإسلام يجب أن نوضح شكل الاقتصاد في الأنظمة الاقتصادية الوضعية المختلفة حتى نستطيع أن نستشعر الفرق بين النظم الوضعية والتشريع الإلهي في الاقتصاد.

يقوم النظام الاقتصادي الرأسمالي: على عدة دعائم منها: الملكية الفردية، وسوق للتبادل المتطور الحر، وحرية ممارسة النشاط تحت شعار (دعه يعمل، دعه يمر)، والمزاومة بين المنتجين والمستهلكين، والمنافسة، وكذلك تراكم رأس المال في المصارف، وفي هذا النظام يوجد نوع من المغامرة الفردية، ويتميز هذا النظام بالحرية الكاملة في ظل قوانين منظمة، والتي يكون الهدف الأساسي منها هو الربح.

أما النظام الاقتصادي الاشتراكي: فيقوم على عدة دعائم منها: الملكية الجماعية أي ملكية المجتمع، وللإشترابية أنماط كثيرة يجمعها كلها فكرة العدالة الاجتماعية، وأهم ما يميز هذا النظام الملكية العامة، وحكم الطبقة العاملة، وإلغاء الملكية الخاصة؛ حيث لا داعي للملكية الخاصة، فالكل ينتج حسب طاقته، والكل يأخذ حسب احتياجاته، وكذلك السعي إلى العدالة الاجتماعية ومحاوله تحقيق الرفاهية للمجتمع.

ويلاحظ أن جميع الاقتصاديات الوضعية تتفق كلها في ماديتها، فغاية النشاط الاقتصادي الرأسمالي هو الربح المادي، بل وتحقيق أكبر قدر منه، وعدم

الالتفات إلى أضراره، مثل الاحتكار وتمركز الأموال بأيدي فئات معينة، وغاية النشاط الاقتصادي الاشتراكي هو أن يحقق كل مجتمع أكبر قدر من الإنتاج والتشغيل لكل فرد بالمجتمع ليصل إلى أعلى إنتاج دون مراعاة للحرية الفردية للأشخاص. فالمادة في كافة المذاهب والنظم الاقتصادية الوضعية مطلوبة لذاتها، وذلك بخلاف الأمر في الاقتصاد الإسلامي، فإنه إلى جانب مراعاته للجانب المادي؛ وذلك لأن النشاط الاقتصادي لا يمكن إلا أن يكون ماديًا، إلا أنه لا يغفل الجانب الروحي في الكيان البشري. وكل ما يفعله الإسلام بهذا الخصوص هو أن يلاحظ المرء في نشاطه الاقتصادي وجه الله - تعالى - ابتغاء مرضاته وخشيته، ومن ثم فهو " يعمر الدنيا وينميها ليكون بحق خليفه الله في أرضه، وهو يحل التكامل والتعاون محل الصراع والتناقض.

فما الروحانية في الإسلام إلا الإحساس بالله - تعالى - في كل عمل تقوم به، وهي خشيته ومراقبته - سبحانه وتعالى - في كل نشاط اقتصادي تباشره، بحيث لا يكون هذا العمل أو ذلك النشاط إلا عملاً ونشاطاً صالحاً يستهدف به وجه الله، أي الصالح العام.^١

والنظام الاقتصادي الإسلامي يقوم على قواعد وخصائص، نستعرضها بشئ من التلخيص كما يلي:

(١) قواعد الاقتصاد الإسلامي:

(أ) العقيدة: الاقتصاد الإسلامي اقتصاد عقيدي، أي مؤسس على عقيدة دينية، وهو يجعل من الإيمان والتقوى عاملاً من عوامل الإنتاج، ويظهر ذلك في

(١) المرجع السابق، ص ٩٤ - ٩٥.

الإنتاج، والرغبة في الربح، ويعود هذا لمعرفة المسلم بأنه مستخلف، وليس مالكا للموارد التي تحت تصرفه.

(ب) الأخلاق: هي غاية عليا من غايات الإسلام؛ لقول رسولنا الكريم: " انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ١، وهي في الاقتصاد الإسلامي ترجمة لتصرفات اقتصادية أخلاقية، مثل التزام الصدق والأمانة، وحظر الغش والاحتكار، وأن يختار المسلم المشروعات النافعة غير الضارة بالمجتمع، ورعايه الفقراء، وأخراج الزكاة، وغيرها من القيم التشريعية والأخلاقية الكثيرة في هذا النظام.

(ت) قاعدة الثواب والعقاب: الإنسان المسلم يختلف عن غيره من الناحية الاقتصادية، فهو ينتظر من كل أعماله الربح الدنيوي، بالإضافة للثواب الأخروي، وقد يتنازل عن بعض الأرباح الدنيوية طمعا في ثواب الآخرة أو خوفاً من العقاب الأخروي.

(ث) قاعدة الحلال والحرام: هذه قاعدة ممتدة في جميع أنشطة المسلم الاجتماعية والاقتصادية، سواء في البيع أو الشراء أو الاستبدال، فيمتنع - مثلاً - عن التعاملات الربوية؛ لأنها محرمة إسلامياً، ولا يقوم بتصنيع الخمور لأنها محرمة إسلامياً، ويبحث عن ما يشبع الحاجات بشرط أن يكون حلالاً.. وهكذا.

(٢) خصائص الاقتصاد الإسلامي:

(أ) الجمع بين الثبات والتطور: والمقصود بالثبات هو ثبات التشريعات الاقتصادية الإلهية، والمقصود بالتطور: التطور في التطبيق بما يتناسب مع ظروف كل مكان وزمان.

(١) أخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى (١ / ١٩١)، (٢٥٧١).

(ب) الجمع بين المصلحتين العامة والخاصة: المصلحة الخاصة للأفراد معتبرة في النظام الاقتصادي الإسلامي، وكذلك المصلحة العامة للمجتمع معتبرة، فلا عدوان على أي من المصلحتين، ولكن إذا جارت المصلحة الخاصة على العامة تفضل المصلحة العامة مؤقتاً حتى لا يقع الضرر بالمجتمع.

(ت) الجمع بين المادة والروح: فجميع التصرفات المادية للإنسان يجب أن تكون مراقبة ذاتياً خوفاً من الله، وذلك مثل أخراج الزكاة من الأموال.

(ث) خاصية الوفرة: الاقتصاد الإسلامي يقرر أن الأصل في خلق الموارد الاقتصادية هو الوفرة، وذلك بدليل قوله تعالى: " وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ " (فصلت: ١٠)، وذلك مع مراعاة عدم الإسراف في استخدامها، وهذا يخالف الاقتصاد الوضعي الذي يعتبر الندرة هي الأساس، وتكون فكرة الوفرة في فكر الإنسان المسلم من الإيمان بأنه - سبحانه - قدر الأقوات، وكذلك تكون الوفرة من الترشيد والبعد عن السرف والترف وغيرها.^١

ونستطيع أن نقول " إنَّ شريعة الله - تعالى - في الميدان الاجتماعي تعني عدالة التوزيع " كَمَا لَا يَكُونُ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " (الحشر: ٧)، وشريعة الله تعالى في الميدان الإنتاجي تعني العمل الدائب، وصيانة الموارد والمنتجات من التبديد والضياع إسرافاً وتبذيراً، وهي في ميدان الاستهلاك حماية للطيبات من أن تستخدم فيما لا ينبغي أن تستخدم فيه، كما تعني حماية السلوك الاستهلاكي من البخل والتقتير، وترتيب أولويات لإشباع الحاجات، تبدأ بالضروريات، ثم

(١) انظر: زيد بن محمد الرماني، خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، كتاب يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، (رجب ١٤١٧)، العدد ١٧٥، السنة الخامسة عشرة، من ص ٢: ص ٥٢.

الحاجيات، وتقف عند الكماليات فلا يتجاوزها السلوك الاستهلاكي ليقع في براثن الترف. وإن شريعة الله قد جاءت - أيضاً - بتحريم الربا وإيجاب الزكاة، كما جاءت داعية إلى تبني أكفأ أساليب الإنتاج، وأعدل أساليب التوزيع والاستقامة على هذه الشريعة تقود إلى نتيجة لا تتخلف، وسنه الله لا تتبدل، وهي وفرة الخيرات، وزيادة الطيبات، ورغد العيش، وطيب الحياة.^١

والأخلاق في التشريعات الاقتصادية الإسلامية لا يمكن فصلها بحجه تحويل هذه التشريعات لعلم الاقتصاد حيث إنَّ "كثيراً من الاقتصاديين يعتبرون أنَّ انبلاج فجر علم الاقتصاد بمفهومه كعلم جاء عندما تقرر فصله عن الاعتبار الأخلاقية، ونحن نقول بدورنا بأنَّ تشويه علم الاقتصاد وقع عندما حدث هذا الانفصال."^٢

والبحث في سنن الاقتصاد من القرآن الكريم يقربنا من الأخلاق الاقتصادية في الإسلام؛ وذلك لأنه "باستخراج السنن الإلهية في الاقتصاد نعود مرة أخرى بالقيم للاقتصاد، والتي تجعل الاقتصاد الإسلامي صالحاً لكل زمان ومكان، فما أحسب أنَّ هناك نظاماً اقتصادياً بلغ ما بلغ من الدقة والأحكام والاستجابة لطبيعة الإنسان وبيئته وظروفه التاريخية والاقتصادية، يصلح لكل زمان ومكان دون أن يتناوله تعديل في أصوله أو فروعه."^٣ مع العلم بأن النظام الاقتصادي الإسلامي هو أقدم من الأنظمة الوضعية؛ لأنه "يرجع - في أصوله وأساسه - إلى أربعة عشر قرناً مع بعثة سيدنا محمد ﷺ، ويعني ذلك

(١) يوسف إبراهيم يوسف، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)، ص ٤٦، ٤٥.

(٢) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢١.

(٣) صلاح الدين نامق، النظم الاقتصادية المعاصرة وتطبيقاتها، مرجع سابق، ص ١٤.

أن الاقتصاد من حيث التاريخ يسبق كلاً من الرأسمالية والاشتراكية بقرون زمنية طويلة، ويعني ذلك أنه عندما تحدد أسس الاقتصاد الإسلامي وخصائصه بلغة اقتصادية معاصرة، فإنه لا يقبل القول أن الاقتصاد الإسلامي يأخذ من الاقتصاديات المعاصرة؛ وذلك لأنه يسبقها بقرون كثيرة.^١

ثانياً: دور الباحث الاقتصادي الإسلامي في كشف السنن

على الباحث الاقتصادي دور كبير في البحث عن السنن وتوضيحها وشرحها وتحويلها لفرع من فروع علم الاقتصاد، ويجب مراعاة " أن جانب التحليل في الاقتصاد الإسلامي لا يبدأ كما في الاقتصاد الوضعي من ملاحظة الظواهر والوقائع الاقتصادية كما تجري في دنيا الناس، وإنما يجب أن يبدأ أعمق من ذلك، أي بالبحث عن السنن الإلهية في خلق الإنسان والكون.^٢ ومن هنا يجب على الباحثين في الاقتصاد أن يقوموا بدورهم في البحث في السنن الإلهية في الاقتصاد.

ويجب أن يعرف الجميع أن " دور الباحث في الاقتصاد الإسلامي بشقيه - مذهباً ونظاماً - هو دور الكاشف لا المنشئ، فهو ليس كأبي باحث اقتصادي حر في بحثه، وإنما هو مقيد في الكشف عن حكم الله في المسائل الاقتصادية بنصوص القرآن والسنة..... إلخ. وعليه فإن أية محاولة لدراسة النشاط الاقتصادي خارج نصوص القرآن أو السنن أو بغير الطرق الشرعية المقررة لا تمت إلى الاقتصاد الإسلامي بصلة، ولا يوصف المذهب الاقتصادي أو النظم أو النظريات الاقتصادية المختلفة بأنها إسلامية إلا بقدر تعبيرها عن

(١) رفعت السيد العوضي، الوسطية الاقتصادية في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٩.

(٢) يوسف إبراهيم يوسف، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٨.

نصوص القرآن والسنة، والتزامها بالطرق الشرعية المقررة.^١، ولا يمكن إلا اعتبار هذا العمل نوعاً من أنواع العلم "وأنَّ السبيل إلى الكشف عن هذه السنن الإلهية والتعرف إلى آيات الله في الكون وفي الإنسان هو العلم بجميع أبعاده. وهذا يعني أنَّ دراسة السنن الإلهية لا يمكن أن تتم بمعزل عن العلم.^٢

وبالرغم من أنَّ السنن ربانية الصنع إلا أنَّ اكتشافها وتطبيقها هو عمل بشري بحت، ويجب علينا أن نطمئن إلى أنه "جاء كاملاً وشاملاً ومطابقاً للفترة البشرية السوية، وملياً لحاجاتها الحقيقية، غير مقيد في هذه التلبية بمكان، ولا زمان، ولا بمستوى معين من النمو، ولا بمرحلة خاصة من مراحل هذا النمو؛ لأنَّ صانعه العليم الحكيم يعلم من أمر البشر كلها يوم أنزله ما يعلمه من أمرها كله اليوم وغداً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يعلم طبيعتها كلّها، ويعلم حاجاتها كلّها، ويعلم كيف يمكن أن تلبي هذه الحاجات المتجددة في ظل هذا المنهج الذي لم يوقته - سبحانه - بوقت، ولم يخصصه بمكان.^٣

فالباحث في علم الاقتصاد الإسلامي كالباحث في الطبيعيات تماماً، لا يفعل شيئاً إلا الملاحظة لاكتشاف الحقائق التي وضعها الله - تعالى - في الكون، فهو لا يُنشئها، بل يكتشف قوانينها فقط بالبحث والمشاهدة، والسنن الإلهية في الاقتصاد تحتاج لوقت طويل لإثباتها؛ لأنَّ "السنن الإلهية عملها على مدى أجيال وقرون وحقب؛ فلا يمكن استعجال هذه السنن ولا أخراجها من

(١) محمد شوقي الفنجرى، لمذهب الاقتصاد الإسلامي في الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) محمود حمدي زقزوق، السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، دار الشروق، الطبعة السادسة، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، ص ٣١ -

مساراتها المرحلية، وهي تظهر إلى الواقع الموجود بصور مختلفة وطرائق متعددة، فليس من اللازم أن تتحقق السنة نفسها بالطريقة نفسها في كل حادثة على مدى الزمان وامتداد المكان، فالحكمة الربانية العليا دائماً من وراء الأحداث كلها.^١

المطلب الثالث

علاقة التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية

السنن الإلهية لها علاقة مؤثرة وفاعله في التطور الاقتصادي، وذلك من وجهة نظر الاقتصاد الإسلامي؛ حيث إنها يجب أن تكون القاعدة الحاكمة للتطور الاقتصادي في الدول الإسلامية، وهي بمثابة القوانين الثابتة التي توجه التطور بقاعدة: (افعل ولا تفعل)، ويترتب التطور بحسب اتجاه السير على قاعد السنن، فإن كانت السنن تقول مثلاً أنّ الظلم في الموازين والمكاييل يؤدي لخراب العمران، فعلى المجتمع الذي لا يراعي عدم خراب العمران السير على قاعدة الابتعاد عن الظلم في الموازين والمكاييل، حتى لا يؤدي ذلك لخراب العمران، وسوف نوضح كيفية الوصول بالسنن إلى التطور المطلوب على مراد الخالق - سبحانه وتعالى - في النقاط التالية، وهما عبارة عن قاعدة وقانون وتطبيق وتحقيق للأهداف كالآتي:

(١) محمد صالحين، من القواعد الكلية للسنن الإلهية في النصوص القرآنية، سنة الاستبدال نموذجاً، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٤٧.

أولاً: التمسك بالسنن كقاعدة للوصول للتطور المطلوب

يجب أن نتخذ من السنن قاعدة؛ لأن من يتمسك بالسنن الإلهية في الفهم والتنفيذ يمكنه الله كما وعد، حتى وإن كان على غير دين الإسلام " فدل الكفر أو معظمها عملت بسنة من سنن الله، وهي التي جعلتها فتية حتى وقتنا الحاضر، وهي سنة الأخذ بأسباب القوة المادية، والاستفادة من مكامن الأرض وقدرات الكون، وهذه من سنن التمكين."^١، وقد عملوا بها، وأحسنوا فهمها، وطبقوها، فنجحوا وتطوروا مع كفرهم؛ وذلك لأن الله - سبحانه - لا يجابي أحداً، وبالرغم من طول مده إثبات السنن الإلهية، إلا أنها تكون ثابتة، وذلك عكس النظريات الوضعية؛ حيث إنها " ما يمكن أن يكون اليوم يجب أن يترك غداً إذا ما وجدت نظرية أكثر اقتراباً من الواقع، ويزيد من ضرورة ذلك أنه نظراً لعدم قدرة أي كاتب على تصور الواقع كله، فإن كل نظرية لا تحتوي إلا على زاوية من الواقع، وتقصر عن أن تغطي باقي الزوايا، وبالإضافة إلى ذلك، فإنَّ الواقع الذي صدرت عنه النظرية في تطور دائم بحيث لا تصبح هذه بعد فترة من الزمن منطبقة على الواقع الجديد."^٢

وهذا عكس القرآن الكريم، والذي يحتوي على سنن تتصف بالثبات في النتائج، والقرآن مرجع أكبر مفكري الاجتماع، مثل ابن خلدون، ونجد أن " القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية سلفاً نتائجها التي تكاد تكون محتومة؛ لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها، وعلى العكس، فإن أي تأخر

(١) عبد السلام بن نصر الله الشريف، سنة الله في عقاب الأمم في القرآن، دار المعارج الدولية للنشر، (١٤١٥ هـ -

١٩٩٤م)، ص ٢٣.

(٢) رفعت المحجوب، الاقتصاد السياسي، دار النهضة العربية، الجزء الأول، (١٩٨٢م)، ص ٥.

أواهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية وعدم انضباطها جزائياً، وبالتالي يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل، ومن أجل أن نطمئن بين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها، وعدم تبدها أو تحولها. إنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعلم، ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب، وأكد وجودها وثقلها في حركه التاريخ.^١

ومن هذا الثبات للسنن يمكننا أن نتحكم في عملية التطور الاقتصادي؛ وذلك لأن " القرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار، وأن "تحسن" التعامل مع قوى الكون والطبيعة.^٢ وهذا يعني أنّ السنن الإلهية قواعد تظهر - باتباعها أو عدم اتباعها - النتائج المترتبة على الاتباع أو عدم الاتباع، وللوصول للتطور المطلوب يجب حسن الفهم وحسن التطبيق لهذه السنن الإلهية.

ثانياً: السنن ودورها كقانون في ضبط التطور في المجتمع

من المعروف أنّ من السنن ما يحث على تغيير ما بالنفس البشرية حتى يستطيع الإنسان أن يغير من تصرفاته، قال تعالى: " لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

(١) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م)،

ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤.

وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " (الرعد: ١١).

" والجانب الاقتصادي من الحياة هو أحد جوانب الحياة، يخضع لما تخضع له بقيه جوانبها؛ أي أنه يخضع لسنن الله - تعالى - المنضبطة المطردة الوقوع، التي لا يستثنى منها أحد؛ ومن ثمَّ فَإِنَّ المدخل الصحيح للنهوض بالمجتمعات، والانتقال بها من التخلف إلى التقدم، إنما يكون بالبحث عن السنن التي تحكم هذه العمليات، ومحاولة الوقوف عليها، ثم استخدامها في بناء الحياة وإنتاج المجتمع. " ١، وبذلك يستطيع الإنسان أن يغير من الظواهر الاقتصادية في المجتمع، فمثلاً إذا استطاع الإنسان أن يكبح نفسه عن الإسراف والترف، وتعلم سنن الله الإلهية فيهما استطاع أن يؤثر بذلك في الاستهلاك، وبذلك إذا اهتمنا باستخراج سنن الاقتصاد وتعلمناها وعلمناها للأجيال وطبقوها على نفوسهم فسوف نصل وقتها إلى التحكم في عملية التطور، بل وتوجيهه إلى مراد الله في جميع التعاملات الاقتصادية.

ونستطيع هنا التحدث عن التطور، ولكن في إطار القرآن الكريم الذي يمتاز بالثبات "فالوحي الإلهي - المائل بالقرآن والسنة - لا يقبل الانتقاء أو الاختيار، ولا يجوز تطويعه للواقع أو التفكير وتوظيفه لتحقيق مصالح خاصة أو عامة، وإنما يظل رغم اعتباره - عند البعض - من التراث إطاراً عاماً يحكم الحياة بكل جوانبها، ويدعها تتطور داخله، فإذا انفلتت خارجه وقع الانحراف. " ٢

(١) يوسف إبراهيم يوسف، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٢، ١١.

(٢) راشد سعيد شهو ان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٥.

والذي يجب أن يحدث هو تحويل الدين من حياة الرفوف إلى الحياة العملية التطبيقية؛ وذلك لأنه " لا قيمة للمعرفة التي لا تتحول - لتوها - إلى حركة، ولا قيمة للدراسات الإسلامية في شتى مناهجها وشتى معاهدها، ولا قيمة لاكتظاظ رفوف المكتبات بالكتب الدينية، ولا باكتظاظ الأدمغة بمضمونات هذه الكتب. هذا ليس هو الإسلام، وليس هو العلم الديني. العلم الديني شيء يزاوِل في الحياة، ويطبق في المجتمع، ويعيش في الواقع، ويتمثل في نظام، والإسلام هو سيادة هذا النظام." ^١

ولكن هل يكفي استخراج السنن ورصدها فقط؟ والإجابة أنه " إذا أردنا التفاعل الإيجابي مع السنن الإلهية فلا نقتصر على مجرد استقراءها ورصدها، سواء من خلال نصوص الوحي أوتبعها في تاريخ البشر، بل يتحتم علينا أن نستنبط - من خلال الاستقراء والرصد - قواعد كلية لهذه السنن الإلهية حتى نستكمل المنظومة الفكرية من حيث التنظير؛ ومن ثم نحسن التعاطي الفعّال معها من حيث التطبيق." ^٢، والقرآن الكريم أتى لكل الأزمان وكل العالمين، قال تعالى: " تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ " (آل عمران: ١٠٨)، وقال تعالى: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " (الفرقان: ١)، والخطاب في الآيتين للعالمين لكل الأزمان ولكل البشر؛ وبذلك فإنَّ القرآن يقص على العالمين قصص الغابرين ليتعلم الحاضرون لينعكس ذلك على مستقبل العالمين، وقد حث الله - تعالى - على التفكير والتدبر والبحث والسير في الأرض و" قد حَمَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) محمد صالحين، من القواعد الكلية للسنن الإلهية في النصوص القرآنية، سنة الاستبدال نموذجًا، مرجع سابق،

الإنسان مسؤولية متابعة الطريق الذي شقه له، وذكر له الأمثلة والشواهد والنماذج التطبيقية الكثيرة عليه، ودفعه إلى تحمل مسؤوليته هو في استخراج واستكشاف السنن الإلهية الأخرى الماثورة في الكون والمجتمعات، ودعاه إلى دراستها عن طريق تقليب النظر في الكون، وأعمال التجربة وكل وسائل المعرفة فيه، وتسخير كل ما يصل به إلى معرفة قانون مصلحة الإنسان وسعادته، كما دعاه - أيضاً - إلى دراسة التاريخ ومتابعة حركة المجتمعات والأمم فيه في أطوار تكونها ونموها وانحطاطها وموتها من خلال الدعوة إلى السير في الأرض لاكتشاف سنن الله - تعالى - في الأفراد والمجتمعات عن طريق استقراء حوادث التاريخ، والبحث عن القوانين التي تحكم هذه الأحداث من الداخل أي: البحث عن السنن التي أجرى الله - تعالى - عليها حركة التاريخ ونظام الأفراد والأمم والجماعات.^١

والتطور العشوائي للمجتمعات بلا قوانين ولا ضوابط تنظم هذا التطور، هي فكرة غير مقبولة؛ لأنها ستؤدي بالمجتمعات إلى تطور غير مدروس، وعندما يضع لنا الخالق هذه القوانين يعطي بها الفرصة للتطور المدروس؛ لأنه لن يعلم بأحوال البشر على الوجه الحقيقي إلا رب البشر. والسنن الإلهية تعتبر القوانين التي اختارها الله لتحكم تصرفات البشر " وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة، وعلى وجود سنن ونواميس تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال.^٢، ويلاحظ أنه إذا فهم الإنسان سنن الاقتصاد مثلاً فسوف

(١) حازم زكريا محيي الدين، مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ٣٢.

يستفيد من الظواهر، ويتقن التعامل معها " فالكون لا يخدم الإنسان إلا إذا فهم هذا الإنسان كيف يستثمر ظواهره، ويستفيد من خزائنه، ويعرف القوانين والأسباب التي تعينه على الانتفاع بمكوناته؛ فمعرفة هذه الأسباب وخصائصها - أوتقان التعامل والتعايش معها - تفتح آفاقاً من المعرفة والإعمار لا حدود لها، والرسوخ في هذه المعرفة وتطبيقاتها هو في ذاته تحقيق للاستعانة التي أمر الله بها عند قوله تعالى: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (فصلت: ٥٣)^١، ولذلك يجب علينا محاولة جمع السنن الإلهية في الاقتصاد حتى نتمكن من تكوين فكرة كلية وتصورًا يملكه المسلمون في الاقتصاد؛ لأنه " إذا حققت الأمة الإسلامية مقومات التمكين، وتأهلت له، وأزاحت العوائق، وراعت السنن الربانية فلننتظر وعد الله الذي لا يتخلف."^٢

ثالثاً: الاعتماد على التطور بالسنن كتطبيق يضمن إعمار الأرض

قال تعالى: " وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (التوبة: ١٠٥).

وقال تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَدِّبِينَ " (الأنعام: ١١)، والعمل هو حركة للتطور، والسير هو حركة للعبث والتطور على قوانين السنن، و" الإسلام يرفض الجمود، ويدعوللحركة، والحركة الدائبة المستمرة تكمن في أن الإسلام يقبل التطور العاقل الصالح الذي تحكمه قيم

(١) راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٢) محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)، ص ٣١.

الحق والخير والفضيلة، وتضبطه موازين العدل الذي أنزل الله به كتابه، وبعث به رسوله، أما الانطلاق العرييد فهو كالجמוד البليد، كلاهما مرفوض في نظر الإسلام"¹

إذن التطور المستمر هو الضامن لإعمار الأرض؛ لأنه من سنته - تعالى - أن تظل الأرض ومن عليها في حالة حركة دائمة للتقدم والتطور؛ وذلك لخضوع الكون لسنة التطور العمراني والفكري حتى تقوم الساعة؛ ولذلك لا بد من وجود أمة لقيادة العمران وبناء الحضارة، حتى وإن كانت هذه الأمة كافرة؛ وذلك لضمان تطور وعمران الأرض مع ملاحظة أن الأمة التي ستسود الأرض وتتمكن من عمراتها هي الأمة التي ستسير على سنن الله التي سنها لتسيير هذا الكون وتنظيمه على مراد خالقه. ويجب أن يحذر المسلمون أنهم إذا لم يبحثوا عن سنن الله ويطبقوها فإن الله سوف يستبدل بهم غيرهم، فيقول - سبحانه وتعالى - محذراً من الانصراف عن الإنفاق والتحذير من البخل: " هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ " (محمد: ٣٨)، ويجب معرفة " أن الاستبدال لا يتحتم أن يكون دائماً للكافرين بالمؤمنين، أوللمشركين بالموحدين، أو الضالين بالمهتدين، أو المنحرفين بالمستقيمين، أولأهل الشر بأهل الخير، بل ربما يكون العكس هو الصحيح في واقع التاريخ، فينزوي أهل الإيمان، ويتعش أهل الإلحاد، ويضعف أصحاب الدين، ويستقوى أعداؤه، وينهزم أهل التوحيد، وينتصر المشركون، لا ظلماً

١) أحلام الصياد، علاقه السنن الإلهية بمفهوم السببية في العلوم الكونية والاجتماعية، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٤٩، وانظر: يوسف القرضاوي، الصحوحة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، (١٩٨٩م)، ص ٦٢-٦٣ بتصرف.

للأولين، ولا مجاملة للأخرين، ولكن لأن أهل الشرك أخذوا بسنن الكون التي تضمن لهم النجاح والتفوق والقوة والهيمنة والنفوذ والسيطرة والغلبة والنصر والتمكين والاستعلاء، بينما على ضفاف أهل الإيمان ينخر في عظامنا التواكل على حقانية الدين، والركون إلى الخيرية المطلقة الجوفاء، والإغراق في ماضي كان تليدًا، لا صلة بيننا وبينه الا اجترار ذكرياته دون الإفادة من دروسه وعبره، ودون اتخاذ مطية نصلح بها حاضرنا، ونستشرف بها مستقبلنا^١

فنحن من تحول من النجاح في الماضي إلى فشل الحاضر من أنفسنا وبأيدينا لقوله تعالى: " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (الأنفال: ٥٣). وهذا " تقرير لعدل الله في معاملة العباد، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يبدلوا سلوكهم، ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغيروا ما بهم مما اعطاهم إياه. الابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تكرم الآية هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم حين تجعل قدرة الله به تنفذ وتجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، وتجعل التغيير القدرى في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونياتهم وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم"^٢

ويمكن القول بأن المقدمات المبنية على أسس إلهية - وهي السنن الربانية - ستؤدي إلى النتائج التي سنها الله - تعالى - وكذلك نستطيع أن نقول بأن

(١) محمد صالحين، من القواعد الكلية للسنن الإلهية في النصوص القرآنية، سنة الاستبدال نموذجًا، مرجع سابق،

ص ٤٣٢، ٤٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣٣.

السنن الإلهية ترسم لمن يتبعها طريقة التطور واتجاهه الذي يؤدي إلى النتائج المطلوبة، وكأن السنن الإلهية هي الخطة الربانية التي أرادها الله - تعالى - لسير التطور والإعمار وتحقيق النتائج المرجوة من المقدمات، وإن لم يختار المسلمون الإعمار بالسنن فسوف يختار الله غيرهم للإعمار بالسنن؛ وذلك لأن الإعمار بإرادة الله على يد أي أمه اتبعت سنته تعالى.

رابعاً: السنن تحدد أهداف النشاط الاقتصادي

وتجميعنا للسنن الإلهية في الاقتصاد يجعلنا نحدد هدف النشاط الاقتصادي مسبقاً؛ وذلك لأن " الدراسات الاقتصادية الإسلامية ذات طابع مذهبي وتطبيقي؛ إذ إنها لا تعالج الاقتصاد كعلم أي دراسة ما هو كائن، وإنما تعالج الاقتصاد كمذهب ونظام، أي دراسة ما يجب أن يكون، وذلك أنه لا يهم الإسلام تفسير الظواهر الاقتصادية واستخلاص قوانينها، وإنما الذي يهمله هو تحديد أهداف النشاط الاقتصادي وكيفية تنظيم ذلك النشاط"^١

وبعد تحديد الهدف والسير على السنن ستتحقق النتائج بالتأكيد؛ لأنه وعد الله - تعالى - وسنته التي لا يخلفها؛ وذلك لأن السنن قابلة للتكرار، ولا تتخلف ما دامت توفرت شروط تحققها، وهذا ما يجعل التعامل مع السنن تعاملاً محكوماً ومنضبطاً ومضمون النتائج، ويجب أن نعرف أن المسلمين إذا لم يجدوا أسباب النجاح والعلو، وإذا " جهلوا هذه الأسباب، وقصروا في فهم سنن الله وقوانينه وعاداته التي أجراها في الكون والحياة، فإن هذا الكون لا يستجيب لهم، وسيكونون عبيداً له لا سادة؛ ومن ثم فإنهم يميلون إلى تعليل

(١) محمد شوقي الفنجرى، المذهب الاقتصادي في الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٦.

حوادثه وسننه والتغيرات التي تجرى فيه بالتخمينات والأوهام والظنون
والخرافات والتعلق بقوى خفية"^١

وفي الحقيقة كل الطرق واضحة والتشريع الإسلامي يحكم كل التصرفات بين
البشر، ويحكم النفس البشرية، ويحكم كل الكون بكواكبه ومجراته بقوانين
محكمة، والإنسان بمجرد انتمائه لدين معين أو مذهب معين يجب عليه أن
يحترم قواعده ومبادئه ويلتزمها من حيث الفهم والتطبيق، وهذا ينطبق على
دين الإسلام، كذلك فإن "الإنسان بمجرد انتمائه الجاد إلى هذا الدين يضع
نفسه وقدراته في سياق واحد وتوجه واحد ومجرى واحد مع خلائق الله كافة
وسننه المأخوذة في الطبيعة ونواميسه العاملة في الكون، إنه سيتجاوز مواقع
الارتطام التي تفتت الطاقة وتضعف فاعليتها... إلى الانسجام والتناغم مع
السنن والنواميس، سوف يضيف إليها ويأخذ منها، ومن هذا الشد المتبادل
من هذا الوفاق، من هذا الأخذ والعطاء على الدرب الواحد بالقانون الواحد
صوب الهدف الواحد يتحول الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذة في ميدان الفعل
والإنجاز، قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع شعلة متوهجة تمتد إشعاعها
إلى أعماق الذات فيضيئها، ويدفعها إلى آفاق العالم فتبين ملامح الطريق....
ليس ثمة تفتت في الطاقة، ولا غموض في الطريق، ولا ضياع للأهداف.

يومها ينطلق المسلم - فردًا وجماعة - بقوة اختزال مدهشة لمواضع الزمان
والمكان وصولاً إلى أهدافه المرتجاة"^٢، ومن هنا - أيضاً - يمكننا القول بأننا لن
نتظر حدوث الظاهرة لتحليلها وإصدار قوانين لضبطها، ولكننا هنا سنتحكم

(١) راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

(٢) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ١٥.

في حدوث الظاهرة ابتداء بفهم القوانين الإلهية، وهي السنن الربانية والتفاعل معها والانتفاع بها، وكأننا جئنا بالمعرفة المسبقة من خالق الكون بما سيحدث من نتائج، سواء بالسلب أو بالإيجاب، ورضينا بقوانين خالق الكون المحكمة النابعة من علمه - سبحانه وتعالى - وطبقناها لتتنظم أفعالنا، ولتنضبط حياتنا الاقتصادية، فلا نحتاج لقوانين وضعية إلا في النادر طبقاً لمحدثات العصر؛ لأنه لا مانع من اكتشاف قوانين وضعية ما دامت لا تتعارض مع القوانين الأصلية المنزلة في القرآن الكريم، أما الأساسيات فتكون هي السنن التي تضبط الأفعال مثل عدم الإسراف، ومثل العمل لجلب الرزق، ومثل عدم الاكتناز، ومثل تطبيق الزكاة لدورة رأس المال وعدم تركز الثروة...، وهكذا.

المبحث الثالث

آراء بعض المفكرين الإسلاميين في السنن:

عندما بدأت أبحث في قضية السنن الاقتصادية لأقوم بعمل بحثي وجدت أن معظم الكتابات الحديثة عن موضوع السنن الإلهية جميعها تقريباً تشكومان قلة المادة العلمية وقله الكتابات، ووجدت اتهامات ضمنية للعلماء القدامى بإهمالهم لهذا المفهوم إلا في بعض الكتابات القليلة النادرة.

ويمكن القول بأن السنن كفقهِ سنني أو كعلم سنني فعلاً كانت غائبة، ولكن ما لاحظته هو أن الثقافة السننية لم تكن غائبة أبداً عنهم وعن فكرهم وآرائهم، ويلاحظ عند استخراج آرائهم أن هؤلاء العلماء كانوا يتمتعون بالوعي والتطبيق السنني، وأنهم لم يدونوا القواعد السننية، ولم يحولوها إلى علم له مناهجه، ولكنهم استطاعوا تطبيقها في حياتهم لقرون عديدة استطاعوا فيها

قيادة حركة التاريخ بهذا الفهم والوعي السنني، وأيضًا علينا ونحن نجمع أفكارهم وأراءهم وتفسيراتهم ألا نصف جهو دهم بالتقصير في البحث، ويجب علينا ألا نضع إيجاءات في كتاباتنا بأنهم قصروا في تدوين وكتابة هذه العلوم، وأنهم أهملوها ولم يدونوها، ولكن يجب علينا أخذ ما توصلوا إليه من هذه العلوم والبناء عليه لتأسيس علم السنن الذي نطمح للوصول إليه في كل المجالات، وسأحاول أن أقدم أفكار بعض من العلماء المسلمين ومن جهو دهم لتوضيح مدى الوعي السنني لهؤلاء العلماء " فليس المطلوب هو تقييم سننيه تلك الجهو د والتزامها بالفقه السنني من خلال البحث في علم خاص بالسنن، وليس المطلوب هو اكتشاف حجم وكمية النصوص التي لها صلة بلفظة السنن، ولكن المقصود هو أن نكتشف كيف تحول العلم بالسنن والالتزام بالسنن والفقه السنني إلى ثقافة سننية وإلى وعي سنني يحمله الإنسان والمجتمع بشكل أصبح ممارسة يومية، ومنطقيًا عمليًا يقود عمليات الفكر والنظر والممارسة والفعل الحضاري في عمومه"^١.

وقد أثبت هؤلاء العلماء والمفكرون أن " المجتمع الذي يتمتع بالثقافة السننية هو الذي ينسجم عمله في مجال الاعتقاد، والمعرفة والمنهج، والاجتماع البشري، وال عمران الحضاري، مع سنن الله - سبحانه وتعالى -، وبعبارة أخرى، يصبح النشاط الذي يمارسه أفراد المجتمع نشاطًا لا يتصادم مع السنن الإلهية"^٢.

(١) عبد العزيز برغوث، قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٦.

وسأحاول في هذا الجزء من الدراسة استعراض آراء بعض المفكرين الإسلاميين في موضوع السنن الإلهية في مختلف العصور، وسيتم استعراض آرائهم من الأقدم إلى الأحدث حتى نستطيع التعرف على ثقافتهم وفهمهم السنني، وسنعرض آراء للعلماء والمفكرين مع مراعاة الترتيب الزمني لتاريخ الوفاة وسيكون كالاتي:

المطلب الأول: السنن في فكر بعض المفكرين الأقدمين:

أولاً: ابن حزم المتوفى في (٤٥٦ هـ - ١٦٤ م).

ثانياً: أبو حامد الغزالي المتوفى في (٥٥ هـ - ١١١١ م).

ثالثاً: ابن تيمية المتوفى في (٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م).

المطلب الثاني: السنن في فكر بعض المفكرين المعاصرين:

أولاً: الإمام محمد عبده المتوفى في (١٣٢٣ هـ - ١٩٥٠ م).

ثانياً: محمد رشيد رضا المتوفى في (١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م).

ثالثاً: سيد قطب المتوفى في (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م).

رابعاً: مالك بن نبي المتوفى في (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م).

المطلب الأول

السنن في فكر بعض المفكرين الأقدمين

أولاً: الإمام ابن حزم:

فكره السنني:

في الحقيقة إننا لا نجد في تراث ابن حزم - حسب بحثي قدر استطاعتي - أي إشارة صريحة لمصطلح السنن الإلهية، ولكنه من المفكرين الذين اهتموا بالكتابة عن التاريخ والتعلم منه ومن الأمم الغابرة باعتباره من أهم أنواع السنن الإلهية التي نبهنا إليها الله - تعالى - في كتابه العزيز، فقد قال تعالى: " أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ " (غافر: ٢١)، ويحتل التاريخ حيزًا من مؤلفات ابن حزم، فهو لم يفسر التاريخ بمنهج منظم، وإنما كان جهده واضحًا في مؤلفاته، مثل جوامع السير، جمع فتوح الإسلام، وأسماء الخلفاء، ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، وكتاب غزوات المنصور أبي عامر، وكذلك نوادر الأخبار، كما في رسالته نبط العروس، وتحدث عن علم النسب كما في كتاب جمهرة أنساب العرب، وكتاب نسب البربر، وكذلك كتابه الإمامة والسياسة في قسم سير الخلفاء ومراتبها والندب إلى الواجب منها.

ويحدد ابن حزم الغايات التي يمكن أن نحققها من الاطلاع على التاريخ منها:

١- التزهد في الدنيا بمعرفة تقلبها بأهلها.

٢- القدوة الحسنة إذ يقف المرء على حمد المتقين فيرغب فيها، وسماع ذم الرذائل فيكرهها، ويعرف أخبار الصالحين فيحب أن يكون منهم، ويمقت المفسدين.

٣- العبرة بالفناء وتعاقب الأجيال وانتقال الأحوال من العمران للخراب.

وللتاريخ عند ابن حزم أهمية في بناء شخصيه الفرد من الوجهة الأخلاقية والنفسية، وخاصة وأن دارس التاريخ لا يحتاج لشيخ يوجه خطأه، بل يستطيع دارس التاريخ الاعتماد على نفسه. غير أن للتاريخ مكانة هامة في نظر ابن حزم، فهو يتفق مع القائلين بأن التاريخ "علم" ذو خصائص وغايات متميزة، وينفرد ابن حزم بتصوره الخاص للعلوم وأهمية موقع التاريخ فيها.^١

ويتحدث محقق رسالة في مداواة النفوس في المقدمة فيقول: " وقد نبهتني هذه المذكرات وغيرها إلى أن ابن حزم ربما كان من أولئك الرواد الذين مهدوا لابن خلدون طريقه لوضع علم الاجتماع. فذهبت أقارن بين الرجلين، ودلني المقارنة على اتفاقهما في بعض المظاهر، مثل اعتقادهما أن التاريخ علم شريف الغاية لأنه يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم... حتى تتم في ذلك فائدة الاقتداء لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا"^٢.

وكذلك نجد لابن حزم كتابات في السنن النفسية وطبائع النفوس مثل كتاباته في طوق الحمامة في الألفة والألاف فيتعرض فيها ابن حزم للنفس البشرية ووقوعها في الهوى، وما تتعرض له النفس من الآلام، ثم يتحدث عن كيفية

(١) انظر: رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية،

١٩٨٧م، الجزء الثاني، ص ١ - ٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣١.

التغلب على الهوى في النفس بالتعفف، وتحدث عن دوافع الرذيلة الكامنة في أعماق النفس، ووجه إلى كيفية التغلب والتسامي على هذه الدوافع من منابها بالتوجيه للزهد والتعفف.

نجده - أيضًا - يتحدث عن الصراع داخل النفس البشرية بين الخير والشر، والحرام والحلال، وكل هذا من السنن النفسية، فيقول: " إن الله ركب في الإنسان طبيعتين متضادتين:

إحدهما لا تشير إلا بخير ولا تحض الا على حسن، ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضي، وهي العقل وقائدة العدل.

والثانية ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي النفس وقائدها الشهوة، والله - تعالى - يقول: " وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " (يوسف: ٥٣)، وكنى بالقلب عن العقل فقال: " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ " (ق: ٣٧) وقال: " وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ " (الحجرات: ٧)، وخاطب أولي الألباب. فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان^١.

كذلك تحدث ابن حزم عن الفراق، وأنه سنة إلهية فقال: " وقد علمنا أنه لا بد لكل مجتمع من افتراق، وأنه عادة الله في العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وما شئ من دواهي الدنيا يعدل

(١) الإمام أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، مكتبة عرفة، د . ت، دمشق،

الافتراق، ولوسالت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً، وبعض الحكماء سمع قائلاً يقول: الفراق أخوالموت فقال: بل الموت أخوالفراق" ^١.

ويتضح مما سبق الفكر السنني عند ابن حزم، ووعيه بفكرة السنن الإلهية في حركة التاريخ، وفي طبائع النفس البشرية، حتى وإن لم يذكر صراحة لفظ السنة الإلهية.

ثانياً: الإمام أبو حامد الغزالي

فكره السنني:

تحدث أبو حامد الغزالي في بيان القدر المحمود من العلوم المحموده من كتاب العلم في الإحياء فقال: " وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا، فإن هذا علم مطلوب لذاته، وللتوصل به إلى سعادة الآخرة، وبذل المقدور فيه إلى أقصى الجهد قصور عن حد الواجب، فإنه البحر الذي لا يدرك غوره، وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والرأسخون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدير الله - تعالى - في حقهم" ^٢.

(١) المرجع السابق، ص ٨١.

(٢) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار التقوى للتراث، الطبعة الأولى، (١٤٢١ هـ -

٢٠٠٠م)، الجزء الأول، ص ٨٨.

وكلام الإمام الغزالي يدل على أهمية العلم بالله - تعالى - وبصفاته وأفعاله وقوانينه التي سنّها لتدور الدنيا عليها، ويتحدث عن أهمية العلم بالأخرة، وأهمية الوعي والفهم لمعنى العلم بالسنن، وقد فضل هذا العلم على جميع العلوم، وجعله سبباً لسعادة الدنيا والأخرة، وهذا يعني أن الالتزام بالسنن - والتي هي مراد الله - يوصل للسعادة الدنيوية بحسن تطبيقها.

وقد تعرض الإمام الغزالي في الإحياء إلى عدة قضايا سننية مهمة لضبط التصرفات في الدنيا، ولنيل سعادة الأخرة، منها قوله في العمل وأنه ينجي من آفة الفقر والعوز والحاجة، وكذلك فإن العمل يأتي بالرزق، وفي الكتاب الثالث من ربيع العادات في الإحياء " قال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه: أصبت؛ استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم " ^١.

وهنا إشارة للأخذ بأسباب الغنى والرزق وهو العمل، وقد تحدث عن التجارة وأن تكون لقدرة التعفف عن السؤال، وكنوع من العمل للابتعاد عن الفقر فقال: " فالتجارة تعففاً عن السؤال أفضل، وإن كان لا يحتاج إلى السؤال، وكان يُعطى من غير سؤال، فالكسب أفضل؛ لأنه إنما يُعطى لأنه سائل بلسان حاله، ومنادٍ بين الناس بفقره، فالتعفف والتستر أوفى من البطالة. " ^٢.

وقد تحدث الإمام الغزالي عن أثر الظلم الذي يؤدي لخراب العمران، ومنها الاحتكار وضرره على المجتمع فقال: " إنَّ الاحتكار من الظلم وداخل تحتته

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٩.

في الوعيد، وعن بعض السلف أنه كان بواسط فجهز سفينة حنطة إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة، ولا تؤخره إلى غد. فوافق سعة في السعر، فقال له التجار: لوأخرته جمعة رحمت فيه أضعافه، فأخره جمعة، فربح فيه أمثاله، وكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا، وإنك قد خالفت، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين، فقد جنيت علينا جنابة، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة، وليتني أنجومن إثم الاحتكار^١

ويلاحظ هنا أن الاحتكار من أكل أموال الناس بالباطل، وهو من الظلم المؤدي إلى خراب العمران، ويلاحظ في أسلوب الإمام الغزالي في الكتابة عن التعاملات اعتماده على القصص التي تجسد المشكلة وحلها في نفس القصة؛ وذلك ليقدّم الخطأ والعلاج في نفس القصة ليعتبر القارئ ويتعلم.

فتحدث كذلك عن المكاييل والموازين بعد ذكر قوله تعالى: " وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) " (المطففين: ١ - ٣). ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه، وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من الله بحبه، فكان إذا أخذ نقص نصف حبه، وإذا أعطى زاد حبه، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنّة عرضها السماوات والأرض، وما أخسر من باع طوبى بويل، وإنما بالغوا من الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١١ - ١٢.

يمكن التوبة منها.... فإن تحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكياً، بل لكونه
أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال، فصاحب
الميزان في خطر الويل." ١

وكذلك تحدث عن ترويج العملات الزائفة - كنوع من أنواع الفساد والظلم
للمجتمع - والتي تؤدي لفساد العمران فقال: " ترويج الزيف من الدراهم في
أثناء النقد فهو ظلم؛ اذ يستضر به المتعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسيروجه
على غيره، فكذلك الثالث والرابع، ولا يزال يتردد في الأيدي، ويعم الضرر،
ويتسع الفساد، ويكون وزر الكل ووباله راجعاً عليه، فإنه هو الذي فتح هذا
الباب" ٢

ونصح الإمام المتعاملين بالنقود بتعلم فحصها، ووجوب هذا التعلم حتى
يتجنب المتعامل الوقوع في هذا الظلم وإيذاء المجتمع بالعملات المزيفة وتداولها،
وقد تحدث عن الربا، ونبه على فساده، ووقوع غضب الله على المتعاملين
بالربا، فقال: " فقد حرمه الله - تعالى - وشدد الأمر فيه، ويجب الاحتراز منه
على الصيارفة المتعاملين على النقدين" ٣، وقد حذر التجار من الربا، ونبههم
للسؤال والاستقصاء حتى لا يقعوا فيه دون دراية فقال لهم: " والتنبيه
على ما يشعر التاجر بمثارات الفساد حتى يستفتي فيها إذا تشكك والتبس

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٧ - ١٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٢.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٩٦.

عليه شئ منها، وإذا لم يعرف هذا لم يتفطن لمواضع السؤال واقتحم الربا والحرام وهو لا يدري." ^١.

وكل هذه الأنواع من التعاملات التي تساعد على تفشي الظلم في المجتمع تؤدي إلى فساد العمران، وهذا بعض من الفكر السني للإمام الغزالي.

ثالثاً: الإمام ابن تيمية

فكره السني:

نجد الإمام ابن تيمية قد خصص رسالة لفظ السنة في القرآن في جامع الرسائل لابن تيمية، وقد جمع الآيات الدالة على السنن، والتي تحتوي على لفظ سنة، وقام بشرحها وتوضيحها، فقال: " إنَّ قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشئ حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن " ^٢، وهنا يوضح أهمية الاعتبار بالقصص القرآني والاستفادة منه للحكم على النتائج بالاستدلال بالقصص القرآني وأحكامه.

ولقد أقام ابن تيمية علاقة مهمة بين سلامة العقيدة وتقدم المجتمع وازدهاره، وإذا تأثرت سلامة العقيدة أثر ذلك على المجتمع بالسلب، وبظهور البدع يكون شر الدنيا والأخرة. ومن هذا الفكر وبالبحث عن فكر ابن تيمية السني نجده في رسالة له يتحدث عن سنة نصره أولياء الله وإهانته أعدائه فقال: " كمطيعيه وعصاته كالمؤمنين

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٩٧.

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للنشر والتوزيع، جدة، ط ٢، (١٤٠٥ هـ -

١٩٨٤ م)، المجموعة الأولى، ص ٥٥.

والكافرين، فسنته في هؤلاء إكرامهم، وسنته في هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم" ^١.

ويتحدث ابن تيمية عن ثبات واطراد السنن وإن كان لم يوضح لفظه الثبات والاطراد، ولكنه يشرح معناها فيقول: "فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر: ٤٣)، دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون، كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف، بخلاف ما إذا عصوا ونقضوا إيمانهم كيوم أحد، فإن الذنب كان لهم؛ ولهذا قال تعالى: "سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح: ٢٣)، فعم كل سنة له، وهو يعم سنته في خلقه وأمره في الطبيعيات والدينيات" ^٢.

وتحدث - أيضاً - في هذه الرسالة عن السنن المتعلقة بالأمر الطبيعي بأن الله تعالى ينقضها إذا شاء، فقال: "كسنته في الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من العادات، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاء من الحكم، كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشهب، وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصا حية، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ" ^٣.

(١) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٥.

(٢) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٤.

(٣) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٢.

وقد سرد في هذا الجزء الكثير من المعجزات الخارقة للأولياء والأنبياء، وتحدث - أيضاً - عن اطراد السنة في الدينيات والطبيعات فقال: " فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " (فاطر: ٤٣) دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء متماثل، لا بقضاء مخالف " ١ .

وقال كذلك: " إنه سبحانه إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول، بل هو سبحانه لا يفوت بين المتماثلين، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل " ٢ .

وتحدث كذلك عن التبديل والتحويل فقال: " التبديل أن تبدل بخلافه، والتحويل أن تحول من محل إلى محل. " ٣ ، والتغيير والتبديل من سنة الله في خلقه، فمن اتبع الرشاد نال جزاءه، ومن ضل نال جزاء الضلال، وهكذا سنة التبديل والتحويل من حال لحال.

وقد خصص فصلاً لسرد آيات أخذ القرى وإهلاكها وآيات القصص والعبرة، فقال: " وقد أخبر سبحانه أنه تارة يعاقبهم عقب السراء وتارة يعاقبهم عقب الضراء إذا لم يتضرعوا...، وهذا كما ذكره - سبحانه - في حال قوم فرعون وغيرهم. وهذا ذم لمن لم يستقم لا في الضراء ولا في السراء؛ لا دعا بالسراء،

(١) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٤.

(٢) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٥.

(٣) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٥.

ولا تضرع في الضراء، ولا شكر ولا آمن في السراء، ابتلاهم بالحسنات - وهي
النعيم، والسيئات - وهي المصائب - فما أطاعوا في هذا ولا هذا.^١

وفي التفسير المجموع الكبير لابن تيمية تحدث عن سنة تكذيب الرسل -
أيضاً - وتكلم عن جزائهم وعقابهم، وكذلك سعادة من اتبعهم، فقال : قال
تعالى: " وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخَذُ
رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ
خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُو ذٌ (١٠٣) " (هو
د: ١٠١ - ١٠٣)، ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا، فقال: " يَوْمَ يَأْتِ
لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ (١٠٨) " (هو د: ١٠٥ -
١٠٨)، فإنه قد يقال: غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كلهم يموتون،
وأما كونهم أهلكوا كلهم وصارت بيوتهم خاوية، وصاروا عبرة يذكرهم بالشر
ويلعنون، إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة، فإن لعنة المؤمنين لهم بالآخرة
وبغضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذاباً، كما أن لسان
الصدق، وثناء الناس، ودعاءهم للأنبياء، واتباعهم لهم، هو مما يزيدهم ثواباً^٢

(١) المرجع السابق، المجموعة الأولى، ص ٥٧ - ٥٨.

(٢) تقي الدين ابن تيمية، التفسير الكبير، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الجزء

الخامس، د . ت، ص ٤٦.

وقد تحدث ابن تيمية - كذلك - عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي من سنن الله في الأنفس فقال: " ولهذا كانت الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا، بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة "١

وكمال الفطرة الذي يحصل بالشرعة هو تصحيح الأفعال بالشرعية الإلهية حتى توجه الفطرة لطبيعتها، وذلك بسنن النفس المتوافقة تمامًا مع الفطرة المجبول عليها الخلق، وقد تحدث ابن تيمية عن الإرادة الأمرية الشرعية وهي السنن الإلهية المؤدية للعمران والتي هي توجيه وأمر من الله باتباعها للوصول للتناغم من الخلق فقال: " والإرادة الأمرية الشرعية المتناولة لكل ما يحبه الله ويرضاه لعبادة، هو ما أمرت به الرسل، وهو ما ينفع العباد، ويصلحهم، ويكون له العاقبة الحميدة النافعة في المعاد، الدافعة للفساد، فهذه الإرادة الأمرية الشرعية متعلقة بالهيئة المتضمنة لربوبيته، كما أن تلك الإرادة الخلقية القدرية متعلقة بربوبيته؛ ولهذا كان من نظر إلى هذه فقط، وراعى هذه الخلقية الكونية القدرية دون تلك يكون له بداية بلا نهاية، فيكون من الأخسرين أعمالاً، يحصل لهم بعض مطالبهم في الدنيا لاستعانتهم بالله إذ شهدوا ربوبيته، ولا خلاق لهم في الآخرة إذ لم يعبدوا الله مخلصين له الدين "٢ وهذا بعض يسير من فكر ابن تيمية السني.

(١) المرجع السابق، الجزء السادس، ص ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق، الجزء السابع، ص ١٦٨ - ١٦٩.

المطلب الثاني

السنن في فكر بعض المفكرين المعاصرين

أولاً: الإمام محمد عبده

فكره السنني:

كان الإمام محمد عبده هو من أعطى للسنن الإلهية مكاناً بارزاً في فكره وكتاباتته، وأخذ يوضحها ويضرب لها الأمثال ويطبقها على الأحداث خير تطبيق حتى تستبين للقارئ ويستوعبها بكل أنواعها فقال الإمام: " أجمل القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عن أحاط بكل شيء علماً، وأمرنا بالنظر والتفكير، والسير في الأرض لفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالاً، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهرة، لكننا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمه"^١

وقد تعمق فكر الإمام عن السنن من المرحلة الإنسانية إلى مرحلة السنن الكونية، وكذلك السنن في الحضارات، فتحدث أن للإنسان سنة في تكوينه، وهي الولادة والطفولة ثم الشباب ثم الهرم والكبر والاستعداد للأخرة.

كذلك خلق البشرية بكاملها لها سنة ومراحل من الطفولة إلى الشباب إلى الهرم، وكانت الأديان ونزولها بترتيب بما يناسب عقول البشرية، فكان آدم ونوح في مرحلة الطفولة البشرية، ثم كان موسى وعيسى في مرحلة الشباب

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٤٢.

البشرى، ثم كان محمد في مرحله هرم البشرية. ثم الموت والحساب لكل البشرية، والخاتمة مع دين الخاتمة^١

ولالإمام آراء وأفكار خاصة بالسنن الإلهية نجملها فيما يلي:

١- أنه دعا إلى تحويل السنن الإلهية إلى علم من علوم الدين مثل الفقه والحديث وغيره من العلوم فقال: " إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سنناً يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علماً من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل عملاً بإرشاده كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله - تعالى - من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"^٢.

٢- ضرورة السير في الأرض لاكتشاف السنن فقال: " والسير في الأرض، والبحث عن أحوال الماضين، وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي.

نعم إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة

(١) انظر : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، (١٤٢٧هـ -

٢٠٠٦م)، الجزء الثالث، من ص٤٧٣ - ٤٧٩.

(٢) المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ١٦ - ١٧.

واعتبارا. ولكن عندما يسير الإنسان التقى في الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه يأتي الاعتبار والعظة؛ ولذلك أمر الله تعالى بالسير والنظر ثم أتبع ذلك بقوله تعالى: " هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ " (آل عمران: ١٣٨)، كأنه يقول أن كل إنسان له عقل يعتبر به، فهو يفهم أن السير في الأرض يدل على تلك السنن، ولكن المؤمن المتقي أجدر بفهمها؛ لأن كتابه أرشده إليها، وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها^١

٣- أنكر الإمام أن يقال أن الصحابة لم يعرفوا هذا العلم، وقال: " ولا يحتاج علينا بعدم تدوين الصحابة لها؛ فإن الصحابة لم يدونوا غير هذا العلم من العلوم الشرعية التي وضعت لها الأصول والقواعد، وفرعت منها الفروع والمسائل، وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتمين بهذه السنن وعلمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم بما لهم من معرفة بأحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله - تعالى - ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها " ^٢.

٤- وقد نبه الإمام إلى أن اختلاف العصور يحتم تدوين هذا العلم لضياح اللغة والفهم الصحيح للقران الكريم، فقال: " ولما اختلفت حاله العصر اختلافاً احتاجت معه الأمة إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد وغيرها كانت

(١) المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ١٦ - ١٧.

محتاجه - أيضاً - إلى تدوين هذا العلم، ولك أن تسميه علم السنن الإلهية، أو علم الاجتماع، أو علم السياسة الدينية، سمّ بما شئت فلا حرج في التسمية".

وقد ذكر آيات السنن وفضلها، وأرجع سعادة المجتمعات إلى اتباعها لهذه السنن فقال: " لا يعول - بعد الأنبياء في الدعوة إلى الحق - على غير الدليل - إلا بالنظر إلى العجائب والغرائب وخوارق العادات - أصل آخر وضع لتقديم ملكات الأنفس القائمة على طريق الإسلام وإصلاح أعمالها في معاشها ومعادها، ذلك هو أصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم. فمما جاء في الكتاب العزيز مقررًا لهذا الأصل:

" قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " (آل عمران: ١٣٧).

" سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا " (الإسراء: ٧٧).

" فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا " (فاطر: ٤٣).

" أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (الروم: ٩).

(١) المرجع السابق الجزء الخامس، ص ١٦ - ١٧.

إنَّ نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام " ١ .

وقبل انتهاء الحديث عن فكر الإمام السني سوف أستعرض واحداً من تطبيقاته على السنن الإلهية؛ فقد تحدث عن أصحاب العقول المصابة بالجمود والتقليد والتمسك بالمذاهب، بل والتعنت في اعتناقها وتطبيقها، فقال: " لكن الذين أطبق عليهم ظلم البدع، واران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للتشيع، وطمست بصائرهم، وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل، وبما عطلوا في النظر في الدليل،... هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم، فقد اتبعوا سننهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه. ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم، فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم، فقد قصَّ عليهم سير الأولين. وبيّن لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سنته وحادوا عن شرعه ونبذوا كتابه وراءهم ظهرياً، أحل بهم الذل، وضرب عليهم المسكنة، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم، فهل ينتظر المتبعون سننهم والسائرون على أثرهم أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم؟ وقد قضى بأن تلك سنته، ولن تجد لسنة تويلاً " ٢ .

(١) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) الإمام محمد عبده، الإسلام بين العلم والمدنية، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص ١١٩.

فكره السنني:

إن مفهوم السنن الإلهية شغل حيزًا كبيرًا في خطاب رشيد رضا، وهو متأثر في هذا بشيخه الإمام محمد عبده، وقد اعتمد في خطابه على التوجيه للإصلاح وتجاوز الشدائد لتشييد حضارة شاملة فكرية واجتماعية وسياسية، وكذلك في تفسيره للقرآن الكريم، وخطاب رشيد رضا كاد لا يخلو من ذكر السنن وتطبيقاتها على خطابه الإصلاحية، فقال تعقيبًا على الآيات: " اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) " (فاطر: ٤٣، ٤٤): "وليتذكروا بهذه الآيات - كلها - أن الله - تعالى - بين للناس أن له سننًا في حياة الأمم، ولا بد لمعرفة بالتفصيل بالرجوع إلى التاريخ الذي يبين مصداق آياته في الغابرين، ومن السير في الأرض لمعرفة تقلبها في الأولين والآخرين، وقد نطقت سير البشر بتصديق قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِل " (الرعد: ١١) " ١ .

(١) محمد رشيد رضا، مجله المنار، مطبعة المنار، مصر، (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م)، المجلد الثامن، الجزء الأول، ص ٣٠٢.

تحدث - أيضاً - عن سنة الله في الخلق فقال: " قضت سنة الله في خلقه أن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية، فما يكون من الأعمال من صلاح أو فساد، فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها " ^١.

ويقول رشيد رضا مفسراً لقوله تعالى: " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة: ٢٥١): " لولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتنفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبعثة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصرنا الحق، وأرادوا الإصلاح في الأرض، وقد سمي هذا دفعا باعتبار أنه منه - سبحانه - إذ كان سنة من سننه في الاجتماع البشري " ^٢.

وقال كذلك في السنن: " إن الله - تعالى - في البشر سننا لا تتبدل ولا تتحول، منها قوله: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " (الرعد: ١١) فحالة الأمم في صفات أنفسها - وهي عقائدها ومعارفها وأخلاقها وعاداتها - هي الأصل في تغيير ما بها من سيادة أو عبودية، ثروة أو فقر، قوة أو ضعف، وهي التي تمكن الظالم من إهلاكها، والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصلح لنا الاعتذار

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث، الجزء الثاني عشر، ص ٢٦٥.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٣١، ٤٣٢.

بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شئوننا اتكالا على ملوكنا، فإن مشيئته - تعالى - لا تتعلق بإبطال سنته - تعالى - وحكمته في نظام خلقه، ولا دليل في الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في الوجود على أن تصرف الملوك في الأمم هي قوة إلهية خارقة للعادة، بل شريعة الله - تعالى - وخليقته شاهدتان بضد ذلك " هو الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ " (الحشر: ٢) ^١، وقد وضح رشيد رضا معنى الفطرة المذكورة في القرآن بأنها موافقة للسنن الإلهية فقال: " إن معنى كون دين الإسلام دينَ فطرة هو أنه موافق لسنن الله - تعالى - في الخلقة الإنسانية؛ لأنه يعطى القوة الجسدية حقوقها والقوى الروحانية حقوقها، ويسير مع هذه القوى على طريق الاعتدال حتى تبلغ كماهاها، ومعنى ولادة كل مولود على هذه الفطرة هو أنه يولد مستعداً للارتقاء بالإسلام الذي يسير به على سنن فطرته التي خلقه الله عليها بما يبين له أن كل عمل نفسي أوبدني يصدر عنه يكون له أثر في نفسه، وأن ما ينطبع في نفسه في ذلك يكون علة سعادته أو شقائه في الدنيا والآخرة. فإذا فهم هذا وأدركه يظهر له سنة الفطرة وناموس الطبيعة" ^٢

وفي تفسيره لسورة البقرة - وحدها - أقر أربع عشرة سنة اجتماعية في القرآن عن الأمم سنذكر بعضها:

(١) المرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٢٣.

(٢) محمد رشيد رضا، مجله المنار، مرجع سابق، المجلد الثامن، الجزء الأول، ص ٢.

- يقول في سنة سلب الأرض من المفسدين وتوريثها للصلحين: " إن مشيئته
- تعالى - إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم بتغييرهم ما في
أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصلحين، وتأويل هذه
الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان... وأقول: ولا أخشى في الحق لومة لائم:
أيظن المسلمون أنّ تنازع الأمم والدول على ممالكهم وسلبها من أيديهم
مخالف لعدل الله العام وسننه الحكيمة التي جاء بها القرآن؟ كلاً، إنه - تعالى
- ما فرط في الكتاب من شيء، ولكنهم هم الذين فرطوا فذاقوا جزاء
تفريطهم، فإن تابوا وأصلحوا تاب الله عليهم، وإلا فقد مضت سنة الأولين"^١.

وتحدث كذلك عن سنة الصبر وارتباطها بالنصر فقال: " جرت سنته بأن
يكون النصر أثراً للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم
على أنفسهم، وهذا مشاهد في كل زمان"^٢.

وكذلك تحدث عن سنة تنازع البقاء وتأثيرها في المجتمعات فقال: " دفع الله
الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في
هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون أن الحرب طبيعية في البشر؛ لأنها من فروع
سنة تنازع البقاء العامة.

وأنت تدري أن قوله تعالى: " **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
الأرض وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**" (البقرة: ٢٥١)، ليس نصّاً فيما يكون
بالحرب والقتال خاصّة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس
الذي يقتضى المدافعة والمغالبة، ويظن بعض المتطفلين على علم السنن في

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٣٥.

الاجتماع البشرى أن تنازع البقاء الذي يقولون أنه سنة عامة هو من أثره الماديين في هذا العصر، وأنه جور وظلم، وهم هم الواضعون له والحاكمون به، وأنه مخالف لهدى الدين، ولو عرف من يقولون هذا معنى الإنسان - أو لو عرفوا أنفسهم، أو لو فهموا هذه الآية وما في معناها من سورة الحج - لما قالوا ما قالوا " ١ .

وهذا القليل من كثير في فكر رشيد رضا السنني، والذي لا يسع بحثنا تجميع فكره السنني، وذلك لطول وكثرة كتاباته وشروحه وتفسيراته لمعنى السنن الإلهية، في الأمم تارة، وفي النفس تارة، وفي المجتمع تارة، وفي الكون تارة أخرى.

ثالثاً: سيد قطب

فكره السنني:

يرى سيد قطب أن الإسلام تسلم قيادة الأرض بعد فساد الأرض وتعفن قادتها، وذاقت البشرية من هؤلاء القادة الكثير من الويلات، وظهر الفساد في البر والبحر، ويرى أنه تسلم القيادة بالقرآن الكريم وبتصوره الجديد وبشريعته الجديدة. واعتبر سيد قطب أنه بهذا التسليم كان المولد الجديد للإنسانية.

ويرى أن من يضع المنهج الإلهي في كفة، والإبداع الإنساني في كفة، ويطلب الناس بالاختيار بينهما: إما المنهج الإلهي، أو الإبداعات المادية هو إنسان من عصابة المضلين الخادعين أعداء البشرية.

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٣٦.

ويقول سيد قطب بأن المنهج الإلهي ليس عدوًّا للإبداع الإنساني، بل المنهج الإلهي هو منشئ الإبداع الإنساني، وموجهه للقيام بالخلافة، ويرى أن الله - سبحانه - نسق بين تكوين الإنسان وتكوين الكون ليحقق العمل والإبداع، ويرى أن الإبداع هو عبادة لله، ويرى أن الذي يفصل بين المنهج الإلهي والإبداع الإنساني هم سيئو النية شريرون، والنوع الثاني ينقصه الوعي الشامل، والإدراك العميق؛ لأنهم يعتقدون أن الطبيعة البشرية لا تتأثر بالقيم الإيمانية. ويقول أنهم بذلك يفصلون بين نوعين من السنن الإلهية هما في أصلهما غير منفصلين وقال: " إن الإيمان بالله، وعبادته على استقامة، وإقرار شريعته في الأرض كلها إنفاذ لسنن الله، وهي سنن ذات فاعليه إيجابية نابعة من ذات المنبع الذي ينبثق منه سائر السنن الكونية التي ترى آثارها الواقعية بالحس والاختبار، ولقد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق، ولكنها تظهر حتمًا في نهايته، وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدا خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية. وبدا خط هبوطه من نقطه افتراقهما، وظل يهبط ويهبط، كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل للحضيض عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعاً " ١ .

وقد تحدث مفسرًا لقوله تعالى: " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَدِّبِينَ " (آل عمران: ١٣٧)، فقال: " القرآن الكريم

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المقدمة، ص ١٥ - ١٧ .

يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض، يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور، فهم ليسوا بدعًا في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزأفًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط سير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا

النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر" ^١.

وقد تحدث سيد قطب عن التصور الإسلامي وقيامه على قوانين ثابتة فقال: " إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن الله - سبحانه - خلق كل شيء في هذا الوجود وأودعه قانونه الثابت الذي يؤدي على أساسه وظيفته التي خلق لها، فكما أنه - سبحانه - أعطاه وجوده وهيئته، قدر له كذلك وظيفته وأودعه القانون الذي يهديه لأداء هذه الوظيفة.

" وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا " (طه: ٥٠)، " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " (الأحزاب: ٦٢).

ولكن مع ثبات هذه السنن ممتلة في القوانين الكونية التي تحكم العالم المادي والعوالم الحيه على السواء، فإن الاعتقاد الإسلامي يرد كل "حدث" يقع في هذا الوجود إلى مشيئة الله وقدره. وكلما نفذت السنة وجرى القانون جرى

(١) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٤٧٨.

بقدر خاص يخلق به الحدث كما يخلق به الشئ سواء " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ " (القمر: ٤٩).^١

ويقول يسد قطب في تفسير قوله تعالى: " يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (النساء: ٢٦): " فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعًا. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطرد في غايته وأهدافه... هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون.

لذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان، ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان، ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول في طريق اللاحب الطويل، وهي لفظة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأتمته ومنهجه وطريقه... إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله، تجمعها آصرة المنهج الإلهي، على اختلاف الزمان والمكان، واختلاف الأوطان والألوان، وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل، ومن كل قبيل. " يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (النساء: ٢٦) فهو - سبحانه - يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم؛ ليرحمكم... ليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل، والتوبة من المعصية؛ ليمهد لكم الطريق، ويعينكم على السير فيه.^٢

كذلك علق مفسرًا على قوله تعالى: " وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلُوا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٦٣١.

تَبْدِيلًا (٢٣) " (الفتح: ٢٢، ٢٣).

فقال: " وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل. فأيه سكينه؟ وأية ثقه؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم، وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل. ولكنها قد تتأخر إلى أجل ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقتهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم. وأتعلق بتهيئة الجوالذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين؛ لتكون له قيمته وأثره. أولغير هذا وذلك مما يعلمه الله، ولكن السنة لا تتخلف، والله أصدق القائلين " سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " (الفتح: ٢٣)^١

ونلاحظ أن سيد قطب أضاف على سابقه فكرة قانونية السنن الإلهية على البشر لتحديث الاستقامة لجميع الأمور، وقانونية السنن يجب أن نتخذ السنن الإلهية كالقانون الذي تسيير عليه البشرية حتى تتجه إلى الاتجاه الصحيح لإعمار وسعادة الكون، فنجده يرى أن السنن قانون إلهي يجب ألا نحيد عنه في كل التعاملات الإنسانية والاجتماعية؛ وذلك لنستطيع تسيير الكون على قانون ومنهج الله.

(١) المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٣٢٢٧ - ٣٢٢٨.

رابعاً: مالك بن نبي

فكره السنني:

قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " (الرعد: ١١)، ويحاول مالك بن نبي توضيح أن طريق الإصلاح يبدأ بإصلاح النفوس، وذلك في سياق حديثه عما قام به المستشرقون من إفساد نفوس مثقفي أمة الإسلام بالتشكيك في كتاب الله. فكتب كتابه: الظاهرة القرآنية، والذي يحاول فيه إثبات أن القرآن الكريم هو كتاب إلهي وليس من وضع البشر، وذلك حتى يضع هذا الكتاب الإلهي "القرآن" كمنهج تسترشد به الأمة الإسلامية بعد إثبات صحته كخطوة من خطوات الإصلاح، بل وينصح بالاصطلاح في المنهج القديم لتفسير القرآن حتى يكون مرجعاً للمسلمين. ومن محاولاته لإصلاح ما في النفوس هو محاولته إثبات إعجاز القرآن بطريقة عقلية يقبلها كل الشباب المسلم المتجه للفكر العقلي الغربي، والذي تسلل إلى نفوسهم عن طريق الاستعمار، وقد أثروا على اللغة العربية - والتي هي لغة القرآن الكريم - ثم بدأوا بالتشكيك في رسالة محمد ﷺ وفي القرآن، وبمحاولته للتقريب بين فكر الشباب وفهم القرآن يمكنهم التعرف على ما يحتويه القرآن الكريم من السنن الإلهية، فيستوعبونها، ويتعلمونها ويبدأ الإصلاح لهم ولفكرهم ولتحركاتهم بفهم السنن والسير عليها للوصول للإصلاح.

واعتبر مالك بن نبي أن الحرب الغربية على العالم الإسلامي فرع منها هو الحرب على الثقافة، وميادين الثقافة كثيرة منها التربية والتفكير والعقيدة واللغة،

وكلها أشياء حاول المستشرقون قتلها في العالم الإسلامي بأفكارهم التي زرعوها في مثقفي أمة الإسلام.

ويرى مالك أن إثبات إعجاز القرآن ودحض محاولاتهم هو الطريق لتصحيح الأفكار حتى تسير الأمة لطريق الإصلاح

وقام مالك بن نبي - أيضاً - بدراسة المجتمعات الإنسانية الإسلامية العربية، ويلاحظ أنّ فكر مالك بن نبي يتناسب مع النظر والتفكير في الأمم والحضارات البالية لاستخلاص نتائج للتعليم والفهم ووضع النظريات والقوانين الاجتماعية، وهذا الفكر منسجم مع قوله تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ إِذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " (الحج: ٤٦)، وقوله تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (العنكبوت: ٢٠).

وقد يلاحظ أن منهج مالك بن نبي في مقارناته وتحليلاته يشبه سلفه المغربي شيخ المؤرخين عبد الرحمن بن خلدون (وسوف نقوم بتخصيص الفصل الرابع بأكمله للمفكر ابن خلدون)، فإن شخصية مالك بن نبي العلمية كمهندس كهرباء جعلته يتجه للأسلوب العلمي في عرض المشكلة وتحليلها والوصول للنتائج.

وقد قام مالك بن نبي بتقسيم المجتمعات إلى بدائي ومتطور، وأرجع قيام الحضارات إلى التطور والحركة، ويرى أن التجمعات البشرية إذا مر عليها الزمن ولم تتطور فهي تخرج من نطاق كلمه مجتمع فيقول: " كل جماعه لا تتطور ولا

يعتريها تغيير في حدود الزمن تخرج بذلك من التحديد الجدلي لكلمه مجتمع" وأطلق على بداية التطور لفظة: ميلاد، وقد يكون التطور من فرد واحد فقط، واستشهد مالك ابن نبي بقوله تعالى: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَمَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (النحل: ١٢٠) أي أنه بنى عليه كفر قيام أمة الإسلام. ويتميز تفكير مالك بن نبي بالطابع العلمي الذي يجعله يقابل بين المجتمع والمركبات في علم الكيمياء، وقد أرجع تنظيم حركة الأفراد على ما يلي:

١- حركة يتسم بها المجموع الإنساني.

٢- إنتاج لأسباب هذه الحركة.

٣- تحديد اتجاهها.

والحركة إما تؤدي للرقى، وإما للتخلف، وحركة التاريخ هنا بيني عليها مالك بن نبي من نظرية "جون أرنولد توينبي" والتي تحدد حدين لا يتم التغيير إلا بينهما، وهنا يسمى التحدي المناسب الذي يخلق الحركة والتغيير والتطور، ويرى مالك أنه على قدر الاستفزاز يكون التحدي والحركة والتطور.

وتحدث كذلك عن التاريخ وكونه يجب أن يتصف بأشياء لصناعة الحضارة، وهم الأشخاص والأفكار والأشياء، ووضع شرطاً إضافياً لصناعة الحضارة وهي شبكة العلاقات الاجتماعية، والتي تستوعب بداخلها الأفكار والأشخاص والأشياء لتكوين الحضارة.^١

(١) انظر: مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق سوريا، الطبعة الثامنة، (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م)، الجزء الأول.

ونستطيع أن نقول أنه إذا صحت النفوس بالقرآن الكريم واتخاذ كمنهج قويم، وإذا تعلمنا كيف تتطور المجتمعات بطريقة منضبطة سوف نتجه إلى الإصلاح وبناء الحضارات على سنة الله - تعالى - في خلقه وكونه.

ومما سبق نستخلص ما يأتي:

أولاً: الفكر السنني عند المفكرين الإسلاميين موجود في كتاباتهم، ولكن في فكر ابن حزم والغزالي وابن تيمية يتضح وجود ثقافة سننية نابعة من فهمهم واستيعابهم للقرآن الكريم والقصص القرآني، ولم تكن فكرة السنن الربانية وتحويلها لعلم مستقل في أذهانهم، ولكن استيعابهم لفكرة السنن كان نابغاً من علمهم بالقرآن الكريم، ويعتبر ابن تيمية صاحب وضع معالم منهج نستطيع أن نستخرج منه قانوناً، سواء لأسباب التقدم أو لأسباب السقوط للأمة الإسلامية، وأطلق على هذا (الطريقة القرآنية).

ثانياً: ثم جاء الإمام محمد عبده ليعطي تعريفاً واضحاً وصريحاً لمفهوم السنن الإلهية، ليتحول الأمر من مجرد ثقافته سننية إلى المطالبة بتحويل السنن الإلهية إلى علم مثل باقي العلوم القرآنية لتهتدي بها الأمم، واعتبر الإمام أنه من أنفع العلوم للأمة الإسلامية.

ثالثاً: ثم يجيء الشيخ رشيد رضا ليصرح بأن التأخر الحضاري الذي وصلت إليه أمة الإسلام كان بسبب عدم تدوين هذا العلم، وعدم الأخذ بالقوانين والسنن الإلهية، وأنه لن يستقيم أمر المسلمين إلا بتدوين هذا العلم والعودة إليه والاستعانة به في تقدم حياة أمة الإسلام.

رابعاً: ثم يجي سيد قطب بالنظرة الإصلاحية الشاملة، ومحاولة تطبيق نصوص القرآن على الواقع المجتمعي مبيناً أسس الإصلاح وقوانين التغيير، ثم يأتي مالك

بن نبي الجزائري ليحلل ويقارن للوصول لقوانين نفسية واجتماعية لتوجيه المجتمع للتغيير المطلوب.

وأخيراً: نحن في انتظار جهود علماء العصر لتحويل مفهوم السنن الإلهية مع جهود السابقين إلى علم قرآني له أسسه وقواعده حتى تستفيد الأمة من هذا العلم لتسير على الطريق السليم القويم الإلهي.

نتائج الفصل

هذا الفصل كان موضوعه السنن الإلهية والتطور الاقتصادي، وقد تم مناقشته في ثلاثة مباحث:

في المبحث الأول حاولت شرح معنى السنن لغة واصطلاحاً، ثم تقسيمها إلى أنواع حسب نوعها، سواء كونية أو خارقة أو اجتماعية، ومنها النفسية والأخلاقية والاقتصادية، وكذلك محاولة التدليل على أهميتها لتوضيحها للمسلمين.

ثم حاولت توضيح مطالبة العلماء بتحويلها لعلم، ومطالبة الباحثين في كل مجال أن يبحثوا ويستخرجوا السنن، كلٌّ في مجاله، حتى يستطيع العلماء تحويلها لعلم مستقل يدرس لكل المسلمين كلٌّ في مجاله، ومنها يتعلمون في كل مراحل حياتهم أن المقدمات السليمة تؤدي إلى النتائج المرجوة، وأن السير في الحياة له قوانين تحكمه قد سنّها الله - تعالى - للبشر لأنه لم يخلقهم سدىً، بل خلقهم، وسخر لهم كل الكون، وحدد لهم كيفية التعامل مع هذا الكون للوصول للفكرة الأساسية من الخلق وهي توحيد الله - تعالى - وعبادته، ثم الاستخلاف في الأرض وتعميرها.

في المبحث الثاني حاولت شرح تصنيف الدراسات الاقتصادية، وشرح معنى علم الاقتصاد، وشرح معنى التطور وتوضيح معنى التطور الاقتصادي. ثم محاولة استخراج علاقه التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية، وذلك بمحاولة إظهار دور الباحث الاقتصادي الإسلامي في استخراج السنن والبحث عنها، ومحاولة إثبات أن الإسلام لا يفصل بين الدين والاقتصاد؛ حيث إن الاقتصاد يؤدي إلى قوة الأمم والقوة تؤد إلبعمار الأرض، وكذلك توضيح أن السنن إذا تمسك بها المسلمون ستكون قاعدة للوصول للتطور في المجتمعات على مراد الخالق، وأن السنن تضبط التطور في المجتمعات على مراد خالقها الأعلم بها والأعلم بصالحها، والذي خلق الإنسان لإعمار كونه على مراده، وأنه إذا لم يقيم المسلمون بهذا الإعمار فسوف يستبدل بهم الله من يسير على سننه لضمان استمرار إعمار الكون، سواء أكانوا على الإسلام أم على غير دين الإسلام، و متمسكين بسنن الكون والخلق. وحاولت أيضاً أن السنن تحدد أهداف النشاط الاقتصادي حتى لا يترك سدًى يحقق نتائج كارثية يتغير بعدها القوانين ويمر المجتمع بكوارث، وحتى يصل للأصلح فالسنن تحدد مبدأ سير النشاط الاقتصادي كقوانين وضعها الخالق لسير المجتمع في الاتجاه الاقتصادي المرجو على مراد الله في كونه لإعمار الكون - أيضاً - على مراد خالقه.

في المبحث الثالث حاولت توضيح آراء بعض المفكرين الإسلاميين الذين اهتموا بالسنن، وقد ربط المفكرون المسلمون بين القيم الإيمانية والسنن الربانية، وأكدوا العلاقة الضرورية بينهما، فوضحوا ارتباط الهلاك بالذنوب والعدول عن حكم الله، وارتباط الرضا والازدهار والبركة بالتقوى وإقامه شريعة

الله والمحافظة على أوامره، وبينوا أن الذنوب تُهلك أصحابها كما يُهلك الوباء أهله، وتؤدي إلى الدمار على مستوى الفرد والجماعة، إما بقارعة من الله، أو بالانحلال البطيء الذي ينخر في جسد الأمة، وأنَّ العدول عن سنن الله - تعالى - يؤدي للتخلف والعجز والشقاء، ويلاحظ أن ترتيب العلماء والفقهاء والكتاب في هذا الفصل جاء حسب الترتيب الزمني للوفاة، ويظهر من آرائهم أن المفكرين القدامى منهم مثل ابن حزم وأبي حامد الغزالي لم يؤصلوا لمعنى السنن الإلهية لفظياً، ولكن تأصيلهم كان معنياً بفهم قوانين الله في الكون ومع البشر؛ لأنهم كانوا يتمتعون بثقافة سننية، وليس بعلم سنني، ولكن الإمام ابن تيمية قد ركز على طبائع الأشياء، وكون منهجاً لاستخلاص القوانين الإلهية التي تؤدي للتقدم والسعادة.

ومع الإمام محمد عبده جاء التعريف المحدد للسنن الإلهية، وكان له رأي في كيفية السير في الأرض واكتشاف السنن، وأن التمسك بالسنن يؤدي للسعادة، والابتعاد عنها يؤدي للشقاء، وهو أول من أشار إلى أهمية تدوين هذا العلم، وقد تزامن معه، وسار على نهجه تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار والذي به مواضع عديدة تضمنت تفسير الآيات بمفهوم سنني، وقد رأي أن علم الاجتماع الغربي أصله إسلامي، ولا مانع من الأخذ منه والإضافة إليه.

وكذلك سيد قطب الذي حاول أن يوضح الخلل في الفكر وفي الواقع، وذهب لبحث عن طرق إصلاح هذا الخلل بفكر سنني واضح، ثم ظهر مالك بن نبي الجزائري وهو يشبهه في تحليلاته ابن خلدون الذي قسم الحضارة

إلى مراحل، لكل مرحلة قوانينها وسننها، وقد ساهم كل من هؤلاء المفكرين بجزء لا يستهان به من تأسيس هذا العلم.

ومما سبق تبين ما يلي:

أولاً: أن السنن الإلهية لم تدون كعلم له قواعده، ولكنها كانت محفورة في أذهان وعقول وتعاملات المسلمين الأوائل، وذلك من فهمهم للقرآن الكريم وإدراكهم للمعاني التي تضمنتها القصص القرآنية، ومع الوقت عندما بدأت المعرفة باللغة العربية وبالقرآن ومعانيه ولغته تندثر تحت وطأة الاستعمار والغزو الفكري بدأت تقل معه المعرفة بالسنن الإلهية.

ثانياً: أثار الكثير من الباحثين أن الكتابات عن السنن الإلهية قليلة، ولكن بالبحث ظهر أن الكتابات الخاصة بالسنن الإلهية متوفرة منذ العصور القديمة من قبل زمن ابن خلدون وما بعده حتى عصرنا الحالي.

ثالثاً: أن على الباحثين في الاقتصاد الإسلامي واجباً كبيراً، وهو القيام باكتشاف السنن الإلهية في الاقتصاد وتدوينها لتنير الأفق أمام الأجيال القادمة.

رابعاً: الدين الإسلامي بتشريعاته لا يفصل الاقتصاد عنه أبداً، والسنن الإلهية جزء من الدين، إذا اتخذناها قاعدة لتعاملاتنا فسوف نحاول أحكام طريقة تطور المجتمع في سائر مجالات الحياة، ومنها المجالات الاقتصادية، وستكون السنن الإلهية هي القانون الحاكم لهذا التطور في الإطار الذي وضعه الخالق للتطور المطلوب؛ وذلك لضمان إعمار الأرض على مراد الله، وذلك بتحديد أهداف النظام الاقتصادي مسبقاً، وما يؤدي إليه الالتزام بها من إعمار ورخاء.

الفصل الثاني

فكر ابن خلدون في التطور الاقتصادي

في هذا الفصل سنحاول الإجابة على تساؤل: هل للمفكر ابن خلدون مساهمة في موضوع السنن الإلهية؟ وهل كان يتمتع بثقافة سننية أثرت على آرائه في عملية التطور؟ وقد قسمنا محتويات الفصل كما يلي:

المبحث الأول: التعريف بابن خلدون

المطلب الأول: ترجمة ابن خلدون.

المطلب الثاني: ابن خلدون ومرجعياته الإسلامية.

المطلب الثالث: تأثير ابن خلدون في الفكر الغربي.

المبحث الثاني: التطور في فكر ابن خلدون

المطلب الأول: التطور الاجتماعي عند ابن خلدون.

المطلب الثاني: التطور الاقتصادي عند ابن خلدون.

المطلب الثالث: تطور العمران وتأثيره على التطور الاقتصادي.

المبحث الثالث: تطور العمران الاقتصادي بالسنن عند ابن خلدون

المطلب الأول: سنن التطور الاجتماعي في فكر ابن خلدون.

المطلب الثاني: مذهب ابن خلدون الاقتصادي.

المطلب الثالث: سنن التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون.

المبحث الأول

التعريف بابن خلدون

المطلب الأول: ترجمة ابن خلدون.

المطلب الثاني: ابن خلدون ومرجعياته الإسلامية.

المطلب الثالث: تأثير ابن خلدون في الفكر الغربي.

المطلب الأول

ترجمة ابن خلدون

أولاً: من هو ابن خلدون

ترجم ابن خلدون لنفسه فقال عن نسبه أنه " عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون. لا أذكر من نسبي إلى خلدون غير هؤلاء العشرة، ويغلب على الظن أنهم أكثر، وأنه سقط مثلهم عدد؛ لأنَّ خلدون هذا هو الداخل إلى الأندلس"^١.

وابن خلدون عربي الأصل كما ذكر هو بنفسه عن ذلك، وكان النسب العربي شرقاً يتباهي به الأقباط حينئذ " ولم نجد أحداً من خصوم ابن خلدون أنفسهم - وما كان أكثر خصومه - يطعن في نسبه العربي الذي كان يحرص

(١) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، (١٩٧٩م)، ص ٣.

ابن خلدون على تسجيله في معظم ما يكتبه، ولو كان الشك يحوم حول نسبه في نظرهم ما ترددوا عن الطعن فيه، وخاصة أنه كان من بينهم المتمكنون من معرفة الأنساب كالعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني^١.

ونستطيع أن نقول عن ألقابه وكنيته أنه " هو عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون فاسمه عبد الرحمن، وكنيته أبو زيد، ولقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون، ويظهر أنه قد اكتسب كنية أبو زيد من اسم ابنه الأكبر حسب ما جرت عليه عادة العرب في الكنية، وإن كنا لا نعرف عن طريق يقيني أسماء أولاده. وأما لقب (ولي الدين) فقد لقب به بعد توليه وظيفة القضاء في مصر"^٢.

كان جد ابن خلدون الأول (محمد بن أبي بكر محمد) رجل سياسة تقلب في مراتب الدولة في ظل بني حفص، وكذلك في ظل زعيم الموحدين حتى اعتزل الحياة العامة، ولكنه ظل على نفوذة ومكانته حتى توفي، أما أبوه أبو عبد الله فقد عزف عن السياسة وأثر الدرس والعلم، فقرأ وتفقه وكان مقداً في صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه وتوفي سنة ٧٤٩هـ عن خمسة أبناء هم: عبد الرحمن (صاحب المقدمة وكان حينئذ في الثامنة عشرة من عمره) وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم، ولم ينه منهم إلى جانب عبد الرحمن (صاحب المقدمة) سوى يحيى (أبو زكريا) الذي تولى الوزارة فيما بعد^٣.

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، الطبعة السادسة، أبريل ٢٠١٢، الجزء الأول، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٩.

(٣) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٦-٣٧.

و" يعد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون من الشخصيات الإسلامية الفذة في العصور الوسيطة، وهو وإن كان مغربي الميلاد والنشأة والثقافة، فقد ولد في تونس سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) وظل يقيم في أقطار المغرب حتى سنة ٧٨٤هـ قسمة بين المغرب والمشرق؛ لأنه عاش في هذا القسم الثاني من الوطن الإسلامي، وفي مصر على وجه التحقيق ما يناهز ربع قرن من الزمان، فقد وصل إلى القاهرة سنة ٧٨٤هـ، وتوفي ودفن في مقابرها سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)"^١.

وأما الجانب الثقافي لابن خلدون فيتمثل في تعلمه للعلم وعطائه فيه، وكان يتميز بعمق فكره ودقة ملاحظاته واستقراءه للأحداث، وكان بشخصيته جوانب متميزة، فكان جيد التحصيل، فحفظ القرآن، ودرس علومه، ودرس الحديث والفقه وأصول اللغة والأدب والتاريخ والمنطق والفلسفة، وجلس ابن خلدون للتدريس في معظم البلدان التي أقام فيها، فجلس بمساجدها وحلقات دروسها، وكان له تلاميذ ومتابعون كان لهم فيما بعد شأن كبير، وكان ما يميز شخصيته حسن فهمه للأمور السياسية، وفطنته فيها، وهو جانب آخر من شخصيته، وقد أثر هذا الجانب على حياته، فقد " كان رجل سياسة إلى جانب كونه رجل فكر وعلم وثقافة، ولقد أفاد من السياسة كثيراً فتقلد أسمى المناصب من وزارة وسفارة وحجابه، كما أنه لقي منها أسوأ العواقب، فدخل بسببها الحبس أكثر من مرة، ويمكن القول في هذا السبيل أن شخصية ابن خلدون كانت تجتذب أنظار السلاطين والرؤساء، فلقد اجتذبت شخصيته

(١) الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، د. مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الثالثة (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)، ص ٢١.

نظر سلطان تونس؛ فعينه منصب (كاتب العلامة) ولما يكن قد بلغ الثامنة عشرة من سنه " ١؛ وذلك لأنه كان شخصية جذابة فكريًا وسياسيًا، وكانت جاذبية شخصية ابن خلدون تثير حوله الغيرة والحسد وأحيانًا التجني. " ويبدو مبلغ تجني خصومه ومنافسيه عليه، وما كانوا يضمرونه له من حقد وحسد وانحذارهم في خصومته إلى درك وضيق لا يليق بالعلماء من خلال ما جرت به أقلام بعضهم في قذفه وإصاق التهم به، حتى إن المحافظ ابن حجر العسقلاني نفسه - وهو المحدث والمؤرخ الكبير - ليذكر في ترجمته لابن خلدون أنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر، وانه لما ولي المنصب تنكّر للناس، وأنه لما دخل القضاة للسلام عليه لم يقيم لأحد منهم، واعتذر لمن عاتبه عن ذلك " ٢.

ثانيًا: حياة ابن خلدون

نستطيع أن نقول أن حياة ابن خلدون مرت بأربع مراحل؛ لكل مرحلة نشاطها الخاص:

المرحلة الأولى من ميلاده سنة ٧٣٢هـ حتى ٧٥١هـ، وهي عشرون سنة قضاهما في مسقط رأسه بتونس، وقد حفظ فيها القرآن، وجوده، وحصل فيها العلوم، وكان والده معلمه الأول، وقد درس العلوم الشرعية - من تفسير وحديث وفقه مالكي وهو مذهب أهل المغرب - وكذلك درس النحو والصرف والبلاغة والأدب والمنطق والفلسفة والرياضة والعلوم الطبيعية، وحاز إعجاب جميع أساتذته وقتئذ، وقد ذكر ابن خلدون أسماء أساتذته الذين تلقى العلوم

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

(٢) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٤-١٥.

على أيديهم في كتاب "التعريف"، ولما بلغ ابن خلدون الثامنة عشرة من عمره حدث له ما أعاقه مؤقتاً على تكملة مشواره العلمي، وهو الطاعون الجارف الذي أهلك أبويه وأفضل معلميه من الشيوخ، وهذا الطاعون جعل باقي معلميه يرحلون من تونس إلى المغرب، فتعذر عليه بعد ذلك متابعة الدراسة، ومن هنا تغير مجرى حياته إلى الوظائف والسياسة والسير في طريق جده السياسي، وأخذت الوظائف والمناصب السياسية وقته وجهده ونشاطه لمدة خمسة وعشرين عاماً، وذلك على غير حب ولا رغبة؛ لأنها بعيدة عن مطامحه الحقيقية، وهي العلم والاطلاع.

المرحلة الثانية وهي مرحلة الوظائف السياسية والديوانية، وهي من أواخر ٧٥١هـ حتى أواخر ٧٧٦هـ، وهي خمسة وعشرون عاماً قضاها متنقلاً بين البلاد يتقلد الوظائف الديوانية والسياسية، والتي استغرقت معظم جهده وفكره، وقد اعترف ابن خلدون بأنه - في هذه المرحلة - بسبب ممارسة السياسة تحول إلى إنسان يمارس انتهاز الفرص، ويتحول في مواقفه من مؤيد إلى متآمر بسبب السياسة. " فكان لا يضيره في سبيل الوصول إلى منفعه وغايته الخاصة، أو في سبيل اتقاء ضرر متوقع أن يسيء إلى من أحسنوا إليه، ويتآمر ضد من غمروه بفضلهم، ويتنكر لمن قدموا له المعروف، وظلت هذه النزعة رائدة في مغامراته السياسية وعلاقاته بالملوك والأمراء والعظماء منذ صلته بوظائف الدولة حتى مماته " ١.

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٢.

ولا نستطيع أن ندينه أو نصفه، ولكن حال المغرب العربي في هذه الفترة من الناحية السياسية كان غير مستقر ربما لو كان فعل غير ذلك لما نجا بحياته من هذه التقلبات السياسية الخطيرة.

المرحلة الثالثة وهي مرحله التفرغ للتأليف من أواخر ٧٧٦هـ إلى أواخر ٧٨٤هـ وهي ثماني سنوات، والتي ألف فيها كتاب: " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والقسم الأول من هذا الكتاب ما يطلق عليه مقدمة ابن خلدون، ولم تستغرق المقدمة في تأليفها سوى خمسة أشهر فقط.

وفي هذه الفترة عقد ابن خلدون العزم على ترك السياسة والانقطاع للقراءة والتأليف وكان " ابن خلدون حينئذ في نحو الخامسة والأربعين من عمره، وقد نضجت معارفه، واتسعت دائرة اطلاعه، وارتقى تفكيره، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته في شئون الاجتماع الإنساني على العموم، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن في غمار السياسة متقلبا في خدمة القصور والدول المغربية والأندلسية يدرس أمورها، ويستقصي سيرها وأخبارها، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وأحوالها وتقاليدها"^١.

ولعل ما حدث له من ممارسات سياسية، ووجوده في تقلبات سياسية كبيرة هي إرادة من الله - تعالى - ليكتب لهذا الرجل أن يكتسب الخبرات الكبيرة حتى يستطيع أن ينشئ علم الاجتماع؛ وذلك لأن طبيعة عقله وذكائه جعلته يختزل كل خبراته هذه ليؤلف مقدمته في خمسة أشهر، وكتابه الشهير " العبر"

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٧٤.

في أربع سنوات، " ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها، وأن ذهنه الباحث الأملجي لا يفتأ يحتزن المعلومات، وأن عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق، ويوازن بينها، ويستخلص النتائج، وأن كل ذلك كان يجري في صورة لا شعورية، أوفي صورة قريبة من ذلك، وأنه عندما تهيأ له شيء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة، وبدأت النتائج التي انتهت إليها العمليات العقلية اللاشعورية، فأشرقت من خلال ذلك بحوث المقدمة إشراقاً، وتدفت الأراء والأفكار تدفقاً في صورة دعت إلى دهشته هو نفسه، كما دعا مثلها إلى دهشة كثير من العباقرة والمخترعين^(١)، وقد أثمر انقطاعه للتأليف والكتابة في قلعة ابن سلامة عن تحفة عقلية أهداها للعالم أكمل.

المرحلة الرابعة وهي مرحلة التدريس والقضاء من أواخر ٧٨٤هـ إلى أواخر ٨٠٨هـ وهي أربعة وعشرون عاماً قضاها كلاً في مصر، وهي مرحلة التدريس والقضاء، والتي أخذت أكبر وقت من جهده ووقته، وبدأت هذه المرحلة عندما وصل ابن خلدون للأسكندرية ليستعد منها إلى الحج، ولم يوفق في ذلك، فذهب للقاهرة.

" وكانت هذه أول مرة يرى فيها القاهرة، وقد وصف وقعها في نفسه ومظاهر الحضارة فيها وصفا رائعا في كتابه "التعريف" إذ يقول: فانتقلت إلى القاهرة أول ذي القعدة، فرأيت حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الدر من البشر، وإيوان الإسلام، وكروسي الملك تلوح القصور والأواوين في الوجوه، وتزهو الخوانك والمدارس بأفاقه، وتضيء البدور والكواكب من

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٧٥.

علمائه، قد مثل بشاطئى بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه، ويجي إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت في سسكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعيم، ومازلنا نتحدث عن هذا البلد وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال"^١.

وقد حظى ابن خلدون بالترحيب والكرم من ملكها وعلمائها فأكرموا وفادته، وقد قام ملك مصر حينئذ - وهو السلطان الظاهر برفوق - بتعيينه في منصب تدريس الفقه المالكي بالمدرسة القمحية بالفيوم، وفي نفس العام عين ملك مصر ابن خلدون قاضى قضاة المالكية، وحينئذ لقب "ولي الدين" وهذا المنصب كان من أرقى المناصب، وكان القضاء في مصر - حينئذ - يسوده الفساد والميل إلى الهوى، وسعى ابن خلدون لتحقيق العدالة بأدق معانيها وأحسن في ذلك بشهادة من عاصروه، واشتهر بالصرامة في القضاء، وحرصه على المساواة بين الجميع أمام القانون، وابتعاده عن المحاباة.

وكان سبب السخط عليه أنه كان مغريباً، ومنصب قاضى القضاة هو منصب من أهم المناصب التي يطمح لها العلماء المصريون، وكذلك فإن عبقريته ونبوغه في مختلف فروع العلوم والأدب أثارت غيرة علماء مصر لعجزهم عن اللحوق به، وكذلك اعتزازه بنفسه، فكان يبدولالأخرين بأنه زهو متكبر على الناس، لكل هذا زاد السخط، واشتدت الوشايات، وألحقوا به تهماً كاذبة، مثل الجهل بإجراءات القضاء، وكل هذه الأمور جعلت ابن خلدون يزهد في المنصب، بالإضافة إلى هلاك أهله وماله جميعاً وكتبه أيضاً في غرقهم في مرسى الإسكندرية؛ ولذلك اشتد زهده، ولم يقاوم الوشايات،

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٨٠، ٨١.

وأعفي عن منصبه ٧٨٧هـ أي بعد عام واحد من ولايته، ولم يكن ابن خلدون ممن سخط عليهم الملك بدليل تعيينه أستاذًا للفقهِ المالكي في المدرسة الظاهرية البرقوقية، ولكن الوشايات استمرت فأعفى السلطان ابن خلدون منها، ثم اعتزم ابن خلدون الحج سنة ٧٨٩هـ، ثم بعد عودته ولاة السلطان منصب كرسي الحديث بمدرسة "صرغتمش" والذي درّس فيه كتاب الموطأ، وبعدها بثلاثة أشهر تم تعيينه شيخًا لخانقاه بيبرس، ولكنه لم يعرف عنه مزاولة التصوف عمليًا أو التزهّد أو الاعتكاف، ولكنه عزل عن وظيفة شيخ خانقاه بيبرس بالوشاية أيضًا، وبعد مرور أربعة عشر عامًا عين مرة أخرى لمنصب قاضي قضاة المالكية، وقد أستاذن السلطان للسفر لزيارة بيت المقدس ومشاهدة آثاره فأذن له، وبعد رجوعه من رحلة بيت المقدس بثلاثة شهور عزل من منصبه، وكان العزل بسبب فساد الجهاز الحكومي بمصر، ويذكر ابن خلدون ذلك بقوله: " وكان بمصر فقيه من المالكية يعرف بنور الدين ابن الخلال ينوب أكثر أوقاته عن قاضي قضاة المالكية (أي ينتدب مؤقتًا للقيام بأعمال قاضي قضاة المالكية في أثناء غيابه مثلاً أو مرضه) فحرضه بعض أصحابه على السعي في المنصب، وبذل ما تيسر من موجوده لبعض بطانة السلطان الساعين له في ذلك، فتمت سعائته في ذلك، ولبس (أي لبس كسوة القضاء) منتصف المحرم سنة ثلاثة وثمانمائة، ورجعتُ أنا للانفعال بما كنت مشتغلاً به من تدريس العلم وتأليفه"^١

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٩٥.

وهكذا استمرت الوشائيات والحرب عليه حول منصب القضاء، وظل المنصب يتداول بينهم، يتولاه ابن خلدون في حال انتصاره، ويتولاه علماء مصر حين ينتصرون عليه.

ثالثاً: أهم أعماله ووفاته

من أهم أعمال ابن خلدون هو كتاب كبير ألفه في التاريخ " سماه كتاب (العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) والذي جرت العادة باختصار اسمه في كلمتي (كتاب العبر)"^١، ولهذا الكتاب مقدمة من أعظم المقدمات التي يمكن أن تقدّم لكتاب، والتي قدمها ابن خلدون للعالم أجمع كأعظم مادة علمية لإنشاء علم جديد.

ومقدمته " التي أنشا فيها علمًا جديدًا - وهو ما نسميه الآن (علم الاجتماع) أو (السياسيولوجيا) (la sociologies) - أتى فيها بما لم يستطع أحد من قبله أن يأتي بمثله، بل بما عجز كثير ممن جاء بعده من أئمة علماء الاجتماع أن يصل إلى شأوه، والتي تدل بحوثها على رسوخ قدمه في طائفة كبيرة من العلوم الأخرى"^٢.

وقد اهتم ابن خلدون بمراجعة وتنقيح كتابه الكبير؛ حيث إنه " لم ينقطع في أثناء إقامته الطويلة بمصر - التي استغرقت زهاء أربع وعشرين سنة هجرية -

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١١١.

(٢) علي عبد الواحد وافي، عبقریات ابن خلدون، شركه مكنتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م)، ص ١٣.

من مراجعة مؤلفه الكبير ومقدمته، فأضاف إلى تاريخه (العبر) عدة فصول، ووسع بوجه خاص أبحاثه المتعلقة بتاريخ الدول الإسلامية في المشرق وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية والأعجمية، ووصل في رواية حوادث المشرق والأندلس والمغرب إلى أواخر القرن الثامن الهجري، أي إلى ما قبل وفاته بأمد قصير " ١ .

ونحاول استعراض بعض نظريات ابن خلدون الاجتماعية التي أنشأها بشئ من الاختصار، فمن وجهة نظر طه حسين أن محورها الأساسي هو الدولة^٢. ويقول الدكتور علي الوردي على هذه النظرية الاجتماعية: " إن نظرية ابن خلدون تدور حول موضوع هو أوسع نطاقاً وأكثر شمولاً من موضوع العصبية أو موضوع الدولة، أنها - حسبما أظن - تدور حول البداوة والحضارة وما يقع بينهما من صراع، ويمكن القول أن لها جانبين؛ أحدهما سكوبي والأخر حركي، فالجانب السكوبي منها يتمثل في تعيين خصائص البداوة والحضارة، وكيف تظهر هذه الخصائص في كل منهما على حدة. أما الجانب الحركي من النظرية فيتمثل في دراسة التفاعل والتصارع بين البداوة والحضارة، وما ينتج عن ذلك من ظواهر اجتماعية مختلفة"^٣، ونجد أن في هذه النظرية فكرة الجانب السكوبي الثابت والجانب الحركي المتغير، وهما أساس أي بحث اجتماعي حديث الآن.

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

(٢) انظر: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد د. طه حسين، مطبعة الاعتماد، مصر، الطبعة الأولى (١٩٤٣هـ - ١٩٢٥م).

(٣) علي الوردي، منطق ابن خلدون، دار كوفان، لندن، الطبعة الثانية (١٩٩٤م)، ص ٧٤.

ويعد ابن خلدون أحد المؤسسين الكبار لعلم الاجتماع بهذه النظرية،
ونستطيع أن نقول بأن هذه النظرية لعلها من أهم أعماله على الإطلاق.

واستخدم ابن خلدون في كتاباته ثلاثة أنواع من المنطق:

الأول: المنطق الكشفي وهو للبحث في الأمور الإلهية.

والثاني: المنطق العقلاني، وهو للأمور القياسية كالمهندسة والحساب.

والثالث: المنطق الحسي، وهو لبحث الأمور الاجتماعية والسياسية وما
شابهها، ويجب أن نتحدث على أهم الأماكن التي درس فيها؛ وذلك لأنه قد
نشر أفكاره في هذه الأماكن، وتعلمذ على يديه فيها الكثير من المفكرين،
وهذا يعتبر من إنجازاته، ففي فترة أستاذه أخرج فكرًا تشبع به تلاميذه، فوجد
من "أهم الأماكن التي قام بالتدريس فيها جامع القصبة في مدينة بجاية،
وجامع القرويين في فاس، والجامع الأزهر في القاهرة، والمدرسة القمحية بجوار
جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، والمدرسة الظاهرية البرقوقية في حي بين
القصرين في القاهرة المعزية، والمدرسة الكاملية. إن التدريس في هذه الأماكن لم
يكن ميسورًا لجمهرة العلماء، وإنما كان مقتصرًا على خاصتهم والصفوة من
بين صفوفهم، وكان لا يتم إلا بأمر من السلطان، ولقد جلس إلى ابن خلدون
في مصر بعض التلاميذ الذين صاروا من مشاهير علماء الإسلام فيما بعد،
مثل شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، ومؤرخ الإسلام تقي الدين المقرئ،
وقد وصفا حلقات دروسه وصفًا عظيمًا"^٢

(١) انظر المرجع السابق، ص ٦٦.

(٢) مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، مرجع سابق، ص ٢٢.

وبعد رحله كبيرة حافلة بالعلم والكتابة والتدريس والتأليف والسياسة " وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ٨٠٨ هـ (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفي ابن خلدون بالقاهرة فجأة عن ستة وسبعين عامًا، وهكذا اطفئت سرج حياة وثابة مليئة بالنشاط وحافلة بجليل المآثر وروائع التفكير والابتكار، وأما مثواه الأخير فقد ذكر السخاوي بشأنه أنه دفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر، ويحدثنا المقريزي عن موقع هذه المقابر بما يفيد انها كانت تقع بين طائفة من المدافن التي شيدها الأمراء والكبراء في القرن الثامن خارج باب النصر في اتجاه الريدانية (العباسية الآن)..... ولا نعرف على وجه اليقين أين يقع هذا القبر، ولم يعن علماء الآثار الإسلامية على ما نعلم بالبحث عنه وتحديد موقعه، وهذا مظهر يؤسف له من مظاهر تقصيرنا في جانب هذا المفكر العظيم^١.

المطلب الثاني

ابن خلدون ومرجعياته الإسلامية

لقد لقي ابن خلدون شهرة واسعة في الأوساط الغربية بسبب كتاباته المبتكرة في علم الاجتماع، وقد ولع به الغرب وبكتاباته حتى إنهم حاولوا خلع عباءته الإسلامية من فكره وكتاباته حتى نجد " أن أحد الباحثين الغربيين - وهو دي بوير T.J.de boer (الهو لندي) - يذكر أن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية، ويشير باحث آخر هو ناتانيلشميت N.Schmidt الأستاذ في جامعه كورنل بأمریکا أن ابن خلدون إذا كان يذكر من خلال بحثه كثيرًا من آيات القرآن فليس لذكرها

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٨.

علاقة جوهريّة بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن^١، ونحاول في بحثنا إثبات أن ابن خلدون مرجعيته إسلامية من خلال الآتي:

أولاً: نشأة وحياة ابن خلدون الإسلامية

لقد ترجم ابن خلدون لنفسه، وكتب عن نشأته وأساتذته وكل من أثر في تكوينه وشخصيته الإسلامية ووعيه فقال: " أما نشأتي فأني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي - رحمه الله - إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن يرال الأنصاري ...، وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفطي، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة أفراداً وجمعاً في إحدى وعشرين ختمة ثم جمعها في ختمة واحدة ...، ودرست عليه كتباً جمّة، مثل كتاب التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه ...، وفي خلال ذلك تعلمت صناعة العربية على والدي ...، وأخذت الفقه بتونس عن جماعة، منهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحيايني وأبو القاسم محمد القصير، وقرأت عليه كتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي، ومختصر المدونة وكتاب المالكية، وتفقهت عليه، وكنت في خلال ذلك أُنْتَاب مجلس شيخنا الإمام قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام مع أخي محمد - رحمه الله عليهما - وأفدت منه، وسمعت عليه أثناء ذلك كتاب الموطأ للإمام مالك، وكانت له

(١) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلامياً، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م)،

فيه طرق عالية ...، وكتب لي وأجازني، ثم درجوا كلهم في الطاعون الجارف"^١.

ومن كلام ابن خلدون يظهر أن تنشئته في بلاد الإسلام وفي أسرة مسلمة وأساتذة فقهاء، فكيف نستطيع أن نخلعه من أصوله وجذوره الإسلامية، وكيف يمكن أن يتهمه المفكرون الغربيون بأنه يدخل آيات القرآن رياء لأرضاء القراء، وهذا شيء يرفضه العقل، ولكن نستطيع أن نفسر هذه الأراء بأن من يقولها رافض أن يكون هذا المفكر من جذور إسلامية أو رافض للإسلام ذاته بتعاليمه وتأثيره في معتنقيه، فلا ينكر نشأة وثقافة ابن خلدون الإسلامية إلا رافض للفكر الإسلامي ومنكر لعلمائه، وذلك لأن تعليم ابن خلدون للدين الإسلامي لم يقتصر على التلقي فقط، بل لقد أعطى هذا العلم لغيره، فهو حصل العلم ووهبه في كتابات وتدریس وقضاء، وتفوق ابن خلدون" في الجانب التحصيلي حفظ القرآن، ودرس علومه، كما درس الحديث الشريف والفقه والأصول واللغة والأدب والتاريخ، وأضاف إلى ذلك كله دراسة المنطق والفلسفة، وقد كان بعض علماء زمنه لا يحفلون كثيراً بدراسة العلمين الأخيرين، بل يجرمون دراستهما، وقد جلس ابن خلدون للتدریس في أكثر البلدان التي حل بها، وكانت المساجد الكبرى والمدارس الشهيرة - دون سواها - مقار لحلقات دروسه، كما كان تلاميذه من صفوة الدارسين الذي صاروا علماء مرموقين فيما بعد"^٢.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، مرجع سابق، ص ٢ - ١٧.

(٢) مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، ص ١٥.

وكذلك قد تولى ابن خلدون منصب قاضي المالكية " وكان منصب قاضي القضاة في مصر من أهم مناصب الدولة ومطمح أنظار الفقهاء والعلماء المصريين^١، وكان قاضي قضاة المالكية هو عميد على باقي قضاة الثلاث مذاهب الأخرى؛ وذلك لانتشار المذهب المالكي في معظم الدويلات الإسلامية حينئذ، ولا نستطيع خلع من يتولى هذا المنصب الإسلامي الكبير من صفته الإسلامية.

ثانيًا: نشأة وحياة ابن خلدون في ظل حكم إسلامي

لقد ولد ابن خلدون بتونس وهي دولة إسلامية، ونال قسطاً كبيراً من التعليم الديني بها، ولما أصاب أساتذته الطاعون توقف عن الدراسة " وقد تغير مجرى حياته، وأخذ يتطلع إلى تولي الوظائف العامة والاشتراك في شئون السياسة والسير في الطريق نفسه الذي سار فيه جداه الأول والثاني وكثير من قدامى أسرته، فاستأثرت من جراء ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه في أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من حياته^٢.

ويلاحظ أن هذه الفترة من حياته عاشها في ظل دولة إسلامية وثقافة إسلامية، ثم انتقل إلى الأندلس، وقضى بها سنتين ونصف، وبعد ذلك ذهب إلى بجاية، ومنها إلى بسكرة، ثم مرة أخرى إلى الأندلس، ويلاحظ أنها كلها بلدان إسلامية عربية، ثم ذهب إلى تونس، ثم إلى مصر، وكانت مرحله التدريس في الأزهر والتعيين في المناصب القضائية، وكانت نهاية حياته ووفاته

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد واوي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٨٦.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٤٧.

ودفنه بمصر، وهي حياة طويلة امتدت بين المناصب والتعليم والتدريس والتأليف كلها في ظل دول عربية إسلامية الدين والثقافة، وحتى المثوى الأخير له كان بمصر وهي دولة إسلامية.

وتظهر الحياة التي عاشها في ظل الدولة الإسلامية في تحليلاته وخبراته وكتاباته عن التاريخ الذي عاصره في هذه الدول الإسلامية فنجد " تفسيراته الملزمة لعديد من وقائع تاريخنا الإسلامي بالذات، وهو الساحة التي قلنا أن جل اختباراته انصبت عليها، وأنه مارس فيها معظم جوانب استقرائه الذي قاده إلى صياغة قوانينه الكثيرة التي ضمنتها مقدمته، وهو في هذا الاتجاه يمارس (تحليلًا) للتاريخ الإسلامي، أو بالأحرى لجوانب من التاريخ الإسلامي، يلقي المزيد من الأضواء على خصائصه وصيرورته" ^١.

ثالثًا: كتاباته الإسلامية

لا يخلو موضع من مقدمة ابن خلدون من ظواهر التأثير بالدين، سواء فيما يستشهد به من الآيات، أو بالأحاديث عن رسول الله ﷺ، ولا يتسع بحثنا لكل الآيات ومواضعها في المقدمة، ولكن سنتحدث عن موضع الشريعة في فكر ابن خلدون، وكيفية تأثيرها في الحكم بين الناس، ومقارنتها بالقوانين الوضعية، فنجده يؤيد الشريعة الإلهية في الحكم؛ لأنها من الله - تعالى - وليست من البشر؛ لأنهم في حقيقته الأمر متساوون أمام بعضهم، فكلهم مستخلفون للعمارة، ولا فضل لأحد على الآخر بسبب قوانين أو دساتير بشرية، ويرفض الإنسان هذه القوانين الوضعية البشرية ويقاومها، أما إذا

(١) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلاميًا، مرجع سابق، ص ٧٥.

جاءت هذه القوانين من الله - تعالى - فهنا يقبلها الناس وينصاعون لها ولأحكامها، فيقول ابن خلدون: "إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق، فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت، ولم تחדشها أظفار التأديب والحكم، قال عمر رضي الله عنه: (من لم يؤد به الشرع لا أدبه الله)، حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه، وبقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد"^١، وهنا يظهر احترامه لأحكام الشريعة، وبالتالي حكمه على كل من يتلقاها بأنه - أيضاً - يحترمها، ويرى بأنها أحكام يجب الخضوع لها ولأوامرها ونواهيها، ويعد هذا معتقد ابن خلدون في فكره تجاه شريعته الإسلامية

وكذلك تظهر إسلامية ابن خلدون عند كتابته عن الترف، واهتمامه بهذا الموضوع مستمد من آيات الله - تعالى - عن الترف فنجد " أن ابن خلدون - في تأكيده المستمر على دور الترف في تاريخ الدول والجماعات - لا بد أنه استمد اهتمامه هذا من القرآن الكريم الذي كثيراً ما كان يلجأ إلى آياته ليؤكد وجهات نظره، ويعزز مقولاته، هذا فضلاً عن ثقل النتائج التي قاده إليها استقراؤه لتاريخ الدول والجماعات، حيث كان الترف يبدو كذير السوء"^٢.

ويظهر حس ابن خلدون الديني في مقدمته باستشهاده بالآيات، ونرى أن ابن خلدون أحياناً يبرهن على ما يقول بآية قرآنية مثل قوله في طبائع البشر: " اعلم أن الله - سبحانه - ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى " وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ " (البلد: ١٠)، " فَأَهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا " (الشمس: ٨)،

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٨.

(٢) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلامياً، مرجع سابق، ص ٦٢.

والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في مرعى عوائده، ولم يهذهبه الاقتداء بالدين^١، فهنا يبرهن ابن خلدون على طبائع البشر من كتاب الله وآياته سبحانه، ومن كلماته - أيضاً - المنتشرة بالمقدمة (والله أعلم)، (والله يجب المتقين)، (والله وارث الأرض وما عليها)، (والله عالم الغيب والشهادة)، (والله بكلّ شئ عليم)، (والله ورسوله أعلم)، (سنة الله في خلقه)... إلخ، وكل هذا يبرهن على إسلامية الفكر والمعتقد لابن خلدون.

المطلب الثالث

تأثير ابن خلدون في الفكر الغربي

عندما نتحدث عن ابن خلدون وتقييمه في العالم الغربي، وعلى وجه الخصوص تأثيره في الحضارة الغربية نجد أنفسنا نتحدث عن:

أولاً: ابن خلدون وريادته في تأسيس وإنشاء علم الاجتماع

تحدث ابن خلدون في مقدمته على أنه قام بإنشاء علم جديد وهو علم العمران البشري، وقد أرسى قواعد لتدوينه والتحقق من صحة نقله فقال: " وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه، وحينئذ فإذا سمعنا عن شئ من الأحوال الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بقبوله مما نحكم بتزييفه، وكان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٩.

والصواب فيما ينقلونه...، وكأن هذا علم مستقل بنفسه: فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل، وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعياً كان أو عقلياً، واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدى إليه الغوص...، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليفة"^١

وبعد أن شهد لنفسه ابن خلدون بأنه التفت لهذا العلم، فإن العالم كله اعترف بريادته في تأسيس هذا العلم حيث إنه " يشهد تاريخ الريادة في نظرية العلم بأن علم الاجتماع ولد على يد (ابن خلدون)، وأعطاه اسمه، وكتب له شهادة هذا الميلاد (أوجيست كونت)^٢، وهو وإن كان قد بلغ سن الرشد على يد (ماركس)^٣، وهذا الأمر لم يكن شيئاً غريباً، بل هو أمر طبيعي لامتداد حضارة الأمة الإسلامية في هذا الوقت، فابن خلدون عايش انهيار الحضارة الإسلامية، ومنها استنتج علمه، وقد شهد كتاب غريون بريادة ابن خلدون في هذا العلم، وقد نقل الدكتور علي عبد الواحد وافي بعضاً من أقوالهم في فقرة طويلة، فقال: " ومن هؤلاء العلامة " لودفيج جمبلوفتش " (L.gumplowicz) الذي يقول - بعد أن حلل كثيراً من نظريات ابن خلدون - : (لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل " أوجيست كونت"، بل قبل " فيكو " الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول عالم أوربي في علم الاجتماع،

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٢) انظر ملحق الإعلام.

(٣) عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عالم المعرفة، ص ٥٢.

جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بأراء عميقة، وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع)، ومنهم كذلك العلامة (كولوزيوس colosid s) الذي يقول في مجلة (العالم الإسلامي) الفرنسية: (إن مبدا الحتمية الاجتماعية determinis-me - أي الجبرية في ظواهر الاجتماع، وهو المبدأ الذي يقوم عليه علم الاجتماع - يعود الفضل في تقريره إلى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الوضعية (positivisme) يقصد " أوجست كونت " ومدرسته، ومنهم كذلك العلامة فارد vard الأمريكي الذي يقول في كتابه (علم الاجتماع النظري): {كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بمبدأ الحتمية في الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو Montesquieu) أو (فيكو vico)، مع أن ابن خلدون قد قال بذلك وأثبت خضوع الظواهر الاجتماعية لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة، فقد قال بذلك في القرن الرابع عشر } . ومنهم كذلك العلامة (شميث M.schmidt) الذي يقول في كتابه الذي أصدره سنة ١٩٣٠م عن (ابن خلدون: عالم الاجتماع، والمؤرخ، والفيلسوف): (إن ابن خلدون قد تقدم في علم الاجتماع إلى حدود لم يصل إليها " كونت " نفسه في النصف الأول من القرن التاسع عشر...، وإن المفكرين الذين وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فاستعانوا بالحقائق التي كان قد اكتشفها والمناهج التي أحدثها في الدراسة ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم كثيراً مما تقدموا به)^١.

ثانياً: ابن خلدون مؤرخاً

(١) على عبد الواحد وافي، عبد الرحمن ابن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، مكتبة مصر، ص ٢٦- ٢٨.

كان لابن خلدون رأي في كتابة التاريخ، وقد تحدث عن أسلوب كتابته لدى من سبقوه وأن بعضهم كتبه بألوان من التحريف والتزييف، ولم تفتن لذلك الأجيال المتتابعة فيقول:

" وإن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام، وجمعوها، وسطروها في صفحات الدفاتر، وأودعوها، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل، وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفي تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب قليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم ووبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والنأقل إنما هو يملئ وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلوها صفحات الصواب ويصقل " ١ .

ومن هذا الفكر كان التنقيح للأخبار والمصدقية في النقل في تاريخ ابن خلدون للأحداث، وإذا " نظرنا إليه على أنه مؤرخ - فقط - كان من أبرز أقرانه حتى بين المؤرخين العرب الذين عرفوا بتفوقهم في هذا الفن... وإذا نظرنا إليه من الناحية النظرية في كتابة التاريخ فإننا لا نجد من نقرنه به في كل زمان ومكان حتى مجئ "فيقو" بعدة بثلاثة قرون كاملة، فلا أفلاطون ولا أرسطو ولا

(١) محمد صديق حسن خان، لقطه العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، الجزء الأول، ص ٢١٤، وانظر: مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، مرجع سابق، ص ٣٩.

القديس أوغسطينوس كانوا أنداذاً له، وجميع من عدا هؤلاء لا يستحقون أن يذكروا معه ذكرًا^١.

وتشمل مقدمة ابن خلدون على " بحوث تاريخية استمدتها من مشاهداته وقراءاته الخاصة التي لم يطلع عليها مؤرخو العرب من قبله، ومن بعض مصادر كانت موجودة في عصره ولم تصل إلينا، ويبدو هذا على الأخص في حديثه عن دول الإسلام في صقلية، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس، والممالك النصرانية في إسبانيا، وتاريخ دولة بني الأحمر في غرناطة، وقد نوه بقيمة هذه البحوث وأشاد بفضلها على التاريخ كثير من علماء الغرب في العصر الحديث، ومن هؤلاء العلامة " دوزي " (Dozy) الذي يصف رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى في إسبانيا بأنها منقطة النظر، ولا يوجد في بحوث علماء الغرب المسيحيين في العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها، وأنه لم يوفق أي عالم من هؤلاء إلى تدوين تاريخ عن هذه الدول في مثل الدقة والوضوح اللذين يتسم بهما تاريخ ابن خلدون"^٢.

المبحث الثاني

التطور في فكر ابن خلدون

المطلب الأول: التطور الاجتماعي عند ابن خلدون.

المطلب الثاني: التطور الاقتصادي عند ابن خلدون.

(١) عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة (أبريل ١٩٨٣)، ص ٦٩٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، ص ١١٤.

المطلب الثالث: تطور العمران وتأثيره على التطور الاقتصادي.

المطلب الأول

التطور الاجتماعي عند ابن خلدون

إن آراء ابن خلدون عن التطور الاجتماعي منها ما يمكن تعميمه، ومنها ما لا يمكن أن يكون صالحًا إلا لعصره، ومنها ما هو صالح مع التغيير في التطبيق، ويمكن القول بأن التطور عند ابن خلدون هو أساس تفكيره في المجتمع، وقد يكون هذا الأساس من قراءاته للسابقين عليه في كل المجالات، ولقراءاته في الفلسفات السابقة عليه، ولتأثره بأفكارهم، وقد بنى ابن خلدون عملية العمران والتطور على أساس أنه " ليس المجتمع في نظر ابن خلدون جامدًا تعوزه الحركة، المجتمع في تبدل وتغير مستمرين، وتطور المجتمع الإنساني من الطور البدائي إلى الطور البدوي إلى الطور الحضري، وما إليه من نشأة الزراعة والصناعة والتجارة، يتبع سنة نستطيع أن نلاحظها، ثم إن التطور الاجتماعي رهن عوامل مختلفة تشمل - فيما تشمله - عامل المناخ والتربة والغذاء والموارد المعدنية، وهي عوامل طبيعية جغرافية"^١

ونجد في فكره عدة عوامل تؤدي للتطور منها:

(١) ابن خلدون مؤرخًا، إعداد: حسين عاصي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤١١هـ - ١٩٩١م)،

أولاً: الاجتماع البشري أساس التطور

فكرة التطور عند ابن خلدون تبدأ بفكرة أساسية للتطور، وهي الاجتماع البشري، وأهمية الاجتماع لحدوث التطور في اتجاه العمران، ويكون ذلك بتوفير الغذاء والأمن وخلق نظام لعلاقات هذا الاجتماع بعضها مع البعض حتى لا يعتدي أحد على حقوق الآخرين، فيقول ابن خلدون: " إن الله - سبحانه - خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهده إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه بالقدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء، غير موفية له بمادة حياته منه. ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري...، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف^(١). وهنا يوضح أهمية الاجتماع لتوفير الغذاء، ثم ينتقل ليوضح أهمية الاجتماع لتوفير الأمن لهذا الإنسان فيقول: " وكذلك يحتاج كل واحد منهم - أيضاً - في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه؛ لأن الله - سبحانه - لما ركب الطباع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان...، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبه الله - تعالى - عليه من الحاجة إلى

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٣٤.

الغذاء في حياته، ولا يحصل له - أيضًا - دفاع عن نفسه لفقدان السلاح؛ فيكون فريسة حيوانات، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته، ويبتل نوع البشر، وإذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة، وتمت حكمة الله في بقاءه وحفظ نوعه".^١

وبعد الاجتماع وتحقيق التطور في الغذاء والأمن يجب أن يكون هناك ما ينظم علاقة هذا الاجتماع البشري، ويرى ابن خلدون أن خير منظم للاجتماع البشري هو إنسان يكون له مقومات دفع الناس عن بعضها البعض ومنع اعتدائهم، وهو ما يسمى بالملك، فيقول ابن خلدون: " فيكون ذلك الوازع واحدًا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، وهذا هو معنى الملك".^٢

وهنا يظهر أن التطور في اتجاه العمران البشري لا يتم إلا بالاجتماع؛ وذلك لأن "هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكتمل وجودهم، وما أراد الله من اعمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران".^٣

ثانيًا: تأثير جغرافيا الأرض في التطور

يرى ابن خلدون أن جغرافيا المكان لها تأثير على التطور في اتجاه العمران، وقد رأى ذلك من قبله جغرافيون ورحالة، ويرى ابن خلدون أن جغرافيا المكان لها تأثير على أشكال البشر وطبائعهم وأنشطتهم فيقول: " إن المعمور من هذا

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤ - ٣٤١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤٢.

(٣) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٤١.

المنكشف من الأرض إنما هو وسطه، لإفراط الحر في الجنوب منه، والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً. فالأقليم الرابع أعدل العمران، والذي حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما من الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً وأحوالاً...، وأما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم، فبنائهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخففونها عليهم أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس^١.

ثالثاً: التطور بالانتقال من البداوة للحضارة

نجد أن ابن خلدون قد أعطى للدولة عمراً كما للأشخاص أعمار، وهي ثلاثة أجيال، وتنتهي عمر الدولة وتهرم، وغالبا تسقط حضارتها، وهي تنتقل من مرحلة إلى مرحلة في عمرها، فيتحدث شارحاً المراحل والتطور تحت مسمى أجيال من بداية عمر الدولة، وهي مرحلة البداوة إلى مرحلة الهرم للدولة فيقول: " إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال؛ لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراء والاشتراك في المجد...، والجيل الثاني تحول حالهم بالملك (والرفه) من

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

البداءة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عرّ الاستطالة إلى ذل الاستكانة، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع...، وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداءة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ الترف فيهم غاية بما تفنقوه من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة...، وهم في الأكثر أجبن من النسوان على ظهو رها، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم^١.

وهنا يشرح ابن خلدون مراحل تطور الدولة في قوتها إلى هرمها، وهو نوع من أنواع التطور في فكر ابن خلدون.

رابعاً: الاقتداء بالحكام والرؤساء وبالغالب وأثره في التطور

المراد بالاقتداء هو اقتداء من الشعوب بالحكام والرؤساء أو بالغالب، وذلك بمحاولة تقليدهم في مظهرهم وأساليب معيشتهم، وذلك لإحساس الناس المحكومين أوالمغلوبين بعظم هذه الطبقات، فينظروا إلى الحكام على أنهم من أفضل الناس وينظروا للغالب على أنه الأفضل لوصوله للغلبة، ويرى ابن خلدون أن تغيير القادة والحكام يأتي بنوع من التطور الاجتماعي، وذلك حسب طبائع الحكام والرؤساء الجدد، ويرى ابن خلدون أن " السبب في التطور الاجتماعي يرجع إلى اختلاف نظم الحكم وتغيير الأسرات الحاكمة،

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٣٦- ٥٣٧.

وامتزاج عوائد كل أسرة من هذه الأسرات بعوائد الأسرة السابقة لها، والميل الطبيعي لدى المحكومين إلى تقليد الحاكمين، وذلك أنّ الأسرة الحاكمة تجيء بعوائد وتقاليدها تختلف عن عوائد الأسرة السابقة لها وتقاليدها، فتأخذ كثيراً من نظم الأسرة السابقة لها، ولكنها مع ذلك تظل محتفظة بطائفة من عوائدها وتقاليدها، فينشأ من ذلك مزيج اجتماعي جديد يحاكيه الشعب المحكوم ويسير عليه في شئونه، فحينئذ تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الانتقال والتطور في شئون العمران^١، وهنا يحدث تطور في المجتمع، كما يحدث - أيضاً - التطور بتقليد الغالب، ويقول ابن خلدون: " والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه: إما لنظرها بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها (صار) اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به، وذلك هو الاقتداء...، ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله"^٢، ونجد هنا نوعين من أسباب التغيير الاجتماعي.

خامساً: أثر الشريعة الإلهية في التطور

يعتبر ابن خلدون أن هناك نوعين من التطور، التطور الذي تؤدي إليه القوانين الوضعية، والتطور الذي يؤدي إليه الالتزام بالشريعة الإلهية، ويرى ابن خلدون أن هناك فرقاً بين وقع القوانين الوضعية ووقع القوانين الإلهية على نفس الإنسان؛ وذلك لأن الإنسان الذي تفرض عليه قوانين وضعية من صنع بشر

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٥.

وقد تكون قاسية أو لينة أو لا تتناسب مع النفس البشرية، وذلك عكس القوانين الإلهية التي وضعها الخالق الأعم بالذات بالنفس البشرية. ويرى ابن خلدون أن القوانين الوضعية قد تؤدي لتطور غير مرغوب فيه نتيجة لئس الناس وتوقعهم لحدوث ظلم؛ لأن واضعي هذه القوانين من البشر، أما الشريعة فإن التطور بها يكون نحو الأفضل؛ وذلك لإحساس الناس بعليه واضع القوانين وربوبيته عليهم. ويمكن القول بأن التطور الإيجابي يكون بالإيمان، لأن الطائع للشريعة والمنفذ لها هو المؤمن بالله - تعالى -؛ فيقول ابن خلدون: "فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشريعة فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتي؛ ولهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما يؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم وكهو لهم".^١

المطلب الثاني

التطور الاقتصادي عند ابن خلدون

هناك نوعان من التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون، تطور يحقق العمران الاقتصادي، وتدهور يحقق خراب العمران الاقتصادي، وتندرج تحت كل منهما نقاط تتضح فيما يلي:

(١) المرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٩.

أولاً: تطور العمران بالعمل:

يتحدث ابن خلدون عن العمل، وكيفية تحقيق العمل للتطور، وبناء المجتمعات، وأنه بالعمل يكتسب الرزق، فيقول ابن خلدون: " اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه، قال تعالى: " فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (العنكبوت: ١٧). والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله - تعالى - وإلهامه، فالكل من عند الله، فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول؛ لأنه إن كان عملاً بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع"^١. ويتحدث كذلك عن أن العمران هو سبب للكسب وقلة الإعمار هو مناف للكسب، فيقول: " واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب؛ ألا ترى إلى الأمصار القليلة السكن كيف يقل الرزق والكسب فيها، أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية، وكذلك الأمصار التي يكون أعمالها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالاً وأشد رفاهية"^٢. وهذا يعني أن نقص العمران ذاهب بالأرزاق.

ثانياً: تطور الإنشاءات بتطور الدولة

يقول ابن خلدون أن الدول إذا تطورت وأصبحت ممالك كبيرة تستطيع أن تشيد المباني والإنشاءات العظيمة، ويحدث لها تطور في الإنشاءات؛ وذلك

(١) المرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٨٣٣.

(٢) المرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٨٣٥.

لأنها تملك من التقدم في العدد والآلات والعلم ما يمكنها من إقامة هذه الإنشاءات، فيقول ابن خلدون: " إن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من أقطارها، وجمعت أيديهم على عملها، وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل أثقال البناء، لعجز القوى البشرية وضعفها عن ذلك، (كالميحال)^١ وغيره. وربما يتوهم كثير من الناس إذا نظر إلى آثار الأقدمين ومصانعهم العظيمة مثل إيوان كسرى وأهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب إنما كانت بقدرتهم متفرقين أو مجتمعين، فيتخيل لهم أجسامًا تناسب ذلك أعظم من هذه بكثير، في (أطولها وعروضها وأقطارها ليناسب) بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها، ويغفل عن شأن الهندام و(الميحال)، وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية "^٢.

ثالثًا: رخص الأسعار ضرر يؤثر على رءوس الأموال

يتحدث ابن خلدون عن رخص الأسعار وعن تكلفتها وتأثيرها السلبي على رءوس الأموال، والضرر الناجم من هذا الرخص، فيقول ابن خلدون بأن فرق السعر ما بين الشراء وإعادة البيع هو الربح: "ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائمًا؛ فإذا استديم الرخص في سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة، وكسدت سوق ذلك الصنف، فقعد التجار عن

(١) الميحال هي الخشبة التي يستقر عليها بناؤون أثناء تشييدهم للبيوت وهي ما يسميها العامة بمصر (السقالة)،

وقد شرحها الدكتور على عبد الواحد وافي في الجزء الثاني ص ٧٨٢.

(٢) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٧٨٢.

السعي فيها، وفسدت رعوس أموالهم^١. ولم يتحدث فقط عن التجار، بل كذلك تحدث عن الزراعة، ورخص الأثمان وتأثيرها عليهم، فيقول: " واعتبر ذلك أولاً بالزراع، فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلّة الربح فيه وندارته، أو فقده فيفقدون النماء في أموالهم، أو يجدونه على قلة، ويعودون بالإنفاق على رعوس أموالهم، وتفسد أحوالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة، ويتبع ذلك فساد حال المحترفين - أيضاً - بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولاً^٢."

رابعاً: زيادة الضرائب مع تطور الدولة

يقول ابن خلدون أن الدولة كلما اتسعت وزادت مواردها وأموالها اتسع معها الانغماس في الترف، واتسع معها الوظائف المختلفة، وحينئذ لا تستطيع الدولة سداد تكلفة زيادة الوظائف من الأموال العادية من الزكاة والخراج، فتنجس الدولة لفرض الضرائب على الأفراد حتى تستطيع سد حاجتها من الموظفين، فيقول ابن خلدون: " إذا كثرت الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف والوزائع^٣، فكثرت الجباية التي هي جملتها. فإذا استمرت الدولة واتصلت، وتعاقب ملوكها واحداً بعد واحد، واتصفوا بالكيس، وذهب سر البداوة والسداجة وخلقها من الإغضاء والتجاني، وجاء الملك العضوض، والحضارة الداعية إلى الكيس، وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التحذلق، وتكثرت عوائدهم وحوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف، فيكثرون

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥٤.

(٣) الوزائع هي ما يتوزع على الأشخاص من الأموال، وقد شرحها على عبد الواحد وافي في الجزء الثاني ص ٦٨٨.

الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكرة والفلاحين وسائر أهل المغارم، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقدارًا عظيمًا لتكثر لهم الجباية، ويضعون المكوس على المبيعات وفي الأبواب".^١

خامسًا: ممارسة التجارة من الدولة يفسد الضرائب

يقول ابن خلدون أن الدولة إذا زاد التزامها وموظفوها بسبب الترف اضطرت إلى ممارسة التجارة، ومنافسة التجار للحصول على الموارد الاقتصادية لسد العجز، فنتجته الدولة لعمل بعض الإجراءات لزيادة أموالها، سواء بزيادة الضرائب، أو الجمارك، أو بالعمل في الزراعة والتجارة ابتغاء المكاسب، ويقول ابن خلدون على قلة الأموال في الدولة: "وقصر الحاصل من جبايتها على الوفاء بحاجاتها ونفقاتها، واحتاجت إلى مزيد المال والجباية، فتارة (بوضع) المكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم، وتارة بالزيادة في ألقاب المكوس إن كان قد استحدث قبل، وتارة بمقاسمة العمال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على طائل من أموال الجباية لا يظهره الحسابان، وتارة باستحداث التجارة و(الفلح) للسلطان (حرصًا) على تنميه الجباية لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة أموالهم، وأن الأرباح تكون على نسبة رءوس الأموال، فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع، و(في) التعرض بها لحالة الأسواق، ويحسبون ذلك من إدرار الجباية وتكثير الفوائد، وهو غلظ عظيم، وإدخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة".^٢

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٦٨٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٩١.

ويرى ابن خلدون أن هذا النوع من النشاط من الدولة يؤثر على الرعايا بالسلب؛ وذلك لعدم التكافؤ في المنافسة بين الدولة وأفراد الشعب، فيقول: " فإن الرعايا متكافئون في اليسار (أو) متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضًا تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك - وماله أعظم كثيرًا منهم - فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد".^١

ويرى ابن خلدون أن هذا العمل من الدولة يجعل التجار والفلاحين ينصرفون عن العمل حتى لا تضيع أموالهم في منافسة مع السلطان، وبذلك تقل التحصيلات من الضرائب، ويقل دخل الدولة من الضرائب، فيقول ابن خلدون: " فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة، وقعد التجار، ذهبَت الجباية جملة أو دخلها النقص المتفاحش، وإذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية، وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة إلى الجباية أقل من القليل"^٢. وعلى ذلك فإن اشتراك الدول في الأنشطة الاقتصادية يضر عمومًا بأصحاب الصناعات والتجارات الخاصة.

المطلب الثالث

تطور العمران وتأثيره على التطور الاقتصادي

يرى ابن خلدون أنَّ الاجتماع البشري هو بداية العمران؛ ولهذا العمران تأثير على التطور في بعض الاتجاهات الاقتصادية، نذكر منها:

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٩١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٩٢.

أولاً: تطور العمران وتأثيره على تطور الصناعة الترفية وعلومها

يربط ابن خلدون بين التطور العمراني وعلاقته بالصناعات الترفية فيقول: " فإذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه، صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش...، وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة"^١. وهنا نجد ابن خلدون يتحدث عن صناعة الكماليات، وليس الضروريات فقط، فنجده يتحدث عن إنتاج السلع الترفيهية، والتي يزيد إنتاجها مع تطور العمران والبعد عن الحياة البدوية، وهو نوع من أنواع التطور بغض النظر عما إذا كان تطوراً إيجابياً أو سلبياً، حيث إن تطور الصناعات الترفيهية هو تطور سلبي؛ لأنه يزيد من الإنفاق الترفي، وهو مخالف للفكر الاقتصادي الإسلامي في الإنفاق، ويزيادة الصناعات الترفية تزيد كذلك علومها، ويرى ابن خلدون أن للعمران دوراً في تطور العلوم وتقدم الصناعة، وأن الصناعة وعلومها تتطور وتتقدم بالتطور العمراني، فيرى أنه إذا فاضت الخيرات والأموال يتجه الفائض للتعليم في صورة تعلم الصنائع المختلفة، وبالتالي تتطور الصناعات بصورة أكبر بالعلم، فيقول: " والسبب في ذلك أن تعليم العلم من جملة الصنائع، وقد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة؛ لأنه أمر زائد على المعاش، فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥٧-٨٥٨.

الإنسان، وهي العلوم والصنائع"^١، ورأي ابن خلدون في هذا الأمر غريب؛ حيث إن التعليم هو محدث التطور الصناعي، والتطور في الصناعة هو محدث العمران.

ثانياً: تطور العمران وزيادة الإنفاق

يرى ابن خلدون أن زيادة العمران باستقرار الملك يؤدي لزيادة الإنفاق " وذلك أن الأمة إذا تغلبت ومكنت ما

بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها، فتكثر عوائدهم، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته، ويذهبون إلى اتباع مَنْ قبلهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير لتلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون من ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفأخرون في ذلك ويفأخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره، وينبغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك، وترفهم فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها، سنة الله في خلقه، والله - تعالى - أعلم"^٢.

وقد ذكر ابن خلدون في أكثر من موضع مظاهر الإنفاق وزيادتها مع تطور الدولة وعمرانها فيقول أنه مع زيادة العمران وقوة الدولة " ينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال، ويحتجها للنفقات في مهمات الأحوال، فتكثر ثروته، وتمتلئ خزائنه، ويتسع نطاق جاهه، ويعتز

(١) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٩٢٩.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٣١.

على سائر قومه، فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولياً وشرطي، ويتسع جاههم، ويقتنون الأموال"^١، ومن مقولات ابن خلدون المتعددة يظهر تعدد أوجه الإنفاق مع العمران.

رابعاً: تطور العمران وتطور الحاجات

قسم ابن خلدون التطور في الحاجات البشرية إلى ضروريات وكماليات، ورتبهم حسب التقدم الاقتصادي للمجتمع، فقال: " إنَّ الناس ما لم يستوف العمران الحضري وتمتد المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش، وهو تحصيل الأقوات من الخنطة وغيرها، فإذا تمدنت المدينة وتزايد فيها الأعمال، ووفت بالضروري، وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش"^٢، ويقول الدكتور عبد الواحد وافي معلقاً على ذلك بأن " الاجتماع لتحصيل الضروري من المعاش سابق على الاجتماع لتحصيل الكمالي، المجتمع الزراعي والمجتمع الرعوي يتجه كلاهما إلى تحصيل الضروري من المعاش، ويقتضي نمط حياتهما المعيشية في البادية، ثم إذا اتسعت أحوال أحدهما طمح إلى الكمالي في الأقوات والملابس والمسكن واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ومن ثم ينشأ المجتمع الحضري، فالعمران البدوي سابق إذن على العمران الحضري، وكلاهما طبيعي في الخليقة، ويختلف مستوى المجتمعات الحضرية تبعاً لاختلافهما في درجة الحضارة، ويتمثل أهم نشاطها الاقتصادي في الصناعة

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٦٩٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥٧.

والتجارة، وتكون مكاسبهم أنمى من أهل البدو المشتغلين بالفلاحة والرعي"^١.

المبحث الثالث

تطور العمران الاقتصادي بالسنن عند ابن خلدون

المطلب الأول: سنن التطور الاجتماعي في فكر ابن خلدون.

المطلب الثاني: مذهب ابن خلدون الاقتصادي.

المطلب الثالث: سنن التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون.

المطلب الأول

سنن التطور الاجتماعي في فكر ابن خلدون

السنن الإلهية التي حث القرآن على فهمها واستخراجها والعمل بمقتضاها هي بمثابة القانون الحاكم للتطور سلبيًا أو إيجابًا، ونستطيع أن نسميها قاعدة افعل ولا تفعل، وكذلك هي قاعدة التنبؤ والتوقع بمعرفة نتيجة العمل مسبقًا، و"يقول ابن خلدون عن الذين بحثوا في القضايا الاجتماعية قبله أنهم كانوا يتبعون منهج الوعظ أو الخطابة، أي أنهم كانوا يحاولون الإتيان بالأقوال المقنعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه، أو في حملهم على منهج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، أما هو فلم يؤلف مقدمته لهذا الغرض أو ذاك، فليس هم أن يعظ الجمهور أو يدعوهم إلى اتباع الطريق القويم والأخلاق المحمودة،

(١) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ١٢٥٤.

بل كان قصده فيها أن يبحث في طبيعة الحياة الاجتماعية لكي يكتشف القوانين التي تسيطر عليها^١، والقوانين غالبًا تكون محايدة، ويتوقف على العمل بها النتائج، فإن كانت الأفعال حميدة فستكون النتائج حميدة.. وهكذا. ونستطيع أن نقول أن الكشف عن السنن الربانية واستخراجها هو اكتشاف لسير المجتمعات ومعرفة أسرارها، ونلاحظ أن اهتمام ابن خلدون في مقدمته ببعض النقاط لاكتشاف هذه القوانين سار كما يلي:

أولاً: دراسة التاريخ لاستخراج سنن التغيير والتطور عند ابن خلدون

يقول تعالى: " أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (الروم: ٩).

إن كتابة ابن خلدون في مقدمته عن أهمية التاريخ والسير في الأرض وتسجيل الأحداث يعني أنه منشغل بعلم

السنن الإلهية المرجوفعله في عالم المسلمين كعلم مستقل، وقد حث الله - تعالى - على السير في الأرض واستخراج السنن، بل نستطيع أن نقول أن هذا الأمر بالسير أمر إلهي لاستخراج وفهم القوانين الاجتماعية؛ وذلك لأعمال العقل وإمكانية التفرقة ما بين الخطأ والصواب، فقال تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " (الأنعام: ١١)، ويقول ابن خلدون في مقدمته عن أهمية دراسة التاريخ " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من

(١) علي الوردى، منطق ابن خلدون، مرجع سابق، ص ١٨.

الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط؛ لأنَّ الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب، فرما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار؛ فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط^١، وهنا يشير ابن خلدون لأهمية علم التاريخ وتتبع الأخبار في الأمم، وهذا يؤدي بالنظر والتأمل وتحليل وقائع التاريخ بطريقة علمية إلى معرفة السنن الإلهية؛ لقوله تعالى: " قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ " (آل عمران: ١٣٧)، وبذلك فإن ابن خلدون " يرى في حركة التاريخ وقائع وسنننا، انعكاساً لمشية الله - سبحانه - وقدره في العالم "

٢.

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٩١.

(٢) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلامياً، مرجع سابق، ص ٥٨.

ثانياً: سنة التغيير والتدافع تحتاج للعصبية القادرة عليه

يتحدث ابن خلدون عن السنن الربانية في تطور المجتمعات وتحولها من حال إلى حال وتغييرها عامة، سواء تغييرها من حالة ظلم بالكفر إلى حالة إيمان كما حدث مع الأنبياء والرسل، أو تغيير دول وحكام وزوالها بسنة التدافع، ووجد ابن خلدون أنه لا يتحقق ذلك إلا بوجود العصبية القوية القادرة على مواجهة الظالم، وإلا كانت هالكة بسبب قوة وجبروت الظلم، ونجد أن الوقوف أمام الظلم مثلاً إن لم يكن بقوة العصبية فهو انتحار، فسنة الله في خلقه وجود العصبية القوية الفاعلة للتغيير. يقول ابن خلدون أن "أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرف الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبهون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله - سبحانه - لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه، فقال ﷺ: " من رأي منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه"^١، وأحوال الملوك والدول رأسخة قوية لا يزحزحها ويهدم بنائها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر"^٢. ونجد هنا ابن خلدون يؤكد على وجود العصبية وأهميتها لإحداث التغيير الفعلي، وبذلك تكون العصبية للتغيير هي سنة إلهية كانت ومازالت،

١ (أخرج الإمام مسلم في صحيحه في باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان (٤٨) .

٢ (مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٥٢١ .

والدليل حدوث ذلك مع الرسل والأنبياء، فنجد أنّ " ابن خلدون يؤكد أكثر من مرة على أن حركة التاريخ حتى لو تزعمها الأنبياء أنفسهم عليهم السلام لا بد لها من أداة لتحقيق فعلها وإجراء تغيراتها، وإلا ما استطاعت أن تفعل شيئاً...، وهو يطرح تحفظه الذكي في هذا المجال: أن الأنبياء عليهم السلام مؤيدون من الله بالكون كله لو شاء، لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة والله عليم حكيم"^١، ونجد أن هذا الكلام يمكن تطبيقه كذلك على الأمم ودوام ملكها، ويتحدث ابن خلدون عن أن الملك لا يستمر ويدوم إلا بالعصبية التي تحافظ على وجوده، ويرى ابن خلدون أن العصبية تبحث عن التغلب على عصبية أخرى لتثبت قوتها ولتستمر قوية.

ويبدأ حديثه بآية عن سنة التدافع مشيراً إلى قوله تعالى: " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة: ٢٥١)، ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا، ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم، وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها - أيضاً - وزادت قوة في التغلب إلى قوتها، وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد...، وهكذا دائماً حتى تكافيء بقوتها قوة الدولة "^٢. وهنا نجد ابن خلدون يتحدث عن التطور والطريق إلى التغيير، سواء بإنهاء ظلم، أو بإنهاء حكم، أو بإنهاء دول، وهذا التغلب والتغيير - والذي يؤدي لتطور المجتمع -

(١) عماد الدين خليل، ابن خلدون إسلامياً، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٤٩٦.

لا يتم إلا بالعصبة القوية القادرة على تغييره، وهذا ما أجرى عليه الله - تعالى -
- سنة التغيير، بأن التغيير لا يتم إلا بقوة قادرة عليه وعلى مواجهته.

ثالثًا: سنة التغيير بالهلاك للقوى بسوء أخلاق أهلها وملوكها

يقول ابن خلدون أن الملك بيد الله - تعالى - يعطيه لمن يشاء، وإذا أراد انتزاعه ممن يشاء؛ لذلك أسرى على الأمم سنة الهلاك بسوء أخلاقهم، فحق عليهم القول، فيقول: " إن الله تأذن لهم بالملك، وساقه إليهم، وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم، ويتبدل به سواهم، ليكون نعيًا عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك، وجعل في أيديهم من الخير، " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا " (الإسراء: ١٦)، واستقرىء ذلك وتبعه في الأمم السابقة تجد كثيرًا مما قلناه ورسمناه، والله يخلق ما يشاء ويختار " ١.

ونجد هذا النوع من التغيير حدث للأمم قبلنا، وقد ذكرهم الله - سبحانه - في القرآن الكريم، وعلى سبيل المثال قوله تعالى: " كَذَّبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ " (الأنفال: ٥٤)، وهذا الهلاك بسوء الأخلاق والكفر والظلم هو سنة إلهية، ونجد ابن خلدون في معظم تفسيراته الاجتماعية واستخراج القوانين لا يخلو من فهمه للسنن الإلهية وحسن استيعابه لها.

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٦١.

رابعاً: سنة احتياج الاجتماع البشري إلى قوانين تنظمه

يرى ابن خلدون أن لكل اجتماع بشري نوعاً من الفوضى والهمجية التي يجب أن تحكمها قوانين، إما من الدولة أو من شرع الله - سبحانه وتعالى - وأن هذه القوانين سنة اجتماعية يجب اتباعها وإلا تحولت العصبية والتجمع البشري إلى هجمة شديدة فيقول ابن خلدون: " وتجيء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل، فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة، وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم، وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها، ولم يتم استيلاؤها " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا " (الأحزاب: ٣٨)، فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية، وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشعرها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة " ١ .

خامساً: سنة تأدية الترف إلى التغيير الأخلاقي وإزالة الشجاعة

يتحدث ابن خلدون عن أن البداوة سبب في الشجاعة، وأن الانتقال للحضر والتنعيم في الترف هو سبب قهرهم من الآخرين بسبب ذهاب خلق التوحش منهم والشجاعة، فيقول ابن خلدون شارحاً ومقارناً حال البدو وحياتهم وسبب قوتهم، وحال أهل الحضر وأحوالهم للتوصل للنتيجة بأن الترف قام بتغيير خلق الشجاعة، فنراه يتحدث بأن " السبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف،

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٦٢.

ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى وإليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم، والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيفة، ولا ينفّر لهم صيد، فهم غارون آمنون، قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوهم، حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة، وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية، وانتبأهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يتقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق " ١ . ويختم قوله بأن هذا التحول والتغيير هو سنة الله في خلقه فيقول: " كل حي من العرب بلى نعيمًا وعيشًا خصبًا دون الحي الآخر، فإن الحي المتبدي يكون أغلب له وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد، سنة الله في خلقه " ٢ ، وهنا تظهر سنة الله في خلقه بأن الترف والنعيم يزيل الخشونة والشجاعة من الإنسان.

وأخيرًا: فإن ابن خلدون قد أشار في كتاباته إلى السنن التي تأتي بالعمران والسنن الهادمة للعمران، وما يجب فعله هو إنشاء علم اجتماع سنني خاص بالمسلمين، ويمكن أن نسميه (علم سنن الاجتماع)، ويقوم هذا العلم على الفهم القرآني للسنن الإلهية مضافاً إليه إبداعات ابن خلدون وأمثاله من المفكرين والباحثين، ونستطيع القول بأن لبن خلدون هو مكتشف بعض

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٧٦.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٤٩٥.

قوانين السنن الإلهية في الاجتماع، أما القوانين الكلية يمكن التماسها مما جاء في كتاب الله.

المطلب الثاني

مذهب ابن خلدون الاقتصادي

في هذا المطلب سنحاول التعرف على فكر ابن خلدون الاقتصادي ومحاولة استعراض تجاذب كل من الاشتراكية والرأسمالية لأفكار ابن خلدون، ونحاول التعرف على مذهبه الاقتصادي قبل استخراج السنن الإلهية المؤثرة على التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون، ويكون كالآتي:

أولاً: ابن خلدون والاشتراكية

لقد قام الاقتصاديون الغربيون بإلصاق الفكر الاشتراكي لعبد الرحمن ابن خلدون استناداً على ما كتبه، ولكن بتفسيرهم، وكما تراءى لهم، فقالوا: إنه مؤسس التفسير المادي للتاريخ، ونجد أن تفسير التطور التاريخي في الفلسفة الغربية ينتمي أولاً لفلسفة هيغل المثالية، والذي قال بأن المجتمعات تخضع للتطور الذي ينبع من الفكر الإنساني بوجود الفكرة ونقيضها، وبتصارعهما يظهر النقيض المؤدي للتطور، ثم يجيء ماركس بفلسفته المادية، والتي ترجع التطور لعالم المادة أولاً، ثم يحدث التغيير في عالم الفكر المتأثر - في رأيه - بما حدث في عالم المادة، ومع الفلسفتين تدور محاولة قولبة فكر ابن خلدون للفكر الاشتراكي من خلال استخراج ما يتوافق مع الفكر الاشتراكي من كلمات ابن خلدون في المقدمة، ونذكر منها تفسيره للعمران، فقال بأن الله سبحانه وتعالى "خلق الإنسان، وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا

بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه...، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري...، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف...، وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته" ^١.

ويرى الكتاب المتحمسون للماركسية أن هذا التفسير للعمران هو نوع من المادية التاريخية والتي تفرض الطابع المادي على تطور المجتمعات، فنرى أحد الكتاب يقول عن تفسير العمران لابن خلدون بأن " الحاجة المادية - كقوة أساسيه موجهة في تاريخ البشرية - هي القاعدة الأولية الأولى لنظرية ابن خلدون" ^٢.

وبالإضافة إلى فكرة المادية فإن الماركسية لا تعترف بوجود الدين في فكرها، وهذا عكس الفكر الخلدوني حيث إن " عقيدة المفكر تمثل حجر الزاوية في مذهبية فكره" ^٣. وابن خلدون مفكر مسلم الفكر والتنشئة والحياة، وبعيدة كل البعد فكرة استبعاده لعقيدته الإسلامية في أفكاره وكلماته، ونجد أن

(١) المرجع السابق، الجزء الأول ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(٢) سفيتلانا باتسييفا، العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون، ترجمة: رضوان إبراهيم، الدار العربية للكتاب، تونس، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، ص ١٩٥.

(٣) شوقي أحمد دنيا، علماء المسلمين وعلم الاقتصاد: ابن خلدون مؤسس علم الاقتصاد، دار معاذ للنشر والتوزيع، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، ص ١٧٣.

أساس الشيوعية بعيد كل البعد عن الفكر الخلدوني؛ حيث إن أساسها هو " المادية الجدلية التي تقوم على تآليه المادة، وتدعي أنها أصل الوجود، وأن الحركة تعم عن طريق التناقض والصراع، وأن الحياة المادية - وخاصة ما يتعلق منها بشئون الإنتاج - هي التي تنشئ الصرح الاجتماعي والثقافي والسياسي والديني والأخلاقي، وترى الشيوعية أن سبب الصراع هو الملكية، فهي وسيلة الاستغلال عندهم، والدين أفيون يستغل به الضعفاء لمصلحة المستغلين"^١، وكل هذه الأفكار بعيدة عن فكر مفكر إسلامي كابن خلدون؛ حيث إن " نظرة الإسلام إلى المادة - موضوع الاقتصاد - مرتبطة بتفسيره للكون والحياة، أن الغاية من الوجود هي العبادة، والمادة وسيلة تعين عليها وهي في هذه الحالة ضرورية؛ لأنها وسيلة للعبادة، فلا عبادة إن لم يحي الإنسان، ولا حياة إن لم تعمر الدنيا"^٢، وهذه هي أسس فكر ابن خلدون والإعمار المؤسس على العبادة والطاعات هو هدفه الأول.

ثانياً: ابن خلدون والرأسمالية

بنفس منطق الاشتراكيين وإصاق فكر ابن خلدون للاشتراكية قام الرأسماليون بإصاق فكر ابن خلدون للرأسمالية، وبكلمات ابن خلدون في المقدمة اعتبروه هو مؤسس الحرية الاقتصادية، والحرية الاقتصادية هي ركن رئيسي من أركان النظام الرأسمالي؛ وذلك لأن المذهب الرأسمالي يقوم على قاعدتين أساسيتين هما الحرية الاقتصادية والمنافسة، ويقتصر دور الدولة كحارس للأمن، وقد ظهر للرأسمالية سلبيات مثل الاحتكار والاستغلال والربا.

(١) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط ٢،

(١٠٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م)، ص ٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٦.

وكتب ابن خلدون في مقدمته كلمات تدعو لعدم تدخل الدولة في التجارة؛ لأن ذلك مضر بالرعية، فقال ابن خلدون مفسراً رفضه لتجارة الدولة، والتحذير من تجارتها لوقوع ضرر على الرعية " فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون، ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم، فلا يكاد أحد منهم يحصل على غرضه في شئ من حاجاته، ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد" ١، ويلاحظ من هذه الكلمات أن ابن خلدون قد تنبأ بكل مساوئ الرأسمالية، فالتجارة من السلطان، وهو أكثر أموالاً سوف يجعله محتكراً؛ وذلك لقوته المالية وقدرته على الشراء، أو لتخوف الناس من منافسته، ويتبع هذا الاحتكار الظلم الاقتصادي، ولا يعقل أن تنتسب الرأسمالية لابن خلدون وهو يتحدث عن عيوبها التي ظهرت بعد سنوات كثيرة من اتباعها في الدول الحديثة، وتحذيره من آثار الاحتكار والظلم ينفي عنه انتماءه لهذه المدرسة، ونجد أن " المدرسة الغربية تقوم فلسفتها أساساً على مبدأ الحرية، إنهم يتصورون الكون آلة حركها الله ثم تركها تدور بدون تدخل...، ومن هنا قام النظام على تأليه الإنسان على الأرض، وعلى أساس هذه المبادئ نما نظام المنافسة الحرة، واعتبر الربح أهم حوافز الإنتاج، والمنفعة والإشباع غايته، وأبيح الربا على نظام واسع، وأقر تفاوت الدخول بالاحتكار، فما انتهى المطاف إلا إلى الاستغلال والربا والاحتكار والحروب والأزمات" ٢.

(١) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد واوي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٦٩١.

(٢) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، مرجع سابق، ص ٥.

وكل هذه المبادئ بعيدة عن فكر مفكر مسلم يؤمن بتحريم الربا وتحريم الظلم والاحتكار، ومن هذا الكلام فابن خلدون ليس رأسماليًا في مذهبه الاقتصادي.

ثالثًا: حقيقة مذهب ابن خلدون

نشأ ابن خلدون مسلمًا، واستمد ثقافته من الشريعة الإسلامية، وبنى أفكاره على تجاربه الشخصية، واستخلص القوانين متأثرًا بثقافته الإسلامية، فنجد ابن خلدون من خلال تجاربه التي عاشها في عالم السياسة والتدريس والقضاء مثقلًا بالفكر الإسلامي الناتج من تعليمه في مراحل حياته، و" لقد أبرز ابن خلدون خلفيته الدينية في التفسير والتنبؤ معتمدًا على تاريخية القرآن الكريم، فالعمران والدمار حسب الطرح القرآني سنة من سنن الله في الكون، ستبقى كسلسلة متتابعة الحلقات حتى يرث الله الأرض ومن عليها ليدخل الكون في مرحلة أخرى من البعث والقيامة" ^١.

وامتاز ابن خلدون بالفكر الناتج عن التجربة، فقد " كان ابن خلدون أكثر واقعية؛ لأنه درس أحداثًا جرت قبله قادت إلى التنبؤ بأحداث جرت - بالفعل - بعده" ^٢، والفكر الاقتصادي لابن خلدون ناتج عن ما تعلمه وتشبع به من علوم إسلامية، وابن خلدون المفكر المسلم عندما يتحدث عن الاقتصاد فهو يتحدث عنه من منظور الشريعة التي يؤمن بها، فنجدته يتحدث عن العمل وقيمتها، ويتحدث عن العدل متمثلًا في عدم الاحتكار وعدم

(١) أيمن فتحي الحجواوي، ابن خلدون والمادية التاريخية، المؤتمر العلمي الدولي (ابن خلدون: علامة الشرق والغرب)،

كلية الآداب، قسم الاجتماع، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، (تشرين الأول ٢٠١٢)، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

تسخير الرعية بغير حق، ونجده يتحدث عن الابتعاد عن الترف في الاستهلاك والإنتاج، ويلاحظ أنها كلها مبادئ الشريعة الإسلامية في الاقتصاد، ونستطيع القول بأن ابن خلدون يؤيد الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الدولة بالتنافس مع الرعايا، وهذه المبادئ هي طريق بين الرأسمالية والاشتراكية بأخذ أفضل ما في كل نظام فيهم، وهو ما يمكننا أن نطلق عليه نظام الاقتصاد الإسلامي.

المطلب الثالث

سنن التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون

يعتبر ابن خلدون عند بعض الباحثين هو مُنشئ علم الاجتماع، وقد عاصر ابن خلدون أحداثاً كثيرة جعلته يدقق النظر في الأحداث، ويستخرج منها القوانين الاجتماعية التي استخلصها، ويجب ألا نغفل أن هناك عوامل ساعدت ابن خلدون على استخلاص هذه القوانين، وهي فهمه للسنن القرآنية واستيعابه لها، ويظهر ذلك في كتابات ابن خلدون، واستشهاده بالآيات التي تدل على فهمه واستيعابه لسنن الله في خلقه، وسوف أحاول توضيح بعض من فكر ابن خلدون السنني في التطور الاقتصادي:

أولاً: سنة زوال موارد الدول نتيجة الترف

يتحدث ابن خلدون عن حتمية سقوط الحضارات، وسقوط الدول طالما توافرت شروط هذا السقوط، وهي السنن الربانية التي وضعها الخالق لسقوط الدول، ونستطيع أن نقول أنه تدهور يسبب فساد العمران، ويحدث عند هرم الدولة وإصابتها بالترف، وما يترتب عليه من مظالم اجتماعية، فيقول تعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا

تَدْمِيرًا" (الإسراء: ١٦)، ويقول أيضًا: " وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ " (القصص: ٥٩)، ويرى ابن خلدون أن الترف ملازم مع مرور الوقت للملك المستقر، فبعد ثبات الملك والاطمئنان لإقامة الملك يأتي الترف، ومع وجود الترف يكون الظلم والفقر، فيقول ابن خلدون: " إِنَّ طَبِيعَةَ الْمَلِكِ تَقْتَضِي التَّرْفَ كَمَا قَدَمَنَاهُ، فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ، وَتَزِيدُ نَفَقَاتِهِمْ عَلَى أُعْطِيَاتِهِمْ، وَلَا يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ، فَالْفَقِيرُ مِنْهُمْ يَهْلِكُ، وَالمُتَرَفُّ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرْفِهِ، ثُمَّ يَزِيدُ ذَلِكَ فِي أَجْيَالِهِمُ المِتَأَخِرَةَ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ العَطَاءُ كُلَّهُ عَنِ التَّرْفِ وَعَوَائِدِهِ...، ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرْفُ، وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الأَعْطِيَاتِ لَذَلِكَ، فَيَنْقُصُ عَدَدُ الحَامِيَةِ إِلَى أَنْ يَعودَ العَسْكَرُ إِلَى أَقْلِ الأَعْدَادِ فَتَضْعَفُ الحِمَايَةُ لَذَلِكَ، وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ، وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مِنْ يَجَاوِرُهَا مِنَ الدُّوَلِ، أَوْ مِنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ القَبَائِلِ وَالعَصَائِبِ، وَيَأْذَنُ اللهُ فِيهَا بِالفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ" ^١.

والترف بالدولة يؤدي لهرم الدولة، وتتعاقب الأجيال على هذا الترف، وتضعف جلدتها، يقول ابن خلدون: "ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من ثياب الهرم...، وربما يحدث في الدولة إذا طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارًا وشيعةً من غير جلدتهم ممن تعود الخشونة، فيتخذهم جنودًا يكون أصبر على الحرب، وأقدر على معاناة الشدائد من الجوع والشظف، ويكون ذلك دواءً للدولة من الهرم الذي عساه يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره" ^٢. وهنا يلاحظ أن ابن خلدون يجعل الترف هو

(١) مقدمه ابن خلدون، تحقيق: د. على عبد الواحد واوي، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٥٣٥.

سبب فساد الشعوب وضعف جلدتها عن حماية بلادها، فتسقط البلاد، وتزول مواردها الاقتصادية بسبب الترف الذي ينال من طبيعة أخلاقهم، ويُمحى الجلد من رجالهم، وتصاب الدول بالوهن؛ ولأنه لا يحمي البلاد المرتزقة المأجورون لحمايه البلاد، ولا يحمي الحضارات من السقوط والاعتداءات إلا أبناءؤها، فيحدث السقوط، وهذا تطور بالترف لفساد العمران وهلاك الحضارات وسقوطها.

ثانيًا: سنة أن ظلم الاحتكار يأتي بالخسران

إنَّ الاحتكار هو نوع من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، ومن الظلم ومن المحرمات في الإسلام؛ لأنه مضر بمصالح الناس، ونوع من أنواع الغصب ومنع الحقوق، ويقول تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا " (النساء: ٢٩)، وللاحتكار أضرار كثيرة؛ حيث إنه يعمل على تركيز الثروة في أيدي فئة قليلة هم المحتكرون، وهذا يساعد على الاستغلال، والذي يتولد منه مشكلات اجتماعية عديدة نتيجة غلاء الأسعار، مثل السرقة والسلب والغش في المعاملات المالية، وهناك خسائر تقع على المحتكر تحدث عنها ابن خلدون، وتحدث عن ما يحدث له من تطور للخسارة، فيقول: " إنَّ احتكار الزرع لتحجين أوقات الغلاء به مشؤوم، وإنه يعود - على فائدته - بالتلف والخسران. وسببه - والله أعلم - أنَّ الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطرارًا، فتبقى النفوس متعلقة به، وفي تعلق

النفوس بما لها سر كبير في وباله على من يأخذه مجاناً، ولعله الذي اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل" ^١.

ثالثاً: سنة تواجد الإنسان حيث يوجد رزقه

يتحدث ابن خلدون عن انتشار الأمراض في الحضرة عن البدو؛ وذلك لاختلاف أنواع الطعام وأنواع الجهد، ويقول أنّ الأطباء لا يتواجدون عند البدو؛ لأنهم يتمتعون بصحة لا يحتاجون معها إلى الطب والأطباء؛ ولذلك لا يتواجد الأطباء غالباً إلا في الحضرة؛ لأن الإنسان يتواجد حيث يوجد رزقه وعمله، فيقول ابن خلدون: " لا يوجد الطبيب في البادية بوجه، وما ذاك إلا للاستغناء عنه؛ إذ لو احتيج إليه لوجد؛ لأنه يكون له بذلك في البدو معاش يدعو إلى سكنائه، سنة الله التي قد خلت في عبادته، ولن تجد لسنة الله تبديلاً" ^٢.

رابعاً: سنة أن الكسب والرزق هو قيمة الأعمال البشرية

عندما يتحدث ابن خلدون عن العمل، وقيمة العمل، والكسب المترتب عن العمل نجده استشهد في الباب الخامس بمعظم الآيات القرآنية الخاصة بالرزق، والتسخير من الله لابتغاء الرزق، والتي تظهر إيمانه وطريقة تفكيره وتقديمه لآيات كتاب الله ليطبق أفكاره عليها، ويستشهد بها كإثبات لصحة أفكاره، فيقول: " اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء، والقصد في التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه،

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٥٣.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٧٨.

قال تعالى: " فَاَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " (العنكبوت: ١٧)، والسعي إليه إنما يكون بأقدار الله - تعالى - وإلهامه، فالكل من عند الله، فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول^١ ويقول - أيضًا - أنه إذا قل العمل قل الرزق، وربط الرزق بالعمل، فقال: " واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب، ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية"^٢. وهنا نجد أن ابن خلدون يقر سنتة - تعالى - بأن العمل يجلب الكسب والرزق.

نتائج الفصل:

بعد التحدث في المطلب الثالث من الفصل السابق عن آراء مفكرين إسلاميين في موضوع السنن كان يجب علينا التوجه إلى فكر ابن خلدون لاكتشاف ثقافته وفكره السنني من خلال موضوع التطور الاقتصادي، وفي هذا الفصل مناقشة من ثلاث مباحث، خصصت المبحث الأول للتعريف بابن خلدون وإبراز إسلامية هذا المفكر في جميع مراحل حياته، وكذلك حاولت إبراز قيمة ابن خلدون كمؤسس لعلم الاجتماع وكمؤرخ عظيم، وفي المبحث الثاني حاولت إبراز فكرة التطور عند ابن خلدون، سواء تطور اجتماعي، أو تطور اقتصادي، أو تطور بالعمران، فوجدت أن التطور في فكر

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٣٣.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٨٣٥.

ابن خلدون متأثر بثقافته السننية، ثم ذهبت للمبحث الثالث لاستخراج فكره في السنن الإلهية في التطور الاجتماعي، ثم حاولت التعرف على مذهب ابن خلدون الاقتصادي لأستخلص آرائه في السنن الإلهية في التطور الاقتصادي، وذلك بعد إثبات أن مذهبه الاقتصادي هو المذهب الاقتصادي الإسلامي، وقد لاحظت في مقدمة ابن خلدون أن الفكر السنني لابن خلدون حاضر في معظم كتاباته وفي أفكاره الاجتماعية، ومن الملاحظ - أيضاً - أن ثقافته السننية مؤثرة على أفكاره وكتاباتة، والدليل الاستدلال بآيات السنن في استنتاجاته الاجتماعية، ونستطيع أن نقول أن استخراج القوانين الاجتماعية بالاسترشاد بالسنن عند المفكر ابن خلدون كان سبقاً فكرياً في زمانه، ولا يستطيع منصف إنكار إسلامية ابن خلدون في أفكاره واستدلالاته، وكان ابن خلدون سابقاً للأوروبيين في اكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر، فمن خلال ما تبين من الصفحات السابقة نستطيع القول بأن ابن خلدون كان أسبق في هذا المجال.

الفصل الثالث

السنن الإلهية لقيام العمران

هذا الفصل يجيب على تساؤل وهو : هل للسنن الإلهية دور في قيام العمران ؟ وهل يوجد بالسنن الربانية ما إن اتبعناه نستطيع الوصول للتطور في المجتمعات حتى نصل للعمران ؟

وسنقوم بمحاولة شرح معنى العمران وأنواعه وأهميته، وكذلك مفهوم العمران من وجهة نظر الشريعة، ثم نحاول اقتراح سياسات لتفعيل العمران، ثم نقوم بمحاولة استخراج السنن التي تساعد على التطور في اتجاه العمران، وقد قسم الفصل على النحو الآتي:

المبحث الأول: العمران: مفهومه وأنواعه ومقوماته.

المطلب الأول: مفهوم العمران وأنواعه.

المطلب الثاني: مقومات العمران.

المطلب الثالث: تطبيقات مقومات العمران على التطور من القصص القرآني.

المبحث الثاني: العمران في الفقه الإسلامي.

المطلب الأول: الإعمار وعلاقته بمقاصد الشريعة.

المطلب الثاني: مقابلة بين مصطلح العمران ومصطلح التنمية.

المطلب الثالث: اقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي.

المبحث الثالث: سنن العمران الفاعلة على التطور الاقتصادي.

المطلب الأول: العمل والإيمان بالله يحقق الرزق.

المطلب الثاني: العدل والأمانة تحقق الأمن الاقتصادي.

المطلب الثالث: الشكر والاستغفار يحققان الطمأنينة الاقتصادية.

المبحث الأول

العمران: مفهومه وأنواعه ومقوماته

المطلب الأول: مفهوم العمران وأنواعه.

المطلب الثاني: مقومات العمران.

المطلب الثالث: تطبيقات مقومات العمران على التطور من القصص القرآني.

المطلب الأول

مفهوم العمران وأنواعه

أولاً: معنى العمران

(عمر): المال صار كثيراً وافراً، والمنزل: بأهله كان مسكوناً بهم فهو عامر،

فلان الدار: بناها فهي معمورة، والقوم المكان: سكنوه فهو معمور.

(أعمر) فلان الأرض: وجدها عامرة، والأرض: بنى عليها وأهلها.

(استعمره) في المكان جعله يعمره، وفي التنزيل العزيز " هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ " (هود: ٦١)، والأرض: أمدّها بما يعوزها.

(العمارة) نقيض الخراب والبنيان وما يحفظ به المكان.

(العمران) البنيان، وما يعمر به البلد، ويحسن حاله بوساطة الفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي ونجح الأعمال والتمدن، ويقال: استبحر العمران، والعدل أساس العمران^١، والعمران هو " الاستقرار البشري في المكان على صورة من صور السكن أو التجمع المستقر دون التفتات إلى مدة الإقامة أو نمط السكن " ^٢.

ويمكن تعريف العمران من الناحية الشرعية بأنه " كل عمل إنساني متصف بالصلاح والإصلاح، مادياً كان أو معنوياً، يهدف إلى تحقيق العبودية لله تعالى والقيام بواجب الخلافة في الأرض. أي أن إعمار الكون يمثل عمله بناء محكمة للإنسان والحياة مهتدية بهدايات الوحي قرآناً وسنة، وهادفة إلى معرفة الله ومرضاته، ومحققة لمهام الإنسان في الوجود. " ^٣

(١) المعجم الوسيط، تأليف مجموعة من الأساتذة، مرجع سابق، مادة عمر، ص ٦٢٦، ٦٢٧.

(٢) عبد العال الشامسي، جغرافيا العمران عند ابن خلدون، سلسلة علمية تصدر عن وحدة البحث والترجمة، د . ت، جامعة الكويت، ص ٢٤.

(٣) زياد خليل الدغامين، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشرة، العدد ٥٤، (خريف ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، بحوث ودراسات، ص ٣٦.

قال تعالى: " هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ " (هود: ٦١)، والاستعمار هنا " أي وجعلكم عمارة فيها، من العمران، فقد كانوا زراعًا وصناعًا وبنائين " ١ .

والمقصود بالإعمار هو " الدور الحضاري للإنسان المسلم، والذي يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب، ونعلم تمامًا كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر، ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم على عين الله وتوجيهه أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعًا، وهي كلها تثير سلبًا وإيجابًا، إلا أن المحور الأساسي لوجود الإنسان - فردًا وجماعة - على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياسًا عادلًا لتحديد المصير في الدنيا والآخرة، وهو موقف ينسجم تمامًا مع فكري الاستخلاف والاستعمار في الأرض. " ٢

والعمران هو عمل مجموعة من التغيرات في المجتمع تهدف إلى تحويل قدرة المجتمع إلى التطور للأفضل عن طريق القدرة على الإنتاج والقدرة على استغلال الموارد بصورة أفضل، والتغير لأحداث التطور والعمران يكون في أكثر من مجال، مثل العمران الثقافي، ويكون بالعمل لرفع مستوى الثقافة والترقي بالإنسان في المجتمع، وهناك عمران بشري، وهو يعمل على التطوير لفهم وتنمية قدرات الأفراد والوصول لأفضل مستوى معيشي، والعمران

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني عشر، ص ١.

(٢) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ٩٢.

يستلزم جهدًا وتخطيطًا ليتم التطوير والعمران؛ ولذلك فإن للعمران طابعًا ماديًا حيث إنه يقاس بمؤشرات مادية.

ثانيًا: أنواع العمران

يتطلب الإعمار بشراً لإدارة الكون وإعمارها؛ لذلك يجب أن يكون هناك إعمار بشري قبل أي نوع من أنواع الإعمار، وبعد توافر البشر يجب توافر الإمكانيات التي تسهل عملية الإعمار، سواء كانت إمكانيات مالية أو خامات طبيعية لتشغيلها للإعمار؛ لذلك يجب أن يكون هناك إعمار في الاقتصاد وإدارة الإنسان والإمكانيات، ويجب أن يكون هناك سياسة وقوانين للحكم بين البشر ولتنظيم علاقتهم بالطبيعة وعلاقتهم المادية؛ لذلك يجب أن يكون هناك إعمار سياسي.

وستتناول هنا نوعين من الإعمار؛ الإعمار البشري لأهمية الإنسان في عملية الإعمار، والإعمار الاقتصادي لتعلقه بالبحث.

(١) العمران البشري:

يتكون هذا الإنسان من جسد وروح، يحتاج كل منهما إلى نوع من الرعاية حتى يكون الإنسان في أحسن حالاته، ولكي يكون الجسد في أحسن حالاته يحتاج لمقومات الحياة " فالإنسان ليلبغ الكمال في نمائه وبقائه يعتمد على إصلاح غذائه من طعام وشراب، وعلى نقاء الهواء الذي يتنفس فيه، وعلى المحافظة على جسمه بتجنيبه التغيرات الهوائية الشديدة من برد قارس وحر شديد؛ ولذا كانت العناية بلباسه وبسكنه ضرورة لبناء جسمه وبقائه صالحًا

يؤدي وظائفه" ^١، لذلك تقوم عدة نشاطات إنسانية للحفاظ على هذا الإنسان من الهلاك مثل الزراعة لغذائه، والصناعات لتغطية احتياجاته من مأكل وملبس ومأوى وعلاج، وكل ذلك لأن الإنسان هو أساس الإعمار، وهو المخلوق المكرم والمفضل على بقية المخلوقات فقال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (الإسراء: ٧٠).

ومن الإعمار البشري - أيضًا - للإنسان الإنجاب وتحريم الإجهاض، وتحريم القتل، وكل هذا من التشريع الإسلامي الأساسي في الحفاظ على الإنسان من الفناء الجسدي، أما الجزء الروحي والأخلاقي من الإنسان - والذي يؤثر على الإنسان تأثيرًا مباشرًا إذا لم يحافظ عليه من التدهور - تكون المحافظة عليه عن طريق تهذيب الأخلاق باتباع الشرائع السماوية للوصول لنقاء الروح، ويكون ذلك باتباع قوانين مشرعة من الله تعالى، وهي عبارة عن مبادئ وأسس وقوانين للإنسان لصالح نفسه في الدنيا حتى يكون إنسانًا صالحًا بدنيًا ونفسيًا ليستطيع القيام بعملية الإعمار، وكذلك جعل الله - تعالى - من يتبع شرائعه يفوز بالسعادة في الدنيا، وكذلك يفوز بالجنة في الآخرة، وقد راعت الشرائع صلاح الأرواح في الدنيا؛ لأن " الروح يطرأ عليه المرض بسبب المؤثرات الخارجية، فيداوى بالمناسب من الأدوية الروحية التي هي العبادات الشرعية فيبرأ ويشفي بإذن الله تعالى" ^٢

(١) أبو بكر جابر الجزائري، رسائل الجزائري، مكتبه العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٢، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، الجزء الثاني، ص ٣٩٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٩٩.

والإنسان يحتاج أمورًا حتى يكون مهينًا لعملية إعمار الأرض، وسنحاول
إجمالها فيما يلي:

(أ) إصلاح نفس الإنسان وتهيئتها للأعمار

إن الإنسان ونفس الإنسان من أهم العوامل في عملية الإعمار؛ لذلك رفع الله
من قدر هذا الإنسان، واهتم

سبحانه وتعالى بالنفس البشرية وكيفيه تهيئتها، وأنزل الشرائع السماوية
بالأوامر والنواهي متناسبة مع قدرات هذا الإنسان، فقال تعالى: " لَهُ مُعَقِّبَاتٌ
مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا
بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ " (الرعد:
١١)؛ لذلك قد " منحه الله القدرة العقلية على التعلم، والقدرة الجسدية على
التنفيذ والعمل والإبداع والإرادة (الحرّة) لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها
فكره ودوافعه النفسية والجسدية؛ ولكي لا يحس الإنسان بالدونية، ولا تدور
في خاطره أية فكرة عن سلبية دوره في العالم، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف،
وأمر الملائكة أن يسجدوا له، وتلك هي أسس تقود - لا ريب - إلى تصدر
دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة مفكرة مريدة منفذة مستقلة مفضلة الأمور
التي لا بد منها لأي إبداع حضاري على الأرض " ١، ولأهمية هذا الإنسان
قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (الإسراء: ٧٠).

(١) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ٧٩.

ومن هذا الاهتمام بالإنسان تأتي المسؤولية والمساءلة؛ لذلك كان لكل إنسان أمام الله مسؤولية مكونة من شخصيتين: شخصيه مستقلة يسأل بها عن نفسه في جسمه وعقله وروحه ثم في عمله وماله.

وشخصية أخرى يكون بها لبنة في بناء المجتمع، يسأل بها عما يقدمه لمجتمعه أو يقدمه المجتمع له، ويقدر ما يكون للإنسان من إدراك الحقائق ومثانة الخلق وقوة العزيمة والإرادة وسمو الروح ونبيل الغاية، ويكون لمجتمعه من ذلك كله، ويقدر ما يصاب به الإنسان من تسلط الأوهام والخرافات عليه وانحلال الخلق وضعف العزيمة والإرادة وانحطاط الروح ودناءة الغاية يكون لمجتمعه من كل ذلك" ^١.

لذلك اهتم الإسلام بإصلاح النفس لهذا الإنسان والسعي لتغيير نفسه للأفضل، وكان هذا الإنسان وإصلاح نفسه هو الهدف، " فلم يتحدث القرآن الكريم طويلاً عن كيفية الإعمار ولم يبيّن للإنسان ما يعمره، وما لا يعمره، وإنّ القرآن لا يتدخل في كيفية حصول الإنسان على الطاقة، ومن أيّ مصدر ولّدها، ولا يذكر شيئاً عن كيفية تفاعل العناصر أو عدم تفاعلها، ولكنه يتدخل في بناء نفس الإنسان ومعتقدده وتصوّره وفكره، ويهدّب سلوكه ويُقوّم أعماله؛ لينعكس ذلك كلّه على إعمارهِ للكون" ^٢، لذلك يجب من إصلاح النفس المسلمة وتوجيهها للعمار.

(١) محمود شلتوت، منهج القرآن في بناء المجتمع، دار الكتاب العربي، مصر، ص ١٩.

(٢) زياد الدين الدغامين، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مرجع سابق، ص ٣٥.

ب) إيمان الإنسان الصحيح بفكرة الإعمار

الإيمان الصحيح للإعمار يجب أن يكون إيماناً حقيقياً يتبعه عمل، وذلك " لأن الإيمان الذي يطلبه الله - تعالى -

ليس إيمان التمني أو التحلي أو الشعارات، وإنه لمن أخطر الحالات التي تظهر في الأمة الإسلامية حالة بقاء الإيمان في حدود الحناجر والمظاهر عند قوم يرتدون عباءة الإيمان ويهتفون بشعاراته لا يتعدى الإيمان عندهم هذه المظاهر وهذه الهتافات والشعارات. إنه الإيمان الصادق الذي يقر في القلب تصديقاً وبقيناً ويفيض على الجوارح سلوكاً وعملاً. إنه الإيمان الذي يضيء القلب، ويحرك الإرادة، ويوجه العقول، ويوظف الطاقات ليكون صورة عملية واقعية يتجلى فيها ليثبت وجوده ويترجم عن حقيقة أنه الإيمان الذي يصلح القلوب ويهيئ النفوس ويصنع العجائب وينشئ الإنسان خلقاً آخر، ويصبه في قالب جديد يغير هدفه ويهذب سلوكه وذوقه ونظرته للحياة. " ١، ولكي يستطيع هذا الإنسان أن يعمر الكون يجب أن يخضع سلوكه لمبادئ محددة؛ وذلك لتتمام عملية العمران، ويكون هذا بتراطب معين بين أفراد، " وهذا الترابط بين الأفراد والمجتمع لا بد لكي يثمر ثمرته ويحقق غايته ويستمر نامياً لا يتناقض بعيداً عن الأهواء والشهوات، سليماً من اختلاف الآراء والنزعات، متمكناً من قلوب الأفراد والمجتمعات، لا بد أن تهيمن عليه في قلب الإنسان وروحه قوة ينبع احترامها من قلبه ...، ليس ذلك إلا التعاليم الإلهية الواصلة إليه من

١) محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٤، ٣٥، وانظر: محمد عبد الله الخطيب، خصائص المجتمع الإسلامي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة مصر، بدون تاريخ،

الله رب العالمين، والتي تضمنها وأرشد إليها كتابه الكريم: " إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٩).^١ وهذا للوصول لل عمران المراد من الإنسان. "فهذه هي الطرق التي سنها الله في القرآن ليحترس علماء الإسلام مما وقع فيه إيهود من ضياع ملكهم وخراب ممالكهم، وهذا هو معنى أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"^٢، أي يوجه النفس للإيمان بالإعمار للوصول إليه والابتعاد عن الخراب.

ج) تلازم وجود القيم المعنوية مع فكرة الإعمار

يتلازم الإعمار المادي للكون مع وجود القيم المعنوية؛ وذلك لأن الدين الإسلامي لا يهتم بالروح ويهمل المادة فلكل منهما احترامهما في الإسلام، فقال تعالى: " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " (القصص: ٧٧)، و " أول ما يتصف به الإعمار الإسلامي أنه لا يقف عند حدود التعامل المادي الذي ينظر إلى الكون والإنسان نظرة مادية خالصة، ويقصر وجه الانتفاع به على المادة أيضاً، بل يتعامل معه بكل الأبعاد التي تحقق الكمال الإنساني من جميع جوانبه المادية والروحية والعقلية. فهناك نوع من التناسق والانسجام بين طبيعة الإنسان وانعكاس هذه الطبيعة على عمارة الكون. ومن المفيد أن نبيّن أنّ الوحي وجّه إلى عمارة الكون، وجعل هناك أولويات في البناء العمراني، فكان أول بيت بني ووضع للناس هو

(١) محمود شلتوت، منهج القرآن في بناء المجتمع، مرجع سابق، ص ١١، ١٢.

(٢) طنطاوي جوهر، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية (شوال ١٣٥٠هـ) جزء تاسع، ص ٦.

بيت الله الحرام، وعلى رواد بيوت الله تقوم دعائم الحضارة وركائز العمران، يقول سبحانه: " إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ " (آل عمران: ٩٦) ^١

ولإعمار الأرض لا بد من العمل المادي، والذي لا ينفصل عن القيم الروحية، "والحق أن عبادة الله التي خلق لأجلها الجن والانس لم يكن سبيلها في هذه الحياة التبتل والانقطاع عن الدنيا، إنما سبيلها تحقيق إرادة الله في كونه عن طريق العمل في عمارة هذا الكون، وإظهار أسرار الله الدالة على عظمته ووحدانيته واستحقاقه وحده للعبادة والتقديس." ^٢

(د) توجيه جهد الإنسان للأعمار

يحتاج المجتمع لجهد الإنسان للعمل والتنمية والإعمار؛ لأنه لولا الجهد الفكري والبدني للبشر ما كان الإعمار، "وجهد الإنسان هو العامل الإيجابي في التفاعل مع القوى الطبيعية، ثم تلك القوى ثابتة على سنن لا تتبدل، بينما الإنسان حر مختار إن شاء علم وعمل، أو شاء جهل وكسل، فإذا تأخر منه السعي وصحت طرقة لقي جازيته وأتته الطبيعة أثمارها في شتى جوانب الحياة، وإذا تقاعس الإنسان أو أخطأ وجوه التصرف ظلت حاجاته بلا اكتفاء، وبخلت عليه الطبيعة أو أخرت به أقدارها." ^٣، وهذا مطابق لسنة الله في أن العمل يأتي بثمار في الدنيا والآخرة، وإذا وصل العقل البشري لفهم الحقائق،

(١) زياد خليل الدغامين، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٢) محمود شلتوت، منهج القرآن في بناء المجتمع، مرجع سابق، ص ١٩.

(٣) حسن الترابي، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، دار القلم الكويت، الطبعة الثانية، (١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م)،

ص ٢٧، ٢٨.

وتوصل إلى الإيمان الذي يدرك معه الحقائق التي خلق من أجلها البشر سيكون الإيمان دافعاً للعمل؛ لأن عقيدة الإيمان الصحيحة تدفع للعمل والإعمار والإصلاح للكون، والعقيدة " لها أثر عظيم في دفع الإنسان للعمل، وإن المجتمع المؤمن لتتحشد فيه من دوافع العقيدة طاقات جليلة توفر الخير وترقى بالحياة، ولا نقول أن المجتمعات غير المؤمنة بمعاني الدين لا تقوى أبداً على العمل، ولا تتأتى لها أدنى نهضة ولا تبلغ شيئاً من نعيم الدنيا، فإن الله في سننه وحكمته البالغة لم يجعل سعادة الدنيا وفقاً على المؤمنين، بل يمد منها لسائر خلقه مدداً، ويفتح لهم أبواب كل شئ وفق أسباب الكسب وأقدار البلاء." ^١، ونجد أن الساعين للإعمار بإخلاص يتأتى لهم ثمار عملهم وإن كانوا غير مؤمنين، وإذا كان الساعي للإعمار يسعى على عقيدة إيمانية نجده فاز بالدنيا والآخرة.

(٢) العمران الاقتصادي (الحرية الاقتصادية الإيجابية)

يعد الاقتصاد من أهم الأنشطة التي تقوم عليها المجتمعات البشرية، حيث يحقق النشاط الاقتصادي تلبية احتياجات الإنسان في كل أمور حياته ومعايشه، والعمران الاقتصادي الحقيقي يحتاج قوانين وتشريعات حتى يتم الإعمار بصورة يتفجع بها المجتمع بلا اعتداءات، وسنحاول البحث في التشريع الإلهي عن التشريعات التي تساعد على إحداث الإعمار الاقتصادي في جميع التعاملات، ونجد أن من مقاصد الشريعة الخمس الأساسية حفظ المال؛ لأن الشريعة في مجملها تهدف إلى " (حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ العقل وحفظ النسل وحفظ المال، وبديهي أن هذا يناسب الفطرة، ويساير العقول،

(١) المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩.

ويجاري التطور، ويصلح لكل زمان ومكان" ^١، وسنحاول البحث عن معنى الحرية الاقتصادية الإيجابية في الشريعة من خلال الملكية والإنتاج والتبادل والاستهلاك، ونستطيع تعريف الحرية بأنها "حالة الكائن الذي لا يكون خاضعاً لأي عامل من عوامل الجبر، بل يكون عاملاً حسب رغبته ووفقاً لطبيعته" ^٢، وحتى نستطيع وضع معنى للحرية المقيدة يجب اختيار تعريف للحرية المقيدة بالشريعة؛ فتكون الحرية هي "المكانة العامة التي يقرها الشارع للأفراد، بحيث تجعلهم قادرين على أداء واجباتهم، واستيفاء حقوقهم، واختيار ما يجلب المنفعة ويدراً المفسدة دون إلحاق الضرر بالآخرين" ^٣.

والحرية الاقتصادية في الملكيات والتصرفات الاقتصادية ليست مطلقه، بل مقيدة بمبدأ مهم، وهو المصلحة العامة للمجتمع، والحرية الاقتصادية تكون في الآتي:

(أ) حرية الملكية:

يكفل الإسلام في النشاط الاقتصادي حرية الملكية، فلكل مسلم امتلاك كل ألوان النشاط الاقتصادي، ولكنها ملكية مقيدة بعدم الإضرار بالمجتمع، ويجب أن يعرف كل مسلم وجوب "أن يكون اكتساب الملكية الخاصة مشروعاً بالمفهوم الإسلامي، أي بعيداً عن تجارة الخمر أو الاحتكار أو الربا أو أي ضرب من ضروب الاستغلال أو الحصول على المال بالباطل، كاستخدام

(١) السيد سابق، فقه السنة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، مجلد

أول، ص ١

(٢) رحيل محمد غرايبة، الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية، دار المنار للنشر والتوزيع، (١٤٢١هـ -

٢٠٠٠م)، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٤١.

النقود أو المغالاة في الأسعار والربح الفاحش، فالشرع الإسلامي يرحب بأن يكسب كل فرد بجهده ما يستحق " لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ " (النساء: ٣٢)، ولكنه لا يقبل أن يكسب نتيجة نشاط غير مشروع أو على حساب غيره من الناس أو استغلالاً لظروفهم.^١ وقد نظم الاقتصاد الإسلامي الملكيات الخاصة، " وقد بين للناس وسائل الكسب المشروعة والطرق المباحة التي يجب أن يسلكها الإنسان، وهو بسبيل إحراز المال وامتلاكه، فإذا ما حيز المال بالأسلوب السليم، واصطبغت الملكية بالصبغة الشرعية أضفى عليها الشارع الحكيم حماية تحرم الاعتداء عليها، وتكفل لها الاحترام في نفوس الكافة، ووضع العقوبات الرادعة لهؤلاء الذين تسول لهم نفوسهم أن يعبثوا بأموال الناس وممتلكاتهم وأن يعيشوا في الأرض الفساد"^٢.

وكذلك نظم الاقتصاد الإسلامي الملكيات العامة؛ وذلك لأن "الإسلام - في اعترافه بالملكية سواء كانت خاصة أو عامة وفي نظره إليها وتنظيمه لها - إنما أقامها باعتبارها وسيلة إنمائية، أي باعتبارها حافزاً من حوافز التنمية " ^٣، والقاعدة ألا تجور ملكية على ملكية أخرى، فلا الملكية الخاصة تجور على الأفراد في المجتمع، ولا الملكية العامة تحو الأشخاص وحقهم في الملكية، وبذلك تكون حرية الملكية في الإسلام مقيدة بما يتناسب مع المصلحة العامة.

(١) محمد شوقي الفنجرى، المذهب الاقتصادي في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م)، ص ٤٢.

(٣) محمد شوقي الفنجرى، المذهب الاقتصادي في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٦٨.

ب) حرية الإنتاج:

الإنتاج هو " استغلال الموارد واشباع الحاجات وخلق الدخول " ^١.

الإنتاج في عالم الاقتصاد الإسلامي لا يتم إلا بالعمل، " والاعتماد منشق من العمل ويطلق اعتماد الأرض على القيام بما يحتاج إليه من عمارة وزراعة وتلقيح وحراسة " ^٢، والعمل " هو أحد عناصر الإنتاج والكسب الأساسية في النشاط الاقتصادي، وهو المشاركة الإيجابية للإنسان بجهده في العملية الإنتاجية، ومعياره المشروعية، أي الإنتاج والكسب بما يحل من الأسباب، وأساس العمل في الإسلام هو مبدأ الاستخلاف، فالإنسان مسؤول عن إعمار الكون، ومسؤول عن العمل في مال الله من طيبات وثروات لحفظها واستثمارها وتنميتها بهدف إشباع الحاجات البشرية، قال تعالى: " قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " (الأعراف: ١٢٩) " ^٣، والإنتاج يجب أن يرتب أولوياته بحسب احتياجات المجتمع، فيجب أن يتوجه لإنتاج السلع التي تحقق حد الكفاف أولاً وهي من الضروريات، ثم التدرج في الإنتاج للوصول إلى سلع حد الكفاية، وهي من الحاجيات، وإذا كان الإنتاج يستوعب بعد ذلك تنتج المنتجات التحسينية - أي الترفيهية - في المجتمع، ولا يحق للمنتج في الإسلام إنتاج السلع الإسرافية أو الترفية إذا كان المجتمع في

١) نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية عند الفقهاء، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ -

٢٠٠٨م)، مادة إنتاج، ص ٨٤.

٢) المرجع السابق، مادة عمل، ص ٣٣٢.

٣) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ -

١٩٩١م)، ص ١٤.

احتياج لمنتجات حد الكفاف أو حد الكفاية، وإذا اتجه المنتج لإنتاج سلع ترفية لتحقيق الربح على حساب السلع الأساسية فيكون قد أنتج ما فيه ظلم للمجتمع، وهنا تتوقف الحرية وتخضع للقوانين التي تفرضها الدولة؛ لأن المنتج سيؤثر على المجتمع بالضرر؛ وذلك لنقص السلع المهمة الأساسية، فالحرية للمنتج لا تكون مطلقة، ولكن يشترط فيها عدم تحقيق ضرر وعدم التعارض مع الأخلاق الإسلامية، فالمسلم لا يمكن له أن يعمل بصناعة الخمر مثلاً أو إنتاج ملوثات للبيئة؛ لأنه يعرف أنها منافية للأخلاق، وبذلك فحرية المنتج في نوعية الإنتاج مقيدة باحتياجات المجتمع، وبالمبادئ والتشريعات الإسلامية الأخلاقية التي يجب أن يتعلمها ويعرفها كل مسلم؛ لأنه يجب تحقيق النفع وتجنب الضرر طبقاً لمبدأ " لا ضرر ولا ضرار"^١.

(ت) حرية التبادل:

التبادل في الاقتصاد الإسلامي هو حركة البيع والشراء والأسواق، وللمسلم حرية في إجراء التبادلات، ولكنها مقيدة بأحكام الشريعة، فله أن يبيع ويشترى، ولكن لا يغش في الموازين والمكاييل، قال تعالى: " وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ " (الأعراف: ٨٥). وفي هذه الآية نهي - أيضاً - عن الظلم في الموازين والمكاييل، وبها إضافة: فقله تعالى: " وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " له معنى أعم، وذلك لأن "البخس أعم من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل

(١) هذا المبدأ في أصله حديث نبوي أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ٢٨٦٧.

البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل" ^١، وقد بعث الله - تعالى - نبي الله شعيبًا ليحذر قومه من آفة ظلم الموازين والمكاييل، وهذا يدل على عظم هذا النوع من الظلم؛ وذلك لأن "الإفساد في الأرض يشمل إفساد نظام الاجتماع البشري بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الأنفس والأعراض، وإفساد الأخلاق والآداب بالإثم والفواحش الظاهرة والباطنة، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام" ^٢، ولا يجوز الحلف الكاذب في التعاملات التبادلية، وكذلك ترويح السلع بالحلف الكاذب، ولا يجوز الربا في المعاملات، قال تعالى: " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكِ بَأْهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: ٢٧٥)، والربا هو زيادة في الأموال بلا إنتاج ولا عمل؛ فالبيع هو لشيء يقابله شيء، أما الربا فهو زيادة بلا شيء يقابلها؛ لذلك أحل الله البيع وحرم الربا.

فلا حرية في بيع المال بالمال وهو الربا، ولا حرية في الأسواق بممارسة الغش والاحتكار، ولا حرية في كل صور أكل أموال الناس بالباطل.

وقبل التبادل يكون التسعير من قبل المنتج أو التاجر، وهناك خلاف على تقييد التسعير بين الفقهاء، ولكن الأصل في تصرفات الإنسان التجارية الحرية، فالعقد لا يتم إلا بموافقة المتعاقدين، والتسعير هو عقد بين البائع

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثامن، ص ٤٨٢.

(٢) المرجع سابق، الجزء الثامن، ص ٤٨٣.

والمشتري، وقبول المشتري بالسعر هو نوع من الموافقة والرضا على السعر، ولكن أحياناً صاحب السلعة يسيء استخدام حريته في التسعير، ولا يلتزم بالمبادئ الأخلاقية في عملية التسعير، ويغالي في تسعير السلعة، ونجد صاحب السلعة يتحكم بتسعيرها، ويضع قيوداً على تداولها، أو يجعل فئة معينة هي من يستطيع الشراء مع المغالاة في التسعير، وهنا يحدث الجور والظلم، وخاصة إذا كان الأمر متعلقاً بسلعة مهمة يحتاجها الأفراد ويضطرون لشرائها رغم غلاء سعرها لشدة احتياجهم لها، وهنا يقع الظلم في التسعير، ويجب تدخل الحاكم، واختلف الفقهاء في تدخل الحاكم أو عدم تدخله في عملية التسعير، ولكن الأرجح أن " التسعير سلطة بيد الحاكم للحد من تصرفات التجار المناقضة لميزان العدالة " ^١.

لذلك مع علمنا أن الأصل في التسعير أنه ليس واجباً عند بعض الفقهاء، وأنه فيه حرمة، لكن إذا حدث الجور والظلم يجب تدخل الحاكم للحد من الظلم والجور بين الأفراد في المجتمع الواحد، وبذلك نستطيع أن نقول: "الراجح جواز التسعير عند الحاجة إليه، فيسعر الإمام أو نائبه على الباعة إذا أحدثوا غلاء في الأسعار، وتسببوا في الإضرار بعامة الناس، ولا يشترط أن يصل ارتفاع الأسعار إلى ضعف القيمة، بل مجرد الوصول بالسعر إلى بداية الضرر فلإمام التسعير عليهم " ^٢.

(١) أحمد حسن، التسعير في الفقه الإسلامي، مجله جامعه دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٢، العدد

الأول، ٢٠٠٦م، ص ٤٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٣.

ث) حريه الاستهلاك

المسلم يحق له أن يلي احتياجاته من المنتجات بكل أنواعها، ولكنه يجب أن يراعي عدم الإسراف في الاستهلاك؛ لقوله تعالى: " يَا بَنِي آدَم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١). فيجب على المستهلك التدرج في الاستهلاك والإنفاق، فتكون الأولوية للاستهلاك الضروري ثم الحاجي ثم التحسيني، كما يحرم على المسلم استهلاك السلع المحرمة شرعاً مثل الخمر، وكذلك يجب تجنب استهلاك السلع الترفيهية الإسرافية المظهرية، لأن " الشريعة الإسلامية تحرم النفقات الترفيهية بصفة قطعية؛ لأنها تؤدي إلى الفساد والهلاك، وهذا التحريم يخص الفرد في ماله الخاص، والدولة في الأموال العامة، وأصل ذلك في القرآن الكريم قول الله تعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا " (الإسراء: ١٦) ^١. فالمسلم يجب أن يتمتع بعلم كاف يجعله يتجنب المحرمات عند الإنفاق، ويتعد عن الترف والإسراف في الاستهلاك، ويجب أن يعرف المسلم جيداً عند الاستهلاك وإنفاق الأموال أنه مستخلف على هذه الأموال، قال تعالى: " وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْهَا نِعْمَةً لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (الحديد: ٧)، فيتعامل المسلم مع المال بحذر فينفق على حاجته من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن... إلخ، ولا ينسى المستحقات على هذه الأموال فيقوم بإنفاقها أيضاً، " أي أنفقوا من المال الذي منحكم الله واستخلفكم فيه، وهذا الإنفاق إما أن يكون على سبيل الزكاة المفروضة أو الصدقة على الفقراء

(١) حسين حسين شحاته، الاقتصاد الإسلامي بين الفكر والتطبيق، دار النشر للجامعات، الطبعة الثانية (١٤٣٤هـ).

١٣ - (٢٠١٣م)، ص ١٣.

والمحاويج" ^١. ومن هذه الآية يتضح أن هناك مالكا حقيقيا للأموال يستخلف فيها العباد للتصرف فيها على وفق مراد الله تعالى.

المطلب الثاني

مقومات العمران

أولاً: العمران يحتاج للاجتماع البشري والعمل

لا عمران إلا بالعمل الإنساني، ويحتاج العمران للاجتماع البشري، والاجتماع البشري يحتاج لتقسيم العمل للوصول للإعمار، وقد حثَّ الإسلام على الاستفادة من كل موارد الطبيعة فقال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (المالك: ١٥)، وهذا هو العمل، وقد نجد في أبواب الفقه ما يبحثُ على العمل وتقسيمه وإتقانه، فنجد فقه المعاملات والحث على تعلم أحكام التجارة والإجارة والزراعة والمضاربة وغيرها، وكلها تؤدي للعمران، ويحثُّ الإسلام على الإخلاص والإبداع والإتقان، ولا يتم العمران إلا بالاجتماع البشري والتعاون والعمل، ويتحدث ابن خلدون عن الاجتماع البشري قائلاً: " إن الاجتماع الإنساني ضروري. ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: (الإنسان مدني بالطبع) أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران، ولا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد التاسع، ص. ٢٩٠، ٣٠.

بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف " ١، ويتحدث ابن خلدون عن أن الفرد لا يستطيع أن يحصل على متطلباته إلا باجتماع البشر بحيث يقوم كل منهم بنوع معين من العمل فتكتمل المنظومة للوصول لحاجة الإنسان

ثانياً: العمران يحتاج لجغرافيا مؤهلة للعمران

سبق أن العمران يحتاج للعمل البشري، والعمل البشري يحتاج لمناخ مؤهل لهذا العمل، فإن تحدثنا عن عمل الزراعة للعمران الزراعي فإننا نحتاج إلى أرض خصبة ومياه للري ومناخ مناسب للزراعة، وذلك لقيام العمران الزراعي، وإذا تحدثنا عن التجارة وسهولة التبادل، فإننا نحتاج إلى طرق لتيسير القوافل للتنقل بين البلدان، أو بحار لنقل التجارة، أو وسائل نقل جوي مناسب للطيران، وكل هذه المقومات تؤدي وتساعد على العمران، فتحدث ابن خلدون مثلاً عن شدة الحرارة عند خط الاستواء وتأثيرها على قله العمران، فقال: " إن فساد التكوين فيه قوي بإفراط الحر، والعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلى وهو كذلك، فإن خط الاستواء والذي وراءه وإن كان فيه عمران كما نقل فهو قليل جداً " ٢.

والدليل على أن الجغرافيا مؤثرة على العمران توسط العالم الإسلامي جغرافياً وامتلاكه لهذه الجغرافيا، فكان مهد حضارات إنسانية ومهداً لعمران بشري، "ولا سيما منطقة القلب منه بحكم كونه منطقة التقاء واتصال، ليس بين

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٣٤.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٥٤.

اليابس واليابس فحسب، بل بين اليابس والماء أيضاً، وبحكم اعتدال مناخه في بعض أجزائه، وملاءمة بعض مناطقه لحياة الاستقرار، كل هذه الخصائص ذات الصلة بالموقع الجغرافي قد أسهمت في نشأة أقدم الحضارات الإنسانية في أحضان العالم الإسلامي نشأة ذاتية، حين أخذت تستقر الجماعات على ضفاف الأنهار وعلى مقربة من موارد المياه^١، وإن لم يستمر بسبب تدخلات للدول بالاحتلال والاستغلال وغيره.

قسم ابن خلدون الكرة الأرضية إلى أقاليم، وتوسط هذه الأقاليم ثلاثة أقاليم معتدلة، وقد خصها ابن خلدون بالإعمار لاعتدال مناخها المؤهل للعمران، فقال: " فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذ الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً " ^٢، ويظهر هنا تأثير التوسط في المناخ وأهميته للعمران.

ثالثاً: العمران يحتاج لوجود العدل في المجتمع

إن العدل هو القاعدة الصلبة التي يبنى عليها الإعمار في أي مجتمع، وقد وضع الله كل موارد الطبيعة تحت تصرف البشر، وأنزل - سبحانه وتعالى - شريعته بالعدل لضمان توزيع عادل لهذه الموارد، ولم يطلق يد البشرية وإراداتها لتوزيع هذه الخيرات؛ وذلك لأن الإنسان يتصف بالشح والبخل والتقطير

(١) محمد صبحى عبد الحكيم، جغرافيا العالم الإسلامي، المعهد العالي للدراسات الإسلامية (٢٠٠٧ - ٢٠٠٨)، ص٣٣.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق : على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول ص٣٩٢.

وحب المال حبًا جمًّا قال تعالى: " كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) " (الفجر: ١٧ - ٢٠)، وقال: " قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا " (الإسراء: ١٠٠)، فالعدل هو الذي " يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجارة للصر والنسب والغنى والفقر والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع"١، لذلك أنزلت الشريعة بالحث على العدل حتى لا يتفشى الظلم وينتشر الفقر، وإذا تمسك المسلمون بشريعتهم وأقاموا العدل كان الجزاء انتشار الخيرات والعمران، فقال تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " (الأعراف: ٩٦). وقال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ " (المائدة: ٦٦).

ولا يستطيع الإنسان أن يعمل ويجتهد وهو يشعر بالظلم؛ وذلك لأن وقوع الظلم يؤدي بالإنسان لليأس، وتنعدم الرغبة في العمل، وتزيد الرغبة في تعطيل العمل، وتمتلئ النفوس بالرغبة في الثورة على الظلم، والعدل هو " عدل شامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة، وتعمر به البلاد، وتنمو به الأموال، ويكثر معه النسل، ويأمن به السلطان...، وليس شيء أسرع في خراب الأرض

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد رابع، ص ٢١٩.

ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد، ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل " ١ .

والعدل مضاد للظلم، وقد حذر الله - تعالى - من الظلم، وأمر الناس بالسير في الأرض لمشاهدة عاقبه الظلم وهي الهلاك والفناء، قال تعالى: " أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (الروم: ٩)، فالعدل هو القاعدة الضامنة لل عمران والبقاء، يقول ابن خلدون " واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، وهو ما ينشا عنه من فساد العمران وخرابه، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري، وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة، من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، فلما كان الظلم - كما رأيت - مؤذناً بانقطاع النوع أدى ذلك إلى تخريب العمران، وكانت حكمة الحظر فيه موجودة، فكان تحريمه مهمّاً " ٢ ، ويمكن القول بأن العدل هو " أساس الجمعية التآنسية والعمران والتمدن؛ فهو أصل عمارة الممالك التي لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع منه، وكالصفة من صفاته، وإنما يسمى باسم خاص كالشفقة والمروءة والتقوى ومحبه الوطن وخلوص القلب وصفاء الباطن والكرم

(١) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار اقرأ بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الثاني ص ٦٩٩، ٧٠٠.

وتهذيب الأخلاق والتواضع وما ماثل ذلك، فهذه كلها نتائج العدل"^١.

رابعاً: العمران يحتاج لوجود الأمن

حتى يتم العمران ويستطيع الإنسان القيام بالعمل يجب أن يكون هذا الإنسان آمناً مطمئناً ليستطيع أن يعمل وينتج، فيكون آمناً على غذائه، وآمناً على ماله، وآمناً على وطنه ضد أي اعتداء، وآمناً على أبنائه، وهذا الأمن هو الضامن لتحقيق العمران، حيث إن "الأمن يعتبر من أهم مطالب الحياة، بل لا تتحقق أهم مطالبها إلا بتوفره، حيث يعتبر ضرورة لكل جهد بشري فردي أو جماعي لتحقيق مصالح الأفراد والشعوب"^٢، ويجب أن يكون الأمن "أمناً عاماً مطمئناً إليه النفوس، وتيسر فيه المهمم، ويسكن فيه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة"^٣، ويرى ابن خلدون أن الاجتماع البشري والتعاون والحماية يحققان التنمية والأمن، فيقول: "وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته، لما ركبه الله - تعالى - عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له - أيضاً - دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته، ويظل نوع البشر، وإذا كان التعاون حصل له قوت للغذاء والسلاح للمدافعة"^٤، ونجد في آيات القرآن الكريم الارتباط بين الأمن

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي السياسة والوطنية والتربية، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، الجزء الثاني، ص ٥١.

(٢) عبد الله بن عبد المحسن التركي، الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، www.al-islam.com، بتاريخ ٢٦/١/٢٠١٤.

(٣) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: على عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول ص ٣٤١.

والغذاء في قوله تعالى: " الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (قريش: ٤)، وفي هذه الآية ارتباط بين الأمن والغذاء، فهما عاملان متلازمان لراحة البشر، فأمن الغذاء يكمله ويتممه إلا من من الخوف، قال تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل: ١١٢).

ونجد في الآية ارتباط الأمن بالرزق والإعمار والرخاء، فلا يوجد تمتع بالرزق إلا بشرط وجود الأمن، ولا يوجد إعمار إلا في وجود الأمن.

خامسًا: العمران يحتاج إلى العلم والتعلم

إن العمران يقوم على أساس الاستفادة من كل موارد الطبيعة، وتسخيرها حتى تخدم الإنسان على أكمل وجه، وتسخير المواد يحتاج للعلم والتعلم في كل المجالات والأنشطة مثل علوم النشاط الزراعي وعلوم الأنشطة الصناعية والعلوم التجارية وجميع أنواع العلوم التي تنهض بالعمران، وقد حثَّ الإسلام على الاستفادة من كل موارد الطبيعة، فقال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك: ١٥)، وقد نجد في أبواب الفقه فقه المعاملات والحث على تعلم أحكام التجارة والإجارة والزراعة والمضاربة وغيرها، ويحث الإسلام على الإخلاص والإبداع والإتقان. ولا تتم العمارة والعمل والتقدم والكشف عن أسرار الكون إلا بالعلم في كل المجالات، وذلك " أنه لا تستقيم حياة الفرد إلا بالوقوف على ما حصل عليه الفكر الإنساني من معارف وتجارب، وما أفادته الإنسانية من رسالات الأنبياء، ولا

يتم ذلك إلا بالتلقين والتعليم"^١، ويكون التعليم للوصول للعمران، وكلما زادت العلوم كثر التطور والعمران، فزيادة العمران تتوقف على مدى الوصول للعلوم وتطبيقها، والعلم هو أساس العمران، ولا يقوم العمران إلا به، فهو بذلك يفتح على المسلم الدنيا، ويكسبه الأخرة؛ وذلك لأنه في الدنيا يستطيع تسخيرها وإعمارها، وفي الأخرة فهو قد قام بالعلم على الإعمار المطلوب منه للخلافة الموكلة بها، فإذا نظرت إلى العلم رأيته "مطلوبًا لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والأخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال"^٢.

ونشر العلم بأنواعه مثل علوم الطب والهندسة والمعمار والزراعة والصناعة والحرف، والعلوم الدينية وغيرها في الدول التي يقوم عليها انتشار العمران في كل أرجائها يقع على الحاكم، فإن الدولة "دورها في نشر المعارف والعلوم والتربية والتعليم لا غنى عنه أبدًا؛ ذلك لأن العلوم لا تنشر في عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله"^٣، فالحاكم هو مسؤول عن نشر العلوم ومساعدة النافع منها على التواجد بتوفير وسائله.

(١) المرجع السابق، الجزء الثالث ص ١٣٤.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، جزء أول، ص ٥٢.

(٣) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي السياسة والوطنية التربوية، تحقيق: محمد عمارة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٩٦.

وسنحاول في المطلب الثالث إسقاط هذه المقومات على القصص القرآني لنلاحظ أهمية هذه المقومات وتأثيرها على التطور.

المطلب الثالث

تطبيقات مقومات العمران على التطور من القصص القرآني

بعد معرفة مقومات العمران، وبالبحث في قصص القرآن الخاصة بالتطور وجد أن " من أهم الخواص التي تمتاز بها ظواهر الاجتماع الإنساني أنها لا تجمد على حال واحد، بل تختلف أوضاعها باختلاف المجتمعات والأمم والشعوب، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور. فمن المستحيل أن تجدد مجتمعين يتفقان تمام الاتفاق في نظام اجتماعي ما وفي طرائق تطبيقه، كما أنه من المستحيل أن نجد نظامًا اجتماعيًا قد ظل على حال واحدة في مجتمع ما في مختلف مراحل حياته" ^١، وهذا يعني أننا إذا أردنا حصر التطور العمراني في كل المجالات مثل الثقافة والعلوم والآداب والزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من الألوان التي تتصف بالتطور، والتي تؤدي للعمران في المجتمع فلن يكفي البحث لهذا الكم من التطورات؛ لذلك سأتناول التطور من خلال أحداث سنسقطها على مقومات الإعمار التي استخرجتها في المطلب الأول، وستكون كما يلي:

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مرجع سابق، الجزء الأول

أولاً: الاجتماع البشري والعمل للتطور العمراني

لا يتم العمران والتطور إلا من خلال الاجتماع البشري والعمل للوصول للعمران، والتقسيم في العمل يكون في " ذلك الجزء من الموارد البشرية الذي يقوم بتجميع عناصر الإنتاج المشاركة في العملية الإنتاجية، ويقوم بالتنسيق بينها، واتخاذ القرارات الخاصة باستخدام الفن الإنتاجي المناسب للقيام بالنشاط الإنتاجي، كما يتحمل مخاطر هذا النشاط، ويعمل على تطوير العملية الإنتاجية بالتجديد والابتكار، ويرى الاقتصاديون أن عنصر التنظيم من أهم العناصر التي تؤدي إلى إحداث التنمية " ١.

وإذا بحثنا في كتاب الله عن الآيات الدالة على العمل الجماعي فسنجد الكثير، نذكر منها:

قوله تعالى: " وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " (التوبة: ١٠٥).

وقوله تعالى: " وَعَاتِبْكُمْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا " (آل عمران: ١٠٣).

وبالتطبيق من قصص القرآن الكريم على التطور والعمران الذي يحدث نتيجة العمل الجماعي نجد قصة ذي القرنين تدل على العمل الجماعي ونجاحه.

(١) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، مرجع السابق، ص ١١٤.

ذو القرنين والعمل الجماعي:

وإذا أردنا أن نتحدث عن قصة من القرآن عن العمل الجماعي المؤدى لل عمران والنجاح نتحدث عن قصة ذي

القرنين، وكيف استطاع بالعمل الجماعي أن يصد الأذى عن الناس عندما استعانوا به لإنقاذهم من إفساد يأجوج ومأجوج، قال تعالى: " قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) " (الكهف: ٩٤ - ٩٦)، ويقول ابن كثير^١: " إنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدًا... قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعملكم وآلات البناء " ^٢، وهنا يلاحظ أنه بالعمل الجماعي استطاع أن يصد أذى قوم يأجوج وماجوج.

ويلاحظ من قوله تعالى: " إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا " (الكهف: ٨٤) " أي أعطيناه ملكًا عظيمًا ممكنًا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من

(١) انظر ملحق الاعلام.

(٢) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الحديث القاهرة، ط ٢، (١٠٤١٠هـ -

١٩٩٠م)، الجزء الثالث، ص ١٢.

العرب والعجم" ^١، وبالرغم من هذه القوة إلا أن ذا القرنين أخذ بأسباب العمل والتقدم، و" قد يمد الله البشر بالحوارق، ولكن التكليف على أساس عالم الأسباب، وهذا يقتضي من المسلمين أن يوجدوا كل الأسباب اللازمة والمستطاعة لإقامة الشئ الذي كلفوا به....، وأن الله آتاه من كل شئ سبباً، وقد رأينا أنه قد اتبع الأسباب الموصلة إلى الغايات فسلكتها" ^٢.

ثانياً: وجود جغرافيا مؤهلة للتطور العمراني

تتكون الحضارة من عدة عوامل تتكامل لتكون الحضارات مثل التفوق الزراعي والصناعي والتجاري والثقافة والعلوم والفنون والرفاهية، ولا يمكن أن تتحقق التنمية لأي فرع من هذه الفروع إلا بوجود جغرافيا تساعد على هذا التطور، فالتطور الزراعي يحتاج لأرض خصبة ومناخ مناسب ووفرة المياه، وكذلك الحضارة الصناعية تحتاج لمواد زراعية أو معدنية لقيام التقدم الصناعي، وكذلك العمران التجاري يحتاج طرقاً مناسبة لنقل التجارة عن طريق البحار والمحيطات والأنهار والمجال الجوي المناسب والطرق المتصلة، وهكذا فإن الجغرافيا تساعد على تقدم العمران وتطوره، وبالتطبيق من القصص القرآني نجد قصة إبراهيم - عليه السلام - وزوجته هاجر والرضيع إسماعيل أكبر دليل على أن الجغرافيا هي التي تؤهل للعمران، فوفرة المياه في أرض قاحلة أهل للعمران.

(١) المرجع السابق، الجزء الثالث، ص ٩٨.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى، مرجع سابق، المجلد السادس، ص ٣٢٢٨.

إبراهيم وهاجر والجغرافيا المؤهلة للعمران:

إن قصة هاجر ورضيعها والعمران الذي تم حولهما لم يتم إلا بتوفر أهم مقوم من مقومات الجغرافيا المؤهلة للعمران وهو المياه، فالمياه تعد من أهم مقومات جغرافيا العمران التي تقوم عليها الأنشطة الزراعية والرعية، فهي الحياة لكل مكان تتواجد فيه، قال تعالى: " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (إبراهيم: ٣٧)، وهنا يناجى إبراهيم ربه بأنه أسكن ذريته " بهذا الوادي المجدب المقفر المجاور للبيت الحرام" ^١، ويلاحظ أنه "لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل الملك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء" ^٢، وكان هذا بناء على دعوة إبراهيم لله - تعالى - بأن يجعل قلوب الناس تهوي إلى هذا المكان وتأتي لعمرانه، فقال تعالى: " فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ "، ونلاحظ أنّ " هذا دعاء بأن يجعل الله القلوب تميل إليهم وتحبهم، وقال ابن عباس ومجاهد: لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند وغيرهم" ^٣، وهذا ما يخص دعاء النبي، والإعجاز في الاستجابة بحب الناس واتجاههم بعواطفهم لهذا المكان. أما إذا تحدثنا عن الإعمار المادي فنلاحظ أن الإعمار لهذا المكان إعمار مادي، وهي المياه والزراعة والتي هي مصدر الحياة، ونستنتج من ذلك أنه ليحدث الإعمار بالأرض يجب أن يكون بها أحد

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٢١٩.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، الجزء الثاني عشر، ص ١٤٨.

(٣) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٧١.

مقومات الإعمار، وفي هذه القصة نجد أنه حدث تطور عمراني لأرض البيت الحرام بوجود المياه، ولولا وجود مقوم العمران بأمر الله لما كان العمران في هذا الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء.

ثالثاً: تطور العمران بوجود العدل

العدل من أهم مقومات الإعمار وللعدل أوجه كثيرة في المجتمع مثل عدل الحاكم وعدم استبداده، وكذلك عدل في الحقوق والقصاص بين أفراد المجتمع، وكذلك العدل في توزيع الثروات والخيرات بين الأفراد، والعدل في إقامه شريعة الله والأخذ من الأغنياء وإعطاء الفقراء، فيجب على الأغنياء أن يمدوا يد المساعدة للفقراء، وإذا ما حاولوا التهرب من واجباتهم نحو الفقراء فعلى الدولة أن تفرض عليهم التنازل عن جزء من ثروتهم لمساعدة الفقراء والمحتاجين، وهذا عدل اجتماعي إن لم يسد انتشار الفقر وضاع العمران، والشريعة السماوية على مر الأزمان كلها تأمر بالعدل فقال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ " (المائدة: ٦٦)، وهذه سنة إلهية، ووعدهم من الله إذا ما تمسك الخلق بالشريعة وأمرها جاء للأمم الخيرة، والعدل من أهم مبادئ الشريعة الإلهية، وهو من أهم مقومات العمران، وبالتطبيق من قصص القرآن الكريم على تأثير العدل في التطور والعمران نجد في أحسن القصص كيف أن يوسف عليه السلام استطاع إقامة العدل في الموازين والمكاييل.

الإعمار بالعدل في قصة يوسف عليه السلام:

ففي قصة نبي الله يوسف عليه السلام قال تعالى: " فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " (يوسف: ٨٨)، والكيل والموازين من أدوات العدل في المجتمع فقال تعالى: " وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ " (الرحمن: ٩)، والموازين والمكاييل إذا طبقت على مراد الخالق تنقذ من الأزمات الاقتصادية مثلما حدث في زمن نبي الله يوسف، ويتضح ذلك من خلال قصة يوسف عليه السلام، وقد ظهر " مدى أهمية الاستقرار الاقتصادي الذي ساد مجتمعه في ذلك الوقت حيث إن إيفاء الكيل في القمح يعطينا مدلولاً اقتصادياً عن عدم احتكار يوسف عليه السلام للسلعة الاقتصادية الهامة وهي القمح... فقد كان الوحيد المتصرف في بيع كل ما يعرض في السوق من تلك السلعة الإستراتيجية، وهذا يعطينا تغيراً اقتصادياً للتاريخ من قصص القرآن الكريم، وتطبيق حدود الله تعالى وشرعه في الكيل وانتعاش الأسواق وازدهار التجارة الداخلية والدولية رغم الأزمات الزراعية التي كانت تمر بها البلاد، وأن الحكومة في عهد يوسف - عليه السلام - لم تحتكر الصنف، وهذا يدل على مرونة في العرض والطلب لإشباع السوق وعدم تعرض المجتمع للاختناق " ^١.

ويلاحظ من قصة نبي الله يوسف أن العدل مع قله الموارد يؤدي للعمران؛ وذلك لأن " حجماً معيناً من الطيبات يوزع بصورة عادلة على أفراد المجتمع

(١) نواف بن صالح الخليس، المنهج الاقتصادي في المكاييل والموازين لنبي الله شعيب، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ - ١٩٩١م)، ص ٥٩.

يقيم حياة طيبة أعلى بكثير من ضعف هذا الحجم إذا ساء توزيعه فاستأثر به البعض وحرّم منه الكثيرون" ^١.

ويلاحظ كذلك أن العدل حافظ على العمران من الهلاك، لأننا رأينا "اتساع دائرة المجاعة، كما ندرك كيف وقفت مصر - بتدبير يوسف - منها، وكيف صارت محط أنظار جيرانها ومخزن الطعام في المنطقة كلها" ^٢. وبذلك نستطيع القول بأن التطور العمراني يتوقف على كل صور العدل، ومنها عدل الحاكم وأولي الأمر.

رابعاً: تطور العمران بوجود الأمن

للأمن تفريعات كثيرة كلها تصب في معنى الأمن فهناك أمن نفسي، وأمن اقتصادي، وأمن اجتماعي، وعندما يفقد الإنسان أي نوع من أنواع الأمن فإنه لا يكون منتجاً، ولا يستطيع الإعمار والإنتاج إلا بعد استرداده لنوع الأمن الذي فقده.

وحفظ المسلمين لأمنهم واستقرارهم يجعلهم في حالة يقظة دائمة، "لأن الأمن يعد أحد الأسباب التي تذهب عن

الأمة كثيراً من عناصر الضعف والسقوط، لأنه من ناحية يغرس فيها حمية الوعي بأهمية توفير كل مصادر القوة المتاحة والقادرة على ردع أية محاولة لانتهاك أمنها واستقرارها، ولأنه من ناحية ثانية يركّز فيها الإحساس بأنها في رباط دائم، كما أنه من ناحية ثالثة حركة دائمة وممارسة فعالة ونشاط

(١) يوسف إبراهيم يوسف، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٢١٥.

متجدد"^١، ويستلزم توفير كل مصادر القوة للوصول للأمن أموالا وثروات لإعداد القوة الدافعة لأي عدوان، ولتوفير هذه الأموال يجب العمل للإعمار والإنتاج للوصول لهذه الأموال، ومع توفير الأمن بقوته الحامية للإعمار يزيد الاطمئنان في النفوس فيزيد الإعمار والإنتاج والعمل، وذلك لأن الإنسان عندما يأمن على نفسه وذريته وأمواله يحدث له الأمن النفسي المؤدي للإنتاج والعمل الدائب المؤدي للإعمار، وبالتطبيق من قصص القرآن الكريم على تأثير الأمن في الإعمار والتطور نجد قصة إبراهيم عليه السلام وتأثير دعائه على منطقته بيت الله الحرام.

الإعمار والأمن في بيت الله الحرام :

قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " (البقرة: ١٢٦)، وهذه دعوة إبراهيم لمكة أن يرزقها الله الأمن الذي يتعبه الرزق من الثمرات والخيرات وكان الدعاء بالأمن يسبق الرزق لأهميته للنفس البشرية وهكذا " كانت تجيء إليهم ثمرات كل شئ، فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل"^٢، وذلك لأن الأمن يسبق الغذاء من حيث احتياج الناس له ولا يمكن أن تتحقق التنمية في الغذاء إلا بعد تحقيق الأمن العام حيث لا يستطيع الإنسان أن يقوم بالعمل في الزراعة مثلاً وهو غير آمن على نفسه وأرضه أو بلدته.

(١) مصطفى محمود منجود، الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة،

(١٧٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م)، ص ١٤٠.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢١٩٩.

قال تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل: ١١٢)، ثم يجيء القرآن الكريم ليؤكد بأن هذه القرية كانت آمنة ومطمئنة، ونتيجة هذا الأمن جاء العمران وتوفر الغذاء والرزق والخيرات التي جاءت بعد توفر الأمن لهذه القرية.

وبذلك نستطيع القول بأن الأمن يستتبعه العمران والرخاء في القرى، والأمم التي تتمتع بالأمن النفسي والمادي ضد الأعداء هي الأمم التي تستطيع العمران، مثل مكة وما حدث لها استتباعاً للأمن من رخاء وبنيان وثروات.

خامساً: تطور الإعمار بوجود العلم والتعلم

هناك ارتباط بين العلم والتطور في الإعمار، فكلما زادت الخبرة البشرية وتطور العلم كانت البشرية أقرب للاكتشافات

ولمعرفة أسرار الكون للاستفادة منه وتسخيرها والاكتساب منه وإعمارها، وكذلك يمكن أن تكون أقرب لمعرفة الله، فقال تعالى: " سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (فصلت: ٥٣)، وقال تعالى: " وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " (فاطر: ٢٨)، وهاتان الآيتان متكاملتان، بمعنى أن العلماء عليهم استكشاف الكون بكل أسرارها، وهذه الاكتشافات تؤدي بهم إلى الإيمان بالله وخشيته، " ومعنى هذا أن الخبرة البشرية التي تزداد تضخماً يوماً بعد يوم في الكم والنوع، والتي تبدو في كثير من الأحيان منساقاة وراء نداء الشيطان مغرورة منتفخة مارقة متبجحة، هي

نفسها التي ستقرب أجيال بني آدم من الحق، وهي نفسها التي ستريهم آيات الله في الأنفس والآفاق، وهي نفسها التي ستعينهم على بلوغ الأهداف. إنَّ مرور الزمن بهذا المعنى يدفع المسلمين اليوم - أو هكذا يجب أن يكون - إلى مزيد من التفاؤل، وإن تراكم الخبرة ونمو معطيات الكشف والابتكار ستقرب البشرية إلى الله. وإن الزمن في خدمة هذا الدين أو هكذا يجب أن يكون.^١ وهذا يعني أنه كلما زاد العلم على الأرض كلما زاد التقرب لمعرفة الله وتنفيذ مراده - سبحانه وتعالى - في إعمار الأرض، وهناك ارتباط بين العلم والعمل؛ وذلك لأن "العلم الذي يثمره الإيمان يستتبع العمل؛ لأنه نور يكشف للمؤمن بينه الصراط المؤدي إلى الله، ويقشع من بين يديه حجب الشك والجهالة فيندفع بجواجز الإيمان، لا يستبهم عليه الطريق، ولا يستوقفه التخوف من أن يميل عن الجادة، ثم إن العلم يزيد العالم معرفة بالله وإيماناً به واستشعاراً للغيب وإدراكاً لمصالح الحياة الأخرى، فيضاعف لديه دوافع الإيمان وضوابطه."^٢ وطالما أن العلم سيزيد من معرفة الله والإيمان به فكل هذا يؤدي للإعمار، لأن الإعمار هو مراد الله من الإنسان؛ لذلك سخر له هذا الكون بأكمله لمساعدته على الإعمار، وبالتطبيق من قصص القرآن على العلم نجد يوسف أفضل مثال للأعمار بالعلم.

العلم والإدارة المؤديان للعمارة في قصة يوسف:

قال تعالى: " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمٌ " (يوسف: ٥٥).

(١) عماد الدين خليل، أصول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧.

(٢) حسن الترابي، الإيمان وأثره في حياة الإنسان، مرجع سابق، ص ٣٨.

وللعلم في قصة نبي الله يوسف أكثر من موضع، فالعلم في قصة يوسف له مكانة كما له مكانة في حياة البشرية أجمع، "وبيان أنه سبب الرفعة في الدنيا والأخرة وسبب صلاح الدين والدنيا فيوسف - عليه السلام - لم ينل ما نال إلا بالعلم.. وتمكن عند ملك مصر، واستخلصه لنفسه حين كلمه وعرف ما عنده من علم، ودبر أحوال الخلق من الممالك المصرية بإصلاح دنياهم، وحسن تدبيره من حفظ خزائن الأرض وتصريفها وتوزيعها بالعلم... ففضائل العلم وثمراته الجليلة العاجلة والآجلة لا تعد ولا تحصى"^١.

قال تعالى: " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " (يوسف: ٥٥)، وللعلم فائدة في قصة يوسف عليه السلام فقلوه هذا يعني: " أني أحفظ الحاصلات والغلات، وأعلم كيفية تصريفها وتديرها، فحينئذ اعتنى في سنين الخصب بالزروعات الهائلة وجباها في مخازنها وفي سنبلها، واجتهد في الاقتصاد في أكلهم أيام السنين الخصيبة لتوفير الغلال والنفع العام"^٢.

واستطاع يوسف - عليه السلام - إنقاذ مصر من سنين المجاعة بحكمته وعلمه في إدارة شئون مصر الغذائية للمرور من هذه الأزمة والتي كانت ستقضي على العمران، ولولا علم يوسف بفنون إدارة هذه الأزمة لكانت مصر قضي على عمرانها بالمجاعة وقلة الأمطار، فالعلم في قصة يوسف حافظ على العمران، وكان سبباً في الحفاظ عليه من المجاعات التي أطاحت بالبلاد حينئذ، بل واستمرار وتطوير العمران، حتى إن الأرض التي أدارها يوسف

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدى، فوائد مستنبطه من قصة يوسف عليه السلام، نشر مكتبه أضواء السلف،

(٢٠٤٢ هـ - ٢٠٠٠ م)، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤.

بعلمه كانت تعطي الغذاء لأهالي البلاد المجاورة لها، ولا نستطيع أن نوقف دور العلم في الحفاظ على العمران عند زمن قصة يوسف - عليه السلام - فقط، بل العلم يحفظ العمران والرخاء في كل الأزمان والعصور.

وبعد استعراض مقومات الإعمار وإسقاطها على قصص من القرآن الكريم لتوضيح فاعليه هذه المقومات في عملية الإعمار في هذه القصص، سنقوم بمحاولة توضيح العمران وارتباطه بمقاصد الشريعة ثم محاولة توضيح الفرق بين مصطلح العمران الإسلامي ومصطلح التنمية في الأنظمة الوضعية، ثم نحاول اقتراح سياسات لتفعيل العمران الإسلامي.

المبحث الثاني ال عمران في الفقه الإسلامي

- المطلب الأول: الإعمار وعلاقته بمقاصد الشريعة.
- المطلب الثاني: مقابلة بين مصطلح العمران ومصطلح التنمية.
- المطلب الثالث: اقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي.

المطلب الأول الإعمار وعلاقته بمقاصد الشريعة

(١) سنبدأ بتعريف الفقه في اللغة:

الفقه: الفهم والفتنة والعلم، وغلب على علم الشريعة وفي علم أصول الدين^١.
والفقه: فهم الشئ، وقال ابن فارس: وكل علم لشي فهو فقه و(الفقه) على لسان حملة الشرع علم خاص^٢.

و" الفقه في الاصطلاح: عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من الأدلة التفصيلية لتلك الأحكام... قال بعض الفضلاء: الفقه في الاصطلاح: هو علم المشرع وإتقانه بمعرفة النصوص بمعانيها، والعمل به، ويعبر عنه بأنه معرفة الفروع الشرعية استدلالاً والعمل بها^٣.

وعندما نربط الإعمار بالفقه يجب أن نبحت عن مقاصد الشريعة وعلاقتها بالإعمار؛ وذلك لأن الإسلام عقيدة تقع في قلب وعقل المسلم، وشريعة

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، ص٦٩٨.

(٢) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٣) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، ص٦٩.

تحكم تصرفاته وأفعاله ويمكن القول بأن الشريعة هي " الجانب القانوني من الإسلام غير أن الشريعة تتميز - أو تمتاز - عن القوانين الوضعية بعدة مميزات، فالقانون ينظم علاقات الناس فيما بينهم... أما الشريعة فهي - إضافة إلى هذا - تنظم علاقه الإنسان بربه ثم علاقته حتى بنفسه" ^١.

(٢) أما عن تعريف الشريعة ومقاصدها:

"ف (الشريعة) في اللغة هي مورد الناس للاستقاء، وسميت بذلك لوضوحها وظهورها، وجمعها (شرائع)، (شرع) الله لنا كذا، (يشرعه) أظهره وأوضحه" ^٢.
وأما المقاصد " فهي المعاني والحكم - ونحوها - التي راعاها الشارع في التشريع عمومًا وخصوصًا من أجل تحقيق مصالح العباد" ^٣.

ونستطيع القول بأن للشريعة " مقاصد عامة تشمل جميع أبوابها مطردة في جميع أحكامها وهي: جلب المصالح ودرء المفاسد ورفع الحرج والعدل والحث على الاجتماع والاتلاف، وأعظمها عبادة الله وحدة لا شريك له" ^٤.
وعلى هذا فإن "مقاصد الشريعة تمثل مراد الله وغاية ما كلف به عباده وما شرعه لهم" ^٥.

وتنقسم المقاصد إلى ثلاثة أقسام، ضرورية، وحاجية، وتحسينية، وينصب اهتمامنا في الدراسة على الضرورية؛ وهي مرتبطة بالعمران، وذلك لكونها

(١) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعد وفوائده، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، (ديسمبر ١٩٩٩)، ص ١.

(٢) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٣) محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، دار الهجرة للنشر والتوزيع، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م)، ص ٦٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٣٢.

(٥) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعد وفوائده، مرجع سابق، ص ١٣.

مرتبطة بمصالح الدين والدنيا للوصول للعمران في الدنيا وللنجاة والنعم في الأخرة حيث إن العمران مادي لعمار الكون، وروحي للوصول للجنة.

وتعرف المقاصد الضرورية بأنها " ما لا بد منها من صلاح العباد في المعاش والمعاد بحيث إذا فاتت وانمحت شقوا شقاوة لا سعادة معها في الدنيا ولا في الأخرة، وتلاشى دينهم، وفسدت أبدانهم وانقطع نسلهم" ^١.

ويلاحظ من هذا التعريف أنها ضرورية لإقامة العمران، حيث تتضمن الدين والأبدان والنسل، وكلها أساسيات لوجود العمران، وتعتبر المقاصد الضرورية هي الأهم، لأنها " لو فقدت لاختل نظام العالم وفسدت الدنيا، وإن أعظم الضروريات حفظ الدين. والضروريات هي (الدين والنفس والعقل والنسل والمال والعرض عند بعضهم)، وإن كل واحد منها له وسائل في الشريعة تحفظه" ^٢.

أولاً: حفظ الدين وعلاقته بالإعمار:

ومن وسائل حفظ الدين إقامته، أي العمل به والجهاد من أجله والحكم به، وقد قام دين الإسلام على شهادة أن لا اله الا الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، ويلاحظ أن من أركان الإسلام إيتاء الزكاة، وهي من دعائم إقامة الدين الأساسية.

(١) يوسف محمد أحمد البدوي، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، دار النفائس للنشر والتوزيع الاردن، (٢٠٠٠م)، ص٤٤٥.

(٢) محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، مرجع سابق، ص٦٢٩.

" (الزكاة): البركة والنماء والطهارة والصلاح وصفوة الشيء، وفي الشرع: حصة من المال ونحوه أوجب الشرع بذلها للفقراء ونحوهم بشروط خاصة" ^١.

والزكاة في عرف الشرع: هي القدر الواجب أخراجه لمستحقه في المال الذي بلغ نصاباً معيناً بشروط مخصوصة...، وإذا امتنع المسلم عن أدائها أخذها الحاكم منه قهراً ولو اضطر إلى قتاله.

والزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي عبادة مالية يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل - فإذا أداها كاملة على وجهها الصحيح راضية بها نفسه، مبتغياً بها وجه ربه - تعالى - غير مرء بها الناس كانت سبباً في نجاته من عذاب النار ودخوله الجنة، كما صرحت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، قال تعالى: " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)" (الليل: ١٧ - ٢١)، وللزكاة وظيفة اجتماعية هامة تقي المجتمع من السقوط في مهاوي الرذائل، وتحميه من آفات الذل والهوان، وتجعله قادراً على الدفاع عن نفسه وتحقيق ما يصبو إليه من عزة ورفعة شأن، فهي نظام إسلامي يحقق للأمة التكافل الاجتماعي في أسمى صورة، ويحقق المساواة بين الأفراد حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، ولو قامت الدولة بجمع الزكاة

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة زكى، ص ٤٩٦، ٤٩٧.

من المسلمين ودفعها للمستحقين لما وجد بين الناس جائع ولا محروم، ولا
اشتكى أحد من ذل الفاقة وقسوة الحياة " ١ .

والزكاة من مقومات الإعمار في الأرض، قال تعالى: " الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ " (الحج: ٤١)، ويجب معرفة أنه " حين يحث القرآن على الصدقات فإن
ذلك يعبر عن مظهر لإعمار الكون، إذ كيف يدفع المؤمن الزكاة دون وجود
مال نام متحرك بفعل فعله في واقع الحياة من صناعة وزراعة وتجارة " ٢، فإذا
بلغ المال نصاباً للزكاة كان هذا يعني أن المال زاد ونما لينتج الزكاة، وهذا نوع
من أنواع الإعمار، حيث إقامة المشروعات بأنواعها ونجاحها ووصولها لنصاب
الزكاة.

وللزكاة دور في الإعمار كما يلي:

- للزكاة مصارف لها دور في الإعمار، حيث إن مصارفها تغطي كل أنواع
الاحتياج في المجتمع، ونلاحظ وجود مصرف هام للإعمار وهو مصرف
الغارمين، فنجد هذا المصرف هاماً، ويساعد على الإعمار في حالة ما إذا
كان الغارم تاجرًا أو صاحب صناعة أو صاحب زراعة أو ما شابه ذلك من
الأنشطة الإعمارية، وحدث له أمر أدى إلى تعسره، حيث إن الغارم هو " من
عليه دين قد اقترضه من مسلم أو كافر لسد حاجة من حوائجه " ٣، وهذا

(١) انظر: محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، دار المنار للنشر والتوزيع،
المجلد الأول، ص ٤٥٥: ٤٥٨.

(٢) زياد خليل الدغامين، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٣) محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، مرجع سابق، جزء أول، ص ٥.

المصرف كفيل بأن يتجرأ المسلم في الإقدام والإعمار وإنشاء المشاريع دون الخوف من الفشل والإفلاس والكوارث لوجود مصرف الغارمين في الزكاة، وهذا يساعد على الإعمار والتقدم، حيث إن الدائن والمدين يكونان مطمئنين على أموالهم، فلا يخافا من المشروعات والتنمية بوجود سهم الغارمين.

- الزكاة تحارب الفقر في المجتمع، وتمنع تركيز الثروات في أيدي فئات معينة وإفقار فئات أخرى، ومن دواعي الفساد في المجتمع تركيز الثروات وانتشار الفقر، فالزكاة تدعو لتوزيع الأموال ومحاربة الفقر، والفقر آفة تصيب الإنسان الذي هو أساس وقوام الإعمار. والفقر " مشكلة إنسانية، لأنها مشكلة الإنسان حيث هو إنسان، هذا المخلوق الذي جعله الله في الأرض خليفة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ومع هذا لا يجد ما يشبع حاجته ويتم كفايته" ^١. وهذا شق هام من الإعمار في المجتمع الإسلامي، حيث إن الفقر يتعلق بالإنسان وبالعدالة في توزيع الأموال بين الأفراد في المجتمع، حيث لا يستطيع الفقير الوفاء بحاجات نفسه وأهله، وكذلك لا يستطيع القيام بدوره في التنمية مع شعوره بعدم العدالة والفقر، وهنا يتحول الفقير لطاقة إعمارية عاطلة مشغولة بالفقر والعدالة باحثة عن حق العيش بكرامة، وهنا يظهر دور الزكاة لحل مشكلة الفقر.

- الزكاة تحارب البطالة، والتي لها أخطار كبيرة على المجتمع بكامله، وتؤثر على الإعمار في المجتمع، لأنها تصيب الإنسان وهو قوام الإعمار، حيث تستطيع

(١) يوسف القرضاوي، الزكاة ودورها في علاج المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها، دار الشروق، (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م)، ص ١٧.

الزكاة مساعدة الفقراء على إقامة المشروعات الصغيرة التي تعين الفقير على العمل، ويستطيع منها أن يسد احتياجاته الأساسية؛ لأن العوز والفقير " يفقد العائل القدرة على تحمل المسؤولية، ويفقد العائلة شعورها بالاطمئنان إلى مقدرة العائل والثقة به، ويواجه الجميع حالة من التوتر والقلق والخوف من الغد المجهول" ^١، ويلاحظ أنه مع البطالة تنتشر السرقات وعدم الأمن في المجتمع، وعندئذ لا يستطيع أن يسير المجتمع في طريق الإعمار، حيث يفقد الإنسان الإحساس بالأمن والأمان مع انتشار البطالة.

ونستطيع أن نقول أن أموال الإنفاق والصدقة من الأدوات الهامة لتوفير الأموال للتكافل بين أفراد الأمة، لأنه " كلما كان المجتمع يتقابل أفراده على الحق ويتعاونون فيما بينهم بالحسنى بقيت دولتهم، وارتفعت رايتهم، وباتت قوانينهم الاجتماعية آمنة، ومتى وقع فيهم التفرق تبعه الاختلاف، ونتج عنه اتباع الهوى وطاعة النفس والحسد، وذلك من شأنه نشر العداوة وإقامة الحروب، وربما هلك الزرع، وجف الضرع، ولم يعد يأمن واحد على نفسه، فكان التعاون والتآلف بمثابة الضمان لبقاء المجتمع واستمراره" ^٢.

ثانياً: حفظ النفس وعلاقته بالإعمار:

لقد عنيت الشريعة الإسلامية بالإنسان المستخلف عنياه فائقة، واهتم الإسلام بنفس الإنسان الذي هو أساس الإعمار وفاعله، وقد شرع الله للإنسان ما يحفظ له نفسه وما يدفع عنها المفاسد لحفظها وصيانتها حتى لا تتعرض

(١) المرجع السابق، ص ٩.

(٢) سمير عبد الرحمن عبده عبد الرحمن، تحديد المفاهيم، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

للهلاك والضياع، وذلك لأنه بضياح النفس يضيع معها الإنسان المكلف بالإعمار.

والنفس التي شرع لها الله الأمن هي النفس المؤمنة التي ليس عليها قصاص، فحرم الاعتداء عليها، وشرع لها القصاص للحفاظ عليها من الاعتداء، فقال تعالى: " وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا " (النساء: ٩٣).

وقال: " وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ " (الأنعام: ١٥١).

وقال: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٣١).

وإذا خالف المسلم هذه الشريعة الحازمة في حفظ النفس جاء العقاب، وهو القصاص لحفظ النفس، حيث قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) " (البقرة: ١٧٨، ١٧٩). ويقول ابن تيمية: " أن من ظلم الناس وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ويهلك الحرث والنسل، ونحو ذلك من أنواع الضرر التي لا قوام للناس بها لا بد أن يدفع ظلمه وان يعاقب بما يكف عدوان أمثاله " ١.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م)، الجزء العاشر، ص ١٦٤، ١٦٥.

وهنا جاء تشريع القصاص لتحقيق الأمن في المجتمع، ليامن كل إنسان على نفسه ويصونها من الاعتداء والقتل، ولا يتم العمران إلا بوجود نفس آمنة مطمئنة بعيدة عن الهلاك والاعتداء، والإنسان إذا شعر بالخوف وعدم الأمن وعاش ليحافظ على نفسه من الهلاك بالقتل أو الاعتداء فلن يكون آمنًا، ولا يستطيع العمل والتنمية والإعمار بفقدان الأمن؛ وذلك لأن النفس إذا اعتدى عليها الغير اتجهت للانتقام والتخريب، وهذا مخالف للإعمار.

ويعتبر الأمن " من أهم مطالب الحياة، بل لا تتحقق أهم مطالبها إلا بتوفره، حيث يعتبر ضرورة لكل جهد بشري

فردى أو جماعى لتحقيق مصالح الأفراد والشعوب " ^١. ونلاحظ في آيات الذكر الحكيم ارتباط الأمن بالإعمار والرزق، وكذلك ارتباط الخوف، وهو عكس الأمن بالجوع والفقر، ويتضح هذا في قوله تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل: ١١٢)، وهكذا تتضح علاقة الأمن على النفس من الفناء والهلاك والخوف بالإعمار، حيث إن " الخوف أمر وارد وطارئ على الإنسان، فإنه يؤثر عليه مادياً ونفسياً، ويذهب بنعمة الأمن التي تمكن الإنسان من السعي والتصرف في هدوء واطمئنان " ^٢، والخوف هو عكس الأمن، وهو مخالف للإعمار.

ثالثاً: حفظ العقل وعلاقته بالإعمار:

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي، الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١١.

والعقل من أهم أسباب العمران؛ ذلك لأنه بالعقل يتم التدبير والتنمية، وإدارة الحياة كلها لا تتم إلا بالعقل، فبالعقل تتم الاكتشافات، ويكون التطور في جميع المجالات؛ زراعية وتجارية وصناعية وعلمية، وكلما رجع العقل كانت التنمية تسير في الطريق القويم؛ لذلك كان الحفاظ على العقل من مقاصد الشريعة الإسلامية، ولأهمية العقل لعملية الإعمار - لأنه المدير لها والمدير لهذه العملية - فقد نبه الله سبحانه وتعالى على أهمية العقل البشري، وقد ذكر آيات قرآنية للتنبيه على أهمية العقل، فقال تعالى: " إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ " (الأنفال: ٢٢)، وهنا ينعت الله تعالى بالشر من لا يعقل؛ لأن الخير لا يأتي إلا بالتعقل.

وقد نبه سبحانه على أهمية التفكير وأعمال العقل فقال تعالى: " يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (النحل: ١١)، والعقل هبة من الله ميز بها الإنسان على باقي المخلوقات، فإذا فقد عقله أصبح كالجماد والحيوان وفسدت حياته، وفي التفكير والتدبير فهم ومعرفة، " والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار " ١، وهنا يمكن القول بأنه لولا العقل ما كان الفهم، ولولا الفهم ما كان الإعمار بالطرق المتعددة مثل الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى للعقل " أهمية بالغة في كونه وسيلة إلى التأمل في آيات الله وأخذ العبر منها وفي الوصول إلى المصالح النافعة والحذر من

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد رابع، ص ٢١٦٢.

المفاسد" ^١، وعنيت الشريعة الإسلامية بحفظ العقل، وحرمت كل ما هو مفسد للعقل أو يدخل على العقل الخلل والفساد مثل الخمر والمخدرات، فقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة: ٩٠)، وكذلك مثل الغضب، وكذلك تعطيل العقل بإرادة الإنسان ومنعه من التفكير واتباع الآخرين بلا تفكير، وقد كره الله تعالى الاتباع بلا أعمال للعقل، فقال تعالى: " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " (البقرة: ١٧٠)، والعقل هو المرشد للإنسان، وهو الحاكم على صحة الشرائع، أما الاتباع بلا تفكير أو أعمال لهذا العقل فهذا إفساد لنعمة العقل؛ وذلك لأنه يجب حفظ العقل بالتفكير، و" لحفظ العقل والإبقاء على سلامته وحسن تفكيره وصحة تقديره لا بد أن يحاط بسياج الشريعة ويستمد بصيرته منها " ^٢، وذلك لأن الشريعة هي الضابط لكل عقل مفكر.

رابعا: حفظ النسل وعلاقته بالإعمار:

حفظ النسل من مقاصد الشريعة الهامة في الإعمار، وقد حثت الشريعة على حفظ النسل بأكثر من طريقة، فقد وجهت الشريعة إلى السعي للزواج والإنجاب، والإسلام حيب في الزواج للمستطيع الذي تتوفر له أسبابه، ونهي عن الرهبانية التي وصفها بأنها ابتداء، فقال تعالى: " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا " (الحديد: ٢٧)،

(١) محمد سعد بن أحمد بن مسعود البوي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

(٢) يوسف محمد أحمد البدري، مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، مرجع سابق، ص ٤٦٦.

والرهبانية منافية للإعمار لأنها مبالغة في العبادة بالانقطاع عن أمور الدنيا وتجنب النساء، ويترتب على ذلك انقطاع النسل وانقراض النوع البشري، وهو بذلك مخالفة لأمر الله بالإعمار، ويحث الإسلام على الزواج والإنجاب والابتعاد عن الرهبانية، ويجب أن يعرف المسلم أن " ترك النكاح يؤدي إلى قطع النسل وتقليلة...، لذا حذر الشارع الحكيم من تركه وكذلك الأئمة والعلماء رحمهم الله " ١، وكذلك الاهتمام بالأولاد من هذا الزواج وتربيتهم تربية إسلامية سليمة على العبادة الصحيحة، فقال تعالى: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (الذاريات: ٥٦).

ومن العبادة الصحيحة العمل على مراد الله في إعمار الكون، والإعمار يكون للبشر والحجر، وهذا ما يجب تربية أبنائنا عليه، وهو طاعة الله والعمل على تحقيق مراده سبحانه في الكون، وكذلك نهت الشريعة عن اللجوء للإجهاض وإزهاق الأرواح، وحرمت قتل الأولاد من الفقر أو من خشية وقوعه، فقال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٣١) " وفي هذا نهي من الله نهي تحريم عن قتل الوالد لولده خشية الفقر بسبب إطعامه كما كان بعض العرب في جاهليتهم يفعل ذلك، " نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ " وفي هذا توكيد من الله أنه يتكفل برزق عباده " ٢، وهنا جاء النهي كذلك عن قتل الأبناء خوفاً من وقوع الفقر.

(١) محمد سعد بن أحمد بن مسعود البويي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، مرجع سابق، ص ٢٦٤.

(٢) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، مجلد خامس، ٣٣٢، ٣٣٣.

وقال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ " (الأنعام: ١٥١)، فهي الله تعالى عن قتلهم بسبب الفقر، ووقوع الفقر فعليًا لا يبيح لكم القتل للأبناء، والاجهاض كذلك هو قتل للأبناء، ويترتب عليه أضرار جسيمة، فهو " هلاك عدد غير معلوم من أفراد البشرية، وذهاب عدد غير يسير من الأمهات ضحية الموت أثناء عملية الإجهاض، وحدوث مؤثرات مرضية للمرأة لا يستهان بعددها، وقد تؤدي إلى عدم الإنجاب مستقبلاً " ١ .

وكل هذا منافعٍ لل عمران؛ وذلك لأن " حفظ النسل معناه التناسل والتوالد لإعمار الكون " ٢ ، وكثرة النسل هي سبب من أسباب عمارة الأرض؛ وذلك لأن الإنسان هو ركيزة الإعمار لما يقوم به الإنسان من إنشاءات واختراعات وزراعة وصناعة، فالقوة البشرية في كل أمة هي أساس نهضتها، وذلك إذا وجهت التوجيه السليم، واليد العاملة هي اليد المنشئة للحضارة، وهي ثروة من ثروات الأمم؛ ولذلك يمكننا القول بأن " حفظ النسل من الركائز الأساسية في الحياة ومن أسباب عمارة الأرض، وفيه تكمن قوة الأمم، وبه تكون مرهوبة الجانب عزيزة القدر تحمي أديانها، وتحفظ نفوسها، وتصون أعراضها وأموالها " ٣ . والإنسان له دور كبير في عمارة الأرض، فالإنسان يعمل بقصد إنتاج ما يسد حاجته المتزايدة من السلع، وهو بذلك المنتج، وكذلك المستهلك لهذه

(١) محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٢) نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، مكتبة العبيكان، الرياض، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)، ص ٨٣.

(٣) محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، مرجع السابق، ص ٢٥٧.

السلع التي ينتجها، لذلك نجد علاقة بين الإنتاج والاستهلاك والنمو السكاني، وعليه يقوم الاقتصاد ما بين إدارة وإنتاج واستهلاك.

خامسًا: حفظ المال وعلاقته بالإعمار:

حفظ المال من مقاصد الشريعة الهامة لعملية الإعمار، حيث إن المال هو قوام الحياة الاقتصادية، وهو الذي تقوم عليه معظم أعمال الإعمار في الأرض، حيث إن كل أنواع النشاطات الإنمائية والإعمارية تقوم على النشاط الإنساني والأموال التي تحرك هذا النشاط الإنساني في جميع الاتجاهات الإعمارية من صناعة وتجارة وزراعة وإنشاءات...، وغيرها من أنواع الإعمار.

و" حفظ المال معناه: إنماؤه وأثراؤه وصيانتته من التلف والضياع والنقصان. والمال كما يقال: قوام الأعمال؛ لذلك يعد مقصدًا شرعيًا كليًا قطعياً لدلالة النصوص والأحكام عليه" ^١.

وقد حددت الشريعة طرقاً لإنماء وحفظ الأموال عن طريق العمل الجلب الأموال، ويمكن تعريف العمل بأنه " هو أحد عناصر الإنتاج والكسب الأساسية في النشاط الاقتصادي، وهو المشاركة الإيجابية للإنسان بجهده في العملية الإنتاجية، ومعياره المشروعية، أي الإنتاج والكسب بما يحل من الأسباب، وأساس العمل في الإسلام هو مبدأ الاستخلاف، فالإنسان مسؤول عن إعمار الكون، ومسؤول عن العمل في مال الله من طيبات وثروات لحفظها واستثمارها وتنميتها بهدف إشباع الحاجات البشرية، قال تعالى: " قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ

(١) نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، مرجع سابق، ص ٨٤.

تَعْمَلُونَ " (الأعراف: ١٢٩) "١، وقال تعالى: " ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ " (يونس: ١٤).

وجاء حفظ المال أيضاً عن طريق النهي عن التبذير والإسراف حتى لا تهلك الأموال، فقال تعالى: " إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا " (الإسراء: ٢٧).

وقد وجه تعالى للاعتدال في إنفاق الأموال، فقال: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا " (الفرقان: ٦٧).

وكذلك وجه سبحانه لمنع الاكتناز حتى لا تعطل الأموال ويمنع الاستفادة والانتفاع بها، فقال: " وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " (التوبة: ٣٤).

وكذلك حرمت السرقة والغصب والغش والرشوة، وحرم الله الربا لأخطاره المتعددة على الأموال، وكذلك الربا له " آثار مخربة على عدالة التوزيع بين أفراد المجتمع، حيث تنشأ بسببه فئة عاطلة تعيش على استثمار النقود، ولا يعينها استثمار النقود بالحلال " ٢.

وقد حذرت الشريعة من كل وجه من وجوه أكل مال الغير بالباطل، وكذلك الربح غير الشرعي، وهو كل مال غير مستحق أو يؤخذ بدون وجه حق أو من مصدر حرام مثل الرشوة والمغالاة في الأسعار والاحتكار، وكلها سبل لزيادة الأموال بالباطل وتكتلها في أيدي أفراد معينة بلا وجه حق، وقد قال

(١) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٧٠.

تعالى: " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة: ١٨٨)، وهنا تأتي الآية صريحة بتحريم الرشوة، وقال رشيد رضا أن " الخطاب لعامة المكلفين، والمراد: لا يأكل بعضكم مال بعض، واختار لفظ (أموالكم) وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبية على أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك، لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب " ^١.

وقد شرع الله حد السرقة لمعاقبة السارق بقطع اليد حتى لا تهلك الأموال، وكل هذه الأدوات في الشريعة الإسلامية لحفظ المال وعدم هلاكه حتى تتم عملية الإعمار.

وبعد معرفة العلاقة بين الإعمار والفقهاء من خلال علاقته بمقاصد الشريعة قمنا بالبحث عن لفظ يقابل العمران في الاقتصاد الوضعي، فوجدت لفظة التنمية، فحاولنا عقد مقارنة لأبرز الفروق بين الفكر الإسلامي والفكر الوضعي في المطلب القادم.

المطلب الثاني

مقابلة بين مصطلح العمران ومصطلح التنمية

في هذا المطلب نحاول التعريف بكل من مصطلح العمران ومصطلح التنمية، ومعرفة الفروق بينهما واختيار المصطلح الأنسب والأقرب لموضوع البحث.

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٧٧، ١٧٨.

أولاً: التنمية في الاقتصاد الوضعي

ال عمران مصطلح إسلامي يقابله في الاقتصاد الوضعي مصطلح التنمية.

(نما) الشئ نماء، ونمؤًا: زاد وكثر، يقال: نما الزرع، ونما المال، ونما الولد.

(أنمى) الشئ: جعله ناميًا.

(نمّى) الشئ والحديث تنمية: أنماه^١.

التنمية مصطلح يراد به وضع خطة أو برنامج لمواجهة المشكلة الاقتصادية الأساسية، والتي تهتم بها جميع الأنظمة وهي مشكلة الفقر، والفقر هو انخفاض مستوى الفرد من الدخل، ونلاحظ أن معظم خطط التنمية تبحث جاهدة للوصول لحل لمشكلة الفقر وللتغلب عليها، وتعتقد الأنظمة أنه للتغلب على الفقر يجب الوصول للتنمية، وترى الأنظمة المختلفة الوضعية أن للتنمية مشكلة أساسية، وهي ندرة رأس المال، وأنه يجب للوصول للتنمية التغلب على مشكلة ندرة رأس المال، وهناك مصطلح النمو الاقتصادي ومصطلح التنمية الاقتصادية، ويجب التفرقة بينهما، فالنمو الاقتصادي يكون للاقتصادات المتقدمة، أما التنمية الاقتصادية فهو مصطلح مرتبط بالاقتصادات النامية^٢ وبما أنّ العالم الإسلامي من المجتمعات النامية، والبحث موجه للعالم الإسلامي، فإننا نبحث معنى التنمية الاقتصادية.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة نما، ص ٩٥٦.

(٢) عبد الباسط وفاء، محاضرات في التنمية الاقتصادية مقارنة بالفكر الإسلامي، دار النهضة العربية، ص ١٣:١٦.

التنمية الاقتصادية عند بعض الاقتصاديين هي: " التغيرات التي تحدث في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والثقافية، والتي تصاحب عمليه التقدم بصفة عامة. ومن ثمَّ فإنَّ للتطور الاقتصادي الطويل الأجل المصاحب للتنمية مظهرين: المظهر الأول: هيكلية (يتعلق التطور بالبناء الاقتصادي كالتصنيع والتمدن والمؤسسات والعلاقات التي تنشأ بين القطاعات المختلفة).

المظهر الثاني:كيفية (بانصراف التطور إلى المفاهيم العقلية والتصرفات والسلوكيات والقيم والتقاليد)"^١.

وهناك تعريف آخر للتنمية حول التنمية الاقتصادية الاجتماعية الشاملة، وهو " العملية المجتمعية الواعية الموجهة نحو إيجاد تحولات في البناء الاقتصادي الاجتماعي قادرة على تنمية طاقة إنتاجية مدعمة ذاتياً، تؤدي إلى تحقيق زيادة منظمة في متوسط الدخل الحقيقي للفرد - على المدى المنظور-، وفي نفس الوقت موجهة نحو تنمية علاقات اجتماعية سياسية تكفل زيادة الارتباط بين المكافأة والجهد والإنتاجية، فضلاً عن استهدافها توفير الاحتياجات الأساسية للفرد وضمان حقه في المشاركة، وسعيها إلى تعميق متطلبات أمنه واستقراره في المدى الطويل"^٢.

وعرفت التنمية كذلك بأنها " تنشيط الاقتصاد الوطني وتحويله من حالة الركود والثبات إلى حالة الحركة والديناميكية عن طريق زيادة مقدرة الاقتصاد الوطني لتحقيق زيادة سنوية ملموسة في إجمالي الناتج الوطني مع تغيير في هياكل

(١) المرجع سابق، ص ١٦.

(٢) على خليفه الكواري، دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية، عالم المعرفة، (١٤٢٣هـ)، ص ١٠، ٩.

الإنتاج ووسائله ومستوى العمالة، وتزايد الاعتماد على القطاع الصناعي والحرفي، ويقابله انخفاض في الأنشطة التقليدية، لهذا اعتبرت الزيادة السنوية في إجمالي الناتج الوطني ومستوى الدخل من المؤشرات الأساسية للتنمية" ^١.

ونلاحظ أن مفهوم التنمية ليس مفهوما ثابتاً، فلكل نظام مفهوم خاص به حسب توجه النظام ومذهبيته، فقد " رأي الاقتصاديون الرأسماليون والاشتراكيون ازدياداً في الناتج القومي، وزيادة في دخل الفرد وإن اختلفت سبل الانماء الاقتصادي والقانون الحاكم له، وذهب الاجتماعيون إلى أنه وسيلة لتمكين الإنسان من تحقيق نموه وبلوغ غاية وجوده... وتعريف التنمية له بعد مصيري، لأنه على ضوء المفهوم تترتب كل الصيرورة التنموية حاضراً ومستقبلاً؛ لأن التنمية في جوهرها جهد هادف في النهاية" ^٢.

(١) التنمية في النظام الرأسمالي:

وهذا النظام يقوم على حرية الأفراد والمنافسة والربح وآلية السوق والملكية الخاصة كأساسيات للتقدم الاقتصادي والتنمية، ولكن ما حدث فعلاً وواقعاً هو قيام النظام على " استغلال اقتصادات الشعوب المستعمرة في سبيل تحقيق ازدهار الدول الصناعية، كما أنه يركز في طبيعته على المادية المفرطة في تعميق الاستغلال، وعلى الربح كمحرك أساسي أدى إلى تفاقم ظاهرة الاحتكار وتكرر الأزمات التي يعرفها في كل مرحلة منذ الكساد العظيم إلى الأزمة الأخيرة في عام ٢٠٠٨ بسبب الاختلال القائم بين نظام الإنتاج ونظام

(١) إبراهيم العسل، التنمية في الإسلام: مناهج وتطبيقات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (١٤١٦هـ -

١٩٩٦م)، ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٦١، ٦٢.

الاستهلاك وطغيان المصلحة الفردية على حساب مصلحة المجتمع^١، ونجد أن في هذا النظام عقبات ومشكلات أثرت على التنمية، وأدت للظلم في هذه المجتمعات.

(٢) التنمية في النظام الاشتراكي:

الاشتراكية هي نظام يعتمد على المذهب الجماعي، والذي لا يعترف بالفرد إلا من خلال وجوده في المنظومة، بل إنه يعظم الجماعة، ويعتبر عوامل الإنتاج هي أساس التطور، ويملك الدولة كل وسائل الإنتاج والتخطيط الكامل، وهو نظام يحترم السلطات المركزية في الإدارة، وهو بذلك يقيد الحرية الفردية، ويقتل حافز الإبداع عند الأفراد، ويجعل الدولة المحتكر الوحيد للتخطيط، وقد نتج عن ذلك " ضعف في كفاءة استخدام الموارد، بل إهدارها في الكثير من الأحيان بالنظر إلى كون تفضيلات القائمين بالتخطيط لا تعكس بالضرورة رغبات المجتمع " ^٢.

ثانياً: مقابلة بين التنمية وال عمران

مصطلح العمران في النظام الإسلامي يقابله في النظام الوضعي مصطلح التنمية، وعملية العمران في النظام الإسلامي أساسها الإنسان، وعملية العمران تبدأ بالإنسان وبجهده، وتنتهي للإنسان بنتائجها وعوائدها، وكذلك

(١) مصطفى عبد اللطيف، بن سانية عبد الرحمان، انطلاق التنمية بين النظريات الوضعية ومنهج الاقتصاد الإسلامي، الجزائر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المركز الجامعي، غرداية، معهد العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، (٢٣، ٢٤ فبراير ٢٠١١)، ص ١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

التنمية فقوامها البشر بجهدهم وبأفكارهم، وكذلك العوائد تكون لهم، وسوف نتناول المقابلة بين التنمية والعمران من حيث سياسة وأهداف كل منهما.

١) سياسة التنمية والعمران:

- الحرية الاقتصادية في النظام الرأسمالي حرية مطلقة في الإنتاج والاستهلاك واختيار المشروعات، ولا يوجد بالنظام

الرأسمالي أية قيود على الإنسان، فكله مسموح ومتاح. " فالاقتصاد الرأسمالي يكفل للفرد الحرية الاقتصادية المطلقة في أن يزاوّل ما يشاء من أعمال، وبالأسلوب الذي يختاره، على ضوء مصلحته الشخصية فقط، وطبقاً لما يعتقد أنه يحقق أكبر قدر ممكن من الربح، فله أن يستخدم ما يشاء من أدوات الإنتاج، وأن يستهلك ما يشاء من مواد الاستهلاك، وأن يدخر ما يشاء من أرباحه، وأن يستثمر أمواله بالشكل الذي يريده وفي أوجه الاستثمار التي يختارها، فكل أوجه الاستثمار وتنمية المال مشروعة " ١.

وقد أنتج النظام الرأسمالي أسوأ نتائج، وهي الاحتكار من الأفراد والشركات الكبرى، وكذلك أنتج المؤسسات الربوية، وحدث بينهما اندماج وارتباط، فقد " ارتبطت الربوية ارتباطاً وثيقاً بالاحتكارات، فنشطت في خدمة الاحتكارات، حيث قلّ الطلب على السلع لإفقار الناس وقلة دخولهم بامتصاص القوى الاحتكارية لدخولهم برفع الأسعار، فهدد ذلك الرأسمالية بالأزمات، وهنا تدخلت المصرفية الربوية عن طريق الإقراض والبيع بالقسط الذي دخل كل بيت في العالم الرأسمالي، وطحن الجمهور بطاحونتين:

١) سعيد أبو الفتوح محمد بسبوني، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٠.

الاحتكار الذي يغلى الأسعار، والربا الذي يمتص بقيه الدخل ويهدد حياتهم بالإفلاس ومصادرة الممتلكات" ^١.

- أما في النظام الاشتراكي فهو يعادى الحرية ويلغيها تماماً وبكل عنف، فهو يمحو الملكية الخاصة، ويجعل كل أدوات الإنتاج ملكاً للدولة، ويجعل الدولة تقوم بالإنتاج والتوزيع، حتى إن الدولة تقوم بتوزيع دور الأفراد في العمل حسب ما تستلزم خطة التنمية، وكذلك توزع السلع الاستهلاكية بواسطة بطاقات، فالإنسان في هذا النظام هو مجرد آلة في الإنتاج والاستهلاك، وليس له أي خيار، وبذلك يقوم هذا النظام بقتل حافز الإنتاج في هذا الإنسان وكل دافع عنده للعمل والتنمية، وبذلك فإن هذا النظام عجز عن حل مشاكل الناس ومراعاة غرائزهم في حب التملك ^٢.

ومن المشاكل في النظام الاشتراكي عظم الجهاز الحكومي وتعقيده؛ لأنه يضم أجهزة فرعية تتفرع لأجهزة ثانوية، وهذا هو الحال في الحكم المركزي، فإن الأوامر تتسلل لعدد كبير جداً من المراحل والإجراءات، فيكون سير الأمر شاقاً وصعباً، ويعرض الجهاز الحكومي للوقوع في الأخطاء التي يصعب اكتشافها واكتشاف المتسبب فيها، " وبهذه الصورة فإن الاشتراكية الماركسية تؤدي إلى اختناق اقتصاد البلد ببطء، فضلاً عن الإفراط في المركزية

(١) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) انظر: سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، مرجع سابق، من ص ٣٤:٣٦.

والبيروقراطية اللتين تحدثان شللاً في الجهاز الاقتصادي، وتقتلان كل إحساس بالمسؤولية والقدرة على التصرف" ^١.

ويتبين من استعراض النظامين في أسلوب العمل والتنمية بأن لكل نظام عيوبه، فالأول يعمل على " إطلاق يد الإنسان في أن يحقق أقصى ثراء ممكن بلا ضوابط ولا قيود ولا حدود، بل جعله يعيش في صراع محموم مع المادة، يغالب الآخرين ويصارعهم من أجل الحصول عليها...، بينما غلَّ بعضها الآخر يد الإنسان، فحرمه ثمرة جهده وكده، وهي بهذا تكون قد تجاهلت فيه غريزة من غرائزه، وقتلت فيه كل دافع إلى العمل والإنتاج" ^٢.

- أما الحرية الاقتصادية في الإسلام فهي حرية مقيدة بضوابط لحماية جميع الأطراف من الاستغلال وتكتل الثروات، فالمسلم في النظام الاقتصادي الإسلامي يتمتع بحريته كاملة، ولكن يكون مراقباً بمصلحة الجماعة، فإن تعارضت مصلحته مع مصلحة الجماعة يفضل مصلحة الجماعة على مصلحة الأفراد، والحرية في الاقتصاد الإسلامي في الإنتاج مثلاً مقيدة بقاعدة الحلال والحرام، فالمنتج مثلاً لا ينتج المنتجات المحرمة كالخمر طاعة لله وإيماناً واحتساباً، وكذلك الاستهلاك مشروط بقاعدة الحلال والحرام من حيث نوع المنتجات المستهلكة ومن حيث الإسراف والترف في الاستهلاك، والفرد والدولة في المنظومة الإسلامية مسؤولون عن تحقيق التنمية بتكامل بينهم، فلا تغليب لمصلحة الفرد على الجماعة، ولا تغليب لمصلحة الجماعة على الفرد. إنَّ الإسلام في نظامه الاقتصادي له سياسته المتميزة التي لا تركز على الفرد

(١) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني، الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، مرجع سابق، ص ١١.

فقط كشأن الاقتصاد الرأسمالي ولا على المجتمع فقط كشأن الاقتصاد الاشتراكي، وإنما هذه السياسة تقوم على رعاية المصلحتين معا ومحاولة تحقيق التوازن والدمج بينهما، فلا نجد الحرية الكاملة للأفراد ولا الحكم المركزي للدولة، بل نجد الحرية للأفراد والتدخل من الدولة إذا لزم الأمر، ونجد أنه في الاقتصاد الإسلامي يحكم سلوك الإنسان مجموعة من الضوابط الشرعية التي تتعلق بالإنتاج والاستهلاك والتوزيع والادخار والاستثمار؛ وذلك لتحقيق غاياته الغايات العليا وهي عبادة الله عز وجل، فنجد تحريم الاحتكار وتحريم الربا في التعاملات.

(٢) أهداف التنمية وال عمران:

تحدثنا عن سياسة التنمية في الأنظمة الوضعية وسياسه العمران في النظام الاقتصادي الإسلامي، وسوف نتحدث عن أهداف كل منهما ليتضح الفرق بين المصطلحين، ونجد أن مشكلة الفقر والتخلف هما سبب المشكلة الاقتصادية، وقد قامت الأنظمة الوضعية بتفسيرهما بطرق مختلفة:

- **في النظام الرأسمالي:** قد عرفت البلاد الفقيرة والمتخلفة على أنها هي " البلاد التي تتميز بانتشار الفقر المزمن مع تخلف طرائق الإنتاج والتنظيم الاجتماعي" ^١. والرأسمالية في حقيقة أمرها ومع كونها تحكم العالم الحالي إلا أنها من أسباب انتشار الفقر في العالم، فالتبعية الاقتصادية التي تتسبب فيها الدول الرأسمالية للدول صاحبة الخامات الطبيعية ومحاربتها للتقدم في هذه الدول هي من أسباب الفقر، وكذلك سياسة الرأسمالية في التعامل مع العمال والتعامل معهم

(١) عبد الله فراج الشريف، مقومات التنمية الاقتصادية في ظل أحكام الشريعة الإسلامية، جامعه أم القرى، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، ص ٦.

بفكرة العرض والطلب تزيد من الفقر، وكذلك الحرية الكاملة والتي تؤدي للاحتكار وتركز الثروات في الرأسمالية والتي تزيد الغني غنى وتزيد الفقير فقراً. كل هذه العوامل في الرأسمالية تزيد من مشكلة الفقر، هذا وإن كانت الرأسمالية تحاول التحسين من صورتها أمام العالم، وتحاول إصلاح أخطائها بالأخذ من مزايا النظام الاشتراكي إلا أنها لم تستطع تحسين الأخطاء ولا التغلب على الفقر والاحتكار وانتشار الأنظمة الربوية في جميع الدول المتبعة لهذا النظام.

وقد جاء الإسلام معارضا ومخالفاً هذه المبادئ الرأسمالية للقضاء على الفقر ولا انتشار الإعمار في الأرض بعدة طرق وإلجبار الأغنياء على العطاء والبذل للفقراء، " ولا يكتفي الإسلام هنا بمجرد الوعظ والترغيب والترهيب والدعوة إلى البذل والتصدق، فهذا وحده لا يكفي إذا قست القلوب، وسقمت الضمائر، وضعف الإيمان، ولكنه يضم إلى ذلك تدخل الدولة باسم الشرع لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، فمن أبي أن يطيع قانون الله قوتل على ذلك حتى ينقاد للحق طوعا وكرها " ١ .

- **في الأنظمة الاشتراكية نجد أنهم للقضاء على الفقر قالوا أنه يجب القضاء على طبقة الأغنياء، ومصادرة أموالهم وحرمانهم منها، وتركز الأموال والإدارة في يد الدولة، وتوزع الدولة الأموال تحت شعار العدل والتكافل الاجتماعي، وتمنع الملكيات الخاصة وتقصرها في يد الدولة فقط، وتفسر الاشتراكية الفقر والتخلف تفسيراً مادياً، فترى الاشتراكية الفقر والتخلف هو " تخلف في قوى**

(١) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مؤسسه الرسالة بيروت، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م)،

الإنتاج السائد، وتختلف في علاقات الإنتاج، ومن ثم تختلف في أسلوب الإنتاج...، ولما كان في نظرهم العامل المحدد للتطور هو العامل المادي أو الاقتصادي فإنه لابد من تغيير علاقات الإنتاج " ١ .

والماركسية توجه اهتمامها لطبقة العمال، وتغض البصر عن المحتاجين والعاجزين والأرامل والشيوخ وذوي العاهات البدنية والعقلية، ويلاحظ أن في المجتمع الماركسي " لا يعطى أحد إلا بمقابل وفي نظير عمل، ويسير وفق فلسفة من لا يعمل لا يأكل " ٢، وهذه السياسة تؤدي لإثارة العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، وذلك يمنع الإنسان من الابتكار، وفرض طرق للتخطيط ومنع التملك، وكذلك لعدم مراعاة ذوي القدرات العقلية المتميزة أو غير القادرة، وأيضًا لسعي هذا النظام لإفقار الأغنياء ومحاربتهم. والإسلام " يقيم علاقة بين الأفراد والجماعات على أساس الإخاء والتعاون، ولا يقرُّ العداوة بين الأفراد والصراع بين الطبقات...، ويرفض الإسلام بقوة كل مذهب ينادي بتغذية العداوة والصراع بين الأغنياء والفقراء أو بين الطبقات بعضها وبعض...، والشيوعيون والاشتراكيون يحاولون حل مشكلة الفقر والمشكلة الاقتصادية عامة بخلق حرية الشعب، وفرض دكتاتورية عاتية مستبدة تتحكم في أرزاقه وأقواته، ولا تدع فرصة لحرية العمل أو التملك أو التصرف، ومعنى هذا وبعبارة أخرى فرض عبودية يصبح المواطن معها رقيقًا، يملكهم سيد واحد، وهو الجهاز الحزبي الحاكم المسيطر على الناس " ٣ .

(١) عبد الله فراج الشريف، مقومات التنمية الاقتصادية في ظل أحكام الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١.

- في النظام الإسلامي إن الهدف الأساسي من النظام الاقتصادي الإسلامي هو تحقيق التنمية الاقتصادية، والأداة التي تحقق التنمية هي العدل والأمانة، وليتسنى لأي مجتمع إقامة العدل من الوجهة الاقتصادية يجب أن يتوافر في هذا المجتمع الأموال التي تخلق فرص عمل جديدة لكل فرد في المجتمع بما يضمن لهم أجورا عادلة تكفيهم لإقامة حياتهم، وذلك لتجنب البطالة والفقر، وكذلك إنشاء نظام تكافل اجتماعي يهدف لمساعدة الفقراء والمحتاجين والمعاقين والأرامل والمسنين ومساعدة العاطلين والدارسين وغير قادرين... الخ، وكذلك يجب توافر نظام يضمن عدم تركز الأموال في أيدي فئة معينة في المجتمع، ويضمن التداول وعدم الاحتكار لهذه الأموال، وفي النظام الإسلامي كل هذه الأدوات كما سيأتي بيانه.

ونستنتج من سياسة العمران والتنمية في الإسلام ومن أهداف كل منهما أن للعمران جوانب إيمانية وعقائدية لا توجد في أي نظام اقتصادي آخر، وهي ما يجعل سياسة العمران مقترنة بالثواب الأخروي، وكذلك أهداف العمران ليست دنيوية فقط، ولكنها يبتغي بها المسلم طاعة الله تعالى وتنفيذ إرادة الخالق في الإعمار على مراده سبحانه وتعالى، وإرادة الشارع هو إقامة العدل في توزيع الثروات والخيرات بين البشر، وإرادة الخالق هي التنمية على قواعد من العدل والأمانة والعمل الذي يقوم بإعمار الإنسان والبشر قبل إعمار الحجر.

ويلاحظ أن التنمية في الأنظمة الوضعية تقوم على استغلال الشعوب لأنهم يعتبرون أنهم الملاك الحقيقيون للأموال، أما في النظام الإسلامي تقوم على

الأمانة والعدل، حيث إنه في الإعمار يعتبر الإنسان نفسه مستخلفاً، وأن المال مال الله، وأن الإنسان لا يملك الأموال، بل هو مستخلف فيها فقط.

وكذلك فالتنمية في النظام الوضعي لا تهتم بالتوزيع الأمثل للثروات، ولا تهتم بمواهب البشر، بينما في نظام الإعمار الإسلامي يمنع الاحتكار، والعدل من أساسيات نظام الإعمار، ويهتم نظام الإعمار بالفروق بين البشر، حيث قال تعالى: " وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ " (الأنعام: ١٦٥) هنا في العقل والرزق والقدرات.

والتنمية في النظام الوضعي مادية فقط، لا تهتم بالجوانب الروحية ولا بالجوانب الإنسانية لعموم البشر، لكنهم يهتمون بالجوانب الإنسانية المتعلقة بشعوبهم فقط، أما غيرهم فلا، وينطبق هذا على حقوق الإنسان عمومًا، بينما الإعمار يكون إعمارًا ماديًا وإعمارًا روحيًا، ثم إنه يهتم بالجانب الديني ولا يهمل الأديان مثل النظم الوضعية، حيث إن في نظام الإعمار لا حرية للإنسان في حضور نصوص الشريعة في النشاطات المختلفة، لأن حرية الإنسان مقيدة برعاية مصالح العباد التي تكفلها الشريعة، فهي ليست حرية مطلقة تسمح بأكل أموال الناس أو بالاحتكار مثلاً، حيث لا يسمح الإعمار في النظام الإسلامي بمخالفة الشريعة والقيام بالإعمار بطرق تخالف المثل والغايات التي جاءت بها الشريعة.

وبعد إجراء مقابلة بين مصطلحي التنمية في النظام الوضعي والإعمار الإسلامي نستطيع القول بأن الإعمار الإسلامي هو تنمية مضافاً إليها مبادئ روحية، فيكون الإعمار حينئذ يستهدف الحجر والبشر، فالإعمار الإسلامي

يحفظ النفس والعقل والمال، إعمار يشمل الماديات والروحانيات، وسنحاول اقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي في المطلب القادم.

المطلب الثالث

اقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي

السياسة الاقتصادية هي:

مجموعة من القرارات التي تتخذها الدولة لبلوغ أهداف معينة اقتصادية أو اجتماعية محددة عبر وسائل وأدوات محددة، وذلك للوصول للنمو الاقتصادي والتنمية، أو لخلق فرص عمل، أو لثبات الأسعار، ومن الأدوات مثلاً الضرائب وضبط نفقات الدولة وتحديد معدل الفائدة المصرفي بما يخدم الأهداف المرجوة.

فالسياسة الاقتصادية في النظام الإسلامي يجب ألا تخلو من القيم المعنوية والخلقية المتفقهة مع نصوص الشريعة الإسلامية وروحها، " فسياسة الاقتصاد في الإسلام هي ما تجعل القيم الرفيعة تسيطر على العلاقات القائمة بين الأفراد، وعلى هذا فإن سياسة الاقتصاد التي يجب أن توضع للعالم الإسلامي ليست زيادة الدخل الأهلي أو إيجاد ما يسمى بالعدالة الاجتماعية أو اشتراكية الدولة، وإنما سياساتها يجب أن تكون هي ضمان توزيع ثروة البلاد الداخلية والخارجية على جميع أفراد الأمة بحيث يضمن إشباع جميع الحاجات الأساسية لجميع أفراد الرعية إشباعاً كلياً، ويضمن تمكين كل فرد منهم من

إشباع جميع حاجاته الكمالية على أكبر قدر مستطاع^١، ويضمن ضمان توزيع الثروة في البلاد لسير العمران في الاتجاه الصحيح؛ وذلك لأنه لن يوجد فقر ولا بطالة، بل سيوجد عملٌ وكفايةٌ لكل فرد في المجتمع للوصول للتنمية، وذلك لأن توزيع الثروات يحتاج أولاً إلى تنميتها بالعمل للوصول لتوزيعها، وكذلك يجب إنتاج سياسات لتوفير الأمن والعلم للوصول للعمران.

أولاً: سياسة العمل والتشغيل للوصول للعمران

(١) يجب ألا يخلو العمل في المجتمع الإسلامي المتوجة للعمران من القيم المعنوية، فيجب أن يسعى القادر على العمل أن يوفر احتياجاته، وكم من الفائض حتى يستطيع الغير قادر على العمل أن يوفر احتياجاته، " فكلما جاهد الفرد ليحقق فائضاً كلما استطاع هذا المجتمع أن يفي باحتياجات غير القادر على الإنتاج، بل إن البعض يرى أن إيمان المسلم لا يكتمل إلا إذا حضر ذلك في ذهنه وضميره"^٢، وهناك أدوات لنشر القيم المعنوية في النفوس تمتلكها الدولة توجهها لنشر هذه القيم المعنوية.

(٢) على الدولة أن تراعي أصحاب الحاجات فيها من الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل والعاجزين عن العمل لعدم وجود وظائف، وذلك بتوجيه الأغنياء للإنتاج النافع وليس الترفي الاستهلاكي، وبعد اقتطاع أموال الزكاة منهم تقوم الدولة بتوظيف هذه الأموال، بتحويل الفقراء إلى منتجين، وذلك بإقامة

(١) هادف حيزبه، وهراني عبد الكريم، السياسة الاقتصادية في إطار مقاصد الشريعة الإسلامية، الملتقى الدولي للعلوم الاقتصادية وعلوم التيسير بالجزائر، بعنوان: الاقتصاد الإسلامي: الواقع ورهانات المستقبل، ٢٣/٢٤ فبراير ٢٠١١، ص ٢١.

(٢) حاتم القرنشاوي، سياسات التشغيل وتوظيف الموارد في الاقتصاد الإسلامي، وقائع ندوة السياسة الاقتصادية في الإسلام رقم ٣٦، (١٤-٢٠ مايو ١٩٩١م)، ص ٤٤٨.

مشروعات صغيرة من أموال الزكاة في كافة الأنشطة والصناعات الصغيرة، ولا تتدخل الدولة في الإنتاج إلا في مشروعات عملاقة قومية، والتي تستطيع من خلالها القضاء على الاحتكار، وتشغيل أيدي عاملة بأعداد كبيرة للمساعدة على الخروج من البطالة والفقير.

(٣) يجب أن تساعد الدولة على العمل والتشغيل للأفراد، ويجب أن تبعد الدولة عن التجارة، لأن ممارسة الدولة للتجارة يجعلها لا تستطيع محاربة الفساد المالي والإداري مثل الرشوة والهدايا.

(٤) يوجد دور للمؤسسات للتشجيع على العمل بإتاحة فرصة لكل أفراد المجتمع للحصول على تمويل ومنح وقروض حسنة، وإلغاء التعامل بالربا لأنه محرم شرعاً واستبداله بالتمويل بالمشاركة، والذي يعتمد على الربح والخسارة، ويقتضي ذلك إعادة هيكلة النظام المصرفي بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وذلك في محاوله للتشجيع على الاستثمار وخلق فرص للعمل، وذلك للحد من الفقر وضمان حد الكفاية (الحد الأدنى) للمعيشة لكل فرد.

ثانياً: تفعيل إحياء الموات لتأهيل الأرض للعمران

هناك مساحات من الأرض في أكثر البلاد مازالت غير عامرة، إما لعدم وجود مورد مائي أو لكثرة الحجارة بها أو

الرمال الكثيفة أو لابتعادها عن العمران أو لأي سبب يعطل استخدامها ويفقدها مواصفات الأرض العامرة، وقد يكون ذلك بسبب العجز عن استصلاحها لقلة الموارد، فأصبح وصول الإعمار لهذه المناطق أمراً صعباً، ويوجد في بلادنا الإسلامية مساحات كبيرة من الأراضي المهملة أو الأراضي المصحرة وهنا جاء التشريع بالسماح لمن يحبي هذه الأرض بأن يمتلكها

تشجيعًا لإعمار هذه الأرض الخربة وتأهيلها للعمران " عن عائشة رضی الله عنها، عن النبي ﷺ قال: "من أعمار أرضا ليست لأحد فهو أحق بها"، قال عروة: قضى به عمر رضی الله عنه في خلافته^١.

لذلك يجب على الدولة أن تشرع قوانين بأن من يستصلح أرضا غير عامرة ويقوم بتعميرها فهي له ويمتلكها، وإن أحاطها ولم يجيها لمدة تحددها الدولة حسب ما يتراءى للمشرع تسحب منه وتعطى للقادر على إحيائها، وذلك للمساعدة على الإعمار والحرص على سرعة القيام به والحث عليه.

ثالثًا: اتباع سياسات عادلة للتأهيل للعمران

ليتسنى لأي مجتمع إقامه العدل من الوجهة الاقتصادية يجب أن يتوافر في هذا المجتمع الموارد الاقتصادية التي تخلق فرص عمل جديدة لكل فرد في المجتمع بما يضمن لهم أجورا عادلة تكفيهم لإقامة حياتهم، وذلك لتجنب البطالة والفقير، وكذلك إنشاء نظام تكافل اجتماعي يهدف لمساعدة الفقراء والمحتاجين والمعاقين والأرامل والمسنين ومساعدة العاطلين والدارسين والغير قادرين... إلخ، وكذلك يجب توافر نظام يضمن عدم تركز الأموال في أيدي فئة معينة في المجتمع، ويضمن التداول وعدم الاحتكار لهذه الأموال، ويتحقق ذلك بالطرق الآتية:

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢ / ١٤٨ / ٢٣٣٥)، دار الفجر للتراث، الطبعة الثانية، (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

(١) أدوات توفير الموارد الاقتصادية لإقامة العدل الاقتصادي في المجتمع:

(أ) الزكاة:

الزكاة في عرف الشرع: هي القدر الواجب أخراجه لمستحقه في المال الذي بلغ نصاباً معيناً بشروط مخصوصة.... وإذا امتنع المسلم عن أدائها أخذها الحاكم منه قهراً ولو اضطر إلى قتاله... والزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وهي عبادة مالية يتقرب بها العبد إلى خالقه عز وجل، فإذا أداها كاملة على وجهها الصحيح راضية بها نفسه مبتغياً بها وجه ربه تعالى غير مرء بها الناس كانت سبباً في نجاته من عذاب النار ودخوله الجنة، كما صرحت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، قال تعالى: " وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) " (الليل: ١٧ - ٢١)، وللزكاة وظيفه اجتماعية هامة تقي المجتمع من السقوط في مهاوي الرذائل، وتحميه من آفات الذل والهوان، وتجعله قادراً على الدفاع عن نفسه وتحقيق ما يصبو إليه من عزة ورفعة شأن، فهي نظام إسلامي يحقق للأمة التكافل الاجتماعي في أسمى صورة، ويحقق التراحم بين الأفراد حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء، ولو قامت الدولة بجمع الزكاة من المسلمين ودفعها للمستحقين لما وجد بين الناس جائع ولا محروم، ولا اشتكى أحد من ذل الفاقة وقسوة الحياة^١.

(١) انظر : محمد بكر إسماعيل، الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، مرجع سابق، المجلد الأول،

و " حين يحث القرآن على الصدقات فإن ذلك يعبر عن مظهر لإعمار الكون، إذ كيف يدفع المؤمن الزكاة دون وجود مال نام متحرك بفعل فعله في واقع الحياة من صناعة وزراعة وتجارة؟! " ١ .

ولذلك يجب على الدولة إنشاء مؤسسات منظمة لجمع الزكاة وتوظيفها، بشرط أن تنفقها في مصارفها الشرعية حتى تستطيع الدولة تحقيق الهدف من الزكاة، وهو تداول الأموال بين كل أفراد المجتمع، ويجب أن يكون دفع الزكاة إلزامياً حتى لا يتهرب منها أحد.

(ب) الصدقة والإنفاق:

نستطيع أن نقول أن أموال الإنفاق والصدقة من الأدوات الهامة لتوفير الأموال للتكافل بين أفراد الأمة، لأنه " كلما كان المجتمع يتقابل أفراده على الحق ويتعاونون فيما بينهم بالحسنى بقيت دولتهم وارتفعت رايتهم وباتت قوانينهم الاجتماعية آمنة، ومتى وقع فيهم التفرق تبعه الاختلاف، ونتج عنه اتباع الهوى وطاعة النفس والحسد، وذلك من شأنه نشر العداوة وإقامة الحروب، وربما هلك الزرع وجف الضرع ولم يعد يأمن واحد على نفسه، فكان التعاون والتآلف بمثابة الضمان لبقاء المجتمع واستمراره " ٢ .

لذلك يجب إنشاء مؤسسات أهلية تشرف عليها الدولة، تجمع من خلالها الصدقات، وتتولى الإنفاق والتوزيع للحد من الفقر والبطالة.

(١) زياد خليل الدغامين، إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، مرجع سابق، ص ٣٨.

(٢) سمير عبد الرحمن عبده عبد الرحمن، تحديد المفاهيم، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

ج) الأوقاف:

(وقف) الدار ونحوها: حبسها في سبيل الله، ويقال: وقفها على فلان، وله.

(الوقف) عند الفقهاء: حبس العين على ملك الواقف أو على ملك الله تعالى^١.

الأوقاف: هي نظام خيري شائع منذ عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الأوائل، يهدف إلى تحويل ملكية بعض ممتلكات الأغنياء منقولة كانت (كالأسهم) أوعقارية نحو انتفاع جماعي ذي طابع اجتماعي. ونظام الأوقاف ليس إلزاميًا في الإسلام...، وتصرف المداخل المحصلة بحسب رغبات صاحب الممتلكات الذي (يجمد) بهذه الطريقة ملكية بتحويلها نحو غايات اقتصادية واجتماعية وعينية، وقد ساهمت الأوقاف في إجراء تغييرات اجتماعية مهمة وفي تحسين الظروف المعيشية للفقراء والمحتاجين^٢.

والوقف قرينة لله وخير جارٍ للمؤمن بعد موته، وهو خير للمؤمن في الدنيا لأنه يبر الفقراء والأقارب، وخير للأخرة يحصل منه الثواب، والوقف خير لمصلحة الأمة إذا أحسنت استخدام موارد الوقف، والوقف من المؤسسات التي لعبت دورًا مميزًا في الحضارة الإسلامية، ولها دور كبير في عملية التطور، لأن " انتشار الوقف وتنوعه في كافة المجالات التي تحيط بالإنسان من ناحية مأكله ومشربه

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة وقف، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢) انظر: عبد الحميد براهيم، العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (١٩٩٧م)، ص ٣٦.

ورعايته الصحية، فإذا توافرت للإنسان هذه الحاجات الأساسية فمن الممكن أن يسعى لحاجات أعلى^١.

فكانت هذه المؤسسات فعالة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الإسلامي، فقد كان الوقف ممولاً لا يستهان به للتعليم والصحة والفكر، والشاهد على ذلك المؤسسات الوقفية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، والتي لازالت تقوم بدورها حتى الآن، وإن كان دورها قد تراجع، تارة بسبب الاستعمار الذي أصاب العالم الإسلامي، وتارة أخرى بسبب بعض الحكام، مثل مصر عندما قام حاكمها جمال عبد الناصر بالاستيلاء على الأوقاف، وتحويلها إلى وزارة الأوقاف التي أساءت إدارة هذه المؤسسات وفتحت أبواب تبديدها، ومع هذه التدخلات والأخطاء نأمل رجوع نظام الوقف ليقوم بدوره الفعال مرة أخرى لمساندة المجتمع في نظام التكافل وجمع الأموال لمساعدة كل محتاج.

لذلك يجب أن تتولى الدولة إحياء فكرة الوقف الخيري وتفعيلها للاستفادة منها للحد من الفقر والمساعدة على توزيع الأموال.

٢) أدوات لمنع تمركز الأموال وضمان التداول وعدم الاحتكار:

أ) تحريم الربا:

حرم الله الربا لحكم كثيرة منها أن " النقدين إنما وضعا ليكونا ميزاناً لتقدير قيم الأشياء التي ينتفع بها الناس في

(١) سليم هاني منصور، الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، مؤسسة الرسالة للناشرين، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، ص ٤٣.

معاشيهم، فإذا تحول هذا وصار النقد مقصودًا بالاستغلال فإن هذا يؤدي إلى انتزاع الثروة من أيدي أكثر الناس وحصرها في أيدي الذين يجعلون أعمالهم قاصرة على استغلال المال بالمال، فينمو المال ويربو عندهم، ويخزن في الصناديق والبيوت المالية المعروفة بالبنوك، ويبخس العاملون قيم أعمالهم، لأن الربح يكون معظمه من المال نفسه، وبذلك يهلك الفقراء. ولو وقف الناس في استغلال المال عند حد الضرورة لما كان فيه مثل هذه المضرات^(١)، ومن هنا جاء تحريم الربا، وذلك لمنع تركز الأموال في أيدي فئات معينة يتاجرون بهذه الأموال وينشرون الفقر والبطالة بسبب أطماعهم.

لذلك يجب إعادة تنظيم وهيكلية المؤسسات المصرفية، وإقامتها على نظام غير ربوي يقوم على المراجعة والمشاركة لتحقيق المصلحة منها في ضوء الشريعة الإسلامية، وكذلك تشريع القوانين بتجريم الربا، وذلك بعد توافر وسائل بديلة.

ب) تحريم الربح غير الشرعي:

الربح غير الشرعي هو كل مال غير مستحق أو يؤخذ بدون وجه حق أو من مصدر حرام، مثل الرشوة والمغالة في الأسعار والاحتكار، وكلها سبل لزيادة الأموال وتكتلها في أيدي أفراد معينين دون وجه حق، قال تعالى: " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة: ١٨٨)، وهنا تأتي الآية صريحة بتحريم الرشوة.

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٩٦.

وقال رشيد رضا أن " الخطاب لعامة المكلفين، والمراد: لا يأكل بعضكم مال بعض، واختار لفظ (أموالكم) وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبية على أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك، لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب " ١، وأكل الأموال بالباطل هو ظلم للمجتمع وللأفراد، حيث إن المجتمع الذي يعاني من قلة العدل تتفشى فيه الرشاوى والتقاضى، ويضيع فيه حقوق الأفراد.

قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ " (النساء: ٢٩)، وهنا المعنى " لا تقصدوا إلى أكل أموال الناس بالباطل، ولكن اقصدوا أن تربحوا بالتجارة التي تكون صادرة عن التراضي منكم، وتخصيصها بالذكر دون سائر أسباب الملك لكونها أكثر وقوعاً وأوفق لذوي المروءات " ٢. وهنا يظهر دور الدولة في تشديد العقوبة على المخالف في المعاملات المالية، فيجب تحريم الربا بقوانين مفعلة، وتشديد العقوبة على المحتكر والمرتشي والمقامر، وكذلك يجب تأكيد الالتزام بالأمانة والعدل في توزيع الإرث بصورة صحيحة شرعاً وقانوناً، وكذلك من العدل عقاب كل من يروج للربا ويتداوله بقوانين قوية مفعلة تردع كل من تسول له نفسه مخالفة أوامر الله تعالى في القوانين الاقتصادية.

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٦، ٣٧.

رابعاً: توفير سياسات أمنية لتحقيق العمران

المقصود من الأمن هنا كل أنواع الأمن التي يحتاجها الإنسان ليطمئن، مثل الأمن الغذائي والأمن الصحي والأمن على الأموال والأمن على النفس والأبناء.

ويجب توافر سياسات لتوفير كل أنواع الأمن؛ وذلك لأنه لا تتم عملية العمران بطريقة منظمة إلا بالأمن، فلا يستطيع الإنسان أن يجتهد ويكد ويعمل بدون أن يشعر بالأمن النفسي والأمن على حياته وعلى سكنه وعلى قوته؛ لذلك كان التشريع يحفظ الأمن للنفس البشرية ويصونها من الهلاك، وبالتالي على الدولة توفير حد الكفاية مثلاً لكل مواطن حتى لا يهلك، وذلك عن طريق " تأمين ضرورات المسلم التي تقيم أوده كإنسان، إذ من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عارياً " ^١.

ومن هنا نستنتج أن الأمن في الإسلام هو اطمئنان المسلم لحفظ حقه وقوته في أموال المسلمين تارة، وفي العدل والأمانة التي تسود المجتمع تارة أخرى، وبذلك تتحقق الحياة الطيبة.

ومظاهر الحياة الطيبة في الإسلام هي مراعاة تقوى الله، مع وفرة الإنتاج وعدالة التوزيع، أي تحقيق تمام الكفاية لكل فرد، إلى جانب سيادة الأمن في المجتمع " ^٢.

(١) عبد الباسط وفا، محاضرات في التنمية الاقتصادية (مقارنة بالفكر الإسلامي)، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ٤.

وكل هذا يحقق الإعمار بصورة سليمة، وعلى الدولة أن تكون قوية تحقق الأمن في صورة قوانين اقتصادية قوية تحقق توزيع الثروات بالعدل، وتصدر قوانين قوية تحفظ أمن كل فرد فيها ضد الغش والسرقات والاحتكار وتمركز الثروات، وكذلك تضمن حد العيش الكريم لكل فرد بتفعيل أنظمة لجمع الأموال تتناسب مع الشريعة الإسلامية، وعلى الدولة إصدار قوانين لتكفل لكل مواطن الأمن الصحي، وعلى الدولة أن تقوم بتخريج أجيال لحفظ الأمن العام على النفس وضد الاعتداء عليها، وعلى الدولة محاربة الفقر بوضع سياسات للحد من الفقر، لأن الفقر هو باعث عدم الاطمئنان الأول في جميع الدول، لأن مع الفقر تزيد البطالة والبلطجة والسرقات، وكل هذه الأشياء

تُفقد المجتمع الأمن المطلوب بسبب الفقر، ويكون ذلك عائقاً لتحقيق الإعمار.

خامساً: تقديم الرعاية للعلوم والبحث العلمي لأهميته في العمران

هناك ارتباط بين العلم والإعمار، فكلما زادت الخبرة البشرية وتطور العلم كانت البشرية أقرب للاكتشافات ولمعرفة أسرار الكون للاستفادة منه وتسخييره والاكتساب منه، وكذلك أقرب لمعرفة الله، فقال تعالى: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ " (فصلت: ٥٣).

" إن العلم الذي دعا إليه الإسلام وحض الشرع على طلبه والسعي إليه ولو في الصين هو العلم النافع الشامل لجميع نواحي الحياة المادية والإنسانية الذي

يجب الأخذ به والعمل بمقتضاه...، فالعلوم المادية هي التي تبحث في الطبيعة وتدرس الكيمياء وتتأمل في الموجودات بغية الوصول إلى نتائج تتصل بالزراعة والتجارة والصناعة والطب والفلك والحساب وكل ما يتصل بحياتنا ومعاشنا...، أما العلوم الإنسانية التي تنظم علاقة الأفراد وتحدد منهجهم وسلوكهم الاجتماعي فقد تكفل الإسلام بتشريعيها ووضع الضوابط لحماياتها وتوجيهها الوجهة التي تضمن للمجتمع الإسلامي شخصيته الذاتية المميزة^(١).

ولذلك يجب على الدولة الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي، وتخصيص الموارد للعلم، وذلك للتقدم في جميع المجالات العلمية وفي شتى التخصصات؛ وذلك لأن الإعمار لا يتم إلا بالاكتشافات العلمية التي تساعد على تسخير الكون للإنسان واكتشافه وتطويره للإرادة البشرية، فبالعلم يتم الإنتاج، وبالعلم تتم الزراعة، وبالعلم تكون الصناعة، وبالعلم تدار الأسواق.

ولا يتم الإعمار إلا بالعلم والتعليم لمواكبة التطورات في العالم، فعلى الحكومة تخصيص الموارد للتعليم ولتحسين التعليم وللبحث العلمي، ويمكن للزكاة والصدقات والأوقاف أن تكون عاملاً يساعد في الاهتمام بالتعليم والبحث العلمي.

وأخيراً وبعد توضيح مصطلح العمران ومقوماته وعلاقته بمقاصد الشريعة، والفرق بينه وبين التنمية في الاقتصاد الوضعي، وكذلك بعد اقتراح سياسات لتفعيل هذا العمران، سنبدأ في استخراج السنن الإلهية في الاقتصاد، والتي باتباعها نستطيع تحقيق العمران الاقتصادي بالطريقة التي نستطيع القول معها

(١) إبراهيم العسل، التنمية في الإسلام: مفاهيم ومناهج وتطبيقات، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

أنها على مراد الله لنصل إلى التطور الإيجابي المؤدي للعمرة، وذلك عن طريق فهم واستيعاب هذه السنن، وشرحها ومحاولة نشر هذه السنن واستخدامها في تطبيق السياسات المقترحة.

المبحث الثالث

سنن العمرة الفاعلة على التطور الاقتصادي

في هذا المبحث نحاول تقديم بعض الحلول من السنن الإلهية لبعض المشاكل، مثل قلة الموارد الاقتصادية (قلة الرزق)، وكذلك قلة الأمن والطمأنينة الاقتصادية، وذلك للسير في اتجاه التطور الإيجابي لحل هذه المشكلات. ويكون تقسيم المبحث كما يلي:

المطلب الأول: العمل والإيمان يحققان الرزق.

المطلب الثاني: العدل والأمانة يحققان الأمن الاقتصادي.

المطلب الثالث: الشكر والاستغفار يحققان الطمأنينة الاقتصادية.

المطلب الأول

العمل والإيمان يحققان الرزق

في هذا المطلب سنقوم بمحاولة شرح معنى العمل في الإسلام، وكذلك معنى الإيمان في الإسلام، ثم نحاول استخراج السنن الإلهية عن علاقة الرزق بالعمل والإيمان من كتاب الله كما يلي:

أولاً: العمل في الإسلام

(١) تعريف العمل:

" العمل لغة: المهنة والفعل والجمع أعمال، قال الخزاعي: والمراد بالمهنة الخدمة، والأصل في معنى العمل: " كل فعل يكون من الآدمي بقصد"، فلا يطلق إلا على ما كان عن فكر ورؤية، ولهذا قرن بالعلم، وهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينتسب إلى الجمادات، والعمل يعم أفعال القلوب والجوارح، فإن تحرك الجسم أو القلب بما يوافق الشرع سمي طاعة، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمي معصية" ^١.

" العمل: إحداث الشيء، وعمله عملاً، والجمع أعمال، وقد اعتمل: عمل لنفسه ولغيره، والعملية والعمال الذين يعملون بأيديهم، وعاملته معاملته: طلبت إليه العمل وأجرته عليه" ^٢.

قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ " (البينة: ٧)، وهو حكم بأن من آمن وعمل الأعمال الصالحة يكون من خير البرية، والأعمال الصالحة هنا هي كل الأوامر والنواهي التي شرعها الله في كل التعاملات " وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه، ولكن هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل، وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله، فمن كانوا كذلك فهم خير البرية" ^٣.

(١) نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) أحمد الشرياضي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)، ص ٣٤.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد سادس، ص ٣٩٥٣.

الدين الإسلامي عقيدة وعمل، فأما العمل فكالطاعات والعبادات، وعمل لعمارة الأرض وجلب الرزق الحلال، وهذا النوع الأخير من العمل هو المقصود في بحثنا. والعمل في الإسلام له مساحة واسعة من الاهتمام، سواء من ناحية التعامل أو من ناحية الأخلاق؛ وذلك لأن العمل هو ما يقوم عليه الإعمار؛ وهو دعامة النظام الاقتصادي والبناء الاجتماعي، وهو ركيزة التطور والإعمار، وقد حث الإسلام على الاستفادة من كل موارد الطبيعة، فقال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك: ١٥)، ونجد في أبواب الفقه فقه المعاملات، والحث على تعلم أحكام التجارة والإجارة والزراعة والمضاربة وغيرها، ويحث الإسلام على الإخلاص والإبداع والإتقان.

(٢) أساس العمل للعمران في الإسلام قاعدة الاستخلاف:

قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً " (البقرة: ٣٠)، وهنا القرار الإلهي باستخلاف الإنسان للأرض، " إذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم لهذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض وتطلق فيها يده، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحرير والتبديل، وكشف ما في هذه الأرض من قوى وطاقات، وكنوز وخامات " ^١، وكيف لهذا الكائن أن يفعل كل ذلك إلا بالعمل، العمل مع الوعي من هذا المستخلف بدوره في الإعمار، قال تعالى: " هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا " (هود: ٦١)، وهنا يكون دور الإنسان المستخلف في أرض الله هو إعمارها، ولكن على مراد الله، وذلك يكون من خلال العمل بإخلاص

(١) المرجع سابق، الجزء الأول، ص ٥٦.

وبأمر الشريعة وباليقين أن هذه الأرض ملك لله تعالى، قال تعالى: " أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ " (البقرة: ١٠٧). أي: بالإيجاد والاختراع والملك والسلطان ونفوذ الأمر والإرادة^١، ولذلك يجب العمل من المستخلف على النظام الذي وضعه المالك، ونجد بذلك أن العمل في الإسلام مبني على فهم قاعدة الاستخلاف والتنمية؛ وذلك لأن الإنسان إذا فهم أنه مستخلف على الموارد الاقتصادية لإعمار الأرض فهم بذلك أهمية العمل على تنميتها والحفاظ عليها وعدم العمل بإسراف حتى لا يجرم الأجيال القادمة من هذه الموارد، وفي المجتمع الإسلامي الشامل " العمل في الإسلام لتحقيق التنمية والتقدم للمجتمع، وهو فرض كفاية لتحقيق النماء والتقدم للمجتمع، فإذا لم يقم به الأفراد أصبح فرض عين على كل مسلم يستطيع ولي الأمر إجبار الأفراد عليه لتحقيق التقدم وتوفير السلع والزراعات " ^٢، ويكون العمل بذلك فريضة على المستخلف من المالك سبحانه.

(٣) العمل في الإسلام نوع من العبادة:

" عبد يعبد، عبادة وعبودية فهو عابد، والمفعول معبود، عبد الله: وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه " ^٣.

ويتبع الإيمان بالله العبادات، لأن الإيمان هو يقين بالقلب وإقرار باللسان وعمل وجهد للطاعات بأشكالها المتعددة من صلاة وحج وأخراج زكاة

(١) الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، جزء ثاني، ص ٣١١.

(٢) انظر: أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، الحسبة في الإسلام أو وظيفه الحكومة الإسلامية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٢٦.

(٣) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، مجلد ثاني، ص ١٤٤٨.

وتعاملات، ونلاحظ أن الإيمان جاء في القرآن بمعنى العمل، فقال تعالى: " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ " (البقرة: ١٤٣)، والإيمان في الآية جاء بمعنى الأعمال، وقد نزلت الآية عندما غير سبحانه القبلة لبيت الله الحرام بدلاً من القدس، فشكك المشككون، فنزلت " وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ " لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين الله مؤمنين به، فلا يضيع الله إيمانهم"، ونلاحظ هنا أن الإيمان جاء بمعنى العمل، لأن الصلاة من الأعمال الإيمانية، وكذلك فإن كل أعمال المسلم المؤمن هي عبادة لله تعالى مادامت على مراده سبحانه ووفقاً لشريعته.

قال تعالى: " وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنْفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ " (البينة: ٥)، ويلاحظ في الآية الكريمة ارتباط العبادة بالعمل، كإقامة الصلاة وخروج الزكاة، وكلها أعمال مرتبطة بالعبادة، وإذا نظرنا للزكاة نجد أنه ليصل المال للنصاب يحتاج للعمل، ونجد الصلاة مع كونها عبادة إلا أنها عمل وتحرك، وفي رحاب الشريعة الإسلامية يستطيع كل ذي حرفة أو عمل أن يجعل من عمله المعاشي عبادة، وذلك بالإخلاص في العمل وإتقانه فهو بذلك عبادة.

يكون العمل عبادة إذا كان لصالح العباد وبعيداً عن إفسادهم، وكذلك إذا ابتعد المسلم فيه عن الغش والاحتكار ابتغاء لرضى الله، ويكون العمل عبادة بابتعاده عن المحرمات مثل الربا، وكل عمل المسلم عبادة بعقد النية بإعمار الأرض على مراد الله، والعمل في الإسلام هو نوع من أنواع العبادة، " وان كانت بعض المثاليات ترى في الكد والتعب من أجل القوت حكماً قاسياً على البشر، فان النظرة الأخلاقية في الإسلام ترى ذلك سعياً مستحسناً

شريطة أن يكون غير مضر بالناس، وأن لا يغطي الجانب الروحي من اهتمامات الإنسان، فالتعب في سبيل القوت الخاص وقوت العيال يعد أيضاً نوعاً من التقرب إلى الله، فهي شبه عبادة أو شبه جهاد يعتقد المرء الذي يتحملها أنه يجازى عنها روحياً، وهو بذلك شاعر بنوع من السعادة والاستقرار النفسي كلما أدى مثل هذه الخدمة الاجتماعية والاقتصادية لصالحه الشخصي ولصالح عياله، فلا سبيل مع هذا إلى تصور العمل والكد من أجل القوت تصوراً مأساوياً كما هو الشأن في بعض الثقافات.^١، وبعيداً عن فكر المثاليات الغربي في التصور للعمل بانه شقاء للإنسان، فالعمل في الإسلام إيمان وعبادة، وبالعمل ينال المسلم الرزق في الدنيا والجنة في الآخرة، ولقد "وضع الفقهاء شرطين ليتحول أي عمل إلى عبادة، أولهما: أن يكون العمل صالحاً يوافق شرع الله عز وجل. وثانيهما: أن يكون العمل خالصاً لوجه الله، فلا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان، وأن القيم الإيمانية هي من أهم محركات العمل الصالح والخالص، ويمكن تلخيص هذين الشرطين في الأمانة والكفاءة"^٢.

ثانياً: الإيمان في الإسلام

(١) معنى الإيمان:

(الإيمان): التصديق، وشرعا: التصديق بالقلب والإقرار باللسان.^٣

(١) عبد المجيد مزيان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون واسسها في الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي (دراسة فلسفيه

اجتماعيه)، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، (١٩٨١م)، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) الاقتصاد الإسلامي بين الفكر والتطبيق، مرجع سابق، ص٨٩.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة أمن، ص٢٨.

وقال الراغب: " يراد بالإيمان: إذعان النفس بالحق على سبيل التصديق وذلك
باجتماع ثلاثة أشياء تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك
بالجوارح." ^١.

الإيمان لا يتم إلا " بتلقي المعرفة عن مشكاة النبوة وتجريد الإرادة عن شوائب
الهوى وإرادة الخلق، فيكون علمه مقتبسًا من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار
الأخرة، فهذا أصح الناس علمًا وعملاً " ^٢، وقال صاحب المنار " الإيمان هو
التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها، وآيته العمل بما
يقتضيه الإيمان " ^٣، ويقول صاحب الظلال " الإيمان هو القاعدة التي تقوم
عليها حياة المجتمع ونظامه، في كرامة وحرية ونظافة واستقامة حيث يعرف كل
إنسان مكانه على حقيقته، عبد لله وسيد مع كل من عاداه، وليس هذا في
أي نظام آخر غير نظام الإيمان - كما جاء بالإسلام - " ^٤.

(٢) الإيمان سبب للتمكين:

التمكين هو جزاء الله للمؤمنين في أرضه ليعيشوا فيها يتحكمون في مواردها
وخيراتهما، "والإيمان أول مقوم من مقومات التمكين وهو رأسها، وبدونه لا قيمة
لغيره من المقومات والأدوات، ومن هنا كان تقديم المولى - سبحانه وتعالى -

(١) محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٩، وانظر: الراغب
الأصفهاني أبو القاسم حسين بن محمد، المفردات في تفسير القرآن، تحقيق: محمد السيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت،
لبنان، مادة أمن.

(٢) شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع،
ص ١٢٣.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٤٢.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، جزء سادس، ص ٨٢٣.

له على غيره، قال تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا " (النور: ٥٥).^١، ويجب أن ندرك أن الإيمان الذي نقصده لا يخالف العقل وإدراكه، وذلك لأن " الإسلام دين عقل، بمعنى أنه يخاطب العقل بقضاياه ومقرراته، ولا يقهره بخارقة مادية لا مجال له فيها إلا الإذعان. ويخاطب العقل بمعنى أنه يصحح له منهج النظر ويدعوه إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ليرفع عن الفطرة ركام الإلف والعادة والبلادة، وركام الشهوات المضلة للعقل والفطرة، ويخاطب العقل بمعنى أنه يكل إليه فهم مدلولات النصوص التي تحمل مقرراته، ولا يفرض عليه أن يؤمن بما لا يفهم مدلوله ولا يدركه."^٢

ثالثاً: علاقة الرزق بالعمل والإيمان (السنن الإلهية)

(١) معنى الرزق وأنواعه:

(الرزق): هو كل ما ينتفع به، وما ينتفع به مما يؤكل ويلبس، وما يصل إلى الجوف ويتغذى به، وفي التنزيل قال تعالى: " فَلْيَنْظُرْ آيُّهَا أَرْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ " (الكهف: ١٩)^٣، الرزق أنواع، منه حلال ومنه حرام، ومنه مشروع وغير مشروع، ويجب أن نعرف أن الرزق ليس فقط في الزروع والأموال ولكن كلمة الرزق " أوسع مدى وألطف مدخلاً وأدق دلالة من ظاهرها الذي يتبادر إلى أذهان الناس عادة عندما تذكر، فهي لا تقتصر على

(١) محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء السادس، ص ٨٧.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة رزق، ص ٣٤٢.

المال والطعام والشراب واللباس والسكن وهذا المتاع المادي، إنما تشمل كل ما يرزقه المرء من صحه وهناء وولد، ومن توفيق للخير في الدنيا أو في الآخرة بنية أو عمل أو عبادة أو عكس ذلك كله. كما أنها لا تقتصر على صورة الرزق الفردي الذي يصل في نهاية المطاف إلى حي بعينه، إنما تتجاوز هذا المدلول إلى أصل الرزق العام من مصادرة الكونية التي ليس للإنسان عليها من سلطان إلا أن يسخرها الله له ويعلمه كيف ينتفع بها بمعرفة سننها وقوانينها وبالتوفيق إلى حسن استخدامها بعد معرفتها. " ١، وهناك أنواع من الرزق:

رزق غير إرادي

وهو رزق وعطاء يأخذه الإنسان، حتى وإن لم يعمل. فالهواء والشمس ومياه الأنهار والبحار ونحوها كلها أرزاق يتمتع بها الإنسان بلا إرادة له أو عمل يعمله لينال هذا الرزق، قال تعالى: " الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ " (البقرة: ٢٢).

ويقول رشيد رضا في تفسير الآية: " فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ " الثمرات: ما يحصل من النبات نجما كان أو شجرًا، يصلح الزارع والغارس الأرض، ويبذر البذر، ويغرس الفسيل، ويتعهد ذلك بالسقي والعزق، فيكون له كسب في رزقه، ولكنه ليس له كسب في إنزال المطر الذي يسقى به، ولا في تغذية النبات بماء المطر أو النهر المجتمع من المطر، وبأجزاء الأرض وعناصرها الأخرى، ولا في تولد خلاياه التي بها نموه ولا في أثماره إذا أثمر، إنما

(١) سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ٢٦٢.

كل ذلك بيد الله القدير. فعلينا أن نتفكر في ذلك لنزداد تعظيمًا له وإجلالاً. " ١

رزق إرادي

والرزق الإرادي هو ما يكون للإنسان تدخل فيه وتدخل في الإتيان به بالعمل من أجل الحصول عليه، وهو نوعان: إرادي أخروي، قال تعالى: " وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: ٢٥)، وقال: " مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ " (غافر: ٤٠)، وفي هذا النوع يقوم الإنسان بالأعمال الصالحة ابتغاء رضا الخالق لينال الرزق الأخروي وهو دخول الجنة، وقد يفضل بعض المؤمنون الجزاء والرزق الأخروي، ويسعون إليه أكثر مما يسعون للرزق الدنيوي، ومن المؤمنين من يرضى بالرزق القليل الدنيوي طمعًا في جزاء ورزق الآخرة.

الإرادي الدنيوي، قال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك: ١٥)، قال سعيد حوى: " أي: في جوانبها استدلالًا واستزاقًا، أو في جبالها وطرقها. قال ابن كثير: أي: سافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات. أقول: وهذا مظهر من مظاهر تذليلها وتسخيرها. " ٢، وهو رزق

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ١٩٧.

(٢) سعيد حوى، الأساس في التفسير، مرجع سابق، الجزء العاشر، ص ٦٣١.

وجزاء ناتج من العمل والجهد، ويناله الإنسان نتيجة لعمله واجتهاده في الدنيا، وهذا النوع من الرزق هو ما يخص بحثنا.

(٢) علاقة الرزق الدنيوي بالعمل والإيمان:

(أ) قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ " (الأعراف: ٩٦)، يقول صاحب الظلال: " إن العقيدة الإيمانية في الله وتقواه ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة، وعن خط تاريخ الإنسان. إن الإيمان بالله وتقواه ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض وعدًا من الله...، والإيمان بالله قوة دافعة دافقة...، وتعمل لتحقيق مشيئته في خلافة الأرض وعمارتها وفي دفع الفساد والفتنة عنها وفي ترقية الحياة ونمائها، وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية" ^١، وهنا تظهر السنة الإلهية جلية في الربط بين الإيمان والتقوى برزق الله وخيراته وبركاته من السماء والأرض، وقد أوضح سبحانه وتعالى كذلك سنة التكذيب بما يرافقه من العذاب.

(ب) قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " (البقرة: ١٢٦)، هذا أيضًا دعاء نبي الله إبراهيم لربه أن يتكفل برزق أهل مكة وقيده بالمؤمنين منهم" ^٢. وقد أعطى الله الكفار نعمة الرزق الدنيوي، ولكنه سيعذبهم في الآخرة عقابًا على الكفر، وكذلك مع هذه الآية تظهر السنة الإلهية واضحة فالأمن والرزق متوقف على الإيمان بالله،

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ١٣٣٨.

(٢) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، مجلد أول، ص ٢٢٦.

والعكس يظهر في الجزء الآخر من الآية وهو الكفر والذي يؤدي للنار حتى وإن تمتع الكافر في الدنيا، ولكن نهايته العذاب.

(ت) قال تعالى: " وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " (النور: ٥٥)، إِنَّ الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان. هذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات " ١، ومع العمارة والعدل والطمأنينة تتأتى الخيرات والرزق الوفير، وهنا تتحقق السنة الإلهية في صورة وعد من الله بأن المومن صاحب العمل الصالح سيكون من المستخلفين المتمكنين في الأرض، والمتمتعين بخيراتها الأمنين على دينهم فيها، وذلك جزاء لإيمانهم.

(ث) قال تعالى: " وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا " (الجن: ١٦)، أي: لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق " ٢، وطريق الهدى والرشاد يبدأ بالإيمان بالقلب ثم يصدق بالعمل الصالح الذي يوصل للرزق، وهناك " ارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله وبين إغداق الرخاء وأسبابه، وأول أسبابه توافر المال

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٥٢٩.

(٢) الإمام القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الحادي والعشرين، ص ٢٩٣.

وإغداقه، وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة، وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء، ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية^١، ويلاحظ أن الماء هو الجزاء على الاستقامة على شريعة الله، والماء في الحقيقة هو سبب الحياة والنماء والخير لقوله تعالى: " أَوْلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " (الأنبياء: ٣٠).

(ج) قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ " (المائدة: ٦٦) و" إقامه التوراة والإنجيل العمل بهما على أقوم الوجوه وأحسنها، سواء فيه عمل النفس وهو الإيمان والإذعان، وعمل القوى والجوارح...، لو أقاموا جميع ذلك ولم يفرقوا بين رسل الله وكتبه لوسّع الله عليهم بالتبع لذلك ما يهتمهم من موارد الرزق، فأكلوا من الثمرات والبركات التي تنتج من أمطار السماء ونبات الأرض"^٢.

والعقائد والأخلاق والسنن لا تتغير من نبي لنبي أو من أمة لأمة، ولذلك كانت هذه السنة واقعة على جميع الأمم بالعقيدة والأخلاق والسنة الإلهية، فإن أقامت الأمة أوامر الله جاء الجزاء وهو الرزق الوفير من فوقهم أي من السماء وما تنزله من رزق وماء ينشر الزراعات، ومن الأرض من تحت أرجلهم مما تخرجه الأرض من الموارد الاقتصادية المتعددة.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص ٣٧٣.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، مرجع سابق، جزء سادس، ص ٣٩٧.

المطلب الثاني

العدل والأمانة يحققان الأمن الاقتصادي

سنقوم في هذا المطلب بمحاولة شرح معنى العدل والأمانة من الوجهة الاقتصادية، ثم نقوم بمحاولة استخراج السنن الإلهية عن دور العدل والأمانة في تحقيق الأمن الاقتصادي بعد شرح معنى الأمن الاقتصادي في الإسلام.

أولاً: العدل في الإسلام من الوجهة الاقتصادية

(١) معنى العدل:

" العدل في اللغة: القصد في الأمور خلاف الجور، قال ابن القيم: العدل هو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والأخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به، كذلك يرد في اللغة بمعنى المساواة، ولكنه إذا استعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام قيل: عدل، وإن استعمل فيما يدرك بالحاسة كالموزون والمعدود والمكييل قيل: عدل، وجاء في "الواضح" لابن عقيل: " العدل: هو الاستقامة في الفعل، وقيل: هو العدول إلى الحق، وقيل: سمى العدل بهذا لأن العدل هو الذي لا يميل، وهو مأخوذ من التعديل الذي ينفي الميل " ١.

(عدل) عدلاً وعدولاً، ويقال: عدل عن الطريق، وفي حكمه: حكم بالعدل، ويقال عدل فلاناً عن طريقه: رجعه وعدله إلى طريقه، ويقال: عدل

(١) نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص ٣١١.

الميزان.(عدل) الشئ: أقامه وسواة، ويقال: عدل المكيال والميزان.(العدل):
الإينصاف وهو إعطاء المرء ما له، وأخذ ما عليه^١.

ويأتي العدل بمعنى القسط، قال تعالى: " فَلِدَلِّكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا
تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ" (الشورى: ١٥)، ويقول صاحب الظلال أن العدل هو الذي " يكفل
لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى، ولا
تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجارة للصر والنسب، والغنى والفقير، والقوة
والضعف، إنما تمضي في طريقها تكييل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان
واحد للجميع"^٢.

(٢) العدل لضمان توزيع الثروات:

قال تعالى: " كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ
يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى " (طه: ٨١)، وهنا الآية تأمر بالعدل في استخدام
الموارد، وذلك بالنهي عن الطغيان فيها، والطغيان هو الظلم، " طغى
الشخص: جاوز الحد المقبول، تجبر واستبد وأسرف في الظلم"^٣، ويجب أن
يعرف القائمون على توزيع الموارد واستخدامها أن الله سبحانه وضع " كل
الموارد الطبيعية التي خلقها في خدمة الإنسانية جمعاء، لكن الله حدد لنا في
الوقت نفسه بعض القواعد الهادفة إلى ضمان توزيع عادل للمداخل مبنى

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة عدل، ص ٥٨٨.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد رابع، ص ٢١٩.

(٣) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، مادة ط غ ي، ص ١٤٢.

على تعويض عادل لعوامل الإنتاج، وإلى تشجيع خلق فرص تشغيل جديدة، وإلى إنشاء نظام حماية اجتماعية بهدف المساعدة المنتظمة للفقراء والمحتاجين والمسنين والمعوقين " ١، وبعد تكريم الإنسان وتسخير الكون له لخدمته وإعمارها أنزل سبحانه وتعالى شريعته بالعدل لضمان توزيع عادل لهذه الموارد، وذلك لعلمه سبحانه بالنفس البشرية من حيث إسرافها أو تقطيرها؛ لأن الإنسان كما فطره الله تعالى إما قَتُورًا كما قال تعالى: " قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا الْأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا " (الإسراء: ١٠٠)، وإما مسرف يضيع الخيرات فقال تعالى: " وَلَا تُبَدِّرْ تَبْدِيرًا " (الإسراء: ٢٦).

لذلك أنزلت الشريعة بالإرشاد على العدل، حتى لا يتفشى الظلم، وينتشر الفقر، ويزيد الاحتكار للثروات والأموال، وتتمركز الثروات في أيدي فئة معينة من الناس، فهو الخالق لكل الثروات، قال تعالى: " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٩).

وقد أرشد بتمام أو أمره بالعدل في الأحكام، فقال تعالى: " وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " (الأنعام: ١١٥).

ثانيًا: الأمانة في الإسلام من الوجهة الاقتصادية

(١) معنى الأمانة:

(اتمنن) فلانًا: أَمِنَهُ. وَأَمَّنَهُ، وَاتَّمَنَّ فلانًا على الشيء: جعله أميناً عليه.

(١) عبد الحميد براهيمى، العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٢.

(الأمانة) الوفاء والودعية.

(الأمين): الحافظ الحارس، والمأمون من يتول رقابة شئ والمحافظة عليه والجمع أمناء.

(أَمِنَ) فلاناً على كذا وثق به واطمان إليه أوجعله أميناً عليه. وفي التنزيل العزيز: " قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " (يوسف: ٦٤)، (أمن) أمانة: كان أميناً^١.

" أمانة(مفرد) والجمع أمانات (لغير المصدر)، خيانة الأمانة: تصرف الشخص فيما ليس له من مال أوغيره كان قد أوتمن عليه " ^٢.

وقيل: حمل الأمانة أي راعاها وحفظها، فقال تعالى: " إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا " (الأحزاب: ٧٢).

" ومعنى الأمانة في عرفنا هي المال أوالأشياء النفيسة التي تخشى عليها الضياع فتودعها عند من تلتمس فيه أنه يحافظ عليها حين حاجتك لها، وليس لك أن تأخذ ممن ائتمنته صكاً ولا أن تحضر شهوداً وإلا ما أصبحت أمانة، إذن: ليس عليها إثبات إلا أمانة من أخذها، فإن شاء أقرَّ بها وأداها، وإن شاء أنكرها، فالأمانة إبعاد النفس بأن تكون مختارة في الفعل وغيره، فإن كانت مقهورة بصكِّ، أو بشهادة شهو د لم تعد أمانة." ^٣

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة امن، ص٢٨.

(٢) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، مادة امن، ص١٢٣.

(٣) محمد متولى الشعراوي، تفسير(خواطر) الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات، المجلد التاسع عشر،

وفي شرح معنى نفس الآية " ذكر - جل وعلا - في الآية الكريمة أنه عرض الأمانة - وهي التكليف - مع ما يتبعها من ثواب وعقاب على السماوات والأرض والجبال، وأنهن أبين أن يحملنها، وأشفقن منها : أي خفن من عواقب حملها" ^١.

(٢) أنواع الأمانة:

(أ) أمانة الودائع:

قد تأتي الأمانة بمعنى الفرائض أو الودائع، قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا " (النساء: ٥٨)، "ويدخل في هذا الأمر أداء الفرائض التي هي أمانة الله تعالى التي حملها الإنسان، وحفظ الحواس التي هي ودائع الله تعالى، ودخل في ذلك الأمانات العادية التي يأتمن الناس بعضهم بعضا عليها " ^٢.

والأمانة هي أمانة منقولات أو أمانة أموال وودائع، وأحيانا تكون أمانة علم كما قال الإمام محمد عبده: " والأمانة حق عند المكلف يتعلق به حق غيره، ويودعه لأجل أن يوصله إلى ذلك الغير كالمال والعلم، سواء كان المودع عنده ذلك الحق قد تعاقد مع المودع على ذلك بعقد قولي خاص صرح فيه بأنه يجب على المودع عنده أن يؤدي كذا إلى فلان مثلا، أم لم يكن كذلك، فإن ما جرى عليه التعامل بين الناس في الأمور العامة هو بمثابة ما يتعاقد عليه

(١) محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، دار الهدى مصر، (١٤٢٦هـ -

٢٠٠٥م)، ص ١١٢٧.

(٢) سعيد حوى، الأساس في التفسير، مرجع سابق، مجلد ثاني، ص ١٨٨.

الأفراد في الأمور الخاصة، فالذي يتعلم العلم قد أودع أمانة وأخذ عليه العهد بالتعامل والعرف بأن يؤدي هذه الأمانة ويفيد الناس ويرشدهم بهذا العلم، وقد أخذ الله العهد العام على الناس بهذا التعامل المتعارف بينهم شرعا وعرفا بنص قوله: " وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ " (آل عمران: ١٨٧)، ولذلك عُدَّ علماء أهل الكتاب خائنين بكتمان صفات النبي - ﷺ - فيجب على العالم أن يؤدي أمانة العلم إلى الناس، كما يجب على من أودع المال أن يرده إلى صاحبه "١.

ب) أمانة العبادة والحقوق:

نستطيع أن نقول أن الأمانة في الإسلام هي " جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والندور وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينهم على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة "٢.

وكذلك الأمانة هي " أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم، وأمانة المعاملات والودائع المادية، وأمانة النصيحة للراعي والرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمان الجماعة وأموالها وثغراتها...

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ١٤٨.
(٢) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة (١٤٠٢هـ - ١٩٨١م)، المجلد الأول، ص ٤٥.

إنَّ الأمانة بكل مدلولاتها هي أساس الحياة في المجتمع الإسلامي " ١، قال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا " (النساء: ٥٨)، وقال: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (الأنفال: ٢٧)، وقال: " وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ " (المؤمنون: ٨). وقال: " قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " (القصص: ٢٦). وهنا الأمانة أمانة نبي الله موسى في العمل والأخلاق، " فهو قوي على العمل أمين على المال، فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه " ٢، ومن أدوات تحقيق الأمانة في النظام الاقتصادي الإسلامي أمانة الموازين والمكاييل، وتحريم الكسب بالصدفة، والحظ مثل الميسر، والمراهنات، وكذلك ترسيخ قاعدة الاستخلاف في نفس كل المسلم، حيث إن كل تعاملات المسلم يجب أن تكون بمبدأ الأمانة في ملك الله ومال الله، ولا يكون الإنسان مالكا لأي شيء إلا ملكية مؤقتة، وكل تعاملاته من باب الأمانة والاستخلاف في الأموال التي هي في الأصل ملك لله تعالى.

ثالثاً: دور العدل والأمانة في تحقيق الأمن الاقتصادي (السنن الإلهية)

(١) مفهوم الأمن الاقتصادي:

إن لفظ الأمن الاقتصادي هو لفظ حديث في علوم الاقتصاد، ونستطيع القول بأن تعريفه " هو أن يملك المرء الوسائل المادية التي تمكنه من أن يحيا حياة مستقرة ومشبعة، وبالنسبة لكثيرين يتمثل الأمن الاقتصادي في امتلاك ما يكفي من النقود لإشباع حاجتهم النفسية وهي الغذاء والمأوى اللائق

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٦٨٩.

(٢) المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٢٦٨٧.

والرعاية الصحية الأساسية والتعليم" ^١، وهي أمور من واجب أي نظام اقتصادي توفيرها، حيث " من المنظور الاقتصادي لا يمكن أن يتصف أي اقتصاد بالفعالية وبالإنسانية ما لم تتوفر فيه تدابير وإجراءات كافية للأمن الاقتصادي، ونظم جيدة للضمان الاجتماعي، حيث يكون بمقدور الناس أن يستجيبوا لتحديات الحياة ويتكيفوا مع التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي تحيط بهم، ويدرأوا عن أنفسهم خطر الكوارث والآفات ويتمكنوا من تنمية إمكاناتهم البشرية لتوفير حياة أفضل وسبل معيشية أكثر أمنًا واستقرارًا " ^٢.

ونستنتج مما سبق أن مفهوم الأمن الاقتصادي هو تأمين الموارد لحفظ الأمن والاستقرار النفسي للإنسان، والذي هو أهم كائن على وجه الأرض، قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (الإسراء: ٧٠)، وتأمين وصول هذه الموارد والحفاظ عليها من الظلم بكل صور مثل الاحتكار والسلب والسرقة.

(٢) معنى الأمن الاقتصادي في الإسلام:

حرص الإسلام على محاربه الفقر وتوفير حد معين يضمن للإنسان الحياة الكريمة، وسمي هذا في النظام الإسلامي حد الكفاف وحد الكفاية.

(١) سعيد على حسن القليطي، التخطيط الاستراتيجي لتحقيق الأمن الاقتصادي والنهضة المعلوماتية، المملكة العربية السعودية، بحث مقدم لمؤتمر تقنية المعلومات والأمن الوطني بالرياض، (٢٠٠٧م)، ص ٤.

(٢) محي الدين يعقوب أبو الهول، الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم، جامعه العلوم الإسلامية الماليزية، كلية الشريعة والقانون، ص ١٤.

" الكفاف لغة: من الكف... وقوته كفاف: أي مقدار حاجته من غير زيادة ولا نقص، وُسْمِي ذلك لأنه يكف عن سؤال الناس ويغني عنهم " ^١.

" الكفاية: هي ما يدفع إلى كل واحد منهما إذا اتسعت الزكاة، ما يخرج به من اسم الفقر والمسكنة إلى أدنى مراتب الغنى، وذلك معتبر بحسب حالهم " ^٢.

والأمن الاقتصادي في الإسلام عبارة عن استقرار الإنسان واطمئنانه من ناحيه احتياجاته من المأكل والمشرب والملبس، وكذلك ضمان وصول هذه الاحتياجات بالعدل والأمن لمستحقيها، قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ " (البقرة: ١٢٦)

والأمن هنا يضمن وصول الرزق لأهله ومستحقيه، وإذا لم يتوافر للمسلم هذا الحد كان على الأغنياء بذل أموالهم لتوفير حد الكفاف لفقراء المسلمين، وإذا زادت الأموال بالدولة فيجب تحقيق حق الكفاية للأفراد، وهو ما نستطيع أن نطلق عليه الآن الأمن الاقتصادي للأفراد، والتشريع الاقتصادي الإسلامي يحفظ ضروريات المسلم واحتياجاته حتى يأمن من الهلاك، ومن هنا نستنتج أن الأمن الاقتصادي في الإسلام هو اطمئنان المسلم لحفظ حقه وقوته في أموال المسلمين تارة، وفي العدل والأمانة التي تسود المجتمع تارة أخرى، وبذلك تتحقق الحياة الطيبة " ومظاهر الحياة الطيبة في الإسلام هي مراعاة تقوى الله،

(١) نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص ٣٨١.

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي، كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م)، ص ١٥٦.

مع وفرة الإنتاج وعدالة التوزيع أي تحقيق تمام الكفاية لكل فرد، إلى جانب سيادة الأمن في المجتمع^١.

وقد جاءت بالقرآن آية تعطي معنى الأمن الاقتصادي فقال تعالى: " الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ " (قريش: ٤)، وعطف الأمن على الإطعام المشبع يعني أن الخوف يأتي من الحاجة والجوع، حيث إن الإنسان الجائع لا يشعر بالأمن، بل على العكس يشعر بالخوف، ونجد آيات الجنة ونعيمها من أدل الآيات على كامل الاطمئنان للإنسان؛ لأنه في دار الخلد، قال تعالى: " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) " (طه: ١١٨ - ١١٩)، وهذا ما ضرب الله به المثل للإنسان من درجات الأمن الاقتصادي الذي كان لآدم بالجنة وهو الاستقرار والاطمئنان لحفظ احتياجات آدم عليه السلام، وهي كذلك نفس الأشياء التي يسعى لها كل إنسان في الدنيا حتى يشعر بالأمن الاقتصادي، ولكن في الدنيا يحتاج الإنسان إلى العدل والأمانة واتخاذ كافة التدابير لتحقيق هذا الاطمئنان.

(٣) علاقة الأمن الاقتصادي بالعدل والأمانة:

إن آيات القرآن الكريم صالحة لكل زمان، ولن يستطيع أحد قصر المعنى في الآيات القرآنية على زمن محدد؛ لذلك سنحاول القيام باستخراج السنن الخاصة بعلاقة العدل والأمانة بالأمن الاقتصادي، وحتى يتحقق الأمن الاقتصادي بوجود العدل والأمانة يجب توافر عدة عناصر في أي مجتمع نذكر منها:

(١) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ٤ .

أ) وجوب الإنفاق:

الإنفاق من العدل والإنفاق هو الزكاة والصدقة والوقف وجميع أوجه التحويلات إلى الفقراء والمحتاجين، وهي صورة

من صور التمويل التي تؤدي للتنمية بالمجتمع والخروج من الفقر إلى مرحلة الأمن الاقتصادي، ويأتي دور العدل في المجتمع ليقوم بتحويل الموارد الاقتصادية من يد الأغنياء إلى الفقراء وعدم تكتزها في أيدي فئة واحدة، وهي صورة لتداول الأموال بين الناس، قال تعالى: " كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " (الحشر: ٧)، والشعور بالأمن الاقتصادي لا يتأتى إلا بزوال الفقر، وعندما قال تعالى: " وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ " (المعارج: ٢٤)، كانت هذه الآية فرضاً لمقادير معلومة من أموال الزكاة تضمن استمرارها في بيت مال الزكاة من الأغنياء للفقراء، وتضمن كذلك التنمية المستمرة، والتي تضمن الأمن الاقتصادي للمسلمين، وكذلك كل آيات الحث على الإنفاق والترغيب فيه هي كذلك ضامن للتنمية في الاقتصاد الإسلامي؛ لأنَّ الإنسان المسلم ملتزم بطاعة أوامر الله في القرآن الكريم، ومن آيات السنن للحث على الإنفاق ما يلي:

- قال تعالى: " قُلْ إِنْ رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ " (سبأ: ٣٩)، وتأتي هنا سنه المضاعفة والرزق والعتاء مقابل الإنفاق ويكون المعنى " أي: ما تنفقونه فيما أباحه الله لكم كالنفقة على أولادكم وأقاربكم وعلى المحاويع من المسلمين، فإن الله

يخلفه بما هو أكثر منة في الدنيا وما هو أعظم منه في الآخرة"١، ونستطيع القول بأنه " قضت سنته في المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله"٢.

- قال تعالى: " وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ " (الروم: ٣٩)، وهنا تظهر سنته في المضاعفة لدافعي الزكاة " هذه هي الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال: إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد، ولا عوض من الناس، إنما هي إرادة وجه الله، أليس هو الذي يبسط الرزق ويقدر؟ أليس هو الذي يعطي المال ويمنع؟ فهو الذي يضاعف إذن للمتقين ابتغاء وجهه"٣.

- قال تعالى: " وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (التغابن: ١٦)، وهنا تظهر سنة الله تعالى في أن الإنفاق يتأتى بالفلاح ويعود بالخير على المنفق نفسه، " فهم ينفقون لأنفسهم وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقه لذواتهم"٤، قال تعالى: " وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (التوبة: ١٢١)، وهنا تظهر سنة الله تعالى - وهي الإنفاق - مقابل الجزاء، سواء كان دنيويًا أو في الآخرة.

- قال تعالى: " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " (آل عمران: ٩٢)، وهنا تظهر السنة الإلهية بنيل البر الإلهي مقابل الإنفاق، فيقول الله تعالى لعباده لن تدركوا بري الوافر وتصيبوا إحساني العزيز

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٢٣٣.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، جزء ثالث، ص ٨٨.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٢٧٧٢.

(٤) المرجع سابق، المجلد السادس، ص ٣٥٩١.

في الدنيا والآخرة حتى تنفقوا في وجوه الخير التي شرعتها لكم " والبر كمال الخير وشموله في نوعه: إذ الخير قد يعظم بالكيفية وبالكمية وبهما معا " ، ويمكننا القول أيضاً أن البر هو المقابل سواء في الدنيا أو الآخرة، وكلها آيات من السنن الإلهية التي تحث على الإنفاق للمسلم المؤمن، وهي ضامن لاستمرار التمويل للنهوض والتنمية بالمجتمع الإسلامي إذا توافر العدل والأمانة في الجمع والتوزيع لهذه الموارد الخاصة بالنظام الإسلامي.

(ب) تجريم الربا:

وتجريم الربا من العدل، وذلك بمنع تمركز الأموال، وذلك لأن الزيادة الطبيعية للأموال تكون بالعمل وليس بالإقراض والربا، والربا مناف لقاعدة الرزق بالسير والجهد في الأرض، ويجب أن ننبه أنه " اقتضت سنة الله في الخلق أن هذه الأرزاق التي ضمنها والأقوات التي قدرها والمعاش التي يسرها لا تنال إلا بجهد يبذل، وعمل يؤدي، ولهذا رتب الله سبحانه وتعالى الأكل من رزقه على المشي في مناكب أرضه فقال: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك: ١٥)، فمن مشى أكل ومن كان قادراً على المشي، ولم يمش كان جديراً ألا يأكل".^١

- قال تعالى: " وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " (البقرة: ٢٧٥)، وهنا يكون جزاء أكل الربا هو الخلود في النار، وهذا الجزاء في الآخرة،

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٥.

(٢) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٢.

أما في الدنيا فان سنته تعالى تقتضي بأن أموال الربا يحقها الله تعالى ويفنيها، فكل أموال الربا طريقها للفناء.

- قال تعالى: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " (البقرة: ٢٧٦)، وهذه الآية تعبر عن سنة الله في آكلي الربا بأنهم يحق الله أموالهم، والمحق إذهاب البركة والهلاك لهذا المال. " إن سنته قضت في عابد المال الذي لا يرحم معوزاً ولا بنظر معسراً إلا بما لا يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محروماً من الثمرة الشريفة للثروة، وهي كون صاحبها ناعماً عزيزاً شريفاً عند الناس، لكونه مصدراً خيراً والتفضل عليهم وإعانتهم على زمنهم، كما يكون محروماً في الآخرة من ثواب المال فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك " ١.

- قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران: ١٣٠)، وهنا تظهر سنته سبحانه بأن الفلاح يأتي بتقوى الله والابتعاد عن الربا في دنياكم بالترحم والتعاون فتتحابون، والمحبة أساس السعادة " ٢.

(ت) تجريم الربح غير الشرعي والاحتكار:

إن الربح غير الشرعي هو من الظلم، وتجريمه هو نوع من أنواع نشر العدل في المجتمع، وتكون الأرباح غير الشرعية مثل الرشوة والاحتكار، فهي أيضاً تعطي الأفراد أموالاً بدون وجه حق وبلا جهد وبدون عمل، وهذا لا يؤدي للتقدم والتنمية، قال تعالى: " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة: ١٨٨)، وكل هذه

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، جزء ثالث، ص ٨٨.

(٢) المرجع سابق، جزء رابع، ص ١١٢.

الأعمال هي أعمال ظالمة في المجتمعات، " وكم من ثروة نفذت وبيوت خربت، ونفوس أهينت، وجماعة فرقت، وما كان لذلك من سبب إلا الخصام، والإدلاء بالمال إلى الحكام، ولو تأدب هؤلاء الناس بآداب الكتاب الذي ينتسبون إليه لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم " ١، وإن كانت كلها أعمالا من الظلم، وستأتي عواقب الظلم وسنن الظلم في المبحث القادم بأمر الله تعالى.

- فقال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة: ٩٠)، وتظهر سنة الله تعالى أن من يقوم بهذه الممارسات من الأعمال لن يناله الفلاح في حياته، وإن أراد الفلاح فعليه اجتناب هذه الأعمال.

(ث) تشديد عقوبة الموازين والمكاييل:

إن تأمين وصول الحقوق الاقتصادية للمسلم هي من الأمن الاقتصادي، ومن دواعي الأمن الاقتصادي وجود العدل في التعاملات كلها، والغش في الموازين والمكاييل يمنع الوصول للأمن للموارد، حيث إن الموازين والمكاييل تتعامل مع الموارد الاقتصادية الخاصة بالمسلمين، ومن مقاصد الشريعة الحفاظ على الأموال وعدم سرقة أو نهبها، والموازين والمكاييل من الموارد الاقتصادية، ويكون منها الحبوب الزراعية والمنتجات المصنعة ومعظم أنواع المنتجات، والتي يجب فيها الأمانة، قال تعالى: " وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٨٣)، فإذا

(١) المرجع سابق، جزء ثاني، ص ١٨٣.

تعدى الأفراد على حقوق الآخرين في الموازين والمكاييل ضاعت الأمانة في المجتمع، واختل الأمن الاقتصادي؛ وذلك لضياع الحقوق بين المسلمين، فالالتزام بقواعد الموازين والمكاييل يحقق الأمن الاقتصادي في المجتمع، والغش في الموازين والمكاييل من الظلم في التعاملات وهو محرم لأنه " من مظالم العباد والمسامحة والعفوفيه أبعده، والتشديد في أمر الميزان عظيم، والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة... وتحريم ذلك في المكيل ليس لكونه مكياً، بل لكونه أمراً مقصوداً ترك العدل والنصفة فيه، فهو جار في جميع الأعمال، فصاحب الميزان في خطر الويل"^١ لذلك حتى يتحقق الأمن الاقتصادي يجب تطهير الحياة من كل أنواع الظلم.

- قال تعالى: " وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُمُ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ (٨٥)" (هود: ٨٤، ٨٥)، وتظهر الآية سنته تعالى في أن الغش في الموازين والمكاييل يؤدي إلى العذاب وينشر الظلم والفساد، وأن عاقبتهم النار والعذاب.

للدولة دور كبير في تحقيق الأمن الاقتصادي للأفراد في الموازين والمكاييل، " فإن سلطة الدولة لتنظيم الموازين والمكاييل تعتبر أمراً ضرورياً بينه الله تعالى بأن أرسل شعيب عليه السلام لقومه ليهديهم وينظم حياتهم بعبادة الله وحدة والبعد عن الفساد...

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٨.

والدولة لها السلطة التشريعية والتنفيذية في تحديد حجم الوزن والمكيال المراد تطبيقه، وذلك من حيث النوع والكمية بمقياس دقيق ويعرف بين الأسواق الاقتصادية، حيث نرى الأعراف بين أمم العالم بحيثاتها العلمية والدولية قد استعملت بعضاً من أنواع تلك المكيال وحجم الوزن مثلاً كالرطل والأوقية والكيلو وغير ذلك... " ١، وبقيام العدل يتحقق الأمن الاقتصادي للدولة.

ج) عدم الإسراف في الموارد ومراعاة قاعدة الاستخلاف:

من الأمانة في المجتمع مراعاة عدم الإسراف واستيعاب وفهم قاعدة الاستخلاف؛ فإذا استطاع المسلم أن يدرك معنى الاستخلاف ويفهم دوره الحقيقي في الإعمار، وأن ما يملكه من الدنيا هو امتلاك مؤقت، ويجب عليه تنفيذ الأوامر والنواهي للمالك الحقيقي للأموال، بذلك يكون هو التحقيق الفعلي للأمن الاقتصادي، وذلك حيث إن الشريعة الإسلامية حاربت الإسراف، فنجد أن ما استخلفنا فيه الله تعالى من الخيرات يرشدنا ألا نسرف فيها، ولو خالفنا الأمر وأسرفنا يظهر عدم حب الله للمسرفين ويظهر العقاب للمسرفين، فالابتعاد عن الإسراف أمر إلهي يجب تنفيذه؛ " فترشيد الاستهلاك والاكتفاء بما عبر عنه فقهاء الشريعة باصطلاح حد الكفاية أي المستوى اللائق للمعيشة، وبالتالي توجيه الفضل أو الفائض الاقتصادي إلى التنمية، فهذا في الإسلام موقف ديني وسلوك اجتماعي " ٢. وبذلك تؤثر قاعدة الاستخلاف على التنمية، وكل هذا يؤدي للأمن الاقتصادي.

(١) نواف بن صالح الخليلي، المنهج الاقتصادي في المكيال والموازن لربي الله شعيب، مرجع سابق، ص ٢٩٩:٣٠٢.

(٢) محمد شوقي الفنجري، المذهب الاقتصادي في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٢٨.

- قال تعالى: " وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ " (الحديد: ٧)، وهنا تظهر سنة الله تعالى فيما استخلفنا فيه من

الموارد الاقتصادية بأن إنفاقها على مراد الله يأتي بالأجر الكبير من الله.

- قال تعالى: " يَا بَنِي آدَمِ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١)، وكذلك فإن الاستخلاف يحتم على الأفراد طاعة الله في الأموال التي استخلفهم فيها، وهذه الآية تظهر سنته تعالى في أن المسرف بعيد عن حب الله سبحانه.

فالأمانة التي أعطاها الله تعالى للإنسان من أموال واستخلفه عليها تحتم على هذا الإنسان الالتزام بالأمانة وإقامة العدل في هذه الأموال من حيث إنفاقها وتوزيعها وإعطائها لمستحقيها وأخراج فرائضها والحفاظ عليها، وكل هذا من أمانة الاستخلاف في مال الله، وبذلك نستطيع القول أن قاعدة الاستخلاف قاعدة حاکمة لتصرفات المسلم كلها في أمواله وما يملكه، وهي قاعدة قائمة على العدل في التشريع والأمانة في التطبيق.

وأخيراً يجب أن يظهر دور الدولة في تشديد العقوبة على المخالف في المعاملات المالية، فيجب تحريم الربا بقوانين مفعلة، وتشديد العقوبة على المحتكر والمرتشى والمقامر، وكذلك يجب التأكيد على الأمانة والعدل في توزيع الإرث بصورة صحيحة شرعاً وقانوناً، وكذلك من العدل عقاب كل من يروج للربا ويتداوله بقوانين قوية مفعلة تردع كل من تسول له نفسه مخالفة أوامر الله تعالى في القوانين الاقتصادية، والعدل في التطبيق لهذه القوانين والأمانة في توزيع هذه الأموال هو ما يشعر أفراد الدولة بالعدل والأمن الاقتصادي، فكل فرد لن ينال الأموال إلا عندما يكون مستحقاً لها فعلياً، وليس مغتصبها ولا

معتمد على حقوق الآخرين لينالها، وبذلك تضبط المعاملات بين الأفراد ويتمتعون بالأمن الاقتصادي؛ وذلك لأن الأفراد سوف يسودهم الطمأنينة بإحساسهم بالعدل والأمانة وثقتهم بأن أموالهم ستؤول إليهم بلا ظلم أو عناء.

المطلب الثالث

الشكر والاستغفار يحققان الطمأنينة الاقتصادية

في هذا المطلب سوف نتحدث عن الشكر والاستغفار ودورهم في الاقتصاد الإسلامي، وقد يهاجم أصحاب الاتجاهات المادية هذا الجزء من البحث لعدم إيمان الماديين بالروحانيات في الاقتصاد، ولكننا نذكر أن الاقتصاد الإسلامي هو اقتصاد يجمع بين المادية والأخلاق والروحانيات، فهو اقتصاد أخلاقي وروحي جنباً إلى جنب مع المادية؛ لذلك سنحاول إبراز وتوضيح دور الشكر وماهية الشكر الذي نقصده، وهو ليس الشكر باللسان فقط، ولكنه شكر فعل، وكذلك دور الاستغفار وهو معنوي، وتأثيرهما على الاقتصاد من حيث الطمأنينة الاقتصادية، وهي كذلك حالة معنوية.

أولاً: معنى الشكر

(الشكر) عرفان النعمة وإظهارها والثناء بها، ومن الله: الرضا والثواب.

(الشكور): مبالغة الشاكر، وفي التنزيل العزيز " اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ " (سبأ: ١٣).

وشكر له شُكْرًا، وشُكْرَانًا: ذكر نعمته وأثنى عليه بها.، ويقال: شكر الله، والله نعمه، وفي التنزيل العزيز: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " (البقرة: ١٧٢)، ومن صفات الله عز وجل المثيب المنعم بالجزاء^١.

" وأما الشكر فهو القيام له بطاعته، والتقرب إليه بأنواع محابته ظاهراً وباطناً " .^٢

قال تعالى: " فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ واشْكُرُوا لي وَلَا تَكْفُرُونِ " (البقرة: ١٥٢)، " والشكر لله درجات، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته، وتنتهي بالتجرد لشكره، والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن، وفي كل لفظة لسان، وفي كل خفقة قلب " .^٣

في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ " (البقرة: ١٧٢)، يوجه الله تعالى المؤمنين بأن من عبادته شكره تعالى على النعم " ويوجههم للشكر أن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فيوحى إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضها الله من العباد " .^٤

قال تعالى: " وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ " (الأعراف: ٥٨)، " والشكر ينبع من القلب الطيب ويدل على الاستقبال الطيب والانفعال الطيب، ولهؤلاء الشاكرين

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة شكر، ص ٤٩.

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: محمد عزيز شمس، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٤.

(٤) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ١٥٦.

الذين يحسنون التلقي والاستجابة تصرف الآيات؛ فهم الذين ينتفعون بها، ويصلحون لها ويصلحون بها " ١.

والشكر للنعمة لا يكون باللسان فقط، بل بالقلب وبالأفعال التي ترضي الله، فالشكر على الصحة استعمالها في الطاعات وعدم المعصية، والشكر على الأموال استخدامها في الإنفاق المتزن، والإعمار، وأخراج الزكاة، والشكر على النعم يجب أن يكون على مراد الله، و" اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة، فمنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها، ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه: الحمد لله، الشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها، وهي طاعه الله عز وجل " ٢.

ثانياً: معنى الاستغفار

(غفر): الله له ذنبه: غفرًا وغفرانًا ومغفرة: ستره وعفا عنه فهو غافر و(للمبالغة) غفور وغفار.

(اغترف) له ذنبه: غفره له.

(استغفر) الله ذنبه، ومن ذنبه، ولذنبه: طلب منه أن يغفره ٣. قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " (النساء: ٦٤).

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ١٣.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ٥١٢.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، مادة غفر، ص ٦٥٦.

والاستغفار يمكن أن يكون نوعاً من الذكر والدعاء، ويمكن أن يكون استغفاراً من ذنب، و" الاستغفار هو الإقبال على الله، وعزم التائب على اجتناب الذنب وعدم العود إليه، مع الصدق والإخلاص لله في ذلك، وأما الاستغفار باللسان عقب الذنب من دون هذا التوجه القلبي فليس استغفاراً حقيقياً " ١ .

قال تعالى: " وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ " (هود: ٣)، وقد بينت الآية أن من ثمرات الاستغفار والتوبة أن الله يمنُّ على صاحبهما بالثواب العاجل في الدنيا. " والمراد أنكم إذا استغفرتموه وتبتم إليه هياً لكم أسباب الرزق والعيش الحسن " ٢

قال تعالى: " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ " (هود: ٥٢)، " إن الاستغفار والتوبة إلى الله من الذنوب والخطايا سبب في إنزال المطر " ٣ .

قال تعالى: " أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ " (المائدة: ٧٤) " إن الله تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة، يقبل التوبة عن عباده، ويغفر لهم ما سلف، إذا هم آمنوا وأحسنوا فيما بقى " ٤ .

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٢٤.

(٢) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٩٤.

(٣) المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ٣٢٦.

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مرجع سابق، جزء سادس، ص ٤١٩.

ثالثاً: معنى الطمأنينة الاقتصادية

والنظام الاقتصادي الإسلامي هو نظام يخلط ويدمج بين المادية والروحية، فهو يحتوى على عقيدة وشريعة " عقيدة تملأ القلب إيماناً بأن العمر بيد الله والرزق بيد الله، فلما يخاف من غير الله؟ والشريعة التي تكفل حرمة الدماء والأموال والحرمات من جهة، وتكفل للجميع حد الحاجة بالزكاة من جهة أخرى، وهذا أكبر ضمان للحرية والكرامة الإنسانية " ^١.

ونستطيع أن نقول أن الطمأنينة الاقتصادية لا تنشأ إلا من الجزء العقدي في الاقتصاد الإسلامي، حيث إن المسلم مؤمن بأن تصرفاته على مراد الخالق سبحانه ستاتي له بالخير الوفير، فيسير بخطى واسعة وهو مطمئن لعقيدته ومطمئن بأن لشريعته ما يدعوه إلى هذه الطمأنينة.

وهذا ما سنوضحه في المبحث التالي بأمر الله بشئ من التفصيل:
(طمأنه): سكنه وخفضه، ويقال: طامنه. (اطمأن): سكن وثبت واستقر.
يقال: اطمأن به القرار، واطمأن جالساً، واطمأن القلب، ونحوه: سكن بعد انزعاج ولم يقلق.

(الطمأنينة): الاطمئنان والثقة وعدم القلق^٢، وكلمة الطمأنينة مضادها الخوف، أما مصطلح الطمأنينة الاقتصادية مضادها الفقر.
إن الإنسان في العقيدة الإسلامية ليس جسداً مادياً فقط، بل هو روح أيضاً، وقد راعت الشريعة الإسلامية هذا الكائن على أساس تكوينه الثنائي المادي والمعنوي.

(١) يوسف كمال، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، مرجع سابق، ص ١٢١، ١٢٢ بتصرف.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مرجع سابق، ص ٥٦٦، ٥٦٧.

وعندما نتحدث عن الطمأنينة الاقتصادية فأنا نتحدث عن حالة معنوية يتمتع بها المسلم في ظل النظام الاقتصادي الإسلامي. وهي تترتب على استقرار سياسي واجتماعي واقتصادي، ولا يأتي هذا النوع من الاستقرار إلا بعد تحقق نوع من الاطمئنان المادي أولاً، والذي يؤدي بدوره إلى الاطمئنان المعنوي، ويتحقق الاطمئنان المادي بانتشار العمل المنتج، وكذلك العدل، والأمانة في المجتمعات الإسلامية والابتعاد تمامًا عن الفقر؛ وذلك لأنه من أكبر الكوارث على الاطمئنان في نفس الإنسان " وليس بلاء الفقر وخطره مقصوراً على الجانب الروحي والخلقي للإنسان، وإنما يشمل أيضاً الجانب الفكري منه، فالفقير الذي لا يجد ضروريات الحياة وحاجاتها لنفسه وأهله وولده، كيف يستطيع أن يفكر تفكيراً دقيقاً " ١.

قال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٣١)، وقال

تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ " (الأنعام: ١٥١).

ومن هذه الآيات يتضح أن الفقر يؤدي إلى فقدان العاطفة والتوازن النفسي حتى تجاه الأبناء وهم أعلى ما يملك الآباء؛ لذلك ينهي الرحيم عن قتل الأبناء حيث " إن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهي عن قتل الأولاد " ٢. فلا توجد الطمأنينة الاقتصادية أبداً مع وجود الفقر؛ لذلك حارب النظام الاقتصادي الإسلامي الفقر ليحقق الطمأنينة.

(١) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) أبو الفداء بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٢٨.

رابعاً: الشكر والطمأنينة الاقتصادية (السنن الإلهية)

الشكر للنعم ليس شكراً باللسان فقط، بل هو شكر أفعال، فقال تعالى: " اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ " (سبأ: ١٣)، ويلاحظ من معنى الآية أن الشكر لله يكون بالأعمال، ومعناه أن اعملوا يا آل داود من الطاعات والأعمال الصالحات ما تؤدون بها شكر الله على عظيم النعمة " ووجوب شكر الله على نعمه وفضله، وذلك بذكر وأداء ما فرضه من طاعته وتوحيدة" ^١؛ فالشكر على نعمة الرزق والمال هو أداء حقه بدفع الزكاة لمن يتولى هذا الأمر بالدولة، وهذا الالتزام يدعو للطمأنينة لكل أفراد الدولة؛ فإن كانوا فقراء فهم ضامنين حد الكفاية من بيت الزكاة، وإن كانوا أصحاب أعمال فهم مطمئنون على أموالهم وأعمالهم، وذلك بالالتزام المسلمين بسداد الزكاة، وذلك لوجود نصيب الغارمين في مصرف من مصارف الزكاة، وهذا يبعث بالطمأنينة الاقتصادية في المجتمع الإسلامي، والطمأنينة الاقتصادية لها أدوات في النظام الإسلامي تضمنها ليستطيع الإنسان أن يعمل وهو مطمئن اقتصادياً ومنها:

(أ) حد الكفاية والطمأنينة الاقتصادية:

حد الكفاية هو " المطعم والملبس والمسكن وسائر ما لا بد منه على ما يليق بحاله، بغير إسراف ولا إقتار، لنفس الشخص ولمن هو في نفقته" ^٢. وتطبيق حد الكفاية يكون على أموال الزكاة في مصارفها الشرعية، فقال تعالى: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٢١٦.

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، المجموع المهدب وشرحه، إدارة الطباعة المنيرية، الجزء السادس، ص ١٩١.

وَالْعَامِرِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (التوبة: ٦٠)، ويلاحظ أن أول مصرفين منها للفقراء والمساكين، والذي يجب أن يطبق عليهم حد الكفاية، والذي يضمن استقرار الإنسان على موارده الاقتصادية.

كذلك الصدقات والإنفاق الخيري، فقال تعالى: " لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٧٣) ^١، وهذا النص القرآني ينطبق على نوع آخر من المستحقين للإنفاق، وهم " الكرام المعوزين، الذين تكتنفهم ظروف تمنعهم من الكسب قهراً، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون، إنهم يتحملون كي لا تظهر حاجتهم، يحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء من تعففهم. ولكن ذا الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التجميل " .

ونلاحظ حرص الخالق سبحانه على وصول الطمأنينة الاقتصادية لكل أفراد المجتمع المحتاجين حتى وإن لم يجاهروا باحتياجهم للأموال، وهذا ضمان آخر بنشر الطمأنينة الاقتصادية بين كل أفراد المجتمع ممن جاهروا بالاحتياج ومن كتموا احتياجهم، وبهذا يحدث حالة سلام وتوازن اجتماعي بين جميع مستوياته حيث يأمن الفقير على قوته وكرامته، وبذلك تتحقق الطمأنينة الاقتصادية بين أفراد المجتمع

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد أول، ص ٣١٥.

ب) مصرف الغارمين والطمأنينة الاقتصادية:

تعتبر الزكاة أداة من أدوات الإيرادات في الدولة الإسلامية، و" تمثل الزكاة دافعًا للاستثمار وأداة لحماية المستثمرين لما توفره من ضمان لرءوس الأموال المستثمرة، حيث يمكن استخدام سهم الغارمين في تعويض المشروعات التي تتعرض لضائقة أو كارثة، مما يدفع المستثمرين إلى القيام بمشروعات معينه ترفع نسبة المخاطرة فيها، ويحتاجها الاقتصاد القومي" ^١.

ومن هذا السهم يحدث اطمئنان للمستثمر بأن " مؤسسة الزكاة لا تقف من هؤلاء موقفًا سلبيًا، بل تعمل على تحريرهم من ربة الدين وفك أغلاله عن أعناقهم مهما يكن حجم هذا الدين ما دام قد لزمهم من غير سفه ولا معصية لله تعالى.

ولا تكلف الشريعة الإسلامية المدين بيع حوائجه الأصلية ليقضي منها ما عليه، بل يدع له مسكنه وأثاثه ومتاعه وركوبته وكل ما يلزم لمعيشته" ^٢. وهذا السهم من أسهم الزكاة يضمن للمستثمر الإفلات من الفقر، حيث يحق له المطالبة به لأنه فريضة من الله،

وهو أمان للمستثمر، يعطي الطمأنينة الاقتصادية للتشجيع على الاستثمار والتنمية في المجتمع؛ وذلك لأنه في جو الطمأنينة تزيد حركة الأموال، وسنحاول استخراج السنن الإلهية لارتباط الشكر بالطمأنينة الاقتصادية كما يلي:

(١) أميرة عبد اللطيف مشهور، الاستثمارات في الاقتصاد الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) يوسف القرضاوي، الزكاة ودورها في علاج المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها، مرجع سابق، ص ٤٤.

- قال تعالى: " نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ شَكَرَ " (القمر: ٣٥)، والشكر على النعم يكون بالإيمان والطاعات، ومن سنن الله تعالى أن الشاكرين يكون لهم جزاء دينوي وجزاء في الآخرة، والشكر هو شعور نفسي، وذلك لأن "شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة...، وأن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة بلا بطر ولا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد"^١.

- قال تعالى: " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ " (إبراهيم: ٧)، وهنا يأتي وعد الله بأن الشاكرين سيزيدهم الله من النعم، وهي من السنن الإلهية، وهي تلازم الشكر مع زيادة النعم، " وإن كان وعد الله ذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله "^٢.

ويلاحظ أن الوعد من الله أنه مع الشكر تكون الزيادة، أي مع أخراج حق الأموال من الرِّكَاة والصدقات يكون زيادة الأموال وحل البركة فيها.

- قال تعالى: " رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (إبراهيم: ٣٧)، ولما تحقق الأمن والرزق بدعاء نبي الله إبراهيم كان واجباً على أهل القرية الشكر حتى تدوم وتستمر هذه النعمة، وهذه سنته تعالى أن الشكر يزيد ويديم النعم.

- قال تعالى: " وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " (الروم: ٤٦)، كذلك فالنعم من الله كثيرة لا تعد ولا تحصى تستوجب الشكر لدوامها وزيادتها " وهذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، الجزء الثالث عشر، ص ٢٨٩.

(٢) المرجع سابق، الجزء الثالث عشر، ص ٢٨٩.

النعمة هي كنز النعم كلها وعقالها، فإن شكرت الله نعمه عليك زادك منها"
.

- قال تعالى: "كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ" (سبأ: ١٥)،
وهنا كانت النعم في سبأ بكثرة حدائقهم، ولكن "لا عمل لهم في حدائقهم
ينتج ما يستمتعون به، إنما عملهم أن يشكروا المنعم سبحانه ليزيدهم من
الخيرات، وشكر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه... وظلّ دائماً على ذكر
بأن المنعم هو الله وأنّ ما أنت
فيه هو عطاء الله، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه لأن الشكر قيد
النعم" ٢.

- قال تعالى: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ" (النحل: ١١٤)، وفي هذه الآية يكون سماح بالتمتع بالطيبات مع
الحرص على أداء شكرها، وهذا مشروط بالإيمان وحسن العبادة.

خامساً: الاستغفار والطمأنينة الاقتصادية (السنن الإلهية)

الاستغفار من الذنوب وقبول التوبة هو فضل من الله تعالى على العباد
المخطئين، ونستطيع القول أن من سنن الله في الاقتصاد أنه إذا تاب العبد عن
تعامل حرمه الله، واستغفر الله عن هذا الذنب ولم يعاوده، أبدله ربه الرزق
والبركة، ومن هذا نستطيع القول أن الاستغفار والتوبة من الذنوب هو محقق
للرزق الذي هو من أسباب الطمأنينة الاقتصادية في المجتمع. " وقد ربط بين
الاستغفار وهذه الأرزاق، وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين

(١) محمد متولى الشعراوي، (خواطر) تفسير الشعراوي، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص ١١٥٢.

(٢) المرجع السابق، المجلد العشرون، ص ١٢٢٩٥:١٢٢٩٧.

صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله وبين تيسير الأرزاق وعموم الرضا...، وهي قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله، ومن سنة الحياة، كما يشهد الواقع العملي بتحقيقها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، وما من أمة قائم فيها شرع الله واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله...، وما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته فتحقق العدل والأمن للناس جميعًا إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض، واستخلف فيها بالعمران وبالصلاح سواء" ^١.

ونحاول استخراج السنن الإلهية لعلاقة الاستغفار بالطمأنينة الاقتصادية كما يلي:

- قال تعالى: " فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبَيِّنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) " (نوح: ١٠ - ١٢)، فنلاحظ هنا الارتباط بين الاستغفار وسعة الرزق المؤدي للطمأنينة الاقتصادية، وكما ذكرنا " ما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهها حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله، وما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته فحققت العدل والأمن للناس جميعًا إلا فاضت فيها الخيرات، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء" ^٢.

(١) المرجع السابق، المجلد السادس، ص ٣٧١٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء التاسع والعشرون، ص ٣٧١٣.

- قال تعالى: " وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ " (هود: ٣)، وتظهر هنا سنة سعة الرزق المؤدية للطمانينة الاقتصادية، والتي لا تتأتى إلا مع الاستغفار، وذلك أن من ثمرات الاستغفار والتوبة أن الله يمنُّ على صاحبها بالثواب العاجل في الدنيا، فيغمره بفضله وإحسانه فيها حتى " ليعلموا أن يستغفروه ويتوبوا إليه كي يهيئ لهم أسباب الرزق إلى حين بلوغ آجالهم المسماة"^١.

- قال تعالى: " وَيَأْقُومُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ " (هود: ٥٢)، وهناك ارتباط بين الاستغفار وإدراك المطر، وذلك بالرغم من أن الاستغفار شئ معنوي وإنزال المطر شئ مادي وهذا هو " الظاهر للبشر أنه يجرى وفق سنن طبيعية ثابتة في النظام الكوني، ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محببًا في مكان وزمان، ومدمرًا في مكان وزمان، وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم، وأن يكون الدمار معه لقوم، وأن ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية، فهو خالق هذه العوامل، وجاعل الأسباب لتحقيق سنته على كل حال. ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التي تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس؛ وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء"^٢.

بذلك فإن الشكر والاستغفار هما من أسباب الرخاء المؤدي للاطمئنان على الأقوات والأرزاق، " فإذا تدبر العبد علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله فشكر الله زاده الله من فضله عملاً صالحاً ونعمًا يفيضها عليه، وإذا

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٩٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ١٨٩٨.

علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه بذنوبه استغفر وتاب، فزال عنه سبب الشر، فيكون العبد دائماً شاكراً مستغفراً، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشر يندفع عنه" ^١.

ووجود باب التوبة مفتوح أمام المخطئ هو من أسباب التطور الصحيح للمجتمعات على مراد الله تعالى، وهو الضامن أيضاً لعدم تفشي الأخطاء، لأنه لن يكون هناك أمل للمغفرة، ويؤدي ذلك للفساد.

نتائج الفصل

في هذا الفصل محاوله للإجابة على تساؤل: هل يوجد بالسنن الإلهية ما إن اتبعناه نستطيع الوصول بالتطور لل عمران ؟ وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث؛ الأول خصصته لشرح معنى العمران ومقوماته، ومحاولة المقارنة بين لفظ العمران في الثقافة الإسلامية ولفظ التنمية في الثقافة الحديثة، ووجدت أن لفظ العمران هو لفظ أشمل من التنمية، ويحوي جانباً روحياً لا يوجد بالتنمية، فذهبت إلى المبحث الثاني لأبحث عن العمران في الفقه الإسلامي فوجدت علاقته بالفقه وحاولت توضيحها، وذهبت للقصص القرآني لأطبق مقومات العمران على التطور من القصص القرآني، ثم اقترحت سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي في المجتمعات الإسلامية، ثم حاولت الربط بين السنن الإلهية وتحقيقها للعمران، فوجدت أن بين العمل وتحقيق الرزق ارتباطاً برهنت عليه من القرآن الكريم، ووجدت أن العدل والأمانة يحققان الأمن الاقتصادي، وبرهنت على ذلك من آيات الذكر الحكيم، ووجدت أن

(١) تقي الدين ابن تيمية، التفسير الكبير، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٢٩٤.

الجانب الروحي للإعمار هو في العقيدة والإيمان بدور الإنسان المستخلف، ووجدت أيضاً أن من الجانب الروحي الطمأنينة الاقتصادية، والتي وجدتها مرتبطة بالشكر العملي والقلبي وكذلك بالاستغفار، ومن البحث تبين أنه يوجد بالسنن الإلهية القوانين الحاكمة التي إن اتبعها الإنسان وصل بالتطور لأن يكون إيجابياً، ويحدث العمران، وهنا يكون الإنسان قادراً بفعله على التحكم في النتائج باختياره الصالح منها.

الفصل الرابع

السنن الإلهية التي تؤدي إلى فساد العمران

هذا الفصل يحاول مناقشة مدى إمكانية وجود سنن ربانية يمكن اتخاذها كقانون للبعد عن التطور السلبي بفساد العمران، وذلك بمحاولة البحث عن السنن التي تبعدنا عن الهلاك الاقتصادي والفقير وكل أنواع العذاب الناتج عن تصرفاتنا الاقتصادية، ويكون ذلك باتباع القوانين الإلهية والابتعاد عن أسباب هذه المشاكل لضمان سير التطور بعيداً عن فساد العمران، وقد قسمت الفصل كما يلي:

المبحث الأول: الظلم والزهو والغرور من أسباب (وقوع العذاب)

المطلب الأول : معنى الظلم وأنواعه

المطلب الثاني : معنى الزهو والغرور وأنواعه

المطلب الثالث : السنن الإلهية في الظلم الاقتصادي

المبحث الثاني: الإفساد والبغي من أسباب (وقوع الهلاك الاقتصادي)

المطلب الأول : معنى الإفساد والبغي

المطلب الثاني : معنى الهلاك الاقتصادي

المطلب الثالث : آيات السنن الإلهية في الهلاك الاقتصادي

المبحث الثالث: الطغيان السياسي والعلوم من أسباب (وقوع الفقر)

المطلب الأول : معنى الطغيان السياسي والعلوم

المطلب الثاني : معنى الفقر وأنواعه في الإسلام

المطلب الثالث : آيات السنن الإلهية في تحقق الفقر بالطغيان السياسي

المبحث الأول

الظلم والزهو والغرور من أسباب الفساد (وقوع العذاب)

يوجد من البشر من يتخلق بالظلم والزهو والغرور بجميع أنواعهما، ويصرون على هذه الأخلاق فيأتي القرآن الكريم ليعطينا أمثلة على هذه النوعية من البشر، ويعطينا سنته تعالى فيهم وهو وقوع العذاب المترتب عليه فساد وهلاك العمران وسوف نقسم هذا المبحث كما يلي:

المطلب الأول : معنى الظلم وأنواعه

المطلب الثاني : معنى الزهو والغرور وأنواعه

المطلب الثالث : السنن الإلهية في علاقه الظلم والزهو والغرور بالعذاب

المطلب الأول : معنى الظلم وأنواعه

أولاً: معنى الظلم

(١) معنى الظلم في اللغة:

الظلم هو ضد العدل، وأخذ الإنسان ما ليس حقا له. (ظلم) ظلماً ومظلماً: جار وجاوز الحد، ووضع الشيء في غير موضعه، (الظليمة) ما أخذ منك ظلماً، والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه، والظلم يقال في مجاوزة، ويقال فيما يكتر وفيما يقل في التجاوز؛

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، (٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ)، ص ٥٧٧.

ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير؛ ولذلك قيل لآدم في تعديه: ظالم، وفي إبليس: ظالم وإن كان بين الظلمين بون كبير^١.
ظ ل م: الظلم: اسم من (ظلمه) (ظلمًا) من باب ضرب، و(مظلمة) بالضم، و(ظلمته) بالتشديد نسبتته إلى الظلم، وأصل (الظلم) وضع الشيء في غير موضعه^٢.

وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، ومنه حديث الوضوء، فمن زاد أو نقص فقد أساء وظلم، أي أساء الأدب بتركه

السنة والتأدب بأدب الشرع، وظلم نفسه بما نقصه من الثواب بترداد المرات في الوضوء، وفي التنزيل العزيز " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ " (الأنعام: ٨٢)، قال ابن عباس وجماعة من أهل التفسير: لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وقوله عز: " يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان: ١٣)، يعني أن الله تعالى هو المحيي المميت الرزاق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به غيره فذلك أعظم الظلم؛ لأنه جعل النعمة لغير ربها، و(الظلمة) المانعون أهل الحقوق حقوقهم، وتظالم القوم: ظلم بعضهم بعضًا، والظُّلْمُ بالتشديد الكثيرُ الظُّلْمُ^٣

٢) معنى الظلم في القرآن:

من معاني الظلم في القرآن الكريم أنه هو ظلم الشرك بالله تعالى، قال تعالى: " وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَّادًا يُجْبُوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا "

(١) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان، ص ٣١٥.

(٢) انظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، ص ١٩٣.

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الأول، باب ظلم، ص من ٢٧٥٦: ٢٧٥٨.

لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ " (البقرة: ١٦٥)، وهنا نرى الظلم يقع من الظالمين في حق أنفسهم وغيرهم، وذلك لأن "جعل اتخاذهم الأنداد ظلماً، لأنه اعتداء على عدة حقوق، فقد اعتدوا على حق الله تعالى من وجوب توحيده، واعتدوا على من جعلوهم أنداداً لله على العقلاء منهم مثل الملائكة وعيسى، ومثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فقد ورد في «الصحیح» عن ابن عباس أنهم كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم تماثيل " ١، ويظهر وقوع الظلم على الذات الإلهية أولاً، ثم على النفس لأنها تحكم على نفسها بالهلاك، وظلم للأخرين بوضعهم في موضع أعلى من موضعهم.

وقال تعالى: " وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا " (النساء: ٦٤)، ومن ظلم النفس الابتعاد عن منهج الله الذي شرعه وأرسله مع الرسل، "وظلموا أنفسهم بميلهم عن هذا المنهج" ٢. ونجد معاني للظلم كثيرة مثل: "الظلم: وضع الشيء في غير ما وضع له، سواء كان بأخذ أو زيادة أو نقصان أو هضم حق أو غير ذلك، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان: ١٣)، " وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ " (البقرة: ٢٥٤)، وبعد هذا تتفاوت أنواعه، فأعلاه ما كان فيه حق الغير من أخذ مال أو قتل نفس أو زنى بأمرأة أو تطاول في

(١) الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ٩٤.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٦٩٦.

عرض مسلم ونحو ذلك، ومن الظلم ظلم العبد لنفسه بالمخالفات، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه" ^١.

ومن التعريف السابق للظلم نجد أن الشرك بالله تعالى هو عبارة عن وضع الشئ في غير موضعه؛ وذلك لأن

المشرك جعل ولاءه وإيمانه لغير الخالق الحقيقي، وأعطاه لغير مستحق، ووضعه موضع الإله؛ لذلك فهو من أعظم الظلم في حق الإله في الولاء والعبودية؛ لأنه سبحانه أحق بها لأنه الخالق والذي يجب أن يطاع.

وكذلك جاء الظلم في القرآن بمعنى الجور والتعدي، قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " (النساء: ١٠)، ويأتي الظلم بمعنى الجزاء على السرقة، قال تعالى: " قَالُوا جَزَاءُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ " (يوسف: ٧٥).

وكذلك يأتي الظلم بمعنى الإضرار بالنفس قال تعالى: " وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ " (الأعراف: ١٦٠).

والظلم يعرف أنه من أكبر المعاصي، وأصول المعاصي ثلاثة: الشرك والظلم والفواحش، ويتناوبون على الإنسان كما يلي: " الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإنَّ الشرك أظلم الظلم، كما أنَّ أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك؛ ولهذا يجمع سبحانه بينهما، أما الأول ففي قوله: " شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " (آل عمران: ١٨)، والفاحشة تدعو إلى الشرك والظلم،

(١) عبد الله التليدي، أسباب هلاك الأمم وسنه الله في القوم المجرمين والمنحرفين، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط ٣، (٢٠٠٤م)، ص ٦٦.

ولاسيما إذا قويت إرادتهما ولم تحصل إلا بنوع من الظلم والاستعانة بالسحر والشياطين، وقد جمع سبحانه بين الزنى والشرك في قوله: " الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ " (النور: ٣) ^١.

والظلم عكس العدل، والله سبحانه وتعالى من أسمائه الحسنى العدل، وإن " الظلم وضع الشئ في غير موضعه، والعدل وضع كل شئ في موضعه، وهو سبحانه حكم عدل يضع الأشياء مواضعها، ولا يضع شيئا إلا في موضعه الذي يناسبه وتفضييه الحكمة والعدل، ولا يفرق بين متماثلين، ولا يسوى بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة والعدل " ^٢.

ثانياً: أنواع الظلم

الظلم أنواع ومن أنواعه ما يلي:

(١) ظلم الإنسان نفسه بالشرك وهو أكبر الظلم وأعظمه:

قال تعالى: " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان: ١٣)، " أي: أن الشرك بالله اعظم الظلم ذلك انه تعد على وحدانية الله وتفرد به بالألوهية " ^٣، وقال تعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ " (الأنعام: ٢١)، والكذب على الله: فهو كزعمهم أن الملائكة بنات الله وأن عيسى ابن الله، وكذلك الكذب على الله " أي: كمن كذب على الله بأن

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، تحقيق: محمد عزيز شمس، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٢) ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: محمد رشاد سالم، مرجع سابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣) عبد الله بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد السابع ص ٩٩.

قال أنه أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، أو كذب أحد رسله كحال المشركين الذين قالوا أن محمدًا ﷺ ليس رسولًا^١.

قال تعالى: " وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ " (آل عمران: ١٥١)، " والظلم كثيرًا ما يذكر في القرآن ويراد به الشرك بوصفه أظلم الظلم وأقبحه...، ويقول تعالى: " وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ " (آل عمران: ١٤٠)، وهو تأكيد في صورة أخرى لحقيقته ما ينتظر المكذبين الظالمين الذين لا يحبهم الله، والتعبير بان الله لا يحب الظالمين يثير في نفس المؤمن بغض الظلم وبغض الظالمين^٢.

(٢) ظلم الإنسان لنفسه باتباع الشهوات وحب الدنيا والبعد عن طريق الله: قال تعالى: " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ " (السجدة: ٢٢)، ولا يوجد ظلم أكبر من ظلم الإنسان لنفسه فقال تعالى: " وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ " (الزخرف: ٧٦)، والظلم لا يأتي إلا من الإنسان لنفسه، ولا يأتي من الله تعالى، بل يأتي من أفعال البشر أنفسهم، لأنه " هناك حقيقة ثابتة في نفسها وهي الظلم، وأنه لا يقع من الله تعالى لأنه من النقص الذي يتنزه عنه وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها وعقولاً يهتدون بها إلى ما لا يدركه الحس، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله في هدايتهم وحفظ مصالحهم، وجعل فوائد الدين وآدابه سائقة إلى الخير صارفة عن الشر لتأييدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه وترتبت عليه عقوبته كان هو الظالم لنفسه؛ لأن الله لا يظلم أحدًا^٣.

(١) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ١٧.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٤٨٢.

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق: محمد عمارة، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٢٣٩.

٣) ظلم الإنسان لغيره بالتظالم وأكل أموال الناس:

قال تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا " (النساء: ١٠)، و" المراد بالذين يأكلون أموال اليتامى ظالمين لهم غير متورعين في ولايتهم عليهم أو متعرضين لها بالظلم إذا كانوا من غير أوليائهم "١، ويكون ظلم الإنسان لغيره بمنع حقوقه عنه، وليس ذلك فقط، ولكن أيضاً من الظلم منع الأفراد من حرية استخدام ممتلكاتهم، ويكون من الظلم أيضاً تجاوز حدودهم بقدرتهم على الحد من حقوق الآخرين، فمن يأخذ لنفسه ولا يعطي غيره يؤدي إلى فساد الدين والدنيا.

والصالحون من بني البشر "هم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه، ولا يأخذون إلا ما أبيع لهم، ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه، ويعرفون حقوقهم"٢.

وكذلك من مظاهر الظلم للغير أكل أموالهم بغير حق بجميع المظاهر، ومنها المظهر الاقتصادي، ومن مظاهر الظلم الاقتصادي التطفيف في الميزان، ويكون من "أسباب الهلاك العام ظهور النقص والتطفيف في الكيل والميزان، ومنع حق الله وحق عبادة من زكاة المال والحبوب والثمار والأنعام وغيرها، ونقض عهود الله وموآثيقه التي ألزم عباده الوفاء بها والإعراض عن تنفيذ أحكام الله تعالى والقضاء بها بين العباد واستبدال غيرها بها "٣.

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الشعب القاهرة، (١٩٧١م)، ص ٧٦.

(٣) عبد الله التليدي، أسباب هلاك الأمم وسنه الله في القوم المجرمين والمنحرفين، مرجع سابق، ص ٧٣.

٤) ظلم خلقي وهو يكون في أخلاقيات الإنسان مثل الكذب والنفاق والخداع:

الكذب من أسوأ الأخلاقيات التي يظلم بها الإنسان نفسه، ومن أعظم الكذب الكذب على الله، قال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" (الأنعام: ٢١). وقال تعالى: "فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" (آل عمران: ٩٤)، وفي الآية: "يهدد من يفترى الكذب منهم على الله بأنه إذن ظالم، لا ينصف الحقيقة، ولا ينصف نفسه، ولا ينصف الناس. وعقاب الظالم معروف، فيكفي أن يوصموا بهذه الوصمة، ليتقرر نوع العذاب الذي ينتظرهم. وهم يفترون الكذب على الله" ^١.

وجزاء الكذب على الله تعالى هو لعنة الله له، قال تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ" (هود: ١٨)، والمعنى لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله تعالى فنسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد أو وصفه بما لا يجوز وصفه به، أو أخبر عنه بما لم يقله، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً وأشدهم جرماً، وهناك ظلم خلقي آخر وهو النفاق والخداع، وقد جمع الله بينهم في قوله تعالى: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا" (النساء: ١٤٢)، وصفات الخداع والنفاق فيها ظلم للإنسان؛ وذلك لأن صاحب هذه الصفات لا يجد إلا أن يخادعه الله تعالى؛ وذلك لأن الله تعالى "مستدرجهم

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص ٤٣٤.

وتاركهم في غيهم، لا يقرعهم بمصيبة تنبههم، ولا يوقظهم بقارعة تفتح عيونهم، تاركهم يمضون في طريق الهاوية حتى يسقطوا، وذلك هو خداع الله سبحانه لهم^١.

٥) ظلم معيشي في أسلوب حياة الإنسان مثل الترف والإسراف:

والترف: التمتع، وقيل المترف المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها^٢. والإنسان المترف هو ظالم لنفسه؛ لأنه يستهلك النعم بطريقة ليست على وفق تشريع الله في كونه، فوصفهم تعالى بالمجرمين فقال تعالى: "وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ" (هود: ١١٦).

والإسراف هو "هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس، وقيل: هو صرف شئ فيما ينبغي زيادة على ما ينبغي، بخلاف التبذير، فإنه صرف الشئ فيما لا ينبغي، وقيل: الإسراف: تجاوز الحد في النفقة، وقيل: أن يأكل الرجل ما لا يحل له، أو يأكل مما يحل له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة، وقيل: الإسراف تجاوز في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق"^٣.

قال تعالى: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" (الأعراف: ٣١)، و"وكلوا واشربوا ما طاب لكم، ولا تسرفوا حتى وإن كان ما تنفقونه حلالاً وكذلك عدم التعدي إلى الحرام، ونجد في هذه الآية حكم وهو "عدم تعدي الحد في الأكل والشرب بما يؤدي إلى الإسراف فيه، فهذا مكروه، وقد يكون محرماً إذا كان يؤدي إلى ضرر البدن"^٤.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء السادس، ص ٧٨٤.

(٢) أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩، ٢٨.

(٤) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ٣١٩.

وأخيراً يوجد ألوان من الظلم في زماننا تتعدى على حقوق الإنسان، وهي خارج نطاق تقسيمنا، مثل: " مصادرة حرية الإنسان في إبداء فكره وآرائه في حدود المعقول والمألوف، ومنها مصادرة حق الإنسان في أن يعمل لكي يكتسب ويعيش، ومنها مصادرة حقه في الانتقال والسفر، ومنها اتهامه بجرائم لم يقترفها ثم تعريضه لألوان بشعة من التعذيب لكي يقر بارتكابه تلك الجرائم وهو منها برئ، والتعذيب الذي يتعرض له المواطن المعاصر بشع ورهيب ووحشي ومقزز، ومن أمثلته أن يعتدى على رجولته، أو يعتدي على زوجته أو ابنته أو والدته بالاعتصاب أمام ناظره، ومن أنواع الظلم هذه أيضاً طرد الإنسان من بيته المملوك له أو أرضه بغير حق، ومنها مطاردة المتمسكين بدينهم وإيداعهم السجون، إنها ألوان كثيرة من الظلم، أسهم التقدم العلمي التقني - وبخاصة الشيطاني منه - في تطوير أساليبه، هذه الأساليب التقليدية منها والمستحدث قد طبقتها الحكام في عدد من الأقطار العربية على الأبرياء من الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً " ١ .

ثالثاً: الظلم في القصص القرآني (قوم نبي الله نوح)

سوف نحاول أن نستعرض في قصة نبي الله نوح أحد أنواع الظلم الذي أدى في النهاية لوقوع العذاب وهلاك عمران الأرض حينئذ، والظلم في هذه القصة هو من نوعية ظلم الإنسان لنفسه بالشرك، يقول تعالى: " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (لقمان: ١٣)، وإن كان الشرك بالله هو أكبر الظلم للإنسان في حق ربه فإن قوم نوح أطول عمراً في الشرك بالله وفي تكذيب نبيهم، فقد لبثوا يكذبون نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، مرجع سابق، ص ٢٩.

قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ " (العنكبوت: ١٤)، وكان نبي الله نوح من الأنبياء أولي العزم، وكان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده بشتى الطرق، وظلوا يحاربونه سنين طوالا حتى يئس نبي الله نوح منهم ودعا علي قومه، قال تعالى: " وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا " (نوح: ٢٤)، وقال تعالى: " وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا " (نوح: ٢٦)، جاء الوحي لنبي الله بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، قال تعالى: " وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " (هود: ٣٦)، وهنا جاء حكم الله على القوم الظالمين بالهلاك والغرق جزاءً على الكفر، قال تعالى: " وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " (هود: ٤٤)، وبهذه النهاية جاء الحكم على القوم الظالمين لأنفسهم بالشرك بالله، والظالمين لنبيهم بالكذب، ويلاحظ في قصة نوح مع قومه أن الظلم بالشرك أدى لخراب العمران وفنائه، و" إذا كان للعمران أسبابه ومقوماته وتطوره، وهي عناصر تحتاج إلى زمن طويل لكي تتوّج ثمارها، فإن للخراب سببًا واحدًا وإن تشعبت أشكاله وتعددت أدواته، إنه الظلم، والظلم لا يحتاج لوقت طويل لكي يؤدي رسالته التي هي الخراب، لأن الخراب يكون بدافع الهدم، والهدم سهل وسريع، وذلك عكس العمران الذي يأتي نتيجة للبناء، والبناء صعب ويحتاج إلى وقت كثير وجهد كبير وصبر طويل"^١.

وبذلك يكون أشد الظلم وأعظمه الشرك بالله تعالى هو هادم الحضارات مهما طالت وتطأوت هذه الحضارات، فإن مصيرها للفناء والاضمحلال مع الظلم، ونجد في قصة نبي الله نوح أن ظلم قومه له وتكذيبهم لرسالة التوحيد

(١) المرجع السابق، ص ٢٥.

أوصلهم لغضب نبيه ودعائه عليهم مما أدى لنفاذ سنة الله تعالى فيهم وهو العذاب للظلمة والمكذبين.

المطلب الثاني

معنى الزهو والغرور وأنواعهما

نستطيع القول بأن الزهو والغرور هما من أنواع الظلم، ويندرجان منه. ونحاول توضيح ذلك بما يلي:

أولاً: معنى الزهو والغرور

(١) معنى الزهو :

(زها) زَهُوْ أٌ، وَزُهُوْ أ: تَاهُ وَتَعَاظَمَ وَافْتَخَرَ، وَالْكِبْرُ فَلَانًا: حَمَلَهُ عَلَى الْإِعْجَابِ بِنَفْسِهِ.

(زهى) بكذا زهو أ: اعجب به فهو مزهو وهي مزهوة. ويقال: زهى الشئ لعينيك: حسن منظره، وعلى الناس تكبر.

(الزهو): الكبر، والمنظر الحسن^١.

" اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر. فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر بالخلق الباطن أحق، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال؛ ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإذا لم يظهر يقال: في نفسه كبر. فالأصل هو

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٤٥.

الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر يستدعى متكبراً عليه ومتكبراً به " ١ .

وقد ذم الله تعالى الزهو والكبر في كتابه العزيز، قال تعالى: " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ " (الأعراف: ١٤٦)، " فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْكِبَرِ أَنْ يَصْرِفَ أَهْلَهُ عَنِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى لِأَجْلِ اتِّبَاعِهِ، فَهَمَّ يَكُونُونَ دَائِمًا مِنَ الْمَكْذِبِينَ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهَا الْغَافِلِينَ عَنْهَا، وَتِلْكَ حَالُ الْمَلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الضَّالِّينَ " ٢ .

وقال تعالى: " الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ " (غافر: ٣٥)، " المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى ولا منفذ للإدراك " ٣ .

وقال تعالى: " لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ " (النحل: ٢٣)، ونجد هنا أنَّ الله تعالى لا يحب المستكبرين المتعالين عن الحق وبحقه سبحانه في الألوهية وعن أدلته وبراهينه وجزاء لاستكبارهم لا يدخلهم جنته.

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٢٨٤.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، مجلد تاسع، ص ١٧١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع والعشرون، ص ٣٨١.

والزهو في الإنسان لا يأتيه إلا إذا شعر بأن عنده علوًا في عقله أو علمه أو مظهره. " واعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار" ١.

(٢) معنى الغرور:

(الغرور): كل ما غرَّ الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو إنسان أو شيطان، وفي التنزيل العزيز: " يَنَادُوهُمْ أَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَكَيْنَكُم فَتَنُومُ أَنْفُسِكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ " (الحديد: ١٤) ٢.

و(غرته) الدنيا (غرورا) من باب قعد: خدعته بزيتها فهي (غرور) ٣.

" والغرور ضرب من الخداع بالباطل مأخوذ من الغرة (بالكسر) والغرارة (بالفتح)، وهما بمعنى الغفلة والبلاهة وعدم التجارب" ٤.

قال تعالى: " وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ " (الأنعام: ١١٢)، الغرور هنا بمعنى الإيحاء و" الإيحاء هنا بمعنى التعمويه

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، الجزء الثالث، ٢٨٩.

(٢) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة غرور، ص ٦٤٩.

(٣) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص ٧.

والوسوسة التي يقوم بها شياطين الجن إلى شياطين الإنس ويزخرفون لهم الباطل: ليغروهم به" ^١.

والغرور عمل من أعمال الشيطان في النفس الإنسانية فقال تعالى: "يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" (النساء: ١٢٠)، وهنا يعد الشيطان أوليائه بالغنى والأموال ليغترؤا ويتبعوا أفكاره الفاسدة فيستجيبوا له ولأفكاره، وقد أتى الغرور هنا بمعنى "إظهار النفع فيما هو ضار، أي في المحال أو المال، كشرب الخمر والقمار والزنا وغير ذلك" ^٢.

وقال تعالى: "وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" (الإسراء: ٦٤)، وهنا نأتي للغرور الذي يصيب الإنسان من الشيطان ووعوده الزائفة "وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا" أي: ما يعدهم به من أماني ووعود ما هو إلا كذب، لأنه يتخلى عنهم بقوله كما حكى القرآن الكريم: "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (إبراهيم: ٢٢) ^٣، وهنا الغرور هو الأماي والكذب، ويمكن تعريف الغرور بأنه "هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه،

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ٢٤٤.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٣٧.

(٣) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص ٢٥٤.

فأكثر الناس إذا مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض وأظهرها، وأشدّها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق^١.

ثانياً: أنواع الزهو والغرور

(١) زهو وغرور بطبيعة الخلق:

قال تعالى: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا " (الإسراء: ٧٠)، والتكريم لبني آدم جاء من الله تعالى في خلقه، والاعتراض من إبليس على هذا التكريم هو نوع من التعالي على الله سبحانه وتعالى وعلى قرار التكريم، وهذا ما قام به الشيطان في مشهد خلق آدم والأمر بالسجود له، ونستنتج من هذا الموقف أن من أعظم أنواع الغرور والزهو هو غرور الشيطان، والذي أدى بالشيطان إلى الطرد من رحمة الله والحكم عليه بجهنم وبالخلود في نار جهنم، وقد كان غرور الشيطان وشعوره بأنه أفضل من آدم لطبيعة خلق كل منهما هو أكبر غرور قام به إبليس، قال تعالى: " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا " (الإسراء: ٦١)، وهنا يظهر تعالى الشيطان وغروره وحقده على المخلوق الجديد وهو آدم عليه السلام، وهو بهذا يعلن عصيانه لأوامر الخلاق العظيم، ويحدد حكمته التي قضت بخلق الإنسان وجعله خليفته في أرضه.

وقال تعالى: " قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) "

(١) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٣٢٦.

"(ص: ٧٦، ٧٥)، وهنا يظهر تعالى إبليس في رده على ماهية مادة الخلق، وكأنه من شدة التعالي صور له غروره أنه يعلم مميزات وعيوب المواد المخلوق منها كل منهما، ومن شدة غروره يعلن الأفضلية لنفسه، ونسي أنه يتحدث مع الخالق سبحانه، وهنا يظهر الغرور والتعالي والذي أوصله للطرد واللعنة من رحمه الخالق المنشئ سبحانه وتعالى، ونجد أن خلق التعالي والتكبر مع تفضيل الله سبحانه وتعالى للإنسان استتبع من الشيطان الحسد والغل. " إنه الحسد يتضح من هذا الرد، والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد عن الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم، وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير " ١ .

وعلى نفس طريقة الشيطان نجد من أبناء آدم من يتخذون سلوك الشيطان سبيلاً فيتعالون على سائر الخلق بما يعتقدون أنهم مميزون عنهم، وبذلك يتبع الإنسان الشيطان في سلوكه ويظلم نفسه بهذا الغرور، ويكون جزاؤهم نفاذ سنته تعالى فيهم بالعذاب والهلاك.

٢) زهو وغرور الأمم لاصطفائهم بالرسالات:

للأمم غرور يؤدي بها لنفاذ سنة الله تعالى بهم بالهلاك أو بالاستبدال وتبديل النعم، فنجد أمما اغترت باصطفائهم بالرسالات، والله سبحانه يصطفي الرسل لتبليغ الرسالات كما قال سبحانه: " إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ " (آل عمران: ٣٣)، وكذلك يصطفي سبحانه الأديان للأمم والشعوب، قال تعالى: " وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ " (البقرة: ١٣٢).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الثالث والعشرون، ص ٣٢٨.

كذلك فقد اصطفى سبحانه وتعالى الأمم المسؤولة عن تبليغ كلمة التوحيد الأمم الحاملة للرسالة المكلفة بتبليغ التوحيد لسائر الأمم، وكانت الأمة السابقة لأمة محمد ﷺ في التكليف بنشر كلمة الله على الأرض هي أمة بني إسرائيل، قال تعالى: " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة: ٤٧)، وقال تعالى: " وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ " (الجاثية: ١٦)، وهنا الخطاب لبني إسرائيل وعلى تذكيرهم بماضيهم بأنهم كانوا مفضلين " أي فضلهم على سائر الأمم من أهل زمانهم بأرسال الرسل منهم وإنزال الكتاب عليهم " .
وقد كلفوا بإبلاغ التوحيد وأمر الله، قال تعالى: " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ " (البقرة: ٨٣)، وهنا كان التكليف لهم بحمل كلمة التوحيد فما كان منهم إلا الغرور والتعالي بأنهم أحباء الله، وأغلقوا على أنفسهم ورفضوا باقي الأمم واحتقروهم واغتروا بمنزلتهم واصطفائهم بالتبليغ، وتولوا معرضين عن المهمة والتكليف، فما كان من الله تعالى إلا تنفيذ سنته معهم بالاستبدال بقوم آخرين يقومون بالمهمة.

ونستطيع أن نقول " أن الله نحى بناء إسرائيل عن المنصب الذي لم يقدره قدره، واستقدم العرب ليقودوا الإنسانية حيث عجز أبناء عموماتهم " ٢، ولكن بني إسرائيل لم يستسلموا لهذا الاستبدال، ولم يرضوا به، وتعالوا على سائر الأمم بأنهم شعب الله المختار، وتمادوا بغرورهم، وادعوا بأنهم أبناء الله وأحباؤه،

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) محمد الغزالي، حصاد الغرور، دار الشروق، الطبعة الثانية، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م)، ص ٢٨.

قال تعالى: " وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ " (المائدة: ١٨)، وهنا يظهر الزهو والغرور الذي أصاب بني إسرائيل حتى وصلوا إلى الادعاء بأنهم أبناء الله، وزاد غرورهم ورفضوا نبوة محمد ﷺ والتي قام بالتبشير بها نبي الله عيسى، قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ " (الصف: ٦)، واستمر تعاليمهم وتكذيبهم لرسول الله، واستمرت حرورهم على الأمة الجديدة المكلفة بنشر الدعوة، وحتى يومنا هذا لم ينته غرور وعلو بني إسرائيل على سائر الأمم، وجاء العقاب لبني إسرائيل ونفاذ سنته تعالى فيهم بالاستبدال وتبدل النعمة.

(٣) زهو وغرور بالأموال والأولاد:

هذا النوع من الغرور يؤدي إلى تحويل النعمة إلى نقمة، وذلك لقوله تعالى: " الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا " (الكهف: ٤٦)، والمال والبنون من المتاع الحقيقي للدنيا و" الإسلام لا ينهي عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات " ^١. أما إذا تحولت الزينة الدنيوية لقيمة وأصبحت هدفاً، وبدأ الإنسان يغتر بهما فبذلك تتحول النعمة إلى نقمة، قال تعالى: " اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ " (الحديد: ٢٠)، وهنا تشير الآية إلى أن الدنيا بزینتها من الأموال والأولاد ما هي إلا من " محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلا عن الاطمئنان بها، وهي لعب لا ثمره لها وهو يشغل الإنسان عما يقيده ويعود

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الخامس عشر، ص ٢٢٧٢.

عليه بالنفع في دنياه، وزينه زائفه زائلة تستهوي الجاهل، وتغريهم بالمظاهر الخداعه" ^١.

وقد أوضح الله تعالى بأن الغرور بالأولاد والأموال هو الخسران العظيم، وذلك لتخلي الجميع عن الإنسان يوم الحساب من أموال وأبناء، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ " (لقمان: ٣٣)، ويتضح من معنى الآية أنه لا صلوات في الآخرة إلا الصلة بالأعمال الصالحة، فنجد أنه " تنقطع أواصر القربى والدم ووشائج الرحم والنسب بين الوالد ومن ولد وبين المولود والوالد وما يستقل كل بشأنه، فلا يجزى أحد عن أحد، ولا ينفع أحدًا عمله وكسبه من متاع يلهي أو شغل ينسي، أو شيطان يوسوس في الصدور، والشياطين أكثر، والغرور بالمال شيطان، والغرور بالعلم شيطان، والغرور بالعمر شيطان، والغرور بالقوة شيطان، والغرور بالسلطان شيطان، ودفعة الهوى شيطان، ونزوة الشهوة شيطان، وتقوى الله وتصور الآخرة هو العاصم من كل غرور" ^٢.

٤) زهو وغرور بالقوة والسلطة:

هناك الكثير من الأمثلة القرآنية على الغرور بالعصبة والقوة والسلطة، وجميعها انتهت بنفاذ سنته تعالى بالفناء والعذاب والهلاك، ونحاول تعريف العصبة كالآتي: " (العصبة): الجماعة من الناس، وعصبة الرجل: بنوه وقربته لأبيه: أو قومه الذين يتعصبون له وينصرونه" ^٣، والمثل القرآني على هذا النوع من التكبر

(١) المرجع السابق، المجلد التاسع، ص ١٢٩٩.

(٢) المرجع السابق، المجلد الحادي والعشرون، ص ٢٧٩٨.

(٣) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة عصبة، ص ٦٤.

والغرور هو إخوة يوسف، قال تعالى: " إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ " (يوسف: ٨)، وفي قصة إخوة يوسف غرور بالعدد والعصبة، وغيره من الأخ الأصغر وقولهم " لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا " أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما، والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوىاء أشداء معتصبون نقوم له بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية^١، وهذا نوع من أنواع الغرور.

كذلك يندرج تحت غرور القوة قوم عاد، فهي أمة اغترت بقوتها، قال تعالى: " فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْحَزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) " (فصلت: ١٥، ١٦)، وهنا هلكت عاد بسبب غرورها وتعاليتها بقوتها، وهلك معها كل العمران الذي قال تعالى عنه: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) " (الفجر: ٦ - ٨).

فيجب على كل البشر أن يستوعبوا أن " الحق أن يخضع العباد له، وألا يستكبروا في الأرض وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير حق. استكبروا وقالوا من أشد منا قوة؟ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم^٢ .

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثاني عشر، ص ٢٢٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الرابع والعشرون، ص ٣١١٧.

وكذلك من أكبر الغرور بالقوة والسلطان غرور فرعون وهامان وقارون، وقد جمع سبحانه بين علوهم فقال: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ" (العنكبوت: ٣٩)، وقد خصَّ الله تعالى قارون وفرعون وهامان بصفة الاستكبار في الأرض، فلكل منهم تكبر، فقارون كان تكبره بكثرة الأموال كما ستحدث عنه تفصيلاً، وفرعون وهامان كان تكبرهما بالسلطة والسلطان والنفوذ السياسي والمالي على مصر، فكانوا قوة حاكمة مهيمنة سياسياً، قال تعالى: "وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" (يونس: ٨٣)، وهنا العلو بمعنى "عاتٍ شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر، فهو جدير أن يخاف منه، فالمراد بعلوه قهره واستبداده" ^١، وقد قال تعالى: "ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)" (المؤمنون: ٤٥، ٤٦)، وكان فرعون وشيعته قوماً قاهرين بالظلم والطغيان، ومن شدة قهر فرعون وملئه على أهل مصر وتشتيتهم لهم واستعباد بني إسرائيل قال تعالى: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٤)، ونجد هنا التكبر والاستعلاء في الأرض يأتي من شدة الكفر واستحواذ الشيطان على فكر البشر، فنجد فرعون "علا في الأرض وتكبر وتجر، وجعل أهل مصر شيعةً، كل طائفة في شأن من شئونه. ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب" ^٢.

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الحادي عشر، ص ٣٩٤.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٢٦٧٧.

ونجد القرآن الكريم ربط بين الاستعلاء والإسراف، فقال تعالى: " وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) " (الدخان: ٣٠، ٣١)، والإسراف هنا يمكن أن يكون في الظلم والاستبداد أو يكون إسرافاً معيشياً من شدة السطوة المالية والاجتماعية في مصر، ونجده سبحانه ينفذ سنته فيهم بالعقاب على الغرور بالقوة والسلطان بإنزال شتى ألوان العذاب.

ثالثاً: الزهو والغرور في القصص القرآني (قارون)

قارون كان في زمان موسى عليه السلام وكان من قومه، وقصة قارون هي أبلغ قصة قرآنية لتوضيح الغرور بالمال والعلم، قال تعالى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ " (القصص: ٧٦)، والقصة تحدد من هو الباغي وهو قارون، وتحدد سبب البغي وهو الغنى الفاحش وكثرة الأموال والعلم، وتحدد شدة فرح قارون بالمال، وقد " آتاه الله مالاً كثيراً يصور كثرته بأنه كنوز... وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوى الرجال ... من أجل هذا بغى قارون"، وقد حاول بعض الصالحين نصحه بأن يتقي الله في أمواله والخيرات التي أحسن الله بها إليه، قال تعالى: " وَأَنْتَعِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ " (القصص: ٧٧)، ويلاحظ أن أصحاب الأموال الطائلة غالباً يصيبهم بهذه الأموال المفسدة، وتصبح هذه الأموال سبباً للهلاك وللغضب من الله تعالى، وذلك من سوء استخدامها،

(١) المرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٢٧١١.

ويكون ذلك بمنع حقها تارة، ومن سوء استخدامها من سرف وترف شديد تارة أخرى، فتكون هذه الأموال سبب نقمة من الله على المبتلين بكثرتها، ونجد قارون بعد توجيه بعض الصالحين له بابتغاء وجه الله لا يستجيب لهم، وكان رده بكل غرور وتكبر، قال تعالى: " قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ " (القصص: ٧٨)، وقد اختلفوا في الآراء حول نوع العلم، فهناك من قال أنه علم التجارة أو علم الكيمياء لتحويل النحاس إلى ذهب، ويلاحظ الكبر والغرور من رد قارون فهي "قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ويفتنه المال ويعميه الثراء" ^١، وهنا يأتي أمر الله بفناء الظالمين، قال تعالى: " فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ " (القصص: ٨١)، والجزاء كان من جنس العمل، فالأرض التي تكبر عليها "ابتلعت وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا، ذهب ضعيفا عاجزا لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال" ^٢، وبذلك تنتهي قصة من قصص الظالمين بالزهو والغرور بالعذاب وفق سنة الله على الأرض، ووفقا للقوانين الإلهية المنظمة لسير الأحداث، وانتهي قارون بفتنته الكبرى حيث كان ضعفاء النفوس يفتنون به وبماله، فقال تعالى: " فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ " (القصص: ٧٩)، وجاء وقت القضاء على فتنة قارون حتى يتبين للبسطاء من الناس الحق، وقد حدث منهم إيمانهم بقدر الله وتقديره وتسليمهم لقضائه،

(١) المرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٢٧١٢.

(٢) المرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٢٧١٣.

وعبروا عن ذلك بقولهم، قال تعالى: " وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أُنْزِلَ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَحْصَفَ بِنَا وَيَكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ " (القصص: ٨٢)، وبهلاك قارون وعذابه بالحسف تنتهي قصة زهو وغرور وتكبر قارون.

المطلب الثالث

السنن الإلهية في الظلم الاقتصادي

تحدثنا في المطلب الأول عن الظلم وأنواعه، وفي المطلب الثاني عن الزهو والغرور وقد لاحظت أن الزهو والغرور من الناحية الاقتصادية يندرج تحت الظلم الاقتصادي، وذلك لأن كثرة الأموال بأيدي الناس وزهوهم وغرورهم بها، أدى لظهور ظواهر ظلم اقتصادي مثل الترف والإسراف، وأحياناً البخل والاكتمال، وكلها من الظلم الاقتصادي، وكذلك نجد أنه من صور الظلم الاقتصادي الربا والاستغلال والاحتكار وغلو الأسعار والرشوة والاختلاس والتطيف في الموازين والمكاييل، وبالبحث في آيات كتاب الله عن عاقبة الظلم وخاصة الظلم الاقتصادي وجدت ما يلي:

أولاً: سنته سبحانه أن الترف يؤدي للهلاك

الترف سلوك استهلاكي مفسد للدخل الاقتصادي جالب لغضب الله، ونستطيع اعتباره من أفعال القوم الظالمين المجرمين لقوله تعالى: " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ " (هود: ١١٦)، وهذه الآية تشير إلى أن الأمة إذا كان بهم صالحون مصلحون ينهون عن الفساد والظلم بكل

أنواعه فسيكونون هم النجاة من العذاب، وإذا لم يتواجد المصلحون و"كان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم الخانعين لهم أهلك القرى بأهلها الظالمين" ^١.

ونجد الترف أيضًا يجلب العذاب لمتبعيه، قال تعالى: " وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَآئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) " (الأنبياء: ١١ - ١٣)، وفي هذه الآية نرى أن الترف نوع من أنواع الظلم يطبق عليه سنة الله في الظالمين وهي الهلاك. وهنا نجد أن "القصم أشد حركات القطع، وجرسها اللفظي يصور معناها، ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة فإذا هي مدمرة محطمة.... لا تركضوا من قريتم وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد وسكنكم المريح، عودوا لعلكم تسألون عن ذلك كله فيما أنفقتموه" ^٢، وهنا نجد أن الترف والنعيم زائدًا، وسيتم السؤال عنه يوم القيامة، قال تعالى: " ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ " (التكاثر: ٨)، ولذلك يجب الابتعاد عن الترف، لأنه يجلب سنن العذاب في الدنيا والسؤال والعذاب في الآخرة، ويجب ملاحظة أن " سنة الله تعالى تقضي بأن يمارس الاستهلاك وأن يتخذ طريقًا إلى حفظ الحياة الإنسانية، وإذا كان الهدف من الاستهلاك هو حفظ الحياة الإنسانية... ويجب أن يكون في حدود الغاية منه، أي حفظ الحياة الإنسانية لا تدميرها، أي أن الاستهلاك لا ينبغي أن يصل إلى ما يتعارض مع الغاية منه وهي حفظ الحياة، فإذا وصل الاستهلاك إلى هذا الحد أي حد تهديد

(١) المرجع السابق، المجلد الرابع، ص ١٩٣٣.

(١) المرجع السابق، المجلد السادس، ص ٢٣٧٠، ٢٣٧١.

الحياة الإنسانية وليس المحافظة عليها فقد خرج عن الغاية التي شرع من أجلها
" ١ .

قال تعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا
الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا " (الإسراء: ١٦). و"الآية تقرر سنة الله، فإذا قدر الله
لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثرت فيها المترفون فلم
تدافعهم، ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم
فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحق عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك،
وهي المسؤولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من
نظامها الذي سمح بوجود المترفين؛ فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من
أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم
بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد
فيقودها إلى الهلاك " ٢ .

ونلاحظ أنه بعد الإهلاك للظالمين ينشئ سبحانه وتعالى أقوام آخرين، فإن
ساروا على نهج الظلم في التعاملات وأصبح منهم المترفين، سلط الله عليهم
الهلاك، وهذه سنة الله في القرى الظالمة.

قال تعالى: " حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ " (المؤمنون: ٦٤)،
والمترفون هم أشد الناس تنعيمًا بالموارد الاقتصادية والرزق، وهم كذلك أكثرهم
ابتعادًا عن الطاعات وارتكاب الظلم الاقتصادي بكل ألوانه. " وتخصيص
المترفين بالتعذيب مع أن شأن العذاب الإلهي أن كان دنيويًا أن يعم الناس

(١) يوسف إبراهيم يوسف، السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الخامس عشر، ص ٢٢١٧، ٢٢١٨.

كلهم إيماء إلى أن المترفين هم سبب نزول العذاب بالعامّة" ^١، وفي الحقيقة يكون المترفون أشد الناس ظلماً للفقراء، فالمترفون ينشرون الظلم بكل ألوانه لخدمة مصالحهم الخاصة، وبذلك تنزل الولايات على الأمم الظالمة المفسدة المشجعة على كل ألوان الظلم وذلك لأنه "من الكبائر التي يعاقب الله عليها الأمم جريمة الظلم وعدم إقامة العدل وانتشار الفساد بين الناس، ولقد أمر سبحانه وتعالى بالعدل وحرمة الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) ^٢، فإذا اختلت الموازين وانعدمت القيم وتحكم الأقوياء في الضعفاء ووزع المجتمع إلى سادة وعبيد وأخذ الأقوياء يتلاعبون بحدود الله على هواهم، فقد أذهم الله بالهلاك ووقعت القاصمه" ^٣.

ثانياً: سنته سبحانه أن الإسراف يأتي بالضرر ويمنع حب الله

والإسراف المقصود هنا هو إسراف الأموال والإنفاق وليس الإسراف في الكفر، وكلاهما من الظلم، والإسراف في الأموال وإنفاقها فيما لا ينبغي من الأمور المحرمة في الإسلام والتي تجلب اللعنة على المسرفين، قال تعالى: " وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأنعام: ١٤١)، والإسراف قد يكون في الإنفاق على النفس، أو في البذل وإعطاء الناس الأموال، وهنا نجد أن " النهي عام يشمل الإسراف في أكل الإنسان من ماله بغير سرف وفي إنفاقه على غيره من صدقة وغيرها، فالإسراف مذموم في كل شئ... وهذا لا يمنع دلالة

(١) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، المجلد الثامن عشر، ص ٨٢.

(٢) صحيح، أخرجه مسلم (٤ / ١٩٩٤ / ٢٥٧٧).

(٣) راشد سعيد شهوان، السنن الربانية في التصور الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٦٧.

اللفظ بعمومه مع صرف النظر عن موقعه على النهي من كل إسراف، وناهيك بتعليل النهي بكونه تعالى لا يجب المسرفين" ^١. وعدم الإسراف في الأموال لا يعني التقثير والبخل في الضروريات الأساسية لحياة الإنسان، والمأكل والمشرب من ضروريات الحياة الإنسانية، ولكن بضوابط، لأن للإسراف فيهما مفسد ومضار تنشأ من الإفراط في الطعام والشراب، وقد أجرى سبحانه سنة في الإفراط في الطعام والشراب، وذلك أنه إن حدث الإسراف جاءت سنة الله في خلقه من العقاب على الإسراف بالإصابة بالمضار والأمراض البدنية نتيجة هذا الإسراف، فلا تجد إنسانا أسرف في الطعام والشراب إلا وأصيب بالأمراض المختلفة، قال تعالى: " وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ " (الأعراف: ٣١).

" أي إن ربكم الذي أنعم عليكم هذه النعم لمنفعتكم لا يجب المسرفين في أمرهم، بل يعاقبهم على الإسراف بقدر ما ينشأ عنه من المفسد والمضار...، أي لا تسرفوا في هذه الأشياء ولا في غيرها، ويؤيده تعليل النهي بأنه تعالى لا يجب جنس المسرفين، أي لأنهم يخالفون سنته في فطرتهم وشريعته في هدايتهم بجنايتهم على أنفسهم في ضرر أبدانهم وضياع أموالهم وغير ذلك من مضار الإسراف" ^١، ونجد من هذا أن الإسراف في المأكل والمشرب من الإسراف في الدخل والذي له تأثير على الحالة الاقتصادية للمسلم.

ثالثا: سنته تعالى أن التطفيف في الموازين والمكاييل يجلب العذاب

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثامن، ص ١٢٦.

قال تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَكُم مَّبْخِرِينَ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) " (هود: ٨٤، ٨٥)، ويلاحظ أن بحس الموازين والمكاييل يأتي بسنة العذاب وهو الاستئصال، وقد يكون " المراد منه عذاب الاستئصال في الدنيا...، والأقرب دخول كل عذاب فيه، وإحاطة العذاب بهم كإحاطة الدائرة بما في داخلها فينالهم من كل وجه وذلك مبالغة في الوعد"، والتطيف من أنواع أكل أموال الناس بالباطل، واعتبر سبحانه أن من يقوم بهذا الفعل هو من المفسدين، والعذاب هنا في الآية هو السنة المترتبة على الظلم، قال تعالى: " وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " (هود: ٩٤).

رابعاً: سنته تعالى أن الربا يحق الأموال

قال تعالى: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيهِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " (البقرة: ٢٧٦)، محق: المحق النقصان، يقال محقة إذا نقصت وذهب بركته^١.

" المحق في اللغة: محو الشيء والذهاب به كمحاق القمر، وكل ما لا يحسن المرء عمله محقه كما في الأساس، فلعل المراد بمحق الربا محوما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة وبسطة العيش والجاه والمكانة، وزيادة الربا تذهب بذلك لاشتغال المرابي غالباً عن اللذة وخفض المعيشة بولفه في ماله، ولمقت الناس إياه وكراهيتهم له... إن سنته قضت في عابد المال الذي لا يرحم معوراً ولا

(١) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء الثامن عشر، د . ت، ص ٤٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مرجع سابق، ص ٤٦٤.

ينظر معسرًا إلا بمال يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محرومًا من الثمرة الشريفة للثروة، وهي كون صاحبها ناعمًا عزيزًا شريفًا عند الناس لكونه مصدرًا لخيرهم والتفضل عليهم وإعانتهم على زمنهم، كما يكون محرومًا في الآخرة من ثواب المال، فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك" ١، والابتعاد عن الربا يأتي بالفلاح، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (آل عمران: ١٣٠)، وهنا السنة الإلهية التي تربط الفلاح في الدنيا بالابتعاد عن المعاملات الاقتصادية التي تتضمن الربا بكل صورته، وقد جمع سبحانه بين الظلم والربا، فقال تعالى: " بِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) " (النساء: ١٦٠، ١٦١)، ويلاحظ هنا الجمع بين الربا وأكل أموال الناس بالباطل، ويسبق ذلك ذكر الظلم، ويعني هذا وقوع الظلم بالتعاملات بالربا لأنها نوع من أكل الأموال بالباطل، وبذلك فإن الربا يحقق العذاب لأنه من الظلم.

ونأتي لعقاب آخر للربا في الدنيا، وهو حرب الله ورسوله والمؤمنين المستخلفين لإقامة العدل في الأرض على المرابي، يقول تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) " (البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩)، وهنا يترتب على أكل الربا عذاب بالآخرة وهو النار، وكذلك تنفذ في آكلي الربا سنة الله فيهم في الدنيا، وهي الحرب على أموالهم، وتكون

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ٨٨.

الأداة المؤمنين، وذلك لأنها حقوق للعباد على الأرض، ومن واجب المؤمن كمستخلف لإعلاء كلمة الله على الأرض أن يمنع هذا الجور على المعوزين.

خامسًا: سنته تعالى أن الظلم بكل أنواعه يجلب العذاب

مازلنا نتحدث عن الظلم الاقتصادي وعن أنواع منه لم تأت فيها آيات صريحة بالسنة الإلهية، ولكنها كلها تصرفات من الظلم الاقتصادي، وهي أكل لأموال الناس بالباطل، وهو من الظلم المجلب للعذاب، ومن أمثلة هذه المعاملات:

(١) الاحتكار وغلو الأسعار:

الاحتكار هو " اختفاء المنافسة تماما بانفراد منتج واحد بإنتاج سلعة ليس لها بديل " وبهذا التعريف نلاحظ سيطرة المنتج بالكامل على نوع من السلع وهذا يجعله له حرية تخزينه وتسعييره وعرضه ورفعته من الأسواق، وهذا ما يجعل المحتكر غالبًا يقوم بالمغالاة في السعر والضغط على المستهلك والذي غالبًا يكون في الاحتياج لهذه السلعة وذلك لانفراد المنتج بالسلعة، وهنا يقع الظلم بأنه يستولى على أموال المستهلك بطريقه مغالي فيها، ويمكن أن يصل إلى الاحتكار الكامل " ويتحقق الاحتكار الكامل عندما يبلغ المنتج من القوة درجة تمكنه دائما من الحصول على جميع دخول المستهلكين مهما كان حجم إنتاجه، أي درجة تمكنه من أن يرفع الثمن إلى المستوى الذي يحصل معه على كل دخول المستهلكين " ويقع هذا تحت أكل أموال الناس بالباطل، وذلك لاستغلال المحتكر احتياج المستهلك وتحكمه في الأسعار ومغالاته فيها " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ " (النساء: ٢٩).

٢) الرشوة والاختلاس:

(الرشوة): ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل أو إبطال حق^١.

قال تعالى: " وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " (البقرة: ١٨٨) " الخطاب لعامة المكلفين، والمراد لا يأكل بعضهم مال بعض، واختار لفظ (وَلَا تَأْكُلُوا) وهو يصدق بأكل الإنسان مال نفسه للإشعار بوحدة الأمة وتكافلها، وللتنبية على أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك، لأن استحلال التعدي وأخذ المال بغير حق يعرض كل مال للضياع والذهاب^٢، وهنا تكون الرشوة لأكل حقوق الآخرين وهي من أكل الأموال بالباطل المنهي عنها، وهي كذلك من الظلم الذي يترتب عليه سنة العذاب، والإسلام ينهي عن كل الظلم. و" أما الرشوة فهي مع كونها تنشر الظلم والجور، وتهمض حقوق الناس هي أيضاً من موجبات العقاب " ^٣.

٣) البخل والاكتناز:

١) قال تعالى: " الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا " (النساء: ٣٧)، والبخل الذي نقصده هنا هو البخل بالمال، وهو المورد الاقتصادي النافع لإدارة أي مجتمع، وقد تزيد الأموال في أيدي الناس، وتؤدي للترف والإسراف أو تؤدي لسلوك عكسي وهو البخل والاكتناز، وكلاهما من الأمور المرفوضة في الإسلام، لأن الإسراف

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، مادة (رشا)، ص ٣٤٨.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ١٧٧، ١٧٨.

(٣) عبد الله التليدي، أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، مرجع سابق، ص ٧١.

والترف هو ضياع للموارد الاقتصادية، والبخل والاكتناز هو حبس الموارد الاقتصادية وحرمان المجتمع من دورة الأموال، ويجب معرفة أن المسلم مع الاعتراف بحريته في التملك إلا أنه ليست له الحرية الكاملة في الإنفاق، فحرية المسلم حرية مقيدة بقواعد يجب عليه الالتزام بها، ونستطيع أن نستوعب الحرية المقيدة والتوسط الخلفي من قوله تعالى: " وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا " (الفرقان: ٦٧)، والمسلم مقيد بقاعدة هامة في الإنفاق، وهي قاعدة التوسط في الإنفاق " فالإسراف مفسد للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وامتناع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، وذلك فوق فساد القلوب والأخلاق"^١. ومن القصص القرآني عن الأمم السابقة والأديان السابقة تتعلم أمة محمد العبر والدروس المستفادة ولنتأمل قوله تعالى في اليهود: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) " (التوبة: ٣٤، ٣٥)، والكنز هو حبس المال بأية صورة من الصور، وعندما نصل لمرحلة البخل والكنز لا ننتظر إلا العقاب لأن البخل والكنز من الظلم للمجتمع؛ لأنه تعطيل للموارد المالية بكنزها فتحقق على الكانز سنة الله تعالى في الظالمين.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء التاسع عشر، ص ٢٥٧٩.

وأخيراً: نحاول استخراج آيات الظلم الجالبة للعذاب ويندرج أسفلها
التعاملات السابقة وتكون كما يلي:

- قال تعالى: **جَاءَتْكُمْ تِلْكَ الْقُرَى الْمَالِكَةُ فَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْإِمْلَاءَ مَنْجِيًّا لَهَا مِنَ الْمَصِيرِ الْمَحْتَمِ وَالسَّنَةِ الْمَطْرُدَةِ فِي هَلَاكِ الظَّالِمِينَ**^(١)، ويلاحظ هنا أن الإملاء هو فرصة من الله تعالى لأهل هذه القرى للرجوع عن ظلمهم والجنوح للإيمان وما يتبعه من تعاملات على مراد الله تعالى، ولكن استمرار أهل هذه القرى في الظلم وأفعاله وإصرارهم جعل سنة الله فيهم نافذة وهي الهلاك والعذاب.
- قال تعالى: **" فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ "** (الحج: ٤٥).
- قال تعالى: **" أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "** (الروم: ٩).
- قال تعالى: **" فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "** (العنكبوت: ٤٠).
- قال تعالى: **" فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "** (النمل: ٥٢).
- قال تعالى: **" وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا "** (الكهف: ٥٩).

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٤٣.

يعد الظلم أشد من الكبائر، و" التي تجعلها أشد من الكبائر، فهي ليست كالجرائم الأخرى مثل القتل والزنى والسكر، فتلك جرائم يقدر على ارتكابها كل الناس، أما جريمة الظلم فلا يرتكبها إلا القادرون، ومن هنا كان التنديد بها شديدًا في الكتاب والسنة، وعقابها عند الله أشد من عقاب غيرها من الجرائم، لأن مرتكبي جرائم القتل والزنى والسكر يسهل توقيع الحدود الشرعية عليهم، وأما الظالم الذي يغتال الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وممتلكاتهم وأهليهم فهو عادة من الحاكمين المتجبرين، وإن أيدي الناس تقصر عن الوصول إليه لتوقيع حدود الله عليه"، لذلك فإن عاقبة الظلم هو العذاب.

المبحث الثاني

الإفساد والبغي من أسباب (وقوع الهلاك الاقتصادي)

المطلب الأول : معنى الإفساد والبغي

المطلب الثاني : معنى الهلاك الاقتصادي

المطلب الثالث : آيات السنن الإلهية في الهلاك الاقتصادي

المطلب الأول

معنى الإفساد والبغي

أولاً: معنى الإفساد والبغي

جاء لفظا الإفساد والبغي في كتاب الله في أكثر من موضع، وسنحاول توضيح معنيهما اللغوي ومعنيهما في كتاب الله تعالى.

(١) معنى الإفساد:

(الفساد): التلف والعطب والاضطراب والخلل والجذب والقحط، وفي التنزيل العزيز: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (الروم: ٤١)، وإلحاق الضرر، وفي التنزيل: " ذَلِكَ هُمَّ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (المائدة: ٣٣).
(تفاسد) القوم: تدابروا وقطعوا الأرحام.

وللفساد مادة تؤدي إليه، وهي " اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٦٨٨.

عن الاستعداد لها" ^١، واتباع الهوى وطول الأمل هما أصل كل فساد، وإذا بحثنا في كل نوع من أنواع الفساد سنجد أصلها أحد السببين، والشريعة الإسلامية جاءت لمحاربة كل أشكال الفساد، ومنها الفساد الاقتصادي بكل أنواعه، وإذا قمنا بإرجاع أي نوع من أنواع الفساد الاقتصادي مثل الربا مثلاً نجد أن أصله حب الدنيا وطول الأمل فيها بإكثار المال بما يغضب الله واتباع الهوى، والشريعة بتطبيقها هي الضامن لمنع الفساد " فالشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها" ^٢.

قال تعالى: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ " (البقرة: ٣٠)، و قال تعالى: " كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (البقرة: ٦٠).

(٢) معنى البغي:

(بغى) على الناس (بغيا) ظلم واعتدى فهو (باغ)، والجمع (بغاة)، و(بغى) سعى بالفساد ومنه (الفرقة البغاة) لأنها عدلت عن القصد ^٣
(بغى) فلان بغيا: تجاوز الحد واعتدى، وفي التنزيل العزيز " وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ " (الشورى: ٢٧)، وكذلك " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مرجع سابق، جزء أول، ص ٢٦٥.

(٣) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، مرجع سابق، ص ٣٣.

إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
" (القصص: ٧٦)، وسعى بالفساد خارجًا على القانون، وهم البغاة^١.

" البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى، تارة يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارة يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، وقال بعضهم: البغي: الحسد وقصد الاستعلاء، والترقي في الفساد، وبغى: بمعنى طلب، مصدره بغاء بالضم " ٢.

" بغى الشخص: تجاوز الحد واعتدى، تسلط وظلم (بَغَى، وَالبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخَيْمٌ): سبى العاقبة " وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ " (الحجرات: ٩)، وبغى الشخص: سعى بالفساد واقترب الإثم خارجًا على القانون أو الشرع، بغى وتجر وحق عليه العقاب " فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (البقرة: ١٧٣)، وبغى على فلان: تعدى وجنى عليه " بغى على رعاياه " ٣.

ويمكن القول بأنَّ البغي نوع من أنواع الظلم، ونجد أن الله سبحانه جمع بين البغي والظلم في قوله تعالى: " إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (الشورى: ٤٢)، وفي الآية ربط بين الظلم والبغي بغير الحق، والباغي يجب الوقوف أمامه ومقاومة بغيه لأنه ظالم، وذلك لأنَّ " الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس،

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٦٥، ٦٤.

(٢) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

(٣) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، مادة ب غ ي، ص ٢٢٩.

ويبغون في الأرض بغير الحق، فإنَّ الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه، وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه، والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم، ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق"^١.

ثانياً: أنواع الإفساد والبغي

للإفساد والبغي أنواع منها إفساد وبغي للنفس وعليها، وإفساد وبغي على الغير، وإفساد بين الناس، وسنحاول توضيح أنواع الإفساد والبغي كما يلي:

(١) إفساد الإنسان لنفسه وبغيه عليها (ممارسة الكذب):

والإفساد والبغي للنفس يكون بممارسة أفعال لها أثران: الأثر الأول يكون على الإنسان نفسه فاعل البغي والفساد، فهذا الإنسان يفسد نفسه بأفعاله في الدنيا، والأثر الثاني هو خسران الآخرة نتيجة هذه الأفعال، قال تعالى: "فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُمُ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (يونس: ٢٣)، "يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" أي: يفسدون في الأرض وينشرون المعاصي والظلم والطغيان، وهذا دليل على فسادهم فلم يقابلوا إحسان الله لهم بالطاعة، بل نكثوا ما وعدوا به من إخلاص الدين لله " إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ " أي: أن سوء بغيكم دائماً يعود عليكم، فالله غني عنكم وعن طاعتكم"^٢.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء الخامس والعشرون، ص ٣١٦٧.

(٢) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

ونجد أن البغي يعود على صاحبه بخسران نفسه في الدنيا وخسران الجنة في الآخرة، وعلى العكس مع المظلوم فهو يعاني من الباغي في الدنيا ويفوز بالجنة في الآخرة، ونجد أن إفساد الإنسان لنفسه يكون بفعل عدة خصال أهمها ممارسة الكذب بكل أنواعه، مثل الكذب على الله تعالى وعلى رسله، وتكذيب رسله هو من أعظم أنواع الكذب وهو من البغي، وقد أنكر سبحانه في آياته الكذب على الله أو على رسله، وقد جعل الله تعالى للكذب عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة، والكذب هو من البغي الأعظم على النفس، ومن عواقبه إفساد المجتمع وتضليله عن الحق " وأول ما يسرى على الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها، كما أفسد على اللسان أقواله، فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها" ^١.

ووصف الله الكاذب بالمرجم، وحكم سبحانه وتعالى عليه بعدم الفلاح فقال تعالى: " فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ " (يونس: ١٧)، وكذلك من عواقب الكذب على الإنسان وقوعها في عاقبه النفاق، فيصبح الكاذب منافقًا عقابًا على ما اقترفه من الكذب، قال تعالى: " فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " (التوبة: ٧٧)، أي أن النفاق متمكن من قلوبهم إلى يوم يلقون الله، وبذلك يكون بغي الإنسان على نفسه بالكذب فجعل في نفسه شيئاً من النفاق والإجرام، وهنا يكون الإفساد للنفس بعواقب الكذب، وكذلك البغي

(١) ابن قيم الجوزية، الفوائد، مرجع سابق، ص ١٩٧، ١٩٨.

على الغير بهذا الكذب، فنجد الإنسان الكاذب يفسد نفسه بالكذب، ويغى على غيره بآثار هذا الكذب، ويكون البغي هو ظلم الرسل والأنبياء وتضليل من يريد اتباعهم ومحاولة إبعادهم عن الهداية بالكذب، وبذلك نجد في الكذب الإفساد والبغي مجتمعين.

(٢) إفساد للغير والبغي على الغير:

الإفساد للغير يكون للبشر، والطبيعة، وجميع المخلوقات، ويكون ذلك بالإهلاك لهذه المخلوقات بشتى الطرق، قال

تعالى: " وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ " (البقرة: ٢٠٥)، ويظهر من الآية الكريمة أنَّ الفساد لا يأتي إلا من حركة الإنسان في الأرض على غير منهج الله، فنجد الإنسان يهلك الحرث والنسل ويغى عليهما بالإفساد لهما؛ لأنه ابتعد عن توجيهات الله في كونه، فتصرف الإنسان في الكون بغير فهم، فأفسد وبغى على الأشياء، فنجد مثلاً قارون بغى على قومه، قال تعالى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ " (القصص: ٧٦)، وباستغناء قارون عن منهج صانع الكون نجده ازداد فساده في الأرض، وكذلك كل إنسان لا يفهم ولا يطبق قوانين هذا الكون الربانية هو المسؤول الأول عن إفساد الأرض بفعله؛ وذلك لأنَّ " الفساد أمر طارئ من البشر، ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أمر إلا وللإنسان فيه دخل... إذن فالفساد طارئ من الإنسان الذي يحيا بلا منهج"^١، وكذلك من الإفساد القتل، وهو جرم عظيم وفساد كبير، قال تعالى: " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

(١) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٨٦٦.

الأرض فكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا " (المائدة: ٣٢)، والقتل هو إهلاك للغير ووصفه رب العزة بالفساد في الأرض باعتبار أنَّ القاتل هو ظالم وقاتل للناس جميعًا، وجاء حكم من قتل يقتل، لأنه اعتبر حادثة قتل الفرد هو قتل للناس جميعًا، وذلك باعتبار أنَّ الأمة الإسلامية كالفرد الواحد، فإنَّ قام فرد وبغى على نفس وأهلكها وزهقها، فكأنه زهق نفس أمة بأكملها، وذلك لأنها نفس كانت تعبد الله، أو نفس صالحة في الأرض أو سيأتي منها ذرية صالحة، فهلاكها هو إفساد للإعمار وبغى على حقها في الحياة، ويلاحظ أنَّ الإنسان هو المسؤول عن سفك الدماء بأفعاله وعصيانه وبغيه على مخلوقات الله، فوجد الملائكة تخص هذا الإنسان بهذا النوع من الإفساد، يقول رب العزة: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ " (البقرة: ٣٠)، ويلاحظ هنا أنَّ الإفساد مرتبط بخليفة الله على الأرض وهو الإنسان، فهو من يفسد الطبيعة والنفوس، والإفساد من طبع البشر إلا من رحم الله، ونجد مع تعمد الفساد في خلق الله من بر وبحر نجد العواقب، فمن يفسد خلق الله يذقه الله من عواقب فساد، قال تعالى: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (الروم: ٤١)، وظهر الفساد " أي: غلب على قانون الصلاح الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون " ١، وهنا مع ظهور الفساد وانتشاره وتوغله في المجتمعات يأتي عدل الله تعالى بإذاعة البشر شيئًا من سوء أفعالهم، وذلك لأنه إذا " زاد الغش وانتشر وفاق الاحتمال لا بد أن يظهره الله للناس، فلم يعد أحد قادر على أن يقف في وجه الفساد أو يمنعه؛ لذلك يتدخل الحق سبحانه

(١) المرجع السابق، المجلد الثامن، ص ١١٤٧٣.

ويفضح اهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم^١. ومن الإفساد والبغي إشعال الحروب، وذلك لكونها تشتت الشعوب وتخرّب العمران، قال تعالى: " قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " (النمل: ٣٤)، ونستدل من هذه الآية على فعل الحروب إذا ابتليت بها القرى والشعوب، فهي فساد وذل لأهل هذه القرى، وكذلك فإن السرقة أيضاً من الفساد والبغي، قال تعالى: " قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " (يوسف: ٧٣)، ونستدل أيضاً من الآية على أنّ إخوة يوسف نفوا عن أنفسهم الفساد بتهمة السرقة، فتكون السرقة من الفساد، وكذلك هناك بغي اقتصادي، وهو كل ما يندرج تحت أكل أموال الناس بالباطل، مثل الغش في الموازين والمكاييل، الغصب، الاحتكار، مصادرة الأموال، عدم دفع الحقوق لأصحابها، وكلها من ألوان البغي.

ثالثاً: الإفساد والبغي في القصص القرآني (قوم نبي الله شعيب)

كان قوم نبي الله شعيب يمارسون نوعاً من أنواع الفساد الاقتصادي في المعاملات، وهو الغش والتطيف في الكيل والميزان، واستمر نبي الله شعيب يدعوهم للابتعاد عن هذا النوع من الفساد الاقتصادي والبغي على الناس، قال تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ " (الأعراف: ٨٥)، وهنا يدعوهم نبي الله شعيب للتوحيد وعبادة الله تعالى، ويأمرهم بالوفاء في الكيل والميزان وعدم الغش فيهما، وعدم بخس الناس أشياءهم، فقوله " وَلَا

(١) المرجع السابق، المجلد الثامن، ص ١١٤٧١.

تَبَخَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ " والمراد لا تخونوا وتغشوا الناس في تعاملكم معهم بنقص المكايل التي تكيلون بها والموازين التي تزنون بها" ^١، ويكون ذلك على وجه البخس وذلك بإنقاصها خفية وبالمبالغة في استيفائها عند الشراء، وكل هذه الأفعال هي إفساد في الأرض، لأنه قد يظن الناس أن التطفيف في الميزان شيء بسيط، ولكنه في الحقيقة عمل ينافي نشر العدل في الأرض " فحين يبخس في الميزان ولو بجزء قليل إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءًا كبيرًا، وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك في من يشتري وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين يفعلون مثلما فعلت، فإذا ما وفيت الكيل والميزان، فأنت تفعل ما هو في مصلحتك لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئا بنفسك" ^٢، ومن هنا كانت دعوة العدل لبي الله شعيب دعوة الابتعاد عن إفساد الأرض بالظلم، قال تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) " (العنكبوت: ٣٦، ٣٧)، " وفي قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل" ^٣، فتكون نهاية المفسدين والظالمين على سنة الله تعالى في أخذ الظالمين، وذلك بأخذهم بالرجفة، والرجفة هي التي " زلزلت عليهم بلادهم، ورجتها بعد الصيحة المدوية التي أسقطت قلوبهم وتركتهم مصعوقين حيث كانوا في دارهم لا يتحركون فأصبحوا فيها جاثمين" ^٤. ويتبين من قصة شعيب أن الفساد في

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ٣٦٣، ٣٦٤.

(٢) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٤٢٣٦.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، الجزء العشرون، ص ٢٧٢٧.

(٤) المرجع سابق، الجزء العشرون، ص ٢٧٣٥.

المعاملات الاقتصادية والابتعاد عن شريعة الله وعدله على الأرض تنزل بالعذاب على الظالمين، لأنه عندما يسخر لنا سبحانه الكون كله بنعمه الكثيرة ثم يتعامل فيه الناس معاملات بعيدة عن العدل والحق مثل " الغصب والسرقه والرشوة والاختلاس فسيفسد كل شئ، ولا يعدل كل ذلك وقيمته ويجعله سويًا إلا الدين لأنه كمنهج يمنع الإفساد في الأرض " ١، قال تعالى: " وَإِلَىٰ مَدِينَةٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) " (هود: ٨٤، ٨٥)، ولذلك كان نبي الله شعيب يدعو لعبادة الله، وينهي عن الظلم في الكيل والميزان، لأنه يعلم أن العبادة والالتزام بالدين سيمنعهم عن الظلم والإفساد والجور على حقوق الآخرين.

المطلب الثاني

معنى الهلاك الاقتصادي

مصطلح الهلاك الاقتصادي

أولاً: معنى الهلاك في اللغة وأسبابه

(هلك) فلان هلاكاً، وهلوكة، ومهلكاً، وتهلكه: مات: فهو هالك (ج) هلكي، وفي التنزيل العزيز " لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحَيَّ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا " (الأنفال: ٤٢)، ومنه " ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (النمل: ٤٩)، و " وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " (البقرة: ١٩٥).

(١) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواتم) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٤٢٣٧.

(أهلكه): جعله يهلك ويقال: أهلك ماله: باعه.

(هلكه): أهلكه ويقال: هلك فلان فلاناً: أهلكه^١.

وهلاك الشيء إفناء وجوده والقضاء عليه، ولا يستطيع الإفناء إلا من يستطيع الإنشاء، والهلاك يحتاج لقادر عليه، والقادر هو الله تعالى، فهو سبحانه من بأمرة الإحياء والهلاك، والهلاك يكون بأسبابٍ من أهمها الظلم والإفساد، ومن أكبر الظلم والإفساد الكفر بالله تعالى وتكذيب الرسل، والذي يستتبعه كل أنواع الظلم المترتبة على الكفر، قال تعالى: " وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ " (يونس: ١٣)، وفي الآية " تقرير وعيد الله بالعذاب لأهل الشرك والضلال المعاندين لرسول الله ﷺ والمكذبين بنبوته ورسالته، وتقدير سنة الله في هلاك المجرمين بعد إمهالهم"^٢. قال تعالى: " وَكَمْ أَهَلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا " (القصص: ٥٨) " أي: لقد أهلكنا كثيراً من الأمم التي أنعم الله عليها بنعمه مثل عاد وثمود ثم كفرت بهذه النعم... وإنَّ الله لا يهلك أمة إلا إذا كانت ظالمة، لأنه عز وجل حرَّم على نفسه الظلم وحرمه على عباده"^٣.

ومن الظلم المؤدي للهلاك أيضاً التعاملات المالية مثل أكل أموال الناس بالباطل والإسراف والترف، وهناك كذلك التعاملات بين الدول، ومنها إحداث الفتن وإشعال للحروب، وغيرها من الأفعال التي تؤدي لغضب الله وتستدعي سنته تعالى بإنزال الهلاك على الأمم، قال تعالى: " أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهَلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٩٩١.

(٢) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٣٢.

(٣) المرجع سابق، المجلد السادس، ص ٤٣٢: ٤٣٤.

عَلَيْهِمْ مَذْرَأًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ " (الأنعام: ٦)، وهنا يظهر من المعنى أنه سبحانه وتعالى مَكَّنْ لهؤلاء المهلكين من النعم ما لم يمكن لغيرهم، وهي نعمة المياه التي هي سبب الإعمار، وكانوا في رغد ونعم، ولكنهم أذنبوا فأنزل الله عليهم الهلاك بذنوبهم المتعددة الكثيرة. "والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان: أحدهما معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به، وثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحابة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعم الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والنفع العام" ^١.

ثانيًا: معنى الهلاك الاقتصادي وأنواعه

الهلاك هو فناء الشيء، والهلاك الاقتصادي هو فناء كل ما هو خاص بالموارد الاقتصادية من أموال ومقومات طبيعية ومشروعات وإنشاءات، " وقد أهلك الله عز وجل أمما وأقوامًا وقرونًا وأجيالًا، كانوا أشد منا قوة وأطول أعمارًا وأرغد عيشًا وأكثر أموالًا، فاستأصلهم وأبادهم، ولم يبق لهم ذكر ولا أثر، وتركوا وراءهم قصورًا مشيدة وآبارا معطلة وأراضي خالية وزروعًا مثمرة ونعمة كانوا فيها فاكهين" ^٢. ويلاحظ من آيات الهلاك في القرآن أن الهلاك الاقتصادي للنعم هو العقاب الإلهي على الظلم والإفساد، حيث إن الموارد الاقتصادية هي ما تدعو الإنسان للغرور مثل قارون وغروره بأمواله، ومثل صاحب الجنتين وغروره بثماره وأشجاره، ومثل قوم عاد وتطأولهم في البنيان

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٢٦٥.

(٢) عبد الله التليدي، أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، مرجع سابق، ص ٣٩.

حتى قال تعالى فيهم: " **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ** " (الفجر: ٨)، وفرعون وغروره بما يملكه من خيرات مصر حتى قال نبي الله موسى: " **وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** " (يونس: ٨٨). الموارد الاقتصادية والنعمة هي سبب من أسباب الظلم والبغي والجور لدى الكافرين والعصاة، فتأتي سنته تعالى بإهلاك هذه الموارد الاقتصادية واستئصالها لأنها أولا سبب هذا البغي والإفساد، وثانيا ليرى من خلفهم العبرة ويتعلموا أن الملك يجب أن يكون على مراد المالك، وسنة إهلاك الظالمين بالفناء الاقتصادي جاءت من علم الله تعالى بحب الإنسان للمال فقال تعالى: " **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** " (الفجر: ٢٠)، ومن الملاحظ حب البشر للموارد الاقتصادية من الأموال وغيرها من الثروات المادية، وأن إهلاكها من الأمور التي تؤثر في النفس الإنسانية وتجعلها تعتبر، ولو صلحت الأمم ولم تفسد ولم تبغ بكثرة الموارد الاقتصادية التي آتاها الله إياها وأحسن استغلال هذه الموارد بالعدل لما هلكوا، وذلك لقوله تعالى: " **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** " (هود: ١١٧)، والإهلاك للقرى لا يأتي إلا بعد الإنذار لهذه القرى، قال تعالى: " **وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ** " (الشعراء: ٢٠٨).

و" هذا من عدل الله ورحمته أنه لم يهلك أو يعذب أحدا من خلقه إلا بعد أن يأتيه النذير والبلاغ عن طريق الرسل والكتب والبينات"، ومع الإنذار من الله ومع استئصال الفساد يأتي الهلاك.

ونحاول استخراج بعض أنواع الهلاك للموارد الاقتصادية وكذلك لعوامل الإنتاج في النقاط الآتية:

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد السادس، ص ٢٣٢.

(١) هلاك موارد المياه:

المياه من الموارد الاقتصادية الطبيعية الهامة على وجه الأرض، ومن الماء كانت الحياة لقوله تعالى: " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " (الأنبياء: ٣٠)، ومن المياه يكون معاش الإنسان والحيوان والنبات، ولولا المياه لما قامت الزراعات والصناعات، فللمياه أهمية بالغة في الكون، ويكون هلاك المياه هلاكًا للحياة على سطح الأرض، وهلاك المياه إما يكون بأيدي الناس من تلوث وإهدار وإسراف، وإما بغضب من الله بهلك وهدم كل الخيرات الناتجة من المياه، أو بمنع إنزال المطر، وأحيانًا بتجفيف منابعها، وأما الهلاك بأيدي الناس وأفعالها فهو بعيد عن مفهوم بحثنا، ولكن هلاك المياه بغضب من الله هو موضوع بحثنا، وبالبحث في آيات الله وجدت آيات تعبر عن أهمية نعمة المياه، قال تعالى: " أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ " (الأنعام: ٦)، وفي هذه الآية يوضح رب العزة الموارد الاقتصادية التي تنعم بها المذنبون وتتمثل في الماء وهو من أهم الموارد الاقتصادية، و" إرسال الماء عبارة عن إنزال المطر، والمدرار الغزير، وسخرنا لهم الأنهار - وهي مجاري المياه الفائضة - وهديناهاهم إلى الاستمتاع بها يجعلها تجري دائما من تحت مساكنهم التي بينها على ضفافها، أو في الجنات والحدائق التي تتفجر خلالها، فيتمتعون بالنظر إلى جمالها، وبسائر ضروب الانتفاع من أموالها"١، ويأتي الهلاك للقوم ليحرموا من هذه النعم المائية، والنعم المترتبة على

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ٢٦٥.

وجودها، وهو هلاك نتاج نعمة المياه من زراعات وغيره، فيهلكون ويأتي أقوام أخرى للتمتع والاستفادة بالنعيم.

وقال تعالى: " فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ " (الحج: ٤٥)، وفي هذه الآية مورد من موارد المياه وهي الآبار، وإظهار نوع من أنواع الهلاك وهو تعطيلها، و" البئر هو الفجوة العميقة في الأرض، بحيث تصل إلى مستوى الماء الجوفي، ومنه يخرجون الماء للشرب وللزراعة...، والبئر حين تكون عاملة ومستفاداً منها نلاحظ حولها مظاهر حياة حيث ينتشر الناس حولها، وينمو النبات على بقايا المياه المستخرجة منها، ويجوم حولها الطير ليرتوي منها، أما البئر المعطلة غير المستعملة فنجدها خربة ليس لها علامات حياة، وربما تسفو عليها الرياح وتطمسها فتعطل وتهجر، فالمراد معطلة عن أداء مهمتها، ومهمة البئر السقيا"^١.

٢) هلاك المباني وال عمران:

المباني والإنشاءات هي نتاج العمل والجهد الإنساني مع إنفاق الأموال، وهي مظهر من مظاهر الإعمار والتقدم، وينفق فيها الكثير من الأموال، ويبدل كذلك الكثير من الجهد لإنشائها، فهي نتاج للأموال والعمل، وهما من عوامل الإنتاج، وقد تكون المباني بيوتاً للسكن أو مصانع لإقامة الصناعات، وكلها إنشاءات هامة تشعر الإنسان بالراحة والتقدم، وهما مظهران من مظاهر العمران، وهلاك المباني يكون إما بالتقادم، وإما يهلك بتخريب أيدي البشر نتيجة للحروب والنزاعات، وإما يهلك بعموم غضب من الله على أصحاب

(١) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد السادس عشر، ص ٩٨٥٧، ٩٨٥٨.

هذه المباني وتهديمها أو خرابها بهجرانها، وهذا النوع الأخير هو ما يخص البحث، وقد اعتبر سبحانه وتعالى هذا المظهر من الإعمار من النعم، قال تعالى: " وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ " (الأعراف: ٧٤)، وهنا يعدد سبحانه وتعالى النعم ويجعل من النعم القصور والبيوت، وذلك لأن عملية الإعمار والتشييد والبناء لا تتأتى إلا بالعمل والجهد والأموال وكلها من النعم.

قال تعالى: " فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلَّةً وَقَصُورٍ مَشِيدٍ " (الحج: ٤٥)، وهنا لهلاك القرى أسباب منها الظلم بكل صورة ولما وقع عليها الهلاك، والشئ الخاوي يعني: الذي سقط وتهدم على غيره، وقوله " فَهِيَ خَاوِيَةٌ " يدل على عظم ما حل بها من هلاك، حيث سقط السقف أولاً، ثم انهارت عليه الجدران، أو: أن الله تعالى قلبها رأساً على عقب، وجعل عاليها سافلها...، وقوله تعالى " وَقَصُورٍ مَشِيدٍ " دليل على أن هؤلاء المهلكين كانوا من أصحاب الغنى والنعيم ومن سكان القصور ومن عليه القوم^١، وهنا يتضح كثرة الموارد الاقتصادية

من البنیان والقصور والرغد في العيش الذي أدى للطغيان والإفساد، والذي جعل الله سبحانه يأتي ببنياتهم وبأسرار كبرهم وقوتهم حتى يكونوا عبرة للأمم الأخرى.

(٣) هلاك الموارد الزراعية:

(١) المرجع سابق، المجلد السادس عشر، ص ٩٨٥٧:٩٨٥٩.

نستطيع القول بأن الزراعة من الموارد الاقتصادية الهامة التي تمد الإنسان بمنافع كثيرة، فهي تمد الإنسان والحيوان بالغذاء، وتمدنا بالأخشاب التي يتوقف عليها صناعات كثيرة، والمنتجات الزراعية يقوم عليها ألوان كثيرة من النشاط الاقتصادي.

والهلاك للموارد الزراعية يكون بفعل الإنسان، إما بتصحّر الأراضي الزراعية بفعل الإنسان أو إهمال، أو بغضب من الله تعالى على مالكي الموارد الزراعية أو على البلدة التي بها هذه الزراعات، وهذا النوع هو ما يخص دراستنا، وقد يكون الغضب من الله سبحانه بسبب الكفر بأنعم الله، أو بسبب عدم أداء حق النعمة وشكرها بأخراج زكاتها، أو يكون الغضب للإسراف فيها، وهنا يعم الغضب من الله بإهلاك هذه الموارد الاقتصادية الزراعية، يقول رب العزة: "وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا" (الكهف: ٤٢)، " والإحاطة: الأخذ من كل جانب... والمعنى: أتلف ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حساباً من السماء، فأصبحت صعيداً زلقاً، وهلكت أنعامه وسلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه... والخواوية: أي وهي خالية من الشجر والزرع، وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخراب التام"، والشرك بالله من أكبر الظلم، وأعظم الإفساد هو الكبر وإنكار فضل الله، وكان عاقبته الهلاك.

قال تعالى: " وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " (النحل: ١١٢)، تقرير بأنّ " الظلم وكفران نعم الله وأولها تكذيب دينه ورسوله

(١) الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، المجلد الخامس عشر، ص ٣٢٧.

يؤدي إلى البأساء والضراء كالجوع والخوف وحلول النقم، لأن الظلم مما يجعل الله لصاحبة العقوبة في الدنيا"^١.

وقد يكون الهلاك بالإحاطة عن طريق جفاف زرعهم أو توقف النشاط والتنقل الأمن بينهم وبين البلاد أخرى، والنتيجة وصول الهلاك لأهل القرية لفسادهم.

ثالثاً: الهلاك الاقتصادي في القصص القرآني (صاحب الجنتين)

قصة صاحب الجنتين هي قصة تعبر عن معنى الهلاك الاقتصادي الناتج عن الكفر بالله، وهي قصة رجل ثري

أعجبه ثروته واختال بما يملكه من ثمار وزروع ونعم، ونسي القوة الكبرى المنعمة الرازقة لهذه الخيرات، وبكفر بالله وأصبح جاحداً، وبجحوده وعدم شكره لله تعالى فقد ظلم نفسه، ودار جدال بينه وبين رجل مؤمن وتباهي عليه بالمال والولد، وكانت نتيجة جداله وتحاوره أنه أنكر المنعم ولم ير إلا النعم، وجحد شكر المنعم على الجنتين اللتين وصفهما الله تعالى، قصَّ الله علينا كل ذلك كما في قوله تعالى: " **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا هَمْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) " (الكهف: ٣٢ - ٣٨)، ومن الخطأ الذي وقع فيه صاحب الجنتين انشغاله بالنعمة**

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ١٩٧.

ونسيانه المنعم، وبسبب ذلك يدور الحوار بين الرجل المؤمن والرجل الكافر، ويلاحظ أنه " نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة. ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفتنى...، فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه"^١. وتستمر القصة بمحاولة المؤمن تعليمه الإيمان وتعليمه شكر النعمة وتنبهه بأنه وصل للكفر، وأن النعم يمكن أن تزول بإفساد النفس وظلمها بالكفر، ولكن صاحب الجنتين يستمر في التكبر والتعالي والظلم لنفسه. وقوله تعالى: " وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ " يظلم الإنسان نفسه حينما يرخي لها عنان الشهوات فيحرمها من مشتبهات أخرى، ويفوت عليها ما هو أبقى وأعظم، وظلم الإنسان يقع على نفسه: لأن النفس لها جانبان: نفس تشتهي ووجدان يردع بالفطرة... فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغنى والغرور بالنعمة"^٢، وتستمر القصة حتى يستجيب القادر لدعوة المؤمن وينزل الهلاك على جنتي الكافر وهو الهلاك الاقتصادي الذي يجني على الزرع والثمار نتيجة إفساد النفس بالكفر، يقول تعالى: " وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّ أْنَا أَقْلَ مِنْكَ مَا لَأَ وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤَهَا غُورًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) " (الكهف: ٣٩

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٢٧.

(٢) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٨٩٦، ٨٩٧.

- ٤٤)، وبسبب فساد النفس بالكفر يتحول المشهد، وينزل الهلاك على الجنتين، ويتحول المشهد من النماء والخيرات إلى الهلاك والخراب وضياع الثروات، فنجد أنّ " الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحرنا على ماله الضائع وجهده الذاهب"^١، وهنا يظهر الهلاك الاقتصادي في أوضح صورة وسببه هو الفساد في العقيدة الذي أدى لظلم الإنسان لنفسه بالكفر.

المطلب الثالث

آيات السنن الإلهية في الهلاك الاقتصادي

(١) من سنة الله تعالى أن من يبغى ويمنع حقوق الله في أمواله ويتعالى يأتيه الهلاك الاقتصادي بالقضاء على موارده الاقتصادية عقابا على بغيه، ونجد الآيات في قصة قارون بها كيفية بغي قارون وكيفية هلاكه، قال تعالى: " إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَحَسِّنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٢٢٧١.

مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) " (القصص: ٧٦ - ٨١)، وهنا مع قارون تظهر سنة الله تعالى بأن البغي والإفساد نهايتهما الهلاك الاقتصادي لما كان يملك من موارد اقتصادية ويبغي بها ويفسد " والفساد بالبغي والظلم، والفساد بالمتاع المطلق من مراقبه الله ومراعاة الآخرة، والفساد بملء صدور الناس بالخرج والحسد والبغضاء، والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال " ١، وكانت نتيجة البغي والإفساد الهلاك والخسف للأموال " والخسف أن تنشق الأرض فتبتلع ما عليها...، والخسف كان به وبداره التي عليها كنوزه وخزائنه وما يملك " ٢. وهذا هو الهلاك الاقتصادي لجميع موارد الاقتصاديه.

(٢) من السنن الإلهية أن الفساد يعود على فاعليه بالفساد، أي أن الجزء من جنس العمل، قال تعالى: " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " (الروم: ٤١)، وهنا نجد سنة من سنن الله تعالى خاصة بالفساد، وهي أنه كلما ظهر الفساد حلت العقوبة، وتظل هذه سنته لقيام الساعة، وذلك لأن سنته تعالى أن زيادة الفساد واستشرائه من أفعال الناس يعود عليهم بألوان الإيذاء من نفس الفساد؛ " فظهور الفساد هكذا واستعلاؤه لا يتم عبثاً، ولا يقع مصادفة؛ إنما هو تدبير الله وسنته " بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ " من الشر والفساد، حينما يكتبون بناه، ويتألمون لما يصيبهم منه، " لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " فيعزمون على مقاومة الفساد " ٣، فإذا أفسدنا في الموارد الاقتصادية فسينالنا من إفسادنا

(١) المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ٢٧١١.

(٢) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خوטר) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد السابع، ص ١١٣١.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، مجلد خامس، ص ٢٧٧٣.

في الموارد الاقتصادية بجميع أنواعها من زراعات ومياه وصناعات وكل ألوان الإفساد في الموارد الاقتصادية.

(٣) وكذلك قوم فرعون وقوم عاد وكانا من أكثر الأقسام قوة في البناء والإنشاءات، ولكنهم كانوا أقوامًا مفسدين، فأنزل الله هلاكه عليهم وعلى مبانهم وثوراتهم في البناء والإنشاءات، قال تعالى: " أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِيبٌ رَصَادٍ (١٤) " (الفجر: ٦ - ١٤)، وقد جمع سبحانه في هذه الآيات القصيرة هلاك أقدم الجبارين، فقال تعالى عن عاد أنها لم يخلق مثلها في مخيماتها وأعمدتها، وقد وصف سبحانه ثمود بأنهم تفننوا في تشكيل الحجارة وبنائها وتحويلها لقصور، وقد أشار سبحانه لفرعون والبناءات في عهده وهي على الأغلب الأهرامات، وهي أيضًا من عجائب الأبنية حتى عصرنا الحديث، وكل هذه الإنشاءات بتنوعها قوة اقتصادية بنائية هائلة، ولكن صاحبها إفسادٌ وطغيان عظيم حكم عليها بتنفيذ سنة الله تعالى عليهم بالهلاك، " وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة..... فلما أكثروا في الأرض الفساد كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد " ١، وهذا نوع من أنواع الإهلاك الاقتصادي للإنشاءات والأبنية والموارد الاقتصادية للمفسدين جزاء لفسادهم.

(١) المرجع سابق، مجلد سادس، ص ٣٩٤.

(٤) من سنة الله تعالى أن فساد المترفين يأتي على القرى بالدمار، قال تعالى: " وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا " (الإسراء: ١٦)، والترف لا يأتي إلا بزيادة الموارد الاقتصادية وسوء استخدامها، وفي هذه الآية يتوعد الله سبحانه القرى الفاسقة بالمترفين بتدميرها، وهو نوع من الهلاك الاقتصادي جزاء على سوء استخدام الثروات بالإتراف، وبذلك تنضبط حركة الحياة، حيث يشاهد الجميع ما نزل من هلاك بالمفسدين ومن خراب ودمار فيقل الإفساد ويتعظ المفسدون.

(٥) من سنن الله تعالى أن النهي عن الإفساد ينجي من العذاب، قال تعالى: " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) " (هود: ١١٦ - ١١٧)، " وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله في صورة من صورته، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستتصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال! "١.

(١) المرجع سابق، المجلد الرابع، ص ١٩٣٣.

المبحث الثالث

الطغيان السياسي والعلو من أسباب (وقوع الفقر)

في هذا المبحث سنقوم باستخراج السنن الإلهية عن علاقة الطغيان السياسي والعلو بالفقر، وذلك بعد استعراضنا الظلم المترتب عليه العذاب في المبحث الأول. ثم نتعرض للإفساد والبغي المترتب عليهما وقوع الهلاك الاقتصادي في المبحث الثاني.

والفقر يصيب المجتمعات الخاضعة للأنظمة السياسية الفاسدة المستبدة، ويلاحظ أن الأنظمة المستبدة الطاغية لا تؤدي لإفقار شعوبها فقط، بل هي تسعى متعمدة لهذا الإفقار، حتى لا يتمكن الرعايا من التفكير إلا في حالة الفقر المؤلم للنفس الذي يعيشونه، وسوف يتم تقسيم الفصل كما يلي:

المطلب الأول : معنى الطغيان السياسي والعلو

المطلب الثاني : معنى الفقر وأنواعه في الإسلام

المطلب الثالث : آيات السنن الإلهية في تحقق الفقر بالطغيان والعلو

المطلب الأول

معنى الطغيان السياسي والعلو

أولاً: ماهية الطغيان السياسي

سوف نقوم بتقسيم مصطلح الطغيان السياسي إلى كلمتين منفصلتين، الأولى الطغيان، والثانية السياسة، ونحاول تعريف كل منهما كما يلي:

(١) معنى الطغيان:

طغا: جاوز الحد: ارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم فهو طاغ، والجمع طغاة وطاغون، الطغاة: جعله طاغيًا، الطاغية: الجبار العنيد: الذي لا يبالي ما أتى يقهر الناس ولا يتحرج من ذلك ولا يفرق، الأحقق الظالم المتكبر^١، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: " اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى " (طه: ٢٤)، " وطغى " معناها: عصى وتكبر، وكفر وتجبر، وجاوز الحد^٢، والإنسان الطاغي هو المستبد. ونحاول تعريف المستبد، فنذكر تعريف الإمام محمد عبده: " المستبد عرفا من يفعل ما يشاء غير مسؤول، ويحكم بما يقضي به هواه، وافق الشرع أو خالفه، ناسب السنة أو نابذها، ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونظروا من ذكره لعظم مصابهم منه وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار"^٣، ونجد أن اللفظ المقابل للطغيان هو الاستبداد، ونلاحظ تقارب تعريفهما.

قال تعالى: " قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى " (طه: ٤٥)، ومن الملاحظ أن معنى الطاغية هو محتكر برأيه الأوحده ليسود هذا الرأي على الجماعة بلا أي مناقشه حرة أو مشورة لهم، والطاغية يساعد على ظهوره شعب مستعد للاستعباد والطاعة، لأنه مهما أوتي الفرد الطاغي من قوة وسيطرة فلا يحق له الانفراد برأيه، ولا يستطيع فعل ذلك إلا في مناخ من الضعف والخضوع يهيئ له ذلك.

(١) أحمد رضا، معجم متن اللغة العربية، مرجع سابق، مادة طغى، ص ٦١٣.

(٢) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، ص ٥١.

(٣) عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الجزء الأول، ص ١٦٦، ١٦٧.

٢) معنى السياسة:

(ساس) الناس - سياسة: تولى رياستهم وقيادتهم، (ساس) القوم فلاناً: ولوه رياستهم وقيادتهم ويقال: أساسوا فلاناً أمورهم: ولوه إياها، (سوس) القوم فلاناً: أساسوه ويقال: سوسوه أمورهم^١، وقد اختلف الكتاب والمفكرون في تعريف السياسة وفي كونها علمًا أم ليست بعلم تخضع للتجربة والاستنتاج، فمنهم من عرفها بأنها " فن ممارسة القيادة والحكم وعلم السلطة أو الدولة وأوجه العلاقة بين الحاكم والمحكوم... أو هي النشاط الاجتماعي الفريد من نوعه الذي ينظم الحياة العامة ويضمن الأمن ويقيم التوازن والوفاق من خلال القوة الشرعية والسيادة بين الأفراد"^٢.

ومع تطور المجتمعات وزيادة أعدادها واختلاف طبائعهم وسلوكياتهم يقع بينهم الخلاف، وهنا كان " من السنن الإلهية قيام نظام سياسي يحفظ للمجتمع علاقاته ويصون أفراده من عبث العابثين وضلال المضلين"^٣، وحينئذ يحتاجون إلى قائد عام يمنع القويّ من ظلم الضعيف، وينصر المظلوم، ويرد الحقوق لأصحابها، " إن هذا القائد جرت سنة الله في خلقه أن يكون له خواص تقتضي إلى القول بأنه يصلح للقيادة، ومن ثمّ فقد بات القائد الصالح مستخلفًا على قومه بما جبله الله عليه دون أن يكون بحاجة إلى معاضدة أو معاندة، ومن ثمّ فهو يرسم لأفراد المجتمع الخطط المنهجية التي تحفظ عليهم

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٤٦٢.

(٢) عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، مرجع سابق، جزء ثالث، ص ٣٦٢.

(٣) ناهد يوسف رزق يوسف، علاقة السنن الإلهية بالقوانين الكونية والاجتماعية، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة

الإسلامية، جامعه القاهرة، ص ١٦٣.

أمنهم وتصون أعراضهم وتنمي أموالهم وتدفع عنهم أعدائهم"^١، ومن يتمتع بهذه الصفات يصعد للحكم بإقبال الشعب عليه لتوليته قائدًا إذا كان عادلاً، ليقوم بإدارة الدولة وينظم علاقات أفرادها، وكذلك يدير علاقاتها الخارجية، أي يسوس هذا القائد الشعب ويرعى مصالحه.

معنى الطغيان السياسي:

الطغيان السياسي هو ما يقوم به الحاكم من أوامر ونواه مخالفة للعدل، ويمكن تعريفه بأنه هو تصرف فرد في حقوق شعب بالمشيئة الفردية، وبلا خوف من أي حساب. وحتى نستطيع إطلاق لفظ طغيان سياسي يجب أن يكون الحكم مؤدياً إلى الظلم للرعية، لأنه لو كان له قوة لنشر العدل وتحقيق العدالة فلن نستطيع إطلاق لفظ طغيان سياسي عليه، وأحياناً نجد أهمية للقوة المنظمة للدولة، وقد " اعترف أفلاطون بضرورة القوة، وقال بوجود عزوها إلى الدولة لكي تستعملها استعمالاً شرعياً، وإلا فلن يكون هناك عدل نظامي قادر على إحباط تجاوزات القوة الفردية العشوائية، فلا مناص من العنف في السياسة لصون المواطنين"^٢.

والقصد هنا من القوة أنها قوة الحق لتنظيم الدولة وليست القوة الباطشة، والمقصود أيضاً قوة حفظ الأمن وصون المواطنين وليس قهرهم وتقييد حريتهم وفكرهم، وهكذا لنطلق حكم طاغي أو استبدادي يجب أن يكون هذا النوع

(١) سنير عبد الرحمن عبده عبد الرحمن، تحديد المفاهيم، المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٣٥.

(٢) دولة خضر خنقار، في الطغيان والاستبداد والدكتاتورية (بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية)، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م)، ص ١٢.

من الحكم مقيداً للحريات غير منصف للمظلومين، وهذا ما يفعله الطغيان والاستبداد بالناس، إنه يعدم إرادة الشعوب، ويدمر حريتها وبذلك يدمر كرامتها. والطغيان والاستبداد السياسي له خطوات يسير عليها للوصول إليه، وأول خطواته وأهمها غالباً هي الاستبداد الديني الذي يقع فيه السواد الأعظم من الشعوب نتيجة الجهل الذي يوقع العامة في التخبط بين السياسة والدين، والجهل عامة مقصود، لسهولة السيطرة على الجهلاء وتسييرهم كما يريد الطاغي، وليس الجهل فقط، بل إنه حين يوجد الاستبداد نجد التأخر والتخلف، وذلك لأن " الاستبداد مناف للتقدم، وإذا كان الأفراد يكبرون ويعظمون بعظمة أمهم، فإن الاوطان تصغر في ظل الاستبداد " .^١

فالطغيان يرعى الجهل، وهو الضامن لاستمرار الطغيان، وذلك لأن الطغاة يكرهون العلم والمعرفة لأنه المهدد الأول لفناء الطاغي، فنجد الطاغي يحارب منافذ العلم ويقصرها على تحويل العلم وكل وسائله لتمجيد حكمه وشخصه، ويحرص على كبت الأراء، وتقييد حرية المفكرين، والطاغي يستعين بمن يوافق هواه في الحكم، ويسعى الطاغي لتمجيد شخصه في الأذهان ليصبح شخصاً مقدساً لا تصح مخالفته أو الخروج عليه، وكل ذلك لضمان استمرار سلطانه واستبداده.

والطغاة يتمتعون بخير الأوطان وكذلك متبعوهم، ويحرمون أهل البلاد غالباً من الموارد الاقتصادية، ويستأثرون بها لأنفسهم، ويوجد للإسلام موقف من الطغاة والمستبدين، فقد " صب على المستبدين سوط عذاب، وأسقط

(١) توفيق الفييل، الاستبداد وأثره في تخلف الأمة، المؤتمر الدولي الثامن للفلسفة الإسلامية، جامعة القاهرة، مرجع سابق،

اعتبارهم، وأغرى الجماهير بمناواتهم والانتقاض عليهم، ولا أعرف مصلحًا أدب رؤساء الدول وكبح جماحهم وقمع وساوس الكبرياء والاشتهاء في نفوسهم كما فعل ذلكم في الإسلام، لقد كسر القيود، وحرر العبيد، ووضع التعاليم التي تجعل الحاكم يتحرى العدل والمحكوم يكره الضيم"¹، ونستطيع القول أن الاستبداد هو "عدو الله وعدو رسله وعدو الشعوب، وأنه لا قيام لحق في هذه الحياة إلا إذا طمست صور هذا الاستبداد وسويت به الأرض ومشيت عليه الأقدام"².

ثانيًا: معنى العلو

(علا) فلان في الأرض: تكبر وتجبر. وفي التنزيل العزيز: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ" (القصص: ٤)، و(العلو): العظمة والتجبر. وفي التنزيل العزيز "تِلْكَ الدَّارُ الْأُخْرَىٰ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا" (القصص: ٨٣).^٣

والعلو هو من الفساد، قال تعالى: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" (القصص: ٤)، وهنا معنى "علا" من العلو أي: استعلى والمستعلي عليه هم رعيته، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته، وعلا حتى على الله - عز وجل - فادعى الألوهية، وهذا منتهي الاستعلاء، ومنتهي الطغيان والتكبر، وما

(١) محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، دار الكتب الحديثة القاهرة، الطبعة الثانية (١٣٨٠هـ - ١٩٦١م)، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٣) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٦٢٥.

دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوى فلا بد أن يستخدمها في إذلال رعيته" ^١.

والعلو في البشر يأتي من الكثرة في الأموال أو السلطة، وهنا يصاحب العلو فساد وظلم، ففي حالة العلو بالمال يكون الظلم للفقراء فالعلو بالمال لا يكون إلا على المحتاجين، سواء بالتكبر ومنع حقوقهم، أو بالتعالي عليهم والتأثير عليهم نفسيًا، أما في حالة العلو بالسلطة فيقع الظلم هنا على الرعية، فلا يسمع لهم صاحب السلطة ولا يعطيهم أي حقوق، ويسبب علوه يتصور أنه هو وحده على الحق، " وقد ورد العلوي القرآن الكريم في ستين موضعًا، وقد وصف الله به في سبعة وعشرين موضعًا واحتل استعمال العلو بمعنى الطغيان أو مجاوزة الحد والقدر المعلوم والاستكبار ثلاثة عشرة موضعًا، وأغلبها في وصف فرعون وقومه والمأثم المتزف حوله" ^٢.

ومن مرادفات العلو في القرآن الاستكبار، وأغلب آيات القرآن تنصب على الاستكبار على الله سبحانه بالكفر، وكذلك الاستكبار على الأنبياء والرسل بإنكار الرسالات، ومن أكثر المتعاليين والمتكبرين كان إبليس لعنة الله عليه حين تكبر على السجود لآدم، وكان علوه وتكبره سببًا لطرده من رحمته، قال تعالى: " قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) " (الأعراف: ١٢، ١٣)، وكذلك العلو والكبر سيكونان

(١) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد السابع عشر، ص ١٨٧١.

(٢) عبد الرحمن عمر اسبينداري، الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني، Islamstory.com/ar، بتاريخ

(٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ).

سببًا في طرد كل متكبر من رحمة الله؛ لأن الله سبحانه لا يحب المتكبرين، ومن سنته تعالى القضاء عليهم وإفنائهم وإهلاكهم.

ثالثًا: الطغيان السياسي والعلو في القصص القرآني (فرعون)

يتجسد الطغيان والعلو السياسي في القصص القرآني في قصة فرعون، فقد كان حاكمًا طاغيًا مستبدًا متعاليًا، وكان ملك مصر في أزهى عصورها في العهد القديم، قال تعالى: " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَمْثَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ " (الزخرف: ٥١)، وكذلك قال تعالى عن وصف مصر وخيراتها: " فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) " (الشعراء: ٥٧، ٥٨)، ومع حكمه لدولة كبيرة في العالم القديم وسيادته عليها وعلى خيراتها لم يشكر فرعون ربه، بل علا واستكبر واغتر بما هو فيه، بل وتصور أنه مستحق لما هو فيه لوجود ميزة فيه لا توجد في أحد غيره، حتى إنه زاد غروره وتصور أنه إله يعبد من دون الله، قال تعالى: " فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى " (النازعات: ٢٤). ولقد ظل فرعون يتكبر حتى أعلن أنه الرب المعبود، وجاء هذا الإعلان بعد عمل كيان كبير وأنظمة للاستبداد والاستعباد استمرت لسنوات من فرعون ومن وزرائه لبناء هذا الكيان والذي انتهى بتتويج نفسه بتاج الألوهية، وبعد إصداره لقرار تأليهه وأنه الرب الأعلى زاد طغيان فرعون حتى إنه كان لا يستمع إلا لرأيه فقط، ولا ينفذ إلا ما يراه هو فقط، وكانت إرادته هي الإرادة الوحيدة، فكان فرعون مستبدًا سياسيًا وطاغية وظالما ولا يرى إلا رأيه فقط، قال تعالى: " قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (غافر: ٢٩)، وبدأ فرعون يجسد طغيانه بتفريق الناس وإحداث الواقعة بينهم وتفريقهم وتقتيلهم، قال تعالى: " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

الأرض وجعل أهلها شيعةً يستضعف طائفةً منهم يُدبِّحُ أبناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ " (القصص: ٤)، وكان شعب مصر حينئذ شعباً مستعبداً يستخف فرعون به وبعقله، وكانوا يصدقونه ويستسلمون لاستخفافه بهم ويطيعونه، فمن أكبر مظاهر استخفافه بعقولهم محاولة إقناعهم بأن عبادته دين وأن عبادة الله الواحد الأحد هي الفساد، قال تعالى: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيِّ أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ " (غافر: ٢٦)، ومع هذا الاستخفاف بعقولهم كانت طاعتهم، قال تعالى: " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ " (الزخرف: ٥٤)، وكانت طاعتهم له طاعة عمياء، حتى إنهم أخذوا يشاهدون ما دار بين موسى وفرعون وكأنها أحداث لا تهمهم ولا هم أصحاب دور كبير فيها، حيث إن الظالم هو ملكهم ومستعبدهم ومعذبهم ومهمشهم، ولكنها السلبية والخوف التي يفعلها الاستعباد في الشعوب، وذلك لأن ما كان يفعله فرعون في مخالفته هو القتل والتنكيل والتعذيب، والمثال على ذلك أنه عندما آمن السحرة بموسى واختلفوا في الرأي مع فرعون وأعلنوا إيمانهم فقال تعالى: " فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) " (الشعراء: ٤٧، ٤٦)، ووجد فرعون لأول مرة من يخالفه الرأي ويجهر بعصيانه ويسجد لغيره، فما كان منه إلا أن نكل بهم، قال تعالى: " لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِي " (الأعراف: ١٢٤)، لذلك كان رد فعل الشعب المتابعة والمشاهدة والسكوت على الطاغية المستبد سياسياً، وبدون أي تعليق أو ثورة على استبداده، وهذا ما يفعله الطغيان دائماً بالشعوب، يحولهم لأتباع لا يفكرون ولا يثورون ولا يشغلهم إلا قوت يومهم، ويعيشون دائماً خائفين مترقبين ينتظرون فئات مستعبدتهم، والمستعبد لا يشغله إلا تفتيتهم وتفريقهم وتعذيبهم حتى يستمروا

في خضوعهم، ومع ظلم فرعون لموسى وأتباعه تأتي دعوة الأنبياء على القوم الظالمين، فيقول موسى عليه السلام دعوته الشهيرة، " وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ " (يونس: ٨٨)، وتأتي استجابة الله لدعوة موسى، ويأتي ميعاد تطبيق سنة من سنن الله في أرضه بالقضاء على الطغاة المفسدين، وذلك عندما يستحيل على الشعوب القضاء عليهم، وتنقص قدرة المستضعفين على مقاومتهم ويزيد التجبر، يتدخل سبحانه لإنقاذ المستضعفين، يقول سبحانه: " وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ " (البقرة: ٤٩)، نعم إنها النجاة بالقوة العليا، قوة القادر سبحانه على المتجبرين، فكان غرق فرعون هو انتقام الله من الظالمين، قال تعالى: " كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ " (الأنفال: ٥٤)، وقال تعالى: " فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي آيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ " (الأعراف: ١٣٦)، وهكذا ينتهي عهد أكبر متكبر على وجه الأرض؛ وذلك لأن فرعون يحتل مكانا بارزاً في تاريخ الطغاة في الأرض.

المطلب الثاني

معنى الفقر وأنواعه في الإسلام

تحدثنا في المطلب الأول عن معنى الطغيان والعلو السياسي، وهما من أسباب الفساد المؤدي للفقر، وسنحاول في هذا المطلب أن نعرف الفقر وأنواعه في الإسلام، وسيكون تقسيم المطلب كما يلي:

أولاً: معنى الفقر وأنواعه

(١) معنى الفقر:

(الفقر): العوز والحاجة، (الفقير) من الناس: من لا يملك إلا أقل القوت،

و(افتقر): صار فقيراً^١

فقر الرجل: ذهب ماله، عكسه غنى، أفقر الشخص: أفلسه، جعله قليل المال محتاجاً، أفقرت الحروب البلاد: قضت على مواردها وأنزلت بها الخسائر، افتقر التاجر: صار فقيراً قليل المال، فقر الاحتلال البلاد: أفقرها وجعلها فقيرة، فقير (مفرد) والجمع فقراء^٢.

ويمكن تعريفه أيضاً بأنه " عبارة عن فقد ما يُحتاج إليه، أما فقد ما لا يحتاج إليه لا يسمى فقراً، وقيل: الفقير الذي يكون له بعض ما يقيمه، وقيل: الفقير الذي لا شئ له البتة، والمسكين الذي له بعض ما يكفيه، وإليه ذهب الشافعي، قيل فيهما، وإليه ذهب أبو حنيفة، وقيل الفقير: الضعيف، وقيل الذي لا يسأل، وهذا قول مجاهد، وقيل: الفقير الذي له بلغة من العيش. وقيل: أن هذا هو المسكين، وقد يكون الفقير مثل المسكين، أودونه في القدرة على البلغة " ^٣، وذكر الفقر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة نذكر منها:

قال تعالى: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٦٨)، وهذا نوع من الفقر يؤدي إلى الفقر من الثواب ومن رحمه الله، فالشيطان يدعو الإنسان لعدم الإنفاق، ويخوفه

(١) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ص ٦٩٧.

(٢) انظر: أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، مرجع سابق، المجلد الثالث مادة ف ق ر، ص ١٧٢٩: ١٧٣١.

(٣) أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣٤١.

من الفقر المادي، ولكنه في الحقيقة إذا أطاع الإنسان الشيطان ليفقر الإنسان من رضا الله وثوابه، (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) وهو ما خوف من الفقر إن أنفق أو تصدق" ١.

وقال تعالى: " لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٧٣)، وهذا هو النوع من الفقر وهو فقر شبه اختياري، وهم الذين منعوا من الأموال لإيمانهم واضطهاد الناس لهم بسبب الايمان، أو باختيارهم الجهاد وانشغالهم به عن السعي والمكاسب، " فهم أحصروا في سبيل الله، وأحصروا لأن الكافرين يضيقون عليهم منافذ الحياة، أو حصروا أنفسهم على الجهاد ولم يجبوا أن يشغلوا بغيره" ٢، ويقع كذلك تحت هذا المعنى قوله تعالى: " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " (الحشر: ٨).

وقال تعالى: " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (التوبة: ٦٠)، وهي الآية الخاصة بمصارف الزكاة، " خص الله سبحانه بعض

(١) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، النكت والعيون تفسير الماوردي، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٣٤٣.

(٢) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، مجلد ثاني، ص ١١٧٨.

الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم، وجعل شكر ذلك منهم أخرج سهم يؤدونه إلى من لا مال له نيابة عنه سبحانه" ^١.

(٢) أنواع الفقر:

الفقر ينقسم إلى أنواع، مثل: الفقر السياسي، وهو يتمثل في غياب حقوق الإنسان وعدم المشاركة السياسية وهدر الحريات، والفقر الاقتصادي وهو عدم قدرة الفرد على كسب المال أو التملك، وسوف نتحدث عن الفقر الاقتصادي وهو ينقسم إلى قسمين:

(أ) فقر اختياري:

يكون فيه الفرد قد اختار الفقر ليلأزمة، وهؤلاء أنواع فقد يكون ذلك بتقصيره في البحث عن الرزق والسعي للكسب، ويتقاعس الإنسان في طلب الرزق بالتكاسل، ويكون جزاء هذا الإنسان الفقر والعوز؛ وذلك لأن العمل يجلب الرزق، وإهمال العمل يأتي بالفقر، وقد يكون الفقر اختياريًا من الفرد لانقطاعه للعلم أو الجهاد في سبيل الله، وهنا يحدث له الفقر بسبب انشغاله عن الكسب المالي، ولا نستطيع أن نقول أنهم مقصرون عن الكسب لأنهم إن كانوا مقصرين في طلب الرزق لما أمرنا الله سبحانه بالإنفاق عليهم، وقد حدثنا الله تعالى عن هذا النوع من الفقراء فقال تعالى: " لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ " (البقرة: ٢٧٣) فقر جبري:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ص ٢٤٤.

يكون الإنسان في هذا النوع مجبراً على الفقر بسبب عدم قدرته على العمل، وذلك قد يكون بسبب إعاقه في بدنه أو في قدرته العقلية، أو بسبب شيخوخة أصابته أقدته عن العمل، أو تكون امرأة مات من يعولها ولا تملك خبرة السعي على الرزق، أولكونهم أطفالاً لا يقدرّون على العمل بسبب صغر أعمارهم، أو بسبب عدم وجود عمل مع الرغبة في العمل والقدرة عليه، وكل هذه أسباب جبرية لا يستطيع الإنسان فيها العمل والكسب، وهناك فقر بسبب ظروف سياسية يكون الإنسان مجبراً فيها على الفقر مثل الحروب أو الحصار الاقتصادي، أو الفقر الاقتصادي للدولة وعدم استقرار الأحوال بها بسبب قلة مواردها أو سوء موقعها الجغرافي، أو سوء توزيع الثروات في البلاد بين الأفراد، أو البطالة التي تصيب المجتمعات نتيجة سوء التخطيط في هذه الدول، وقد يكون الفقر إجبارياً بقدر الله ويكون ذلك لحكمته في خلقه حتى يتكامل الأفراد ويحتاج بعضهم لبعض فيقوم الفقير بأعمال لا يستطيعها الغني لاحتياجه للمال الناتج عنها.. وهكذا، حيث إنه لن تستقيم الحياة في مجتمع كله أغنياء، قال تعالى: " أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ " (الزخرف: ٣٢)، ومن هذه الآية يتضح أن " طبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد، والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل، وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض " ١ .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٣١٨٧.

ومن ذلك يتبين أن هذا النوع من الفقر يجب وجوده ليُكمل الأفراد بعضهم بعضاً، ولا يكتب الفقر على الإنسان فيصبح مقدراً عليه، ولكنه يستطيع تغيير هذا الوضع بالجهد والعمل ليتحول من العوز إلى الراحة، وهنا يمكن أن يكون الفقر مرحلة من مراحل حياة الفرد يغيرها إلى الغنى بالعمل والسعي.

ثانياً: خطورة الفقر وعلاجه في الإسلام

لقد أعطت الشريعة الإسلامية رعاية واهتماماً كبيراً للفقراء والمساكين، وكانت الشريعة الإسلامية حريصة على علاقة أفراد الأمة بجميع مستوياتها، الفقراء والأغنياء منها، قال تعالى: " **ثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** " (الحجرات: ١٠)، ومن منطلق الأخوة التي انطلق بها الإسلام إلى جميع أنحاء العالم ليجمع كل البشر تحت لواء شرع الإسلام نجد التكافل بين أفراد المجتمع المسلم بعدة طرق لتناسب مع كل الأفراد بكل أفكارهم.

(١) خطورة الفقر على المسلم:

يدلنا النظر في شريعة الإسلام أن الفقر آفة تهدم كل القيم السمحة والشريفة في الإنسان والمجتمع، وقد حدثنا رسول الله ﷺ عن خطورة الفقر، و" الأحاديث النبوية تعتبر الفقر آفة خطيرة يُخشى سوء أثرها على الفرد وعلى المجتمع معاً، وعلى العقيدة والإيمان، وعلى الخلق والسلوك، وعلى الفكر والثقافة، وعلى الأسرة والأمة جميعاً " ١، وخطورة الفقر على العقيدة تجعل بعض المسلمين يتخلون عن عقيدتهم بأوامرها ونواهيها بسبب الفقر والعوز. فالعقيدة تنهي عن القتل، قال تعالى: " **مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** " (المائدة:

(١) يوسف القرضاوي، مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، مرجع سابق، ص ١٤.

(٣٢)، وبينها رب العزة إلى أن النفوس قد تضعف بسبب الفقر، وبينها عن قتل الأبناء بسبب الفقر أو بسبب الخوف من الفقر، فقال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ " (الأنعام: ١٥١)، وقال تعالى: " وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا " (الإسراء: ٣١)، وكذلك فإن المسلم لا يزني لأن الزنا من الكبائر، وقد وجه رب العزة المؤمن أن يحفظ نفسه من الوقوع فيه عند عدم القدرة على الزواج بسبب الفقر، قال تعالى: " وَلَيْسَتَعْفِيفِ الدِّينِ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ " (النور: ٣٣)، وهنا يظهر واضحًا من الأمر الإلهي بأن الفقر قد يؤدي لعدم العفة والوقوع في الزنا، وكذلك من أكبر الكبائر الكفر بالله تعالى، وهو من الأمور التي قد يأتي بها الفقر للنفس البشرية ويكون كنوع من الاعتراض على الفقر والقنوط من رحمة الله تعالى، وكذلك الفقر يثير الكره والضغائن بين المسلمين؛ لذلك شرع الإسلام ووضع القوانين للقضاء على الفقر.

(٢) علاج الإسلام لنفوس الأغنياء:

عالج الإسلام مشكلة الفقر بعدة وسائل تتناسب مع علاقة الأغنياء مع الفقراء.

وكان الأسلوب الأول: هو أسلوب الجبر على أداء الزكاة، وفيه يخاطب الله به طائفة من النفوس الشحيحة التي تتصف بالبخل وحب كنز الأموال، وقد وجه الله بعض آياته وتعاليمه للكشف عن هذا النوع من النفوس، قال تعالى: " كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) " (الفجر: ١٧ - ٢٠)، وهذه النوعية يجب اتباع القوة معهم لإخضاعهم لأخراج الزكاة، ومن هنا يجب على

أولي الأمر تنفيذ جمع فريضة الزكاة التي ألزم الله بها الأغنياء لصالح الفقراء، قال تعالى: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا " (التوبة: ١٠٣)، وقد قاتل الخليفة أبوبكر الصديق الممتنعين عن دفعها لأنها حق من حقوق الله تعالى، في هذه النوعية من النفوس أنزل سبحانه آيات التهديد والوعيد حتى يتم إخضاع هذه النوعية من النفوس، قال تعالى: " وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " (التوبة: ٣٤).

الأسلوب الثاني: هو الطريقة التي يخاطب الله بها نوعية من نفوس البشر التي لا تحب الإنفاق إلا بمقابل، فجعل الله لهم الجنة والدار الآخرة جزاء لإنفاقهم، بل وجعل سبحانه المنفق على الفقراء والمساكين كالمقرض لله تعالى؛ ولهذا يضاعف له أجره، قال تعالى: " إِنَّ الْمُسَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ " (الحديد: ١٨)، وهنا المتاجرة مع الله في الإنفاق على الفقراء والمساكين هي الحل لهذه النوعية من النفس البشرية.

الأسلوب الثالث: وهذا النوع يخاطب الله به طائفة من النفوس المحبة للتملك والافتناء، وهو سبحانه يوجه هذا النوع من النفوس لفهم واستيعاب فكرة الاستخلاف والملكية الحقيقية للكون كله، فيعلن سبحانه وتعالى أنه هو المالك الوحيد لهذا الكون المتصرف فيه بإرادته والمنظم لعلاقاته، ويوجه الإنسان لأنه المستخلف على هذه الأموال وليس المالك الحقيقي لها، يقول تعالى: " وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلْنَاكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ " (الحديد: ٧)، ويقول تعالى: " وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ " (النور: ٣٣).

٣) طرق علاج الفقر في الإسلام:

لم يشرع الإسلام الزكاة والصدقات إلا للمستحقين لها، فلا يجوز للمستطيع مادياً أو صحياً والقادر على العمل أن يمد يده لأموال الزكاة والصدقات، ومن هنا كانت أول خطوة للقضاء على الفقر في الإسلام وهي العمل، وقد وجه الله تعالى لأهمية العمل والحث عليه فقال تعالى: " وَأَخْرُونَ يَصْرُبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ " (الزمل: ٢٠)، وقال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ " (الملك: ١٥)، وقال تعالى: " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ " (الجمعة: ١٠).

وللعمل قيمة عظيمة في الإسلام تحدثنا عنها في الفصول السابقة، ولكن إذا لم يستطع الإنسان أن ينتقل من حال الفقر إلى حال الغنى بالعمل فيأتي حينئذ نظام التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ومن أبرز ما فيه هو نظام الزكاة وتوزيعها على المستحقين، وهو التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، والتكافل بين الأفراد يمنع الأحقاد والضغائن بينهم، قال تعالى: " الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ " (آل عمران: ١٣٤)، ومن هنا وجب على الحكومات تطبيق نظام الزكاة بصورة جبرية على الأغنياء.

ومن صور التكافل أيضاً الوقف الخيري؛ ولهذا شرع الإنفاق والتكافل بين الأقارب الفقراء المستحقين، فقال تعالى: " فَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ " (الروم: ٣٨)، وكل هذه أنواع متعددة للتكافل في النظام الإسلامي.

ثالثًا: الفقر في القصص القرآني

لم يرد الحديث عن الفقر في القصص القرآني على نحو صريح بتناول أشخاص بأعينهم، ولكن تحدث القرآن عن الفقراء وعن حقوقهم، وعن واجب الأغنياء نحو الفقراء، والحث على التصدق والإنفاق عليهم بكل الصور، وقد خص القرآن الكريم الفقراء من الأقارب باهتمام كبير في آيات القرآن فقال تعالى: " لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ " (البقرة: ١٧٧)، وهنا يجيء الحث القرآني على الإنفاق على الفقراء من الأقارب الذي جعله سبحانه من البر تأمل - إذن - الحث على البر، نجد أن أول ما جاء فيه هو إيتاء ذوي القربى، لأن لهم مكانة خاصة، وعندما يؤتي كل منا قربه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته فلن يوجد

محتاج"^١، ونذكر بعض الآيات التي تحث على الفقراء والمساكين وذوي القربى لتوضيح اهتمام القرآن بالفقراء:

- قال تعالى: " وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا " (النساء: ٣٦).

وقال تعالى: " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ... " (النحل: ٩٠).

(١) محمد متولى الشعراوي، تفسير (خواطر) الشعراوي، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ٧٣٥.

وقال: " وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْدُرْ تُبْدِيرًا " (الإسراء: ٢٦).

وقال: " وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " (النور: ٢٢).

وقال: " فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (الروم: ٣٨). وقال تعالى: " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ " (الشورى: ٢٣).

قد ذكر القرآن إشارة عن رسول الله محمد ﷺ بأنه كان عائلاً فأغناه الله، قال تعالى: " وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغَىٰ " (الضحى: ٨)، " كان فقيراً فأغناه الله ورزقه كفاف عيشه، وصبر على ما ناله من الفقر، وشكر على ما أصابه من نعمة " .^١

ويخاطب الله رسوله ليطمئنه بعد غياب الوحي لفترة بأنه سبحانه لم يتركه، ويحادثه " لقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة، كما أغناك بكسب ومال أهل بيتك (خديجه رضى الله عنها) عن أن تحس الفقر، أوتتطلع إلى ما حولك من ثراء " ^٢، وقد ولد نبي الله محمد بن عبد الله يتيماً وتولاه جده ثم انتقلت ولايته لعمه، وعندما صار شاباً لم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه إلا أن الروايات تواترت أنه كان يرعى غنماً رعاها في بني سعد...، وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضى الله

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد التاسع، ص ٣٨٢.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد السادس، ص ٣٩٢٧.

عنها، وكانت قريش بها أثرياء وأغنياء، وكان جد رسول الله ميسورًا وعمه كذلك، ولكن اليتيم هو ما جعل رسول الله عائلاً فأغناه الله، ويظهر من المعنى أنه " كما هياً له غناه عن خلقه بأن أغناه على قدر حاجته، فكان في فقره صابراً وشاكراً، وكان في غناه حامداً وشاكراً " ١ .

ومن فضل الله عليه أن سيرته وأمانته انتشرت حتى وصلت للسيدة خديجة فأرسلت له تطلب منه إدارة تجارتها، و " أخبار السيرة التي لا خلاف في جوهرها ولا تناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة بنت خويلد رضی الله عنها به عن طريق عمله لها في التجارة، واقتترانه بها نتيجة لهذه الصلة... إن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد...، فتهيأت نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها إذ أغناه الله عن الضرب في الأرض في سبيل الرزق " ٢ .

وهكذا كانت الآية التي أوضحت الوضع الاقتصادي لرسول الله ﷺ قبل البعثة حتى من الله عليه بالنبوة، ومما يذكر عن رسول الله ﷺ أنه عاش طوال عمره زاهداً ولم يأخذ المال لنفسه بل للمسلمين، وقد كان يمر الهلال ثم الهلال لا يوقد في بيوت أزواج النبي ﷺ نار.

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد التاسع، ص ٣٨٣.

(٢) محمد عزة دروزه، سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم، منشورات المكتبة العصرية بيروت، الجزء الأول، د . ت.

المطلب الثالث

آيات السنن الإلهية في تحقق الفقر بالطغيان السياسي

في هذا المبحث نأتي بما تضمنه القرآن الكريم من آيات السنن الإلهية لنوضح علاقه الفقر بالعلو والاستبداد، وقد ذكرنا في أنواع الفقر نوعين: فقر اختياري، وفقر جبري.

ونتساءل عن الفقر الناتج عنه الهلاك وغضب الله تعالى، ما الذي ينتمى إليه من هذين النوعين؟

ويمكن الإجابة أنه ينتمى للنوعين، النوع الأول وهو الفقر الاختياري، حيث إن الأقسام بإرادتها تخضع للاستبداد وطغيان الطغاة، وتستسلم المجتمعات فيزيد الطغاة في ظلمهم، ويقع الهلاك للجميع ويتحقق الفقر، ولو كانوا قاوموا المستبد ورفضوا ظلمه لكانوا رحموا من العذاب والفقر، قال تعالى: " فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ " (الأعراف: ١٦٥)، وقال تعالى: " فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْبَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ " (هود: ١١٦)، فهنا الفقر الاختياري جاء عندما تقاعس أهل المدن عن رفع أسباب الهلاك، ولو نهوا عن الفساد وسعوا لَمَا وقع بهم الهلاك والفقر، وكذلك الفقر المؤدي للهلاك من النوع الثاني وهو الفقر الجبري، حيث إن أصحاب الأموال يقومون بإجبار المجتمعات على الفقر بالتصرفات الاقتصادية الظالمة، مثل احتكار الأقوات، ورفع الأسعار، وتوجيه الأموال إلى التجارة في المواد الترفيهية غالية الأسعار،

واستيراد سلعة استهلاكية شديدة الرفاهية كالسيارات الفأخرة، وتوجيه الأموال لبناء القصور والشاليهات شديدة الرفاهية، وامتناعهم عن توجيه أموالهم إلى الأعمال الصالحة للمجتمع مثل استصلاح الأراضي الزراعية أو إنشاء مشروعات صالحة لتشغيل الفقراء، فنجد أن الفقر في المجتمع فقر إجباري أجبر فيه الأغنياء المجتمع كله على الفقر.

ومن الآيات التي توضح السنن الإلهية في أن الطغيان السياسي والعلو يحققان الفقر ما يلي:

(١) عن العلو والاستكبار قال تعالى: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أُولَئِكَ كَانُوا فِي الْيُسُفَىٰ فَهُمْ أَشَدُّ مِنَ الْإِنسَانِ وَأَنزَلْنَا لَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِن آلِ هَارُونَ أَنزَلْنَا لَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنزَلْنَا فِي آلِ لُوطٍ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ فَذُكِرُوا لِلْعَالَمِينَ (١٥) فَارْسَلْنَا عَلَىٰ عَلَيْهِم رِجَالًا صَرُورًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَّنُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْحُزْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَحْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) " (فصلت: ١٦، ١٥)، وقوم عاد من الأقوام التي طبق الله سبحانه وتعالى فيها سنته بالإفناء والهلاك الذي يصاحبه الخراب والفقر، وقد كانوا يتمتعون بقوة اقتصادية كبيرة ومدينة ذات عماد عظيمة والتي قال عنها سبحانه: " الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ " (الفجر: ٨)، ومع هذه النعم والقوة كان الاستكبار والغرور الكبير، بل وقد دفعهم غرورهم بقوتهم وزهوهم بها إلى ما يوحى وينبئ بتماديهم في صلفهم " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً " (فصلت: ١٥) " وهذا غاية الاستكبار والطغيان؛ إذ إنهم لما وجدوا أنفسهم في قوة من الدنيا ظنوا أنهم ليس أحد أقوى منهم، وهذا من جهلهم وسفاهتهم " ١.

(١) عبد الرحمن بن حسن النفيسة، التفسير المبين، مرجع سابق، المجلد الثامن، ص ٦٩.

(٢) وعن الاستكبار والعلو والطغيان السياسي لفرعون وهامان قال تعالى: " قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (غافر: ٢٩)، ومعنى قوله " إنني ما أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقدُه نافعًا وإنه هو الصواب والرشد بلا شك أو جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟ ! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا ؟ ! وإلا فلم كانوا طغاة؟ " (١).

ويجيء عقاب الطغاة المتكبرين، قال تعالى: " وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) " (العنكبوت: ٣٩، ٤٠)، وهؤلاء أفراد ضرب الله بهم مثلاً في الاستكبار والتعالي والاستكبار فأخذهم الله بطرق مختلفة كلها أدت لهلاكهم وفنائهم وفقرهم مما كانوا فيه من نعم وخيرات، فنجد قارون كان يتمتع بقوة اقتصادية عظيمة حتى إن الله تعالى قال فيه وفي كثرة أمواله: " وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ " (القصص: ٧٦)، وكذلك فرعون وهامان وهما ملك ووزير مصر، وهي دولة ذات نعم كثيرة، حتى إن الله لم يذكر بالقرآن كلمة خزائن إلا له سبحانه، ولكنه عندما تحدث عن خزائن الأرض كانت لمصر في قصة يوسف عليه السلام قال تعالى: " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ " (يوسف: ٥٥)، وكان فرعون هو الملك لهذه الدولة العظيمة، حتى إنه قال: " وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ " (الزخرف: ٥١)، وكان هامان وزير

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص ٣٨.

مصر في عصر فرعون، وعندما أنزل الله هلاكه بهم تحول غناهم إلى فقر
بملاكهم بأموالهم أمام أقوامهم ليكونوا عظة لأن "هؤلاء الذين ملكوا القوة
والمال وأسباب البقاء والغلبة، فقد أخذهم الله جميعا بعد أن فتنوا الناس
وآذوهم" ^١.

(٣) وعن العلو والاستكبار قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ
قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو كُنَّا كَارِهِينَ " (الأعراف: ٨٨)، ويأتي عذاب
الله في القوم المتكبرين عقابًا لهم على استعلائهم وتكبرهم، قال تعالى: "
فَأَخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا
فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) " (الأعراف: ٩٢، ٩١)، والهلاك
الذي أصاب قوم شعيب نتيجة استكبارهم أدى لفنائهم لقوله تعالى: (كَأَن لَّمْ
يَعْنُوا فِيهَا) وهي دليل على الفناء من كل الإعمار والفقر الذي يصيب المكان
بالهلاك وتنزيل العقاب على الأقوم، " ففي ومضة ها نحن أولاء نراهم في
دارهم جاثمين لا حياة ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم
فيها آثار" ^٢.

ونلاحظ أن الأقوم الهالكة هي عبرة لمن يأتي، فإذا علموا أن الأقوم القوية بالاعتقاد
والتجارة أهلكوا وصاروا فقراء لعلمهم يتعظون، قال تعالى: " أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي
السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا " (فاطر: ٤٤).

(١) المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ٢٧٣٥.

(٢) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ١٣٢٢.

الخاتمة ونتائج البحث والتوصيات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد:

هذه الرسالة هي:

" السنن الإلهية وأثرها في التطور الاقتصادي في القرآن الكريم" (دراسة مقارنة بالفلسفة المعاصرة)

والسنن الإلهية هي القانون الذي وضعه الخالق لهذا الكون ليسير على مراد خالقه، وكذلك السنن الإلهية في المجال الاجتماعي هي قانون يحكم عملية التطور، وذلك حسب التزامنا بحسن التطبيق من حيث الأوامر والنواهي، وقد حدثت عوامل متعددة حالت دون تحويل السنن الإلهية إلى علم من العلوم الإسلامية، فكانت السنن في عصر الخلافة وما بعدها بعدة قرون ثقافة سننية يتمتع بها معظم المسلمين، ولكن مع مرور الزمن وبسبب عوامل متعددة تشتت الثقافة السننية في عقول المسلمين، ونحاول في هذا البحث جمع ما تشتت من هذا الفكر، وفي هذا البحث حاولت في جانب بسيط من موضوع السنن الإلهية أن أبحث عن تأثير السنن الإلهية على التطور الاقتصادي، وكان ذلك من خلال فصل تمهيدي به محاولة الكشف عن معنى التطور في الفلسفات الغربية، وكان ذلك من خلال فكر هيجل وماركس في العصر القديم وفي فكر فرنسيس فوكوياما من الفكر الحديث والذي أوقف التطور حتى نهاية التاريخ، وذلك لنحاول المقارنة بين التطور بفكرهم، والتطور بالفكر السنني.

ثم ذهبت إلى الفصل الأول لأشرح ماهية السنن، وبحث في فكر القدامى والمعاصرين عن السنن الإلهية.

وخصصت الفصل الثاني كاملاً لابن خلدون المفكر العربي الإسلامي للتعرف عليه وعلى مرجعيته، ولأستعرض فكره عن التطور وعن السنن الإلهية الفاعلة على التطور.

ثم انتقلت للفصل الثالث لاستخراج السنن الإلهية الفاعلة على التطور في اتجاه العمران مثل العمل وعلاقته بالرزق، والعدل وعلاقته بالأمن الاقتصادي، وكذلك لم أغفل الجانب الروحي من السنن الربانية الفاعلة على التطور فبحثت في دور الشكر والاستغفار في تحقيق الطمأنينة الاقتصادية، وذلك بعد شرح معنى العمران وأنواعه ومقوماته وشرح معناه في الفقه الإسلامي، ومقارنته بمصطلح التنمية في الفكر المعاصر، ومحاولة اقتراح سياسات لتفعيل العمران الإسلامي.

ثم انتقلت لتخصيص الفصل الرابع لاستخراج السنن الفاعلة على التطور في اتجاه الفساد العمراني وهو التطور السلبي الذي ساد في المجتمعات الإسلامية، وأفسد عمرانها وأدى أحياناً لهلاكها، فاستخرجت السنن التي تقول بأن الظلم الاقتصادي يؤدي إلى التطور السلبي للأمم بوقوع العذاب، وانتشار الفساد والبغي يؤدي للهلاك الاقتصادي، وكذلك الطغيان السياسي والعلويوقعان المجتمعات في الفقر.

وكانت نتائج البحث كالآتي:

- (١) إن التطور بالسنن الإلهية لا ينتج إلا عن طريق تغيير فكري، ويكون ذلك بإنشاء الفكر السنني في عقول أفراد المجتمع، ثم يتحول الفكر إلى تطور موضوعي، ويكون نتيجة التطبيق لهذا الفكر.
- (٢) التطور في الفكر الغربي القديم هو محاولة لتفسير عملية التطور، أما في الفكر الغربي الحديث فهو عملية لإيقاف الفكر تمامًا عن أنظمة تحكم التطور.
- (٣) لقد أسهم المفكرون الإسلاميون في موضوع السنن الإلهية، ولم يهملوه تمامًا، وذلك لأن الفكر والثقافة لهؤلاء المفكرين كانا مشبعين بموضوع السنن الإلهية، وظهر ذلك في جميع كتاباتهم ومنهم المفكر ابن خلدون.
- (٤) السنن الإلهية هي قواعد حاكمة فعلاً لعملية التطور في المجتمعات واتباع قواعدها يؤدي إما للعمرة أو لفساد العمرة.

توصيات البحث

- (١) عدم وقف التفكير في أنظمة أثبتت ضعفها وفشلها أحياناً في ضبط عملية التطور، والبحث عن أنظمة أخرى، ولا سيما في شريعتنا الإسلامية وكتابنا الحكيم وهي نظام السنن الإلهية لضبط التطور الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية.
- (٢) محاولة استخراج السنن الإلهية في جميع الفروع الكونية والاجتماعية وتحويلها إلى علم يجمع كل جهود العلماء والباحثين في هذا المجال، ويكون لهذا العلم تقسيمات وقواعد وأصول علمية يتركز عليها.
- (٣) تدريس علم السنن الإلهية في جميع مراحل التعليم بالتدرج حتى يتخرج لدينا جيل مكتمل عنده علم السنن الإلهية ومتشبع بالثقافة السننية، ويحسن تطبيقها وفهمها.

- ٤) محاولة نشر الثقافة السننية من خلال استخراجها من فكر السابقين وتبسيطها وتقديمها في ندوات وبرامج وطبع كتيبات صغيرة سهلة التداول للأفراد محدودي التعليم في محاولة لنشر الثقافة السننية في المجتمع الإسلامي.
- ٥) محاولة وضع العلم السنني في قوانين وضعية تجرم ما جرمه الله وتعاقب عليه حتى يكون الجزاء مضاعفًا على المخالف لتطبيق علم السنن الإلهية، فيكون جزاءً بشريًا بالقوانين الوضعية، وجزاءً دنيويًا بما يترتب على مخالفة السنن الإلهية من هلاك وفقر وغير ذلك، وجزاءً أخرويًا وهو عذاب النار.

ملحق الأعلام

مرتب ترتيبًا أبجديًا

ابن تيمية:

هو الإمام أحمد تقي الدين أبو العباس حجة الإسلام في عصره، والده شهاب الدين أبو المحاسن عبد الحلیم، شيخ دار الحديث بدمشق، يصفه المؤرخون بأنه صاحب العقل الرشيد، والمنطق السديد، والمؤلفات المحلقة، " ولد تقي الدين ابن تيمية عام ٦٦١ هجرية، ولد على ثرى "حران" مدينة الفلسفة والفلاسفة والتي كانت تتصارع الأراء فيها فلا تهدأ، واتفق المؤرخون على دور أمه الكبير في تربيته وتنظيم تفكيره، وجده مجد الدين أبو البركات عبد السلام ابن أبي محمد، صاحب المصنفات الكثيرة والمؤلفات العظيمة، ومن هذه الأسرة الكريمة التي كانت تقطن مدينة حران، ومع هجوم التتار على حران اضطرت أسرته إلى الفرار بحثًا عن الأمن والأمان، وكان في السابعة من عمره.

واستقر بهم المقام في دمشق عاصمة الأمويين، وما كادت دمشق تسمع بوصول الشيخ شهاب الدين والد تقي الدين حتى بادرت باستقباله؛ لأن علمه وفقهه الواسع قد سبقاه إلى هناك.

وتولى الشيخ شهاب الدين مشيخة دار الحديث، وبها صار مسكنه، ونقل إليها مكتبته ومؤلفاته، ونشأ ابن تيمية في رعاية والده العالم الجليل، فحفظ القرآن في سن مبكرة، وكان في دار الحديث جالساً مصغياً لشرح المسانيد والسنن والصحاح ومسند الإمام ابن حنبل وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وسمع كل ذلك وغيره مرات ومرات من والده ومن الشيخ النووي وغيرهم...، ودرس علومًا أخرى بجانب علوم الشريعة، مثل الرياضة والجبر وعلوم اللغة العربية، وقد برع في علم النحو براءة واضحة؛ فقد كان طالبًا ومعلمًا وفاحصًا وناقداً، ودرس كل المعارف الإنسانية في عصره، ثم عكف على كتب التفاسير.

ومن أهم أعماله:

" كتاب الإيمان "، " اقتضاء الصراط المستقيم "، " الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان "، " العقل والنقل "، " الرد على الفلاسفة "، " إثبات المعاد "، " ثبوت النبوءات عقلاً ونقلاً "، " إثبات الصفات "، " العرش "، " خلق الأفعال "، " كتاب الأسماء والصفات "، " توحيد الألوهية "، " توحيد الربوبية "، " القدر "، " التوحيد "، " منهاج السنة النبوية "، " كتاب الدرّة المضيئة

في فتاوى ابن تيمية "، " الاستقامة "، " كتاب التفسير الكبير "،^١، وتوفي ابن تيمية سنة ٧٢٨ هجرًا.

الإمام أبو حامد الغزالي:

ولد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي حجه الإسلام وزين الدين في مدينة طوس سنة ٤٥ هجرًا، والتي كانت ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور، وقد دمرت جحافل المغول مدينة طوس تدميرًا لم تنهض منه بعد ذلك أبداً. وفي سنة ٤٨٤ هجرًا توجه للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد بتكليف من نظام الملك. وفي سنة ٤٨٨ للهجرة بدأت أزمته النفسية التي استمرت ستة أشهر أي حتى أوائل سنة ٤٨٩ للهجرة، وترك التدريس بنظامية بغداد، وسلك طريق التزهّد والانقطاع، وفي سنة ٤٨٩ للهجرة قدم دمشق وأقام بها مدة قصيرة ورحل من دمشق إلى بيت المقدس.

وأخذ في تصنيف كتاب الإحياء في القدس. وفي أواخر هذه السنة عاد إلى دمشق من رحلة القدس، واعتكف بالمنارة الغربية، فكان يصعد بالمنارة طول النهار ويغلق بابها على نفسه حتى عام ٤٩ للهجرة وأتم كتاب الإحياء.

ومن أهم أعماله:

" إحياء علوم الدين و" الاقتصاد في الاعتقاد " و" جواهر القرآن " و" المنقذ من الضلال " و" التعليقة في فروع المذهب " و" المنحول في الأصول " و" البسيط في الفروع " و" الوسيط " و" الوجيز " و" تحافت الفلاسفة "

(١) انظر: الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية، التفسير الكبير، تحقيق وتعليق: عبد الرحمن عميرة، مرجع سابق، الجزء الأول.

و"فتاوى الغزالي" و"مقاصد الفلاسفة"، وفي سنة ٥٠٥ هجريًا (يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخر - ١٨ ديسمبر ١١١) توفي أبو حامد الغزالي بطوس، ودفن، ولم يعقب إلا البنات^١.

ابن حزم:

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن صفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أميه بن عبد شمس الأموي.

أصل آبائه من قريه أقليم الرواية من كورة نبلة من غرب الأندلس، وأول من دخل الأندلس من أجداده خلف كان مولده بقرطبة آخر يوم من شهر رمضان ٣٨٣هـ، وكان أبوه أبو عمر وأحمد بن سعيد أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن عبد الله بن أبي عامر لابنه المظفر بعده.

أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن، وأوغل في الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس قبله، وقد ناظر البلجي شارح الموطأ فقال له البلجي: أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بئت لسوق، فقال ابن حزم: هذا كلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال برجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة فأفحمه.

(١) انظر: الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ص ٨:٣.

كان ابن حزم يحمل العلم ويجادل به من يخالفه، فنفرت عنه القلوب، وأبعد عن وطنه، وقاموا بحرق مؤلفاته ومزقوها علانية أمامه.

وكان للعلماء آراء فيه؛ فقال ابن بشكوال في حقه: كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه في البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار، وقال عنه أيضاً أبو مروان ابن حيان: كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بالأدب مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في ذلك كتب كثيرة، وقال عنه الغزالي رحمه الله: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

ومن آثاره العلمية:

" الأخلاق والسير "، " أسماء الله الحسنى "، " الأصول والفروع "، " جمهرة الأنساب "، " طوق الحمامة في الألفة والألاف "، " والأحكام في أصول الأحكام "، " تهذيب النفوس "، " الفصل في الملل والأهواء والنحل " وهو كتاب لم يسبق له مثيل في الفكر العالمي، عرض فيه مختلف الطرق الإسلامية، وعرض للديانتين اليهودية والنصرانية.^١

(١) انظر: الإمام أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والالاف، مرجع سابق.

دارون:

هو تشارلز روبرت داروين، نشأ في الريف وكان شاباً قوياً ونشيطاً، وقد التحق ببعثة علمية قامت برحلة حول الأرض على متن سفينة " البيجل " لدراسة التاريخ الطبيعي، واستمرت الرحلة لخمس سنوات، اشتهر بتأسيسه لنظرية التطور، وتوفي ١٩ أبريل ١٨٨٢^١.

ابن كثير:

هو عماد الدين إسماعيل بن عمر، يكنى أبا الفداء، ويعرف بابن كثير، ولد عام ٧٠١ هجرية بقرية (مجيد) في نواحي بصرى الشام، وتوفي في شعبان ٧٤٧ هجرية، ودفن بدمشق، وكان والده خطيباً، انتقل إلى دمشق عام ٧٠٦ هجرية، وكان ابن كثير من أخص تلاميذ العلامة المزني، وكان العلامة الذهبي يعترف بفضل ابن كثير، وأعجب به ابن حجر العسقلاني، وكان ابن كثير متأثراً وشديد الإعجاب بابن تيمية^٢.

وقد نشأ في أسرة علمية متدينة فكان أبوه فقيهاً أديباً شاعراً، ثم صار خطيباً في القرية، وعندما وصل إلى سن السابعة رحل مع أخيه إلى دمشق التي كانت مركز الحضارة، وكان أخوه بمثابة الأب والأستاذ الأول (عبد الوهاب بن عمر بن كثير)، والذي ظل يألزمه ويأخذ منه طوال حياته وهو يعتبر من شيوخه، ومن شيوخه أيضاً القاسم بن عساكر، وكذلك ابن تيمية، وأيضاً الحافظ أبو

(١) انظر : تشارلز دارون، أصل الأنواع، ترجمة: مجدى محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، الإصدار السادس (١٨٨٢م).

(٢) انظر: السيد أبو الحسن على الحسينى الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الثالثة، (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)، ص ٧٣٩:٧٤٢.

الحجاج المزني، وغيرهم، وقد حفظ ابن كثير القرآن وختمه، واهتم بدراسة العلوم العربية التي تعتبر المساعد الأول للعلوم الشرعية، والوسيلة الأساسية لفهم القرآن وتفسيره، وقد ترقى في تحصيل العلوم الشرعية والعربية حتى بلغ القمة وصار يشار إليه بالبنان^١.

وكان ابن كثير منصرفاً بشكل كلي للناحية العلمية وعازفاً عن المناصب الرسمية أو الوظائف الحكومية، وقد أعطى التدريس كل اهتمامه وعمل بالفتوى والتأليف.

ومن أهم أعماله:

" تفسير القرآن العظيم "، " البداية والنهاية "، " السيرة النبوية "، " طبقات الشافعية ومعه مناقب الشافعية "، " الفصول في سيرة الرسول (السيرة الصغرى) "، " فضائل القرآن "، " قصص الأنبياء "، " شعب الإيمان "، " مسند الشيخين "، " تخريج أحاديث (مختصر ابن الحاجب) في أصول الفقه "، " تخريج أحاديث أدلة (التنبيه) في فروع الشافعية ".

ماركس:

هو كارل ماركس، ولد ١٨١٨م في ألمانيا لعائلة يهودية، وعندما كان صغيراً ترك والده يهوديته بسبب اضطهاد اليهود، بعد إتمام تعليمه الأولي قضى سنة بجامعة بون وأربع سنوات بجامعة برلين، وحصل على دكتوراه في الفلسفة، وأثناء شبابه كان على صلة بشباب هيجلي، وكان شخصية ثورية، وعمل

(١) انظر: محمد الرخيلي، أعلام المسلمين ابن كثير الدمشقي (الحافظ - المفسر - المؤرخ - الفقيه)، دار القلم، دمشق،

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، ص ٤٧:٩٦.

بالصحافة واشتغل بالكتابة عن نقد فلسفة هيغل، هاجر إلى باريس، ثم انتقل إلى عدة أماكن حتى وصل إلى لندن حيث بقي هناك إلى أن توفي عام ١٨٨٣م^١.

مالك بن نبي:

ولد مالك بن نبي سنة ١٩٠٥م بالجزائر وترى في بيت عمه في أول عمره في قسنطينة، ثم بعد وفاة عمه انتقل إلى تبسة في ظروف قاسية تمر بها أسرته، وقد أرسلوه إلى المدرسة الفرنسية، وكان يتابع حفظ القرآن الكريم، ولكنه انقطع عن قراءة القرآن وتعلمه لصعوبة متابعة النشاطين القرآن والمدرسة، وساءت بهم الحياة بتبسة فأرسلته أمه إلى قسنطينة، وساءت حالته الدراسية بسبب تدليل زوجة عمه له فعاد مرة أخرى. يقول مالك بن نبي أنه قرأ كتابين في فترة الدراسة أثروا على اتجاهه الفكري، هما " الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق " لأحمد ضياء، وكتاب " رسالة التوحيد " للإمام محمد عبده.

وبعد انتهائه من الثانوية عمل متطوعا في محكمة تبسة، ثم موظفا في محكمة أفلو ثم محكمة شاتوران ثم استقال وتوجه لفرنسا عام ١٩٣٠م، وانتسب للمعهد اللاسلكي وتخرج عام ١٩٣٥م مهندسا كهربائيا، وقد قال عن دراسته أنها "فتحت لي عالما جديدا يخضع فيه كل شئ إلى المقياس الدقيق للكم والكيف، ويتسم فيه الفرد أول ما يتسم بميزان الضبط والملاحظة".

(١) انظر: رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق.

بعد تخرجه حاول العمل بالدول العربية، ولكنه لم يستطع، ثم ذهب لفرنسا مودعا الجزائر بهذه الكلمات: " يا أرضا عقوقا تطعمين الأجنبي، وتتركين أبناءك للجوع، لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة "، واستمر بفرنسا حتى عام ١٩٥٦م أنتج فيها باللغة الفرنسية " الظاهرة القرآنية " و" وشروط النهضة " و" وجهة العالم الإسلامي " و" الفكرة الأفريقية الآسيوية ".

زار مصر عام ١٩٥٦م، واستمر فيها حتى عام ١٩٦٣م، وكان له تلاميذ وأصدقاء في القاهرة، وعمل بالمؤتمر الإسلامي بمصر، وأنتج " حديث في البناء الجديد " و" مشكلة الثقافة " و" في مهب المعركة " و" تأملات في المجتمع العربي ". ثم عاد إلى الجزائر ١٩٦٣م بعد الاستقلال، وعين مديرا للتعليم العالي، وأصدر بالجزائر " آفاق جزائرية " و" يوميات شاهد القرن " و" مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " و" المسلم في عالم الاقتصاد ".

ثم استقال من منصبه عام ١٩٦٧م وتفرغ للعمل الفكري.

أصيب بالمرض وسافر لفرنسا للعلاج، ثم عاد للجزائر بعد أن نصحه الأطباء بالعودة، وبعد العودة بثمانية أيام توفي بمنزله في الجزائر ١٢/٣١/١٩٧٣م.^١

الشيخ محمد رشيد رضا:

محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا على خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجله المنار وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب

(١) انظر: مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ جريا -

١٩٨٤م).

والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون (وهي الآن بלבنا)، وتعلم فيها وفي طرابلس، وتنسك ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف. ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هجريا فلزم الشيخ محمد عبده، وتلمذ له وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت، ثم أصدر مجله "المنار" لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة.

ولما أعلن الدستور العثماني (١٣٢٦ هجريا) زار بلاد الشام واعترضه في دمشق وهو يخطب على منبر الجامع الأموي أحد أعداء الإصلاح، فكانت فتنة عاد على أثرها إلى مصر وأنشأ مدرسة "الدعوى والإرشاد"، ثم قصد سوريا في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري فيها، وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٠٢م، فأقام في وطنه الثاني مصر مدة ثم رحل إلى الهند والحجاز وأروبا، وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في سيارة كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة، ودفن بالقاهرة.

أشهر أعماله:

مجلة " المنار " أصدر منها ٣٤ مجلدا، و " تفسير القرآن الحكيم "، اثنا عشر مجلدا ولم يكمل فيه تفسير القرآن بالكامل، و " تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده " ثلاثة مجلدات، و " ندا للجنس اللطيف "، و " الوحي المحمدي "، و " يسر الإسلام وأصول التشريع العام " و " الخلافة " و " الوهابيون والحجاز " و " محاولات المصلح والمقلد " و " وذكرى المولد النبوي " و "

شبهات النصارى وحجج الإسلام " و " وللأمير شكيب رسلان كتاب في سيرته سماه " السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة " ١.

سيد قطب:

هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد في قرية "موشة" إحدى قرى محافظة أسيوط يوم ١٩/١/١٩٠٦م، عاش

طفولته وصباه في قريته، وتلقى فيها دراسته الابتدائية، سافر إلى القاهرة عام ١٩٢٠م وأقام عند خاله "أحمد حسين عثمان" وعن طريقه تعرف على حزب الوفد، وعلى "عباس محمود العقاد"، التحق بمدرسة المعلمين الأولية، ونال منها إجازة "الكفاءة" للتعليم الأولي ثم التحق بتجهيزية دار العلوم.

دخل كليه دار العلوم عام ١٩٢٩م وتخرج منها عام ١٩٣٣م، يحمل شهادة "البكالوريوس" في الأدب.

عمل مدرسا في وزارة المعارف لمدة ست سنوات، وانتقل لوزارة المعارف، وعمل بعدة وظائف، ثم أوفدته وزارة المعارف لأمريكا للاطلاع على المناهج هناك فأقام هناك سنتين. في عام ١٩٥٠م وبعد خدمته تسعة عشرة عاما اختلف مع موظفي وزارة المعارف فقدم استقالته.

انتظم سيد قطب في شبابه مع حزب الوفد، ثم انتقل إلى تنظيم جماعة الاخوان المسلمين وأمضى بقية عمره معها.

(١) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار، مرجع سابق، الجزء الأول.

مارس سيد قطب النقد الأدبي لسنوات عديدة، ونظم قصائد شعرية، ودرس القرآن الكريم دراسة أدبية نقدية، وقد نقله القرآن الكريم إلى طريق الدعوة، بشر بالثورة ودعا لها وكان من أوائل ضحاياها حيث قام رجال الثورة بالبطش والتنكيل به وبجماعه الإخوان المسلمين، حكمت عليه محكمة الثورة بخمسة عشرة عاما قضى معظمها في مستشفى السجن، ثم أفرجوا عنه بعفو صحي بعد تدخل الرئيس العراقي "عبد السلام عارف".

لم يعيش خارج السجن شهوياً حتى عاد إليه مع عشرات من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، وفي عام ١٩٦٥م أتهم بتكوين تنظيم جديد، عذب عذاباً شديداً ثم حكم عليه بالإعدام، وقبل فجر يوم ١٩٦٦/٨/٢٩م نفذ فيه حكم الإعدام^١.

وقد ترك سيد قطب عدداً كبيراً من الكتب والدواوين الشعرية، وتسعة وعشرين كتاباً في الأدب والنقد والفكر الإسلامي، من أهمها تفسيره " في ظلال القرآن " و " مشاهد القيامة في القرآن " و " التصوير الفني في القرآن " و " الإسلام ومشكلات الحضارة " و " خصائص التصور الإسلامي ومقوماته " و " هذا الدين " و " معالم في الطريق " و " المستقبل لهذا الدين " و " العدالة الاجتماعية في الإسلام " و " نحو مجتمع إسلامي " و " السلام العالمي والإسلام " و " معركتنا مع اليهود " .

(١) انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م)، ص ١٥ : ١٧.

الإمام محمد عبده:

محمد عبده حسن خير الله، ولد في قرية "محلة نصر" بمركز "شبرا خيت" محافظه البحيرة سنة (١٢٦٦ - ١٨٤٩م)

لأسرة تعتز بكثرة رجالها ومقاومتهم لظلم الحكام وتعرضهم للهجرة والسجن والتشريد وضياع الثروة.

تلقى تعليمه الأولي للقراءة والكتابة، وحفظ القرآن بالقرية وهو في السابعة من عمره. وفي سنة ١٨٦٤م بدأ يتلقى دروسه الأزهرية في الجامع الأحمدى بطنطا. وفي فبراير ١٨٦٦م ذهب إلى الأزهر، ولكنه بعد لقائه بالأفغانى ودع دروس الأزهر، وانتقل به الأفغانى من التصوف إلى الفلسفة الصوفية، وأول ما نشر له كان بعدد الأهرام الأول سنة ١٨٧٦م، وكان عمره سبعة وعشرين عاما.

ودخل امتحان العالمية سنة ١٨٧٧م، ونالها من الدرجة الثانية.

وفي سنة ١٨٧٨م عين مدرسا للتاريخ بمدرسه دار العلوم.

وفي عام ١٨٧٩م عزل الإمام من منصب التدريس وحددت إقامته بقريته "محلة نصر" وفي عام ١٨٨٠م استصدر رياض باشا له عفواً وعينه محرراً ثالثاً في (الوقائع المصرية)، وفي أكتوبر من نفس العام عين رئيساً لتحريرها، وكانت أبرز أعماله في هذه المرحلة هي مقالاته وأغلبها نشر في الوقائع المصرية.

وفي سنة ١٨٨٢م ذهب لبيروت منفياً، وكان عمره أربعة وثلاثين عاما.

ثم لحق بجمال الدين الأفغانى بباريس عام ١٨٨٣م وقام بأخراج جريدة العروة الوثقى، واشتغل في التنظيم السرى للعروة الوثقى كنائب للرئيس.

زار لندن داعياً لجلاء الإنجليز عن مصر، ثم ذهب لبيروت، وعمل بالمدرسة السلطانية ببيروت عام ١٨٨٦م، وبدأ يفسر القرآن بمنهج عقلي، ثم صدر له عفو، وعاد إلى مصر عام ١٨٨٩م، وعين قاضياً بمحكمة بنها ثم انتقل لمحكمة الرقازيق ثم محكمة عابدين كمستشار تحقيق في الاستئناف. ^١

وكانت حياة الإمام غاية في الثراء الفكري والنشاط الثقافي والاجتماعي، سواء في مصر أو في فرنسا، وقد أسس مع أستاذه جمال الدين الأفغاني صحيفة أسبوعية معروفة باسم العروة الوثقى، والتي كان هدفها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية والدفاع عن الشرقيين، وكذلك محاربة التسلط والظلم والدعوة للتخلص من الاحتلال الإنجليزي، وهي أول صحيفة عربية تظهر في أوروبا.

للإمام آراء كثيرة في مجال الإصلاح الأخلاقي وتفسير القرآن وإصلاح الأزهر وكان الإمام صاحب نظرة تجديدية لا ترفض التراث جملة وتفصيلاً، بل تدعو لتطويره حتى يتناسب مع العصر الذي نعيش فيه. ^٢

من أبرز أعماله:

"رسالة التوحيد" و"الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية"، و"أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" للرجائي. و"البصائر القصيري" للطوسي.

وقام بشرح "نهج البلاغة" للإمام علي بن أبي طالب.

(١) انظر: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق: محمد عمارة، مرجع سابق، من ص ٢٥: ص ٣٨.

(٢) انظر: الإمام محمد عبده، الإسلام دين العلم والمدنية، تحقيق: عاطف العراقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (١٩٩٨م).

وفي الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو ١٩٠٥م توفي الإمام بالإسكندرية عن سبعة وخمسين عامًا عن حياة فكرية خصبة وجهود في التربية والإصلاح.

هيجل:

هو فيلسوف ألماني ولد في ٢٧ اغسطس ١٧٧٠م بمدينة إشتوتجارت بألمانيا، ويلاحظ أنه " ليس في حياة هيجل أحداث شخصية هامة أو تجارب وجودية عنيفة، وإنما تبدو سيرته بمثابة ترقٍ طبيعي هادي أو تطور عادي سليم... وكان يتسم بخلق جاد، وشكيمة صارمة حتى لقد ذهب البعض إلى أنه لم يعرف مطلقًا حياة الصبا بما فيها من سذاجة وتلقائية وانطلاق... ولم يكن فيلسوفًا انعزاليًا أو مجرد أستاذ جامعي منطوٍ على نفسه، وإنما كان أيضًا رجلًا اجتماعيًا يهتم بأحداث السياسة وأخبار المجتمع" ^١.

وتوفي هيجل سنة ١٨٣١م مصابًا بمرض الكوليرا.

(١) زكريا إبراهيم، هيجل والثالية المطلقة، دار مصر للطباعة، المجلد الثاني، ص ٣٣:٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

قد قمت بترتيب قائمة المصادر والمراجع حسب الحروف الأبجدية بعد حذف حرفي الألف واللام من كل كلمات العنوان، وكذلك حذف حرف الواو بين الكلمات، وكذلك حذفت حرف ل، وكذلك حذفت ابن، وكانت المراجع كالتالي:

- القرآن الكريم

(أ)

- ١- الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، مصطفى محمد منجود، المعهد العالي للفكر الإسلامي القاهرة، ط١، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- ٢- اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، عبد الباسط عبد المعطي، الناشر عالم المعرفة.
- ٣- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار التقوى للتراث، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ٤- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن الماوردي، دار اقرأ، بيروت، ط٤، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- ٥- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٢، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- ٦- أسباب هلاك الأمم وسنة الله في القوم المجرمين والمنحرفين، عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية بيروت - لبنان، ط٣، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- ٧- الاستبداد وأثره في تخلف الأمة، توفيق الفيل، المؤتمر الدولي الثامن للفلسفة الإسلامية، جامعة القاهرة.
- ٨- الاستثمار في الاقتصاد الإسلامي، أميرة عبد اللطيف مشهور، الناشر مكتبة مدبولي، ط١، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

- ٩- الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، ط٣، (١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).
- ١٠- الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة القاهرة، ط٢، (١٣٨٠هـ - ١٩٦١م).
- ١١- الإسلام بين العلم والمدنية، الإمام محمد عبده، دار المدى للثقافة والنشر سوريا - دمشق، ط١، (١٩٩٣م).
- ١٢- الإسلام دين العلم والمدنية، الإمام محمد عبده، تحقيق: عاطف العراقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٩٩٨م).
- ١٣- الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، يوسف كمال، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط٢، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- ١٤- أصل الأنواع، تشارلس دارون، ترجمة: مجدى محمد المليجي، المجلس الاعلى للثقافة، الإصدار السادس (١٨٨٢م).
- ١٥- أصول تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، دار ابن كثير دمشق - بيروت، ط١، (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- ١٦- إعلام المسلمين ابن كثير الدمشقي (الحافظ - المفسر - المؤرخ - الفقيه)، محمد الرخيلي، دار القلم دمشق، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ١٧- إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي، زياد خليل الداغمين، إسلامية المعرفة، السنة الرابعة عشرة، عدد ٥٤، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- ١٨- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق، ط٢، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ١٩- الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي: السياسية، والوطنية، والتربية، تحقيق: محمد عمارة، دار الشروق.
- ٢٠- الاقتصاد الإسلامي بين الفكر والتطبيق، حسين حسين شحاتة، دار النشر للجامعات، ط٢، (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

- ٢١- الاقتصاد السياسي، رفعت المحجوب، دار النهضة العربية.
- ٢٢- الأمر بين الأمرين دراسة في مسألة الجبر والاختيار، مركز الرسالة، سلسلة المعارف الإسلامية.
- ٢٣- الأمن الاقتصادي في القرآن الكريم، محي الدين يعقوب أبو الهول، جامعة العلوم الإسلامية الماليزية، كلية الشريعة والقانون.
- ٢٤- الأمن في حياة الناس وأهميته في الإسلام، عبد الله بن عبدالمحسن التركي، www.al-islam.com بتاريخ ١/٢٦ / ٢٠١٤.
- ٢٥- انطلاق التنمية بين النظريات الوضعية ومنهج الاقتصاد الإسلامي، مصطفى عبد اللطيف، بن سانية عبد الرحمان، جمهورية الجزائر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي المركز الجامعي غرداية، معهد العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، (٢٣/٢٤ فبراير ٢٠١١).
- ٢٦- الإيمان وأثره في حياة الإنسان، حسن الترابي، دار القلم الكويت، ط٢، (١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م).

(ب)

- ٢٧- بحث الطغيان السياسي وسبل تغييره من المنظور القرآني، عبد الرحمن عمر أسبندارى، islamstory.com/ar بتاريخ (٢٦/٥/٢٠١٤م/١٤٣٥هـ).
- ٢٨- التنمية في الإسلام مفاهيم مناهج تطبيقات، إبراهيم العسل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).

(ت)

- ٢٩- تاريخ الفكر الاقتصادي، رفعت السيد العوضي، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).
- ٣٠- تاريخ الفكر العربي في أيام ابن خلدون، عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط٤، (إبريل ١٩٨٣ م).

- ٣١- تجديد الفكر الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: عباس محمود، دار الهداية للطبع والنشر، ط٢، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ٣٢- التخطيط الإستراتيجي لتحقيق الأمن الاقتصادي والنهضة المعلوماتية، المملكة العربية السعودية، سعيد على حسن القليطي، أستاذ الهندسة الصناعية بجامعة الملك عبد العزيز، بحث مقدم لمؤتمر تقني للمعلومات والأمن الوطني بالرياض (٢٠٠٧م).
- ٣٣- التراث والتطور، إحسان تراقي، ترجمة: عبد الوهاب علوب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط١، (١٩٩٨م).
- ٣٤- التسعير في الفقه الإسلامي، أحمد حسن، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد ٢٢، العدد الأول (٢٠٠٦م).
- ٣٥- التطور والثبات في الحياة البشرية، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة (٢٠٠٩م)
- ٣٦- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عبد الرحمن بن خلدون، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر (١٩٧٩م)
- ٣٧- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر.
- ٣٨- تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولى الشعراوي، اخبار اليوم، قطاع الثقافة والكتب والمكتبات.
- ٣٩- تفسير فخر الدين الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر.
- ٤٠- تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الهدى مصر، ط١، (٢٠٠٥م).
- ٤١- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار التوفيقية للطباعة بالقاهرة.

٤٢- تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دار الحديث القاهرة، ط٢، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

٤٣- التفسير الكبير للإمام تقي الدين ابن تيمية، تحقيق وتعليق: د عبد الرحمن عميرة، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

٤٤- التفسير المبين، عبد الرحمن بن حسن النفيسة، الدار التدمرية للنشر والتوزيع بالرياض.

٤٥- التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

(ج)

٤٦- الجامع لأحكام القرآن، الإمام القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

٤٧- جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للنشر والتوزيع جدة، ط٢، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م).

٤٨- جغرافيا العالم الإسلامي، محمد صبحي عبد الحكيم، المعهد العالي للدراسات الإسلامية، (٢٠٠٧ / ٢٠٠٨).

٤٩- جغرافيا العمران عند ابن خلدون، عبد العال الشامي، سلسلة علمية تصدر عن وحدة البحث والترجمة قسم الجغرافيا جامعة الكويت.

٥٠- الجواهر في تفسير القرآن الكريم، الشيخ طنطاوي جوهر، مطبعة مصر البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢ (شوال ١٣٥٠هـ).

(ح)

٥١- الحرية الاقتصادية في الإسلام وأثرها في التنمية، سعيد أبو الفتوح محمد بسيوني، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط١، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

٥٢- الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، الإمام أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، دار الكتب العلمية، لبنان.

٥٣- حصاد الغرور، الشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، ط٢، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

٥٤- الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية، رحيل محمد غرابية، دار المنار للنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

٥٥- الأحكام السلطانية والولاية الدينية، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الناشر مكتبة دار ابن قتيبة الكويت، ط١، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(خ)

٥٦- خصائص النظام الاقتصادي في الإسلام، زيد بن محمد الرماني، كتاب يصدر عن رابطة العالم الإسلامي العدد ١٧٥٥، السنة الخامسة عشر (رجب ١٤٠٧).

٥٧- ابن خلدون إسلامياً، عماد الدين خليل، المكتب الإسلامي بيروت، ط١، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٥٨- ابن خلدون والمادية التاريخية، أيمن فتحي الحجاوي، كتاب من المؤتمر العلمي الدولي (ابن خلدون علامة الشرق والغرب) كلية الآداب قسم الاجتماع، جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، (تشرين الأول ٢٠١٢م).

٥٩- ابن خلدون مؤرخاً، حسين عاصي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).

(د)

٦٠- دارون ونظرية التطور، شمس الدين قبلوت، ترجمة عن التركية: أورخان محمد علي، دار الصحوة القاهرة، ط٧، (١٩٨٠م).

٦١- دراسات هيجلية، إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع (١٩٨٤م).

٦٢- دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية، علي خليفة الكواري، عالم المعرفة، (١٤٢٣هـ).

(ر)

- ٦٣- رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن على الحسيني الندوي، دار ابن كثير دمشق، ط٣، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).
- ٦٤- رسائل الجزائري، أبوبكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم الحكم المدينة المنورة، ط٢، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- ٦٥- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(ز)

- ٦٦- الزكاة ودورها في علاج المشكلات الاقتصادية وشروط نجاحها، يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط١، (٢٠٠١م).

(س)

- ٦٧- سنة الله في عقاب الأمم في القرآن، عبد السلام نصر الله الشريف، دار المعارج الدولية للنشر، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- ٦٨- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).
- ٦٩- السنن الإلهية في الأمم والأفراد، مجدى محمد محمد عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ٧٠- السنن الإلهية في القرآن الكريم، مجدى محمد محمد عاشور، وزارة الاوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، دراسات إسلامية، عدد ١١١، (رمضان ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- ٧١- السنن الإلهية في الميدان الاقتصادي، يوسف إبراهيم يوسف، مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي، ط٢، (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

- ٧٢- السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- ٧٣- السنن الربانية في التصور الإسلامي، راشد سعيد شهوان، الأكاديميون للنشر والتوزيع، ط١، (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
- ٧٤- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالي للفكر الإسلامي، (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- ٧٥- سياسات التشغيل وتوظيف الموارد في الاقتصاد الإسلامي، حاتم القرناشوي، وقائع ندوة السياسة الاقتصادية في الإسلام، رقم ٣٦ (مايو ١٩٩١م).
- ٧٦- السياسة الاقتصادية في إطار مقاصد الشريعة الإسلامية، تقديم: هادف حيزية، وهراني عبد الكريم، الملتقى الدولي الأول لمعهد العلوم الاقتصادية الإسلامي، الواقع...ورهانات المستقبل، (٢٣- ٢٤ فبراير ٢٠١١).
- ٧٧- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، أبو العباس أحمد بن تيمية، دار الشعب، القاهرة، (١٩٧١م)
- ٧٨- سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم دمشق، الدار الشامية بيروت، ط٢، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)
- ٧٩- سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم، محمد عزة دروزة، منشورات المكتبة المصرية، بيروت.

(ص)

- ٨٠- صحيح البخاري، الإمام البخاري، دار الفجر للتراث، ط٢، (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

(ط)

- ٨١- طوق الحمامة في الألفة والألاف، الإمام ابن حزم الأندلسي، مكتبة عرفة، بدمشق.

(ع)

- ٨٢- عبد الرحمن بن خلدون: حياته وأثره ومظاهر عبقريته، على عبد الواحد وافي، مكتبة مصر.
- ٨٣- عبقریات ابن خلدون، على عبد الواحد وافي، شركة مكنتبات عكاظ للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)
- ٨٤- العدالة الاجتماعية والتنمية في الاقتصاد الإسلامي، عبد الحميد براهيمى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، (١٩٩٧م).
- ٨٥- علماء المسلمين وعلم الاقتصاد (ابن خلدون مؤسس علم الاقتصاد)، شوقي أحمد دنيا، دار معاذ للنشر والتوزيع (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- ٨٦- العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون، سفيتلانا باتسييفا، ترجمة: رضوان ابراهيم، الدار العربية للكتاب ليبيا / تونس (١٩٧٨هـ - ١٣٨٩م).
- ٨٧- علم المقاصد الشرعية، د/ نور الدين بن مختار الخادى، الناشر مكتبة العبيكان الرياض، ط١، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

(ف)

- ٨٨- فقه السنة، السيد سابق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٥، (١٣٩١هـ - ١٩٧١م).
- ٨٩- الفكر المقاصدى: قواعده وفوائده، أحمد الريسونى، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء (ديسمبر ١٩٩٩م).
- ٩٠- الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، محمد بكر إسماعيل، دار المنار للنشر، ط٢، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- ٩١- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد: طه حسين، مطبعة الاعتماد مصر، ط١، (١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م).
- ٩٢- الفوائد، للإمام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

- ٩٣- فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار نشر مكتبة أضواء السلف، ط١، (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).
- ٩٤- في تراثنا العربي الإسلامي، توفيق الطويل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- ٩٥- في سنن الله الكونية، محمد أحمد المغراوي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م).
- ٩٦- في الطغيان والاستبداد والديكتاتورية (بحث فلسفي في مسألة السلطة الكلية)، دولة حضر خناقر، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- ٩٧- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق القاهرة، ط٣٢، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).

(ق)

- ٩٨- قضية السنن الإلهية في الفكر الإسلامي المبكر، عبد العزيز برغوث، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الحادية عشر، العدد ٤٤ (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ٩٩- قوانين التطور الاجتماعي: طبيعتها واستخدامها، غلييرمان، الترجمة إلى اللغة العربية: دار التقدم موسكو، طبع في الاتحاد السوفيتي (١٩٨٣م).

(ك)

- ١٠٠- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ابوالبقاء ايوب بن موسى الحسيني الكوفي، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري، دار النشر مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

(ل)

- ١٠١- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار المعارف، القاهرة.

(م)

- ١٠٢- مجلة المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، (١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م).

- ١٠٣ - مجموع فتاوى ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- ١٠٤ - المجموع المذهب وشرحة، أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، إدارة الطباعة المنيرية.
- ١٠٥ - محاضرات في التنمية الاقتصادية مقارنة بالفكر الإسلامي، عبد الباسط وفا، دار النهضة العربية.
- ١٠٦ - مختصر تفسير ابن كثير، الحافظ ابن كثير الدمشقي، تحقيق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، ط٧، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- ١٠٧ - مذكرات شاهد القرن، مالك بن نبي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط٢، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- ١٠٨ - المذهب الاقتصادي في الإسلام، محمد شوقي الفنجرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، (٢٠٠٦م).
- ١٠٩ - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م).
- ١١٠ - المعجم الاقتصادي الإسلامي، أحمد الشرباصي، دار الجيل، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- ١١١ - معجم متن اللغة العربية، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م).
- ١١٢ - معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الافاق العربية، ط١، (٢٠٠٢م).
- ١١٣ - معجم المصطلحات المالية والاقتصادية عند الفقهاء، نزية حماد، دار القلم دمشق، ط١، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- ١١٤ - معجم اللغة العربية المعاصر، أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع والطباعة، ط١، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

- ١١٥ - المعجم الوسيط، مجموعة من الأساتذة مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- ١١٦ - المفردات في غريب القرآن، ابن القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- ١١٧ - مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي (السيد محمد رشيد رضا نموذجاً)، حازم زكريا محيي الدين، دار النوادر، ط٢، (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).
- ١١٨ - مقاصد الشريعة عند ابن تيمية، يوسف محمد أحمد البدري، دار النفائس للنشر والتوزيع، الاردن، (٢٠٠٠م).
- ١١٩ - مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط١، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).
- ١٢٠ - مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للنشر، ط٦، (إبريل ٢٠١٢).
- ١٢١ - مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار الشروق، ط٦، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- ١٢٢ - منطق ابن خلدون، علي الورد، دار كوفان، لندن، ط٢، (١٩٩٤م).
- ١٢٣ - المنهج الاقتصادي في المكايل والموازن لنبي الله شعيب، نواف بن صالح الحلسي، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط١، (١٤١٢هـ - ١٩٩١م).
- ١٢٤ - منهج القرآن في بناء المجتمع، محمود شلتوت، دار الكتاب العربي، مصر.
- ١٢٥ - موسوعة السياسة، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الهدى للنشر والتوزيع.
- ١٢٦ - ميلاد مجتمع، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط٨، (١٤٣١هـ - ٢٠٠١م).

(ن)

١٢٧- النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون واسسها في الفكر الإسلامي والواقع المجتمعي (دراسة فلسفية اجتماعية)، عبد المجيد مزيان، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، (١٩٨١م).

١٢٨- نظرية التطور عند مفكري الإسلام، محفوظ على عزام، دار الهداية، ط٢، (١٤٠٦هـجريا - ١٩٨٦م).

١٢٩- النظم الاقتصادية المعاصرة وتطبيقاتها، صلاح الدين نامق، دار المعارف.

١٣٠- النكت والعيون تفسير الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، دار الكتب العلمية.

١٣١- نهاية التاريخ فرنسيس فوكوياما، ترجمة وتعليق: حسين الشيخ، دار العلوم العربية للطباعة والنشر.

(هاء)

١٣٢- هيجل والمثالية المطلقة، زكريا ابراهيم، دار مصر للطباعة.

(و)

١٣٣- الوسطية الاقتصادية في الإسلام، رفعت السيد العوضي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

١٣٤- الوقف ودوره في المجتمع الإسلامي المعاصر، سليم هاني منصور، مؤسسة الرسالة للناشرين، ط١، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).

الرسائل العلمية

١٣٥- مقومات التنمية الاقتصادية في ظل أحكام الشريعة الإسلامية، عبد الله فراج الشريف، إشراف: محمد عبد المنعم عفر، محمد رشيد، جامعة أم القرى، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

المؤتمرات وما جاء بها من موضوعات

المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية، قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، برعاية أ.د/ على عبد الرحمن، (٢٩، ٣٠ إبريل ٢٠٠٨).

١٣٦- السنن الإلهية وأرها في نهضة الأمم، المحاضرة الافتتاحية، أ.د/ محمد حمدي زقزوق.

١٣٧- تحديد المفاهيم، أ.د / سنير عبد الرحمن عبدة عبد الرحمن.

١٣٨- علاقة السنن الكونية بالقوانين الكونية والاجتماعية، أ.د / ناهد يوسف رزق يوسف.

١٣٩- من القواعد الكلية للسنن الإلهية في النصوص القرآنية (سنة الاستبدال نموذجاً)، د/ محمد صالحين.

١٤٠- علاقة السنن الإلهية بمفهوم السببية في العلوم الكونية والاجتماعية.

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
القسم الأول: " السنن الإلهية الفاعلة وأثرها في التطور الاقتصادي في القرآن الكريم " (مع المقارنة بفلسفات معاصرة في التطور)	
المقدمة	٣
فصل تمهيدي	٨
المبحث الأول: ماهية التطور	٩
دارون ونظرية التطور	
	٩
التطور والدين	١١
المبحث الثاني: هيغل وماركس والتطور	١٢
أولاً: هيغل والتطور	١٢
ثانياً: ماركس والتطور	
	١٣
المبحث الثالث: فوكوياما والحتمية	١٥
الفصل الأول: السنن الإلهية والتطور الاقتصادي	١٨
المبحث الأول: ماهية السنن الإلهية وأهميتها	١٩
المطلب الأول: خصائص السنن	٢٠
المطلب الثاني: أنواع السنن	٢٦
أولاً: السنن الخارقة	٢٦

٢٧	ثانيًا: السنن الجارية
٣٠	المطلب الثالث: أهمية السنن
٣٨	المبحث الثاني: السنن وتأثيرها على التطور الاقتصادي
٣٨	المطلب الأول: تصنيف الدراسات الاقتصادية وشرح بعض المفاهيم ...
٣٩	ماهية علم الاقتصاد
٤٠	ماهية التطور الاقتصادي
٤١	المطلب الثاني: الاقتصاد في الإسلام ودور الباحث الاقتصادي
٤٢	قواعد الاقتصاد الإسلامي
٤٢	خصائص الاقتصادي الإسلامي
٤٤	دور الباحث الاقتصادي الإسلامي في كشف السنن
٤٥	المطلب الثالث: علاقة التطور الاقتصادي بالسنن الإلهية
٤٥	أولاً: التمسك بالسنن كقاعدة للوصول للتطور المطلوب
٤٦	ثانيًا: السنن ودورها كقانون في ضبط التطور في المجتمع
٤٧	ثالثًا: الاعتماد على التطور بالسنن كتطبيق يضمن إعمار الأرض
٤٨	رابعًا: السنن تحدد أهداف النشاط الاقتصادي
٥٢	المبحث الثالث: آراء بعض المفكرين الإسلاميين في السنن
٥٤	المطلب الأول: السنن في فكر بعض المفكرين الأقدمين
٥٤	أولاً: الإمام ابن حزم
٥٦	ثانيًا: الإمام أبو حامد الغزالي
٥٨	ثالثًا: الإمام ابن تيمية
٦١	المطلب الثاني: السنن في فكر بعض المفكرين المعاصرين
٦١	أولاً: الإمام محمد عبده
٦٤	ثانيًا: الشيخ محمد رشيد رضا

٦٦	ثالثًا: سيد قطب
٦٩	رابعًا: مالك بن نبي
		نتائج الفصل الأول
٧٢	
٧٤	الفصل الثاني: فكر ابن خلدون في التطور الاقتصادي
٧٥	المبحث الأول: التعريف بابن خلدون
٧٥	المطلب الأول: ترجمة ابن خلدون
٨٢	المطلب الثاني: ابن خلدون ومرجعياته الإسلامية
٨٥	المطلب الثالث: تأثير ابن خلدون في الفكر الغربي
٨٥	أولاً: ابن خلدون وريادته في تأسيس وإنشاء علم الاجتماع
٨٧	ثانيًا: ابن خلدون مؤرخًا
٨٨	المبحث الثاني: التطور في فكر ابن خلدون
٨٨	المطلب الأول: التطور الاجتماعي عند ابن خلدون
٩٢	المطلب الثاني: التطور الاقتصادي عند ابن خلدون
٩٥	المطلب الثالث: تطور العمران وتأثيره على التطور الاقتصادي
٩٧	المبحث الثالث: تطور العمران الاقتصادي بالسنن عند ابن خلدون ...
٩٧	المطلب الأول: سنن التطور الاجتماعي في فكر ابن خلدون
٩٨	أولاً: دراسة التاريخ لاستخراج سنن التغيير والتطور عند ابن خلدون
٩٩	ثانيًا: سنة التغيير والتدافع لتحتاج للعصبية القادرة عليه
١٠٠	ثالثًا: سنة التغيير بالهلاك للقرى بسوء أخلاق أهلها وملوكها
١٠٠	رابعًا: سنة احتياج الاجتماع البشري إلى قوانين تنظمه
١٠١	خامسًا: سنة تأدية الترف إلى التغيير الأخلاقي وإزالة الشجاعة
١٠٢	المطلب الثاني: مذهب ابن خلدون الاقتصادي

أولاً: ابن خلدون والاشتراكية	١٠٢
ثانياً: ابن خلدون والرأسمالية	١٠٣
ثالثاً: حقيقة مذهب ابن خلدون	١٠٤
المطلب الثالث: سنن التطور الاقتصادي في فكر ابن خلدون	١٠٥
أولاً: سنة زوال موارد الدول نتيجة الترف	١٠٥
ثانياً: سنة أن ظلم الاحتكار يأتي بالخسران	١٠٦
ثالثاً: سنة تواجد الإنسان حيث يوجد رزقه	١٠٦
رابعاً: سنة أن الكسب والرزق هو قيمة الأعمال البشرية	١٠٧
نتائج الفصل الثالث	١٠٧
الفصل الثالث: السنن الإلهية لقيام العمران	١١٠
المبحث الأول: العمران: مفهومه وأنواعه ومقوماته	١١٠
المطلب الأول: مفهوم العمران وأنواعه	١١٠
أنواع العمران	١١١
(١) العمران البشري	١١١
(٢) العمران الاقتصادي (الحرية الاقتصادية الإيجابية)	١١٥
المطلب الثاني: مقومات العمران	١٢٠
أولاً: العمران يحتاج للاجتماع البشري والعمل	١٢٠
ثانياً: العمران يحتاج لجغرافيا مؤهلة للعمران	١٢٠
ثالثاً: العمران يحتاج لوجود العدل في المجتمع	١٢١
رابعاً: العمران يحتاج لوجود الأمن	
	١٢٢
خامساً: العمران يحتاج إلى العلم والتعلم	١٢٢

المطلب الثالث: تطبيقات مقومات العمران على التطور من القصص القرآني	
أولاً: الاجتماع البشري والعمل للتطور العمراني	١٢٤
ثانياً: وجود جغرافيا مؤهلة للتطور العمراني	١٢٥
ثالثاً: تطور العمران بوجود العدل	١٢٦
رابعاً: تطور العمران بوجود الأمن	١٢٧
خامساً: تطور الإعمار بوجود العلم والتعلم	١٢٨
١٢٩	
المبحث الثاني: العمران في الفقه الإسلامي	١٣٢
المطلب الأول: الإعمار وعلاقته بمقاصد الشريعة	١٣٢
أولاً: حفظ الدين وعلاقته بالإعمار	١٣٣
ثانياً: حفظ النفس وعلاقته بالإعمار	١٣٦
ثالثاً: حفظ العقل وعلاقته بالإعمار	١٣٧
رابعاً: حفظ النسل وعلاقته بالإعمار	١٣٨
خامساً: حفظ المال وعلاقته بالإعمار	١٣٩
المطلب الثاني: مقابلة بين مصطلح العمران ومصطلح التنمية	١٤١
أولاً: التنمية في الاقتصاد الوضعي	١٤١
ثانياً: مقابلة بين التنمية والعمران	١٤٣
المطلب الثالث: اقتراح سياسات اقتصادية لتفعيل العمران الإسلامي	١٤٨
أولاً: سياسة العمل والتشغيل للوصول للعمران	١٤٩
ثانياً: تفعيل إحياء الموات لتأهيل الأرض للعمران	١٥٠
ثالثاً: اتباع سياسات عادلة للتأهيل للعمران	١٥٠
١ - أدوات توفير الموارد الاقتصادية لإقامة العدل الاقتصادي في المجتمع . ١٥٠	
(أ) الزكاة	١٥٠
(ب) الصدقة والإنفاق	١٥١

ج) الأوقاف	١٥١
٢ - أدوات لمنع تركز الأموال و ضمان التداول وعدم الاحتكار	١٥٢
أ) تحريم الربا	١٥٣
ب) تحريم الربح غير الشرعي	١٥٣
رابعاً: توفير سياسات أمنية لتحقيق العمران	١٥٤
خامساً: تقديم الرعاية للعلوم والبحث العلمي لأهميته في العمران.....	١٥٥
المبحث الثالث: سنن العمران الفاعلة على التطور الاقتصادي	١٥٦
المطلب الأول: العمل والإيمان يحققان الرزق	١٥٦
المطلب الثاني: العدل والأمانة يحققان الأمن الاقتصادي	١٦٤
المطلب الثالث: الشكر والاستغفار يحققان الطمأنينة الاقتصادية	١٧٤
نتائج الفصل الثالث	١٨٣
الفصل الرابع: السنن الإلهية التي تؤدي إلى فساد العمران	١٨٤
المبحث الأول: الظلم والزهو والغرور من أسباب الفساد (وقوع العذاب)	١٨٥
المطلب الأول : معنى الظلم وأنواعه	١٨٥
المطلب الثاني: معنى الزهو والغرور وأنواعهما	١٩١
المطلب الثالث: السنن الإلهية في الظلم الاقتصادي	١٩٩
أولاً: سنته سبحانه أن الترف يؤدي للهلاك	١٩٩
ثانياً: سنته سبحانه أن الإسراف يأتي بالضرر ويمنع حب الله	٢٠٠
ثالثاً: سنته تعالى أن التطفيف في الموازين والمكاييل يجلب العذاب.....	٢٠١
رابعاً: سنته تعالى أن الربا يحرق الأموال	٢٠٢
خامساً: سنته تعالى أن الظلم بكل أنواعه يجلب العذاب	٢٠٣
المبحث الثاني: الإفساد والبغي من أسباب (وقوع الهلاك الاقتصادي) ..	٢٠٥

المطلب الأول: معنى الإفساد والبغي	٢٠٦
المطلب الثاني: معنى الهلاك الاقتصادي	٢١١
المطلب الثالث: آيات السنن الإلهية في الهلاك الاقتصادي	٢١٦
المبحث الثالث: الطغيان السياسي والعلو من أسباب (وقوع الفقر)	
	٢١٩
المطلب الأول: معنى الطغيان السياسي والعلو	٢١٩
المطلب الثاني: معنى الفقر وأنواعه في الإسلام	٢٢٤
خطورة الفقر وعلاجه في الإسلام	٢٢٧
(١) خطورة الفقر على المسلم	٢٢٧
(٢) علاج الإسلام لنفوس الأغنياء	٢٢٨
(٣) طرق علاج الفقر في الإسلام	٢٢٨
الفقر في القصص القرآني	٢٢٩
المطلب الثالث: آيات السنن الإلهية في تحقق الفقر بالطغيان السياسي	٢٣١
الخاتمة ونتائج البحث	
التوصيات	٢٣٤
	٢٣٥
ملحق الأعلام	
	٢٣٦
قائمة المصادر والمراجع	٢٤٥

ملحق عبارة عن رسالة الدكتوراه التي لم تكتمل بعنوان:

" الفلسفة الاقتصادية لابن خلدون "

(دراسة مقارنة)

خطة البحث :

الفصل الأول: المنطلقات الاقتصادية العامة

مبحث أول : الحرية الاقتصادية ودور الدولة

مبحث ثاني : تقسيم العمل والسوق

الفصل الثاني: نظرية القيمة

مبحث أول : نظرية القيمة في الفكر الاقتصادي

مبحث ثاني : نظرية القيمة في فكر ابن خلدون

الفصل الثالث: التنمية والعدالة

مبحث أول : التنمية والعدالة في الفكر الاقتصادي

مبحث ثاني : التنمية والعدالة في فكر ابن خلدون

الفصل الرابع: المالية العامة

مبحث أول : المالية العامة في الفكر الاقتصادي

مبحث ثاني : المالية العامة في فكر ابن خلدون

الفصل الخامس: العلم والتكنولوجيا والنمو

مبحث أول : العلم والتكنولوجيا والنمو في الفكر الاقتصادي

مبحث ثاني : العلم والتكنولوجيا والنمو في فكر ابن خلدون

الفصل الأول

المنطلقات الاقتصادية العامة

مقدمة

المنطلقات الاقتصادية هي الأسس التي يستند عليها أي نظام اقتصادي .

النظام الاقتصادي : هو مجموعة من القواعد والمنطلقات الاقتصادية التي تعتمد على أحكام قانونية يتم من خلالها تنظيم البيئة الاقتصادية وتنظيم العلاقات الاقتصادية والقانونية التي تحكم وتدير الحياة الاقتصادية في وقت معين، ويؤثر هذا النظام في طبيعة العلاقات المتبادلة بين الأفراد وبين الموارد وعلى رأسها الموارد الطبيعية.

أنواع الأنظمة : من أشهر الأنظمة الاقتصادية النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي والنظام المختلط، ومن أهم المنطلقات الحرة الاقتصادية والملكية الفردية، تدخل الدولة، المنافسة، قانون العرض والطلب، حافز الربح، ويتشكل النظام الاقتصادي بزيادة أو نقص هذه الأسس والمنطلقات، وهي التي يقوم عليها النظام؛ فنجد مثلا الحرية الاقتصادية هي أساس رئيسي في النظام الرأسمالي وشبه منعدمة في النظام الاشتراكي، كذلك تدخل الدولة هو المنطلق الرئيسي في النظام الاشتراكي ولكنه محدود في النظام الرأسمالي وهكذا.

بالبحث وجد أن المنطلقات الاقتصادية لها جذور قديمة في تاريخ الفكر الاقتصادي، وبالبحث حاولنا الوصول إلى جذور هذه المنطلقات، وسوف

تتبع كل منطلق عبر الحضارات المختلفة؛ فعلى سبيل المثال قاعدة الحرية الاقتصادية ودور الدولة سوف نبحت في تاريخ الفكر الاقتصادي في عدة حضارات وتكون بالترتيب تبدأ بالحضارات القديمة والعصور الوسطى، يليها الحضارات الحديثة، في محاولة لإبراز أهم الأفكار عبر العصور المختلفة.

المبحث الأول

الحرية الاقتصادية ودور الدولة

يوجد بين الحرية الاقتصادية ودور الدولة ارتباط في الدراسة حيث إن النظام الاقتصادي عندما يستند على الحرية الاقتصادية نجد أن دور الدولة يتضاءل ويكون محدود مثل النظام الرأسمالي، وكذلك عندما يكون التدخل ودور الدولة واضحًا وملموسًا فإن الحرية تتراجع مثل النظام الاشتراكي، ومع البحث نجد من خلال التعرف على الحضارات المتعددة أنه عندما يسود الاقتصاد حالة من تدخل للدولة تتراجع في هذه الفترة الحرية، أي إما حالة من الحرية الكاملة أو التدخل الكامل كما سنوضح فيما بعد.

أولاً : الحرية ودور الدولة في الفكر القديم والعصور الوسطى

(١) الحضارة المصرية القديمة

تميزت الحضارة المصرية القديمة التي ترجع لزمن (٣٠٠٠) ق.م تقريباً باقتصاد التدخل الكامل للدولة في معظم الأنشطة الاقتصادية الهامة، وكانت مصر الفرعونية مقسمة إلى اقطاعات، ونجد " أن تقسيم البلاد إلى مقاطعات في هذا العهد أمر مؤكد؛ بل ويرجع إلى أقدم عهود التاريخ وإلى عهد ما قبل

التاريخ.^١، وكان الملك هو أهم شخصية في هذا العصر؛ فنجد أنه " في يد الملك السلطة التنفيذية والسلطة القضائية، ولكن كان يساعده في القيام بمهام موظفون كثيرون.^٢ وكان "الملك نفسه على رأس الإدارة الرئيسية، ولا نزاع في أن يجعل موظفًا كبير الصلة بين مصالح الإدارة العامة المختلفة وبين فرعون، ولا يمكن إلا أن تكون نتيجة وجود حكومة راقية تستدعي أعمالها المتشعبة وجود هؤلاء الموظفين الذين يقومون بجميع مرافقها.^٣

ونجد أن اتساع الدولة وتعدد مقاطعها يظهر "مقدار ما أبداه الفرعون من النشاط ومقدار ما وضعوا من نظم لجعل هذه الإمبراطورية متماسكة الأطراف بتأمين طرق مواصلاتها وجنودها ووضع قواعد وأنظمة لتسهيل وصول جزيتها وبعوثها ولسير أساليب الحكم والإدارة فيها ومراقبتها مراقبة دقيقة عن كثب، ولدينا صورة ناطقة تحدثنا عن تجمع السلطة الإدارية في البلاد رسمت على جدران مقبرة مدير مخازن الغلال.^٤، وكانت الأراضي ملك للدولة وتسيطر عليها، وكان كل حاكم مقاطعة " ينحصر عمله في الحصول على الأرض بالطرق المتبعة على كل ما يمكن الحصول عليه ليزيد من الثروة العامة وبخاصة الخزينة الملكية.^٥

كان النشاط الزراعي من أهم الأنشطة الاقتصادية في هذه الحضارة. و"الواقع أن حياة البلاد الزراعية كانت تتطلب تنظيم المياه والجسور، وكذلك كان على

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مؤسسة هنداوي سي أي سي، الجزء الثاني، د . ت، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٤ .

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٢ .

(٤) المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ١٩٤ .

(٥) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص ١٣ .

الفلاحين أن يدخلوا المحاصيل في مخازن الحكومة، فكانت كل هذه الأعمال تسخر فيها السكان.^١، وكانت الدولة تسخر الأفراد للزراعة وللسيطرة على جميع الموارد الزراعية، وكانت الدولة "تقسم جزء من أراضيها إلى مساحات صغيرة مستقلة لتستثمرها مباشرة؛ ومن ذلك يتضح أنها كانت تستعمل نظام المزارع الصغيرة المساحة التي تستوجب مصاريف كثيرة ولكنها عظيمة الإنتاج.^٢ فكانت تنفق إنفاقاً عظيماً لتحصل على إنتاج عظيم.

كانت الدولة تسيطر على الأعمال الصناعية الكبرى؛ فكانت "الأعمال العظيمة التي تتطلب مجهوداً كبيراً ومصاريف باهظة تقوم بها الحكومة؛ بل أصبحت تحتكرها، وأهم هذه الأعمال استغلال مناجم النحاس والذهب، وكانت الحكومة تشرف على هذه المناجم وتصرف الأعمال فيها على أكمل وجه.^٣ فكانت ترسل الحكومة العمال بأعداد كبيرة إلى المحاجر والمناجم لاستخراج المعادن، وكانت أيضاً تهتم بالأحجار الكريمة؛ فكانت "الحكومة المصرية ترسل البعث لمناجم سيناء....وقد أرسلت حملات إلى محاجر حمّامات كان الغرض منها البحث عن الأحجار الكريمة"^٤

كان الملك هو المسيطر على الزراعات والمعادن والبناء والتشييد وشق الترع والمصارف، و"لم تكن سيادة مصر تتركز على نظامها الحربى وحسب؛ بل كان سندها الأكبر يعتمد على مواردها المادية التي كانت تحت تصرف

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٢٠، ٢١.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٦٣.

(٤) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٣٢.

مليكتها وبخاصة ما نشأ فيها من مصانع وما قام فيها من أعمال فنية وصناعات دقيقة.^١، ولكن كان هناك بعض الأنشطة لم تسخرها الحكومة؛ فقد كان يوجد في البلاد طبقة من صغار العمال والصناع الأحرار يشتغلون للحكومة وللمعابد وللكبار الملاك، وكذلك كان يوجد معهم رؤساء صناعات وحرف يعملون بكل حرية واستقلال في مصانعهم الخاصة وحوانيتهم ومعاملهم في المدن.^٢، وكان هناك مراقبون لكل الأنشطة ومراقبون لدفع الضرائب، وبذلك نستطيع القول بأن سيطرة الحاكم والدولة على الاقتصاد الفرعوني كان كبيراً، وعلى النقيض كانت تقل الحرية الاقتصادية بل تكاد تكون معدومة.

(٢) الحضارة اليونانية

كانت الحضارة اليونانية لها نظرة للملكية الفردية، وكانت نظرة معتدلة؛ فقد اعتبروا الملكية هي الشئ الطبيعي الملائم لطبيعة الإنسان لأنها تدفع للعمل وتجنب النزاعات واللامساواة التي تنتج في نظرهم من شيوعية التملك، ومع ذلك فإنهم أجازوا نظام الشيوع في بعض الملكيات إذا كان ذلك ضرورياً للصالح العام.^٣، فكان الفرد في الحضارة اليونانية يتمتع بحق تملك الأرض وبيعها والتقاضي عليها أمام المحاكم، فنجد أن كل مواطن يوناني له حق امتلاك قطعة أرض يتصرف فيها بحرية تامة، "وقد كانت ملكية الأرض مشاعاً

(١) المرجع السابق، الجزء الخامس، ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٧٠، ١٦٩.

(٣) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مطبعة الإرشاد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٧٠م،

ص ٣٥١.

للقبيلة جميعا يشرف على إدارتها والتصرف فيها رئيس القبيلة تصرفا مطلقا باستثناء بيعها أو نقل ملكيتها إلى قبيله أخرى؛ ثم وزعت الأراضي على أفراد القبيلة وبدأت عملية الملكية الفردية في الظهور، وهذا أدى بالتالي إلى تفكك الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة بعامل الوراثة، وكان من حق رب كل أسرة مسجلة في أي مدينة امتلاك الأرض التي يقيم عليها."، وعند التحدث عن الحضارة اليونانية فإننا نتحدث عن مفكرها، وكان من أبرز مفكريها أفلاطون وأرسطو، وسوف نحاول استعراض الحرية ودور الدولة في أفكارهم.

أفلاطون

نحاول الوصول لفكرة الحرية ودور الدولة من خلال جمهورية أفلاطون، فكان أفلاطون ينتقد الملكية الخاصة في أجزاء من جمهوريته، وقسم جمهوريته إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى هي الحكام، وفيها منع الملكية الخاصة تماما، والطبقة الثانية الجنود، ومنع فيها أيضًا الملكية الخاصة، وأقرّ أن هاتين الطبقتين من الحكام والجنود يجب أن تكون ملكيتهم عامة، ولكنه أعطى الحرية الاقتصادية الكاملة للطبقة الثالثة، وهم المنتجون والشعب أي الطبقة المحكومة، فأعطاهم الحرية الكاملة للعمل بالنشاط الاقتصادي لإشباع الحاجات المادية للمدينة.

فصل أفلاطون التجار والصناع والمزارعين عن الطبقة الحاكمة والحامية، لأنه رأى أن سمات رجال الأمن والحكم تختلف عن التجار والصناع والمزارعين، ورأى أفلاطون عدم تدخل الحكام في الحياة الاقتصادية تماما، ونجد هنا أن

(١) شحادة الناطور، وآخرون، اليونان والرومان، دار الأمل للنشر والتوزيع، د . ت، ص ١٠٦.

أفلاطون كان يؤسس لنظام اقتصادي ما بين الحرية الكاملة للشعب والحد من دور الدولة، وكان لأفلاطون آراء تؤيد هذا الفصل بين الحكام والجنود من جهة وبين أفراد الشعب والتجار من جهة أخرى؛ فقال: "إن التجارة تنمو وتزدهر في الدولة وتؤدي إلى تقسيم الناس بين فقراء وأغنياء، وعندما تزيد ثروة التجار تظهر منهم طبقة يحاول أفرادها الوصول إلى المراتب الاجتماعية السامية عن طريق المال؛ فتقلب أحوال الدولة ويحكمها التجار وأصحاب المال فتتهبط السياسة وتنحط الحكومات وتندثر"^١.

يرى أفلاطون أن رجال التجارة والأعمال يجب ألا يصلوا إلى حكم وإدارة الدول لأن في ذلك إفساد؛ فيقول: "إن الدمار يحل بالدولة حين يحاول التاجر والذي نشأت نفسه على حب الثروة أن يصبح حاكماً"^٢. وبذلك فإن الحرية الاقتصادية هي الفكرة السائدة في الاقتصاد في جمهورية أفلاطون، ولكن لطبقة واحدة فقط. أما عن الحكام فقال: "تلغى الملكية وتلغى العائلة بالنسبة لطبقة الحكام والجنود، وذلك لأن الحكام يجب أن يخصصوا أوقاتهم وجهودهم كلها لصالح المواطنين جميعاً وليس لصالح أشخاصهم أو عائلاتهم"^٣، ومع إباحة أفلاطون للملكية فإنه خشي من بعض المسائل، فقد "أباح الملكية الخاصة ولكنه خشي من عدم مراعاة المساواة في توزيع الثروة، فوضع بعض الشروط التي يكفل بتحقيقها مساواة المواطنين في الثروة

(١) أحمد المنياوي، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي للنشر، ٢٠١٠، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٨.

ولاسيما في تملك الأراضي، ولم يجذب ممارسة التجارة بها لئلا يتمكن الفرد من أن يجمع ثروة عن طريقها.^١

يرى أفلاطون أن مصالح الدولة مقدمة على مصالح الأفراد، وتظهر اشتراكية في فكر أفلاطون وفي دولته؛ فنجده يقول: "غير مسموح أن يكون للفرد مصلحة بمعزل عن مصالح الدولة، والمصالح الخاصة تتصادم مع مصالح الجماعة، ولهذا يجب استئصالها، والفرد لا يستطيع أن تكون له ملكية سواء الأشياء المادية أو أفراد أسرته، فهنا جماعية السلع وجماعية الزوجات وملكية الدولة للأطفال منذ مولدهم."^٢

أرسطو

يعتبر أرسطو هو صاحب جذور النظرية الاقتصادية، لأنه حلل المشكلات والظواهر الاقتصادية، وكان يرى أن تكون الملكية خاصة ولكن الانتفاع يكون عامًا، أي الملكية الخاصة للمصالح العام؛ فقال: "فجليّ إذن أن الأفضل جعل الممتلكات خاصة وجعل استخدامها مشتركا...، فلا يسعنا أن نعبر عما يولي المرء من الارتياح اعتبار الشيء ملكا خاصًا، لأن المحبة التي يخص بها كل واحد نفسه غير فاسدة بل هي طبيعية."^٣. ورأي أرسطو أن للدولة دورًا ولكن دور الحراسة للنشاطات المتعددة، وكذلك على الدولة القيام بالأعمال العامة التي

(١) المرجع السابق، ص ١٠١.

(٢) ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د . ت، ص ١٩٤ بتصرف.

(٣) السياسات، أرسطو طاليس، نقله للعرية الأب أوغسطين، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، بيروت، ١٩٥٧، ص ٥٨، ٥٩.

لا يستطيع الأفراد النهوض بها مثل الطرق والترميمات؛ فقال: "إنه يستحيل أن تقوم دولة بلا سلطات تسهر فيها على ضروريات المعاش، ويستحيل أن تصلح إدارة شؤونها وسياستها بلا سلطات تعنى بضبط نظامها وتحميلها وتنسيقها...، فهناك أولا العناية بالأمور الضرورية المتعلقة بالأسواق يجب أن تخصص لها سلطه تسهر على المعاهدات وحسن انتظام الأسواق، لأن كل الدول تقريبا مضطرة إلى شراء بعض الأشياء وإلى بيع غيرها تلبية لاحتياج بعض المواطنين إلى البعض الأخر في الأمور الضرورية، وهذا الأخذ والعطاء هو أوجز السبل وأسرعها للاكتفاء الذاتي، والذي لأجله يأتلف الناس وينضمون تحت رعاية حكم واحد.. وعلى الدولة أن تسهر على تنسيق البناءات العامة والخاصة وعلى صيانة وترميم الصروح والمنازل المتداعية والطرق الخربة."^١.

تحدث أرسطو عن صعوبات المشاع والتوزيع بنظام المشاع على الأفراد، وقد انتقد أرسطو المشاع عندما يكون هناك عدم مساواة في الانتفاع والجهد المبذول؛ فيقول: "عندما لا يحصلون على المساواة في الانتفاع وفي العناء، لابد أن يتذمر الذين يقل انتفاعهم ويكثر عناؤهم على الذين يكثر أخذهم أو انتفاعهم ويقل عناؤهم."^٢. ويشير أرسطو إلى أن الملكية العامة أمر صعب على البشرية ويجلب الخلاف الذي هو من طبيعة البشر ويزيد المصاعب؛ فيقول: "بالجملة يصعب التمازج في الحياة والاشتراك في جميع الأمور والأشياء البشرية...، وبرهان ذلك اشتراك المترافقين في سفر، فأكثرهم تقريبا يتخالفون

(١) المرجع السابق، ص ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

ويتنافرون لأمر تافهة طفيفة...، فشيوع المقتنيات إذن يجلب هذه المصاعب ومصاعب أخرى مماثلة.^١

نلاحظ في الحضارة اليونانية انفصال الفكر عن الواقع الاقتصادي؛ فكانت الحضارة اليونانية بها مركزية وتدخل من الدولة في معظم الأنشطة التجارية والزراعية؛ فنجد أن " كل الثروات الطبيعية مناجم وفحم ومعادن... الخ تخص الملك، ونفس المركزية تميز الصناعة مثل إنتاج الزيت والنسيج حكراً ملكياً، ويكفل المزارعون العاملون بشراء المواد الأولية بالسعر الذي حددته الدولة، وأي بيع آخر يعاقب بصرامة، والمواد الأولية المخزنة في مخازن الدولة ترحل فيما بعد إلى المشاريع الملكية...، وكانت كل معاصر الزيت مسجلة، وكانت المناسج والمنسوجات منظمة أيضاً قسم كبير منها يخص مشروعات المعابد الشهيرة بإنتاج المنسوجات الفخمة، وفروع صناعات هامة أخرى... كانت أيضاً حكراً جزئياً.^٢

(٣) الحضارة الرومانية

تميزت الحضارة الرومانية في الإبداع في تشريع القوانين والتي بدورها تنظم الحياة العامة ومنها الحياة الاقتصادية. وإذا تحدثنا عن السمة التي سادت في هذه الحضارة سنجد حرية التملك وحرية التعاقد من خلال القوانين، حيث "إن مذهب الفقه الروماني المتعلقة بالملكية الفردية المطلقة وحرية التعاقد الكاملة كانت ذات أثر أكثر مباشرة من أي شئ آخر تركه الرومان في توجيه

(١) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، الناشر دار علاء الدين، الجزء الثاني، د . ت، ص ٤٠٢.

وصياغة مؤسسات النظام الرأسمالي، إن هذين الأثرين يعكسان الطبيعة الفردية جدا للبناء الاقتصادي الروماني...، ومقارنة بسيطة بين آراء أرسطو في الملكية حيث كان يرى ضرورة تحديدها بالاعتبارات الأخلاقية وبين مفهوم القانون الروماني للملكية المطلقة غير المحدودة^١ نستطيع التفرقة بين الفكر اليوناني والفكر الروماني.

كان من الأفكار الخاصة التي تأثر بها القانون الروماني في الفكر الاقتصادي هي فكرة القانون الطبيعي التي احتلت مكانة بارزة من خلال الفكر الاقتصادي في القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن العشرين تقريبا، ومن المبادئ القانونية التي وضعها الرومان هي حق كل فرد في أن يفعل ما يشاء بممتلكاته، من أهم القوانين التي أخرجوها قوانين حماية الملكية الخاصة، وذلك بسبب اتساع الإمبراطورية الرومانية ووجود مستعمراتها في جميع البلاد. "إن الملكية الفردية (للمنقول والعقار) تميزت بأنها حق مطلق للمالك أن يتصرف بالملك تصرفات مطلقة في التصرف والاستعمال والاستغلال، ولمالك الأرض مثلا حق ملكية الأرض وما فوقها وما تحتها، وحق دائم ما دامت العين باقية ومقصورة على المالك وحده لأنه يملك عناصر الملكية، وقد أكدت ذلك قواعد المدونة الخاصة بالأموال والملكية منها (من الظلم ألا يكون للأحرار التصرف المطلق في أموالهم)".^٢

كانت الإمبراطورية كبيرة ولها جيش كبير وقوي، وكانت الدولة توزع الملكيات على المزارعين وهم في نفس الوقت أفراد الجيش المدافعون عن الدولة؛ ففي

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٥٧.

(٢) منذر الفضل، تاريخ القانون، د. ن، الطبعة الثانية ٢٠٠٥، ص ١٣٦.

"القديم عندما تؤسس الدولة توزع الأرض بالتساوي على الجميع فيترتب على هذا الإجراء وحدة شعب قوي ومجتمع في غاية التماسك والانتظام؛ فيمتاز الجيش ويتفوق إذ مصلحة كل محارب أن يدافع عن وطنه بكل ما أوتي من قوة."^١، وكانت الدولة تعاقب على عدم اهمال الاملاك فنظمت قوانين تحاسب من يهمل الاملاك ولا يراعيها حق رعايتها "فكان يقوم حاكم الاحصاء كل خمس سنوات للملاك المهملين، وكان لهذا الحاكم ان يتخذ الاجراءات اللازمة ضد هذا الاهمال الذي يرتكبه المالك كالغرامة كجزاء على هذا الاهمال او التعطيل لوظيفة الأرض."^٢.

توسعت الإمبراطورية وظهرت طبقة من ملاك الأراضي الزراعية وكبار التجار، وظهرت أنشطة اقتصادية جديدة أدت للتقدم الاقتصادي وظهرت حاجة الإمبراطور لتعدد الأنشطة بجانب الزراعة، ولذلك كان يجب أن يكون هناك قوانين لتنظيم هذا التوسع في النشاط الاقتصادي، وكان لأصحاب الملكيات الخاصة نفوذ واضح؛ فلم تسن هذه القوانين لعدل الإمبراطورية الرومانية ولكن جاءت من قوة هذه الفئات، فكانت الدولة تعطي الحق لكل شخص أن يتمتع بملكه وبتنتاج هذه الملكية، ويعطى الحق للأفراد في اختيار نوع العمل والحرية الكاملة في تحقيق مصالح الأفراد، ونستطيع القول بأن الحضارة الرومانية كانت تدعم الحرية الاقتصادية، وكان دور الدولة هو الأمن وكذلك الرقابة والمحاسبة.

(١) موتنكسو، تأملات في تاريخ الرومان (أسباب النهوض والانحطاط) نقله: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء، المغرب، د . ت ، ص٣٧، ٣٨.

(٢) منذر الفضل، تاريخ القانون، ص١٣٦.

يلاحظ أن الحضارة اليونانية والرومانية قد أثرا في العصور اللاحقة لهم فنجد أن " آراء أرسطو في الملكية اتخذت قاعدة للمذاهب المدرسية في العصور الوسطى بينما استخدمت مبادئ القانون الروماني قاعدة للنظم والمؤسسات والمذاهب القانونية للنظام الرأسمالي."^١، وهذا دليل على تأثير الحضارات الحديثة بفكر الحضارات القديمة حيث أن "من أهم إنجازات الرومان في تطور الفكر الاقتصادي هي في تطويرهم للمذهب الفردي الذي أصبح فيما بعد قاعدة للاقتصاد الكلاسيكي."^٢

أطلقت العصور الوسطى على الفترة ما بين سقوط الإمبراطورية الرومانية وحتى سقوط القسطنطينية، وكان في هذه الفترة نوعان من الاقتصاد يميز هذه الحقبة النوع الأول الاقتصاد المسيحي والنوع الثاني الاقتصاد الإسلامي وكان لدور الدولة والحرية وضوح في هذه الاقتصاديات.

(٤) الحضارة المسيحية

اتسمت هذه الفترة بقواعد أخلاقية لإدارة النشاط الاقتصادي من خلال اللاهوت المسيحي، وكانت الكنيسة في هذه الفترة هي المسيطرة على أوروبا، وكانت نظرة رجال الدين للملكية الخاصة نظرة عدائية؛ فنجد أن "الشعور الذي يخرج به المرء من تعاليم الأباء المسيحيين الأوائل هو تعارض الطيبات الدنيوية مع المسائل الروحانية تعارضا لا يقبل التوفيق، وبينما لم يكن هناك

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٦١.

انكار للملكية الخاصة إلا أن أبناء المسيحية الأوائل اعتقدوا أن السعي وراء الثروة أو الغنى يعرض النفس للهلاك.^١

ساد في هذه الفترة العداء للملكية من رجال الدين المسيحي، وبالتالي ساد هذا الفكر في هذه الفترة ومع هذا ظهر بعض المفكرين يدافعون عن الملكية الخاصة مثل توماس الإكويني والذي استطاع " أن يدافع عن النظام الاقتصادي القائم على الملكية الخاصة في الحدود التي لا تخرج عن فلسفة المسيحية فهو لم يدافع عن الملكية الخاصة في ذاتها بل دافع عنها بصفقتها وظيفه اجتماعية أي تدار لصالح المجموعة."^٢، وكذلك حاول توما الإكويني "التوفيق بين النظرة القديمة(يونانية ومسيحية) للتجارة باعتبارها عمل غير طبيعي، وبين الشروط الجديدة للنظام الإقطاعي؛ فذهب إلى أن التجارة شر لا بد منه، وأن أرباح التاجر تكون مشروعة إذا كانت تجارته نافعة للمجتمع ، وإذا لم تزد عن سد حاجته الطبيعية، وفي هذه الحالة اعتبر الربح نوع من المكافأة على عمل التاجر."^٣

ومع هذه الأفكار كانت الكنيسة تقوم بدور الدولة في السيطرة على الحياه الاقتصادية، ولكن "أغلب المؤرخين الذين يفسرون تعاليم المسيحية بأنها غير موجهة ضد نظام التملك نفسه بل ضد سوء استعماله."^٤، وكانت المسيحية الأولى "كانت ضد الطمع والشهوات والترف... الخ فالقديس جيروم مثلا

(١) محمد عمر أبو عبده، عبد الحميد محمد شعبان، تاريخ الفكر الاقتصادي، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، ص ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٤٠١.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٩٩.

كان يقول بأن الغنى هو مجرم وابن مجرم والقديس أوغسطين كان يحذر من كون التجارة تصرف صاحبها عن وجه الله كما كانت المسيحية على العموم ترى أن دخول الجمل في سم الخياط أسهل من دخول الغني الجنة"^١، ويرى بعض المؤرخين " أن المسيحية الأولى كانت تدعو صراحة لشيوعية التملك، ويرى بعضهم أنها وإن لم تدع لإلغاء نظام التملك الفردي مباشرة إلا أنها هاجمت جميع مظاهره الأساسية بحيث إن النتيجة العملية تكون واحدة في الحالتين."^٢

سقطت روما على أيدي القبائل الجرمانية وسيطرتهم على أقاليم الإمبراطورية قامت القبائل الجرمانية بإقامة حكومة مركزية تسيطر على أرجاء الجمهورية، وفي هذا الوقت حدث سيادة لنظام الاقطاع وقامت الحكومة المركزية بالاستيلاء على أراضي الفلاحين وتحكموا في الحياة الاقتصادية، وكان "من خصائص النظام الإقطاعي أنه كان اقتصاداً مغلقاً في العصور الوسطى، بمعنى أن كل إقطاعية تمثل وحدة اقتصادية مستقلة وقائمة بذاتها منفصلة تماماً عن سائر الإقطاعيات الأخرى."^٣، وبذلك لم يكن في هذه الحقبة حرية اقتصادية، وكانت الكنيسة تقوم بدور الدولة في السيطرة على الحياة الاقتصادية.

(٥) الحضارة الإسلامية

يقوم الاقتصاد في هذه الفترة على مبادئ الديانة الإسلامية، ويوجد بهذا النوع من الاقتصاد عدة خصائص أساسية، منها خاصية الجمع بين المصلحتين

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٩.

(٣) محمد عمر أبو عبده، عبد الحميد محمد شعبان، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢٩

العامة والخاصة، أي اعتبار مصلحة الفرد وفي نفس الوقت عدم إهدار مصلحة الجماعة، والملكية ودور الدولة في هذا النظام لها طبيعة خاصة؛ فقد " أقرَّ الملكية الخاصة، ومع ذلك فإن هذه الملكية ليست ملكية أصيلة يتصرف فيها المالك على هواه، ويمكن القول بأنها ملكية ظاهرية للإنسان، لأنها خاضعة لشروط المالك الأصلي وهو الله."^١. ويلاحظ هنا تدخل العقيدة ومبادئ هذا الدين في الفكر الاقتصادي لهذه المرحلة، وبما أن الملكية لله فإن ملكية الأفراد ليست أصيلة وتخضع لشروط الله، ولذلك فإن إقرار الملكية الخاصة مشروط دائما بمصلحة المجتمع ككل؛ فنجد أن "الدولة في ذلك كله توازن بين مصلحة صاحب الملكية الفردية سواء من حيث كمها أو أثرها، أو ما يعود عليه منها من ناحية، أو من حيث المضرة التي تصل إلى غيره، أو مجموع أفراد المجتمع من ناحية أخرى؛ فإذا رجحت مصلحة صاحب هذه الملكية لا يمس حقه، وإن رجحت مضرة غيره قيدت الدولة حقه لتدفع ذلك الضرر."^٢

ساد في الحضارة الإسلامية حرية الملكية للأفراد وكان التدخل للمصلحة العامة للمجتمع فقد كان هناك حرية في انتقال البضائع والأفكار والاشخاص، وكان الاتجاه العام "أن الدولة هي الموجه العام للاقتصاد ولها حق التدخل في حدود ضوابط شرعية معينة، مثل تدخل الدولة لتنظيم العمل والمعاملات التجارية، وكذلك تدخل الدولة في السياسة المالية كالسياسات

(١) عبد الهادي على النجار، الإسلام والاقتصاد، عالم المعرفة، ١٩٨٣، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢.

الضريبية.^١، ومن أمثلة تدخل الدولة في هذه الحضارة تدخل الخليفة عمر بن الخطاب لتملك الدولة لبعض أراضي السودان، وذلك لأن ملكية الدولة لها فيها صالح للمجتمع الإسلامي، وبذلك ظهر في المجتمع الملكية العام والملكية الخاصة، وذلك "نظرا لملكية الدولة لأرض السودان مع توزيع ريعها على المسلمين؛ فقد برز في ذلك الوقت مفهوم الملكية المزدوجة والتي تتضمن الملكية العامة والملكية الخاصة."^٢، وهنا تغلبت الملكية العامة على مصلحة الملكية الخاصة بما يتماشى مع مصلحة الدولة.

نلاحظ أن حرية الأفراد في هذا الاقتصاد مقيدة بمبادئ موضوعه للنشاط الاقتصادي، مثل الاحتكار أو حبس الأموال عن الإنتاج؛ فالأموال في هذا الاقتصاد ليس للأفراد حرية كاملة فيها، وتكون حريتهم فيها بما لا يضر المجتمع، وهذه القيود تحمي المجتمع من سيطرة الأفراد على الاقتصاد والسيطرة على كل التصرفات التجارية لتجميع الأموال، وهنا يأخذ هذا النظام بالحرية والتدخل، أي نظام مختلط بين هاذين المنطلقين حيث الحرية للأفراد، ولكن التدخل ضرورة لتنظيم هذه الحرية حتى لا تضر بالمجتمع، وللدولة أن "تتدخل في النشاط الاقتصادي الذي يباشره الأفراد سواء لمراقبته أو تنظيمه أو

(١) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، ٢٠٠٣م، ص ١٣٣.

(٢) أرض السودان : هو اسم أطلقه الفاتحون المسلمون على الأراضي الزراعية التي تقع جنوب بلاد النهرين على أطراف دجلة والفرات وما بينهما.

(٣) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٠٢.

لتبأشر بنفسها بعض أوجه هذا النشاط الذي عجز عنه الأفراد، أو إذا أساءوا مباشرة ذلك النشاط.^١

نلاحظ أن الاقتصاد في هذه الفترة محكوم ببند أخلاقية دينية لا يخرج عنها المجتمع وأفراده وحكومته، أي يشمل كل الدولة، وهذا الاقتصاد يبيح التملك وحرية الأفراد ولكن بما لا يضر بالمجتمع ككل، ويكون تدخل الدولة في الاقتصاد عن طريق المراقبة للنشاط الاقتصادي والأسواق وعمل مشاريع لإفادة المجتمع وتوزيع الثروة، والتدخل في هذا الاقتصاد يكون رقابي وتنظيم استخدام الموارد وضمان العدالة في توزيع هذه الموارد؛ فنجد أن هناك مفكرين مثل ابن تيمية كان يشجع الملكية الخاصة وكذلك تتدخل الدولة لضبط الأداء الاقتصادي حيث "بيّن أن مجالات تدخل الدولة تبرز عندما لا يحقق الاقتصاد العدالة اللازمة، وركز على دورها في حماية العقيدة الإسلامية والتعاليم السمحة ومنع الغرر وسوء استخدام الضعفاء وركز على حماية الملكية."^٢

لفت المفكر عبد الرحمن بن خلدون الأنظار في هذه الحقبة، وقد راي ابن خلدون أهمية الحرية الاقتصادية للمجتمع، وأن تدخل الدولة في الاقتصاد يحقق خسائر للمجتمع أكبر من المكاسب التي ستعود من هذا التدخل، ورأى أن المكاسب التي ستحققها الدولة من الأنشطة مثل التجارة والزراعة أقل بكثير مما ستحصل عليه الدولة من الحرية الاقتصادية، فقال: "إذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح القليلة وجدها بالنسبة

(١) عبد الهادي على النجار، الإسلام والاقتصاد، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٢) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٣٢.

إلى الجباية أقل من القليل"^١، وكما سيأتي سنوضح تأييد ابن خلدون للفردية وجعل دور الدولة كحارسة.

ثانياً: الحرية ودور الدولة في الفكر الحديث

(١) التجاريون

أطلق على التجاريين أيضاً الرأسمالية التجارية، وقد ظهرت مع انهيار النظام الإقطاعي ومع ظهور التجار التي تمتلك رؤوس الأموال، وبهذه الأموال استطاعوا تجميع الحرفيين وتمويلهم بأدوات الإنتاج؛ فيتولى بعد ذلك التاجر تسويق هذه المنتجات، ومع الاكتشافات الجغرافية ودورها في انتقال أوروبا لعصر جديد زادت التجارة بشكل كبير، وكانت السفن تنقل البضائع، وأصبح التاجر شخصية اجتماعية متميزة، وكان تدخل الدولة هنا هاماً للتحكم والسيطرة على المعادن النفيسة.

نستطيع أن نتحدث عن حرية الأفراد ودور الأفراد في هذا العصر حيث إن "المدن التجارية لم يكن كبار التجار مجرد ذوي نفوذ في الحكومة وإنما كانوا هم الحكومة".^٢، وكانت آراء التجار في هذا العصر تحترم وتعمل الحكومة لصالح هؤلاء التجار وذلك لأنهم كانوا يؤمنون بوجود الدولة ويوفرون للدولة العملات المعدنية من الذهب والفضة. ثم جاءت الدولة القومية والتي "جاءت بالرابطة الوثيقة بل الحميمة بين سلطة الدولة ومصالحه التجارية".^٣، ولأن الدولة كانت

(١) مقدمة عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: حامد أحمد طاهر، دار الفجر للتراث، د. ت، ص ٤٦-٣.

(٢) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، عالم المعرفة، د. ت، ص ٤٦، ٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.

هي والتجار في اتجاه واحد، لذلك "دعا التجاريون الدولة للتدخل الشامل في الحياة الاقتصادية بقصد تحقيق ميزان تجارى".^١، وبذلك فإن حرية التملك هنا كانت كاملة للتجار، وكان دور الدولة وتدخلها هو حماية لهذه الملكيات في صورة حماية التجار ومصالحهم.

(٢) الطبيعيون

ظهر هذا الفكر في فرنسا، وقد قاموا بتحليل الظواهر الاقتصادية، ويعتبر الطبيعيون هم واضعو مذهب الحرية، فهم أول من دافع عن حرية التجارة غير المشروطة. ونادى الطبيعيون بعدم تدخل الدول في النشاط الاقتصادي أو في شؤون الأفراد، وضرورة إعطاء الأفراد حرية كاملة لتوجيه جهودهم لتحقيق مصالحهم الشخصية والتي لا تتعارض مع مصالح الدولة، وبذلك فقد اتبعوا المدرسة الكلاسيكية في عدم تدخل الدولة في النشاط التجاري وسيادة الحرية الاقتصادية.

كان للقوانين الطبيعية أهمية في هذا الفكر؛ فقد "قرر الطبيعيون مبدأ هاماً، وهو وجوب ترك النظام الاقتصادي حراً حتى يمكن للقوانين الطبيعية أن تحركه حركة منتظمة وتوجه تلقائياً نحو التوازن الطبيعي، وبناء عليه ينادي الطبيعيون بضرورة عدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، مبررين ذلك بأن العيوب التي لوحظت على التنظيمات الاقتصادية إنما ترجع أساساً إلى الجهل بالقوانين الطبيعية وإلى تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية وفقاً لسياسة التجاريين".^٢

(١) محمد عمر أبو عبدة، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٠٢

(٢) زينب صالح الأشوح، الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي: نظرة تاريخية مقارنة، مؤسسة كتب عربية، د. ت

ص ١١٣.

وقد قاموا بنقل الاهتمام في الاقتصاد من التبادل إلى الإنتاج واعتبروا أن التبادل لا ينشئ فائضاً وإنما الإنتاج هو الذي ينشئ فائضاً.

تبنى لذلك الطبيعيون الحرية الاقتصادية وتقليص دور الدولة، وكان أصحاب هذا الفكر " متفائلين في نظرهم إلى سير الحياة الاقتصادية، ومن مظاهر هذا التفاؤل أن كل فرد يسعى لتحقيق مصلحته الذاتية، ويسعى في ذات الوقت إلى تحقيق مصلحة الجماعة، وبعبارة أخرى إن ثمة توافقاً تلقائياً بين المصالح الذاتية للأفراد وبين مصلحة الجماعة."^١

(٣) الكلاسيك

تعتبر المدرسة الكلاسيكية هي صاحبة الفضل في ظهور الاقتصاد بصفته العلمية الحديثة، حيث قام الكلاسيك بمناقشة وتحليل وصياغة أفكار الطبيعيين والتجارين، وطوروا الرأسمالية التجارية إلى شكل جديد وهي الرأسمالية الصناعية، وقد أسس المدرسة الكلاسيكية آدم سميث، والذي قدم العديد من الأفكار الاقتصادية التي يؤخذ بها إلى يومنا هذا، وعندما تحدث آدم سميث عن حرية الأفراد أشار إلى أن الفرد هو الوحدة الرئيسية للنشاط الاقتصادي، وأن هذا الفرد يعمل بدافع من مصلحته الخاصة، وقال: " إن حق الملكية التي يتمتع به كل رجل في عمله الخاص إنما هو الحق الأقدس، وغير القابل للانتهاك بقدر ما هو الأساس الأولي لكل ملكية أخرى."^٢، ونادى الكلاسيك بتطبيق سياسة الحرية الاقتصادية باعتبار الحرية وسيلة أساسية وفعالة لحل المشكلات الاقتصادية وإعادة التوازن، وكذلك يتحقق

(١) محمد عمر أبو عبدة، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

(٢) آدم سميث، ثروة الأمم، معهد الدراسات الاستراتيجية، ترجمة: حسنى زينة، ص ١٨٠، ١٧٩.

أكبر قدر من الإنتاج لتحقيق رغبات المستهلكين "وكانت أقوى توصياته فيما يتعلق بالسياسة العامة هو الدعوة إلى حرية التجارة الداخلية والخارجية."^١

يرى الكلاسيك أن التدخل الحكومي غير ضروري وأنه يقترب بعدم الرفاهية، ووضعت هذه المدرسة حدًا أدنى للتدخل الحكومي وهو اقتصر التدخل على الأمن والعدالة وحماية حقوق الملكية وحماية المنافسة وتوافر الشفافية لتوافر المعلومات، ويقتصر دور الدولة على دور الحارس للنشاط الاقتصادي والحرية الاقتصادية، ويرى الكلاسيك أن المنفعة الخاصة للأفراد هي التي تحرك النشاط الاقتصادي. ونجد أن "سيطرة المنفعة الخاصة في الاقتصاد الكلاسيكي من تحليل سميث لدور اليد الخفية تعني أن الشخص يكون مقادًا بواسطة يد خفية والتي تحفزه للتقدم والرقي، والتطبيق الاقتصادي لعمل اليد الخفية وفق الاقتصاد الكلاسيكي أن الاقتصاد الطبيعي هو أن الحكومة تكون أكثر فعالية في الاقتصاد عندما تكون سلبية بمعنى ألا تؤدي دورًا والوجه المقابل لذلك هو الحرية الاقتصادية، بمعنى أن يكون الفرد هو الذي يمارسه دون قيود أو تدخل من الدولة، ومحركه في هذا النشاط الاقتصادي هو تعظيم منفعته الخاصة."^٢

(٤) ماركس

تحدث ماركس عن الملكية الفردية، وكيفية تفشي سلطة الرأسمالي وظلمها للعامل، ويرى ماركس أن الملكية تؤدي إلى ظلم. "لقد رأى ماركس أن السلطة هي الحقيقة التي لا مهرب منها في الحياة الاقتصادية، وهي تنبع من

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، دار الفكر الجامعي، ٢٠١٩، ص ١٢٤.

حيازة الممتلكات، وبالتالي هي ملكية طبيعية وحتمية للرأسمالي، إن الرأسمالي يمشي بخطى واسعة في المقدمة يتبعه مالك قوة العمل بوصفه خادما، الأول عليه سيماء الأهمية وبسمة متكلفة ومظهر انكباب على العمل، والآخر وديع مخلوع الفؤاد.^١، ومن هذه الأفكار عارض ماركس فكرة الملكية وحرية الملكية ورأى أنها تؤدي لتفاوت في الدخل في المجتمع وكذلك في تفاوت السلطة؛ فكلما زادت الثروة زادت السلطة؛ "فقد أكد ماركس الارتباط السابق بين السلطة وبين الطبقات الإقطاعية والأرستقراطية وملاك الأراضي..... كما ان سلطه الرأسمالي لا تقتصر على حدود مؤسسته فهي تمتد إلى المجتمع والدولة."^٢

نبع من هذا الظلم بعض المشكلات في الاقتصاد مثل الاحتكار، وتدني أجور العمال، وسوء توزيع الدخل، وكرد فعل لهذه الانحرافات ظهر الفكر الاشتراكي ليؤيد إحلال الملكية العامة مكان الملكية الخاصة ليكون الهدف هو إشباع الحاجات الجماعية وليس تحقيق الربح، وإحلال حاجات الجماعة بدلا من الفرد، وطالب بتدخل الدولة في الحياة الاقتصادية لتشريع وتوجه الأفراد.

(٥) كينز

مرّ النظام الرأسمالي بأزمة كادت أن تطيح به سنة ١٩٢٩م لولا كينز، والذي جاء من قلب هذا النظام، والذي أنقذ هذا النظام من الانتهاء والفشل، حيث " تمثلت قدرة كينز المرتبطة بالحرية والمعتقد في النظام الرأسمالي في أنه جعل النظام الرأسمالي يقبل تحورات جزرية فيه، وأهم هذه التحورات قبول

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٠، ١٥١.

الدور الاقتصادي للدولة^١، وهذا يعني أن كينز من قلب النظام الرأسمالي ولم ينقلب عليه وعلى مبادئه بل هو حاول تعديل جزء من هذه المبادئ للخروج من أزمة الكساد العظيم.

استطاع كينز ألا يقترب من الملكية الخاصة ولم يقترب من مبادئ الرأسمالية، ولكنه استطاع بآرائه أن يعزز دور الدولة في الحياة الاقتصادية دون المساس بالملكية الخاصة، واستطاع كذلك^٢ أن يغير فكر الدولة إلى رؤية كينز الجديدة، واتخذت الدولة إجراءات إيجابية للاقتصاد الوطني عن طريق تغيير الدستور الاقتصادي ليجسد التزاما واضحا بالمسؤولية الحكومية عن العمالة الكاملة، وأصبح قانون التوظيف الكامل قانون الولايات المتحدة عام ١٩٤٦م، وتم إنشاء مجلس الرئيس للمسؤولين الاقتصاديين، مما يوضح الاعتراف السياسي بالدور الهام للاقتصاديين ولأفكار كينز.^٣، ونلاحظ هنا أن الاقتصاد الكينزي جمع بين الملكية الخاصة ودور الدولة، وبذلك تعتبر هذه الأفكار هي نقل للنظام الرأسمالي من انعدام دور الدولة واعتبارها حارسة إلى دولة متدخلة في النظام الاقتصادي مع عدم المساس بالملكية الخاصة.

المبحث الثاني

تقسيم العمل والسوق

(١) رفعت السيد العوضي، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٢) the collected works of James M Buchanan – volume ٨ Democracy in Deficit - the political legacy of lord Keynes – p ٣١.

عند التحدث عن تقسيم العمل في العصور القديمة فإننا نتحدث عن النظام السائد في هذا الوقت وهو نظام العبودية؛ فمع "تطور الملكية قام تدريجياً حق الملكية ليس لمنتجات العمل فحسب بل للمنتج نفسه أيضاً، فالقريب المعدم أو أسير الحرب يصبح عبداً ليس فقط من الناحية العملية (الاستثمارية) بل وقانونياً أيضاً."^١، ويجب التنبيه على أن تقسيم العمل في الحضارات القديمة والعصور الوسطى لم يظهر بالصورة التي هو عليها في العصور الحديثة؛ فكان التقسيم هو تقسيم للحرف، أي قيام مجموعة من الأفراد بعمل حرفة معينة كالزراعة أو التجارة، أما التقسيم الدقيق للعمل على الصورة الحديثة لم يظهر في هذه العصور. ونجد أنه قد "انفصلت الحرفة عن الزراعة، وكان هذا هو التقسيم الاجتماعي للعمل، ومع تقسيم الإنتاج إلى فرعين أساسيين الزراعة والحرف ظهر الإنتاج المعد مباشرة للتبادل."^٢

أولاً : تقسيم العمل والسوق في الفكر القديم والعصور الوسطى

(١) الحضارة المصرية القديمة

تقسيم العمل

في الحضارة المصرية القديمة لم تكن فكرة تقسيم العمل مثل العصور الحديثة؛ فكانت معظم العمالة تتبع الدولة، وذلك كان لما للدولة من تدخل في الاقتصاد؛ وكانت الأعمال مقسمة إلى أعمال في الوظائف الحكومية، أو أعمال حرة كالحرف والصناعات، أو أعمال حكومية عظيمة؛ وكانت الدولة

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٢.

صاحبة السيطرة على كل الأعمال الكبيرة؛ ففي بعض العصور كانت الدولة تسيطر على العمال، "وكان هؤلاء العمال مقسمين إلى فرق صغيرة أو جماعات كبيرة أو هيئات صناعية، والظاهر أن أسرى الحرب كانوا يخصصون لأشق الأعمال في المناجم أو في ضياع الحكومة أو في المصانع الملكية... ولم يكن لهم أي حقوق بل كان سيدهم له الحق في التصرف فيهم كيف شاء ويقومون له بأي عمل

يريده"^١

كان هناك في هذه الحضارة أعمال جماعية مثل الزراعة والرعي والنسيج وكلها أعمال تحتاج لمتخصصين في هذه الأنواع من الحرف فنجد أنه "كان لا بد من وجود مزارع شاسعة لتربيته عدد عظيم من الماشية، وكانت هذه بطبيعة الحال موجودة في مصر في العصور القديمة"^٢، ولكي تدار هذه المزارع الحيوانية كان لا بد من وجود عمالة منتظمة للإشراف على هذه المزارع الحيوانية، وكذلك كانت المنتجات المصنوعة من الكتان في هذه الحضارة تدل على وجود منظومة لهذه الصناعة، حيث إن "كل الأقمشة القديمة التي عثر عليها في المقابر المصرية القديمة كانت مصنوعة من الكتان"^٣، وهذا يؤكد وجود عمالة منظمة لصناعة الكتان.

كانت الأعمال في الحضارة المصرية القديمة عظيمة وتحتاج إلى أعداد كبيرة من العمال وتنظيم لإنجاز هذه الأعمال العظيمة؛ "فكانت تجهز طوائف من

(١) موسوعة مصر القديمة، سليم حسن، الجزء الثاني، ص ٢١٢

(٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء الثاني، ١٠٩.

(٣) المرجع السابق، ١١٦.

العمال المختصين تحت إشراف رؤساء عمال ومفتشين وتعد الأساطيل والقوافل لنقل العمال وما يلزمهم من آلات ومهام... وكانت الحكومة منفردة باستغلال المهاجر والتي كانت تستوجب بطبيعة الحال انخراط عدد عظيم من الأيدي العاملة فيها.^١ كانت هناك أعمال فنية تحتاج لعمال مهرة، فكانت الدولة في بعض العصور توفر لهم الراحة والغذاء، كان الملك يقدم لهم "الهدايا التي توزع على مهرة العمال والصناعة، وبالتالي كان هناك شغف من العمال بإنتاج أعمال غاية في الإتقان... وتنقل النقوش أنواع الأطعمة المختلفة التي كانت تقدم للعمال في المهاجر."^٢، وكان من رسائل الملك لعماله "الطعام غزير حولكم ولقد كفيت حوائجكم من كل وجه صحيح حتى تعملوا لي بقلوب محبة...، فالمخازن مكدسة بالغلل لكم حتى لا يمر عليكم يوم تحتاجون فيه للطعام...، ولقد ملأت لكم المخازن من كل شئ من خبز ولحم وفضائر ونعال وملابس وعطور...، وقد عينت خلقا كثيرا ليؤمنوكم من الجوع"^٣

كان هناك تخصص في العمل، ومن خلال التخصص كان ينبع تقسيم العمل، وهو تقسيم لمجموعات مشتركة في عمل كبير، ولكل عامل تخصصه؛ ومن خلال هذا التخصص كان ينتج العمل المرجو منهم، "و كان بعض العمال يوصفون بالألقاب التي تدل على واجباتهم الخاصة؛ فمثلا نجد من بينهم ما يميزون بأنهم نحاتون أو حفارون أو صنّاع أو قاطعوا أحجار أو صنّاع جبس

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق، الجزء السادس، ص ٦٢٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٢٣، ٦٢٤.

وهم الذين يعتبرون أحياناً بنائين أو صانعي فخار.^١ ويقول سليم حسن أنهم عثروا على نقوش تفيد بأن موظف ذهب إلى جهة معينة "ومعه ٣٠٠ من الرماة، و ٢٠٠ من الحجارين ليقطعوا أحجار الهرم الملك (أبي)٢، وهذا يؤكد أن هناك تخصصاً في الأعمال والحرف.

كان هناك مشاريع صناعية في الحضارة المصرية القديمة، ولكنها كانت تتبع الملك لتصنيع كل ما يحتاجه وتحت إشرافه؛ فكان "الذهب والنحاس يصنعان بوساطة صياغ يعملون برقابة رؤساء...، وقد كان هؤلاء الصياغ والجوهريون يصنعون مجوهرات الأسرة المالكة... وأنواع من النيذ والمنسوجات الكتانية الدقيقة وورق المحفوظات والأثاث المرصع والمطعم وأنواع الزيوت والعطور والأواني الفاخرة.... كل هذه الأشياء كانت تخرجها الأيدي الماهرة التي كانت تعمل في المصانع الملكية."^٣

السوق

كان السوق في الحضارات المصرية القديمة ينقسم إلى سوق داخلية، وسوق خارجية ناتج من التجارة الخارجية في هذه الحضارة مع البلاد المجاورة لها، فأما التجارة الداخلية فكانت "في كل مدينة وفي كل قرية كان يقام السوق في المحال العمومية، وكان المدنيون والفلاحون يتقابلون هناك في أوقات معينة ويتبادلون سلعهم المتنوعة؛ فكان القوم يأتون من كل حدب وصوب راجلين أو على ظهور حميرهم أو في زوارقهم النيلية كل منهم يحمل منتجاته الزراعية أو

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء السابع، ص ٥٧٩.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٦٤.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢١٠، ٢١١.

الصناعية ... ومئات من الأشياء الأخرى التي كانت تستعمل في الحياة اليومية العادية.^١ كما كانت الأسواق العامة في هذه الحضارة "للأفراد رقيقي الحال هي المكان المختار لقيام المبادلات بينهم فيما يحتاجون إليه من المأكولات والمصنوعات. وقد كان سكان المدن يدخرون ما يكفيهم طيلة الأسبوع من الخضر، كما كان الفلاح يبيع ما عنده ويعود حاملا معه قلادة جميلة أو قارورة من العطر أو حذاء ينتعله في الأعياد.^٢، ويقول كذلك سليم حسن: " آخر منظر كشفنا عنه

هو منظر للسوق المصري وتبادل السلع ووضع الذهب ووزنه"^٣.

كانت الأسواق أيضًا في هذه الحضارة تمثل قوة تبادل هذه الحضارة مع الدول المجاورة لها، وكانت هذه الحضارة متصلة بالدول المجاورة، وأحيانا تسعى لهذا الاتصال؛ فيقول سليم حسن: " أما آخر أعمال (وئي) في عصر هذا الفرعون فهو حفر القنوات الخمس عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن والظاهر أن حفر هذه القنوات كان جزءًا من سياسة عامة شرع في تنفيذها في عهد هذا الفرعون، وتنطوي على كشف كل الجهات كشفا منظما، وتحسين طرق التجارة والعمل على إنمائها بين مصر وبلاد النوبة.... ولقد كان من جراء فتح هذا الطريق وتسهيل التجارة بين مصر وبلاد النوبة أن قامت رحلات التوغل من مجاهل هذه البلاد"^٤.

(١) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٣١.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٣٣

(٣) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٣٥٤.

(٤) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٨٠، ٣٨١.

أشار سليم حسن إلى قوة السوق الخارجية لهذه الحضارة، وأن الملك خوفو كان عصره يتمتع "بعلاقات تجارية من حين لآخر بين بعض القبائل التي كانت تسكن الصحراء بالقرب من حافة وادي النيل وبعضها، وقد كان قيام هذه العلاقة ميسورا وبخاصة من جهة الجنوب، لأن النيل كان يسهل هذه التجارة" ^١، وكذلك يقول: "إننا عثرنا على صور مراكب منقوشة على جدران هذا الطريق أعظم حجما من السفن النيلية، وقد وجد فيها قوم أسيويون شبه أسري، وهذه المراكب بلا شك آتية من بلاد سوريا، مما يدل على العلاقة بين البلدين في هذا العصر، بل وسيطرة مصر عليها بعض الشيء" ^٢.

(٢) الحضارة اليونانية

تقسيم العمل

كانت الحضارة اليونانية تقوم على الزراعة والصناعة والتجارة، ونظرا لنظام سيطرة الدولة على الأراضي الزراعية وعلى ملكيتها، وكان نظام العمل السائد هو نظام العبودية؛ فنجد أن في النظام الزراعي "الملك هو مالك سيادة الأرض... يجرسها مزارعون صغار بالوراثة، وما كان يميز هؤلاء المزارعين هو أنهم ما كانوا أحرارا في نشاطهم الاقتصادي، وكان هذا النشاط يسوي بدقة بتحديد طبيعة وكمية المزروعات المسموح بزراعتها، ولم يكن الفلاح قادرا على تغيير الضوابط المكتوبة، وكان يلزم بأداء غرامة ضخمة" ^٣، ولم يكن العمل في الزراعة يقتصر على العبيد، بل كان فيهم أناسا أحرارا ولكنهم "يعيشون أسوأ

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٩٤، ٢٩٥.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، ص، ٣٥٤.

(٣) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم واكيم البيازجي، مرجع سابق، ص ٤٠١.

الشروط مرتبطين بقبيلتهم وليس لهم الانتقال إلى قبيلة أخرى إلا بإذن، ومن يخالف يعاد بالقوة ويؤدي غرامة باهظة.... وكان المزارعون المملكون يشكلون جمهرة الرعية، وكانوا مرهقين بالضرائب والالتزامات مشلولين بتنفيذ دقيق لنشاطهم، وكانوا مرتبطين كلياً بالمزارعين العاميين بالمراقبين وبالموظفين من كل نمط وصنف.^١

كان شكل العمالة مقيداً في الحضارة اليونانية بسبب العبودية ومركزية الحكم، وكان الأساس الاقتصادي للدولة اليونانية هو العبودية وذلك مهما اختلفت أشكالها، وكان الأساس هو " استثمار العمل العبودي على اختلاف مصادره (حروب، تجارة بالعبيد... الخ)، وفي جميع القطاعات الاقتصادية (زراعة، ملاحية، تجارة، صناعة)، وقد كان تنظيم العمل من نوع (التعاون البسيط) الذي من شأنه زيادة إنتاجية العمل، كما أن تطور تقسيم العمل أدى إلى تطور الحرف والتجارة وازدهارهما خاصة في أثينا.^٢، وكان العبيد كثيراً ما يثورون على ملاك الأراضي حتى إنهم أحياناً كانوا يخربوا سرا أدوات وحيوانات العمل، وقد يتحول غضبهم إلى اضطرابات مكشوفة بالقوة وتنتهي إلى سرقة وتدمير الحقول.^٣، وقد أثرت العبودية على نمو الإنتاج، حيث أصبحت "عقبة دون نمو قوى الإنتاج، وذلك بسبب الوضع المزري لقوة الإنتاج الأساسية في النظام وهي العبيد، وظروفهم غير الإنسانية وتعرضهم للموت السريع ونضوب حيويتهم."^٤

(١) المرجع السابق، ص ٤٠٢ : ٤٠٥.

(٢) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢٠١.

(٣) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، مرجع سابق، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

(٤) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٢٠١.

كان العمل في الصناعة في الحضارة اليونانية له شكل خاص، فكان شكل العمالة أسرياً (تقوم كامل الأسرة بالعمل داخل الورشة) يتداخل مع عمالة العبيد في التصنيع في هذه الورش؛ "فكان يوجد في أثينا ورشات صغيرة يعمل فيها أفراد الأسرة كلها يساعدهم غالباً عبد أو عبدان وأحياناً أكثر"^١، وكان هناك ورش أغلب مؤسسيتها أجنب، ويعمل في هذه الورش العبيد، وكانوا يصنعون الأسلحة والدروع والتروس، وكانت تصنع المصايح والآلات الموسيقية... الخ ونلاحظ هنا بداية ظهور "التقسيم التقني للعمل، فنجد في ورش التعدين البعض يطرق الحديد وآخرون يشحذون وغيرهم يسقون المعدن وورش السيراميك تستخدم صناع الفخار، ورسامين ودهانين لتزيين الأواني المنزلية."^٢

إذا نظرنا للفكر في هذه الحضارة سنجد أن لتقسيم العمل حظاً في جمهورية أفلاطون، وجاء هذا التقسيم نظراً لاختلاف مواهب الأفراد في هذه الجمهورية، ففي فكر أفلاطون كان بعض الأفراد يصلح للحماية والبعض الآخر للحكم وآخرون للتجارة، وكان التقسيم في فكر أفلاطون "إنما نشأ بالضرورة لاختلاف المواهب الطبيعية بين الناس من جهة وتعدد حاجات الإنسان من جهة أخرى."^٣، ولكن لم يدرك أفلاطون تقسيم العمل بصورته الحديثة كما توصل إليه آدم سميث فيما بعد، ونتيجة لظهور التخصص

(١) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، مرجع سابق، ص ٣٢٦.

(٢) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، مرجع سابق، ص ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٤٢.

بصورته البسيطة في هذه الحضارة لظهور الأسواق حيث "إن تقسيم العمل (التخصص) يؤدي بالضرورة إلى نشوء التجارة"^١.

السوق

كانت السوق في اليونان سوقًا داخلية وسوقًا خارجيه، وكانت السوق الداخلية ورواج التجارة يتوقف على تطور المهنة، وكانت "التجارة المحلية أساسا تجارة سلعية وتجارة سوق، وكان ممثلوها النموذجيون الباعة الجوالين والحانوتين، وكان لكل مدينة مكان في السوق الذي يشكل مركزها أو وسطها تتجمع حوله الصروح العامة والمعابد، وثمة رف خاص لكل بضاعة: سمك، فخاريات. الخ، ومكان خاص للنخاسة، وفي هذا الميدان العام من المدن الكبرى يزاول المبادلون والمرابون القابعون وراء مكاتبهم كل أنواع العمليات المالية، ويتلقون الفضة مكدسة يكلفون بإرسالها إلى طالبيها، وإجراء الصفقات وغيرها، وكانت الفوائد عالية (١٨ ٪)، وفي حالة الارتباب والاضطراب التجاري تصل إلى (٣٦ ٪)"^٢.

توسعت اليونان في تجارتها الخارجية بسبب الغزوات؛ ففتحت هذه الغزوات أسواقا جديدة ووسعت نفوذ الدولة المالي فكانت "المراكز التجارية والصناعية الكبرى في اليونان القديمة تشترك بتجارة البحر الخارجية، وذلك لأنها كانت بحاجة للقمح وخشب البناء واليد العاملة (العبيد)... وكانت مراكب التجارة اليونانية تبحر باتجاه اليونان... فأثينا مثلا كانت تجلب من ساحل البحر الأسود ومصر القمح والماشية والسمك والجلود... الخ، وتستورد البرونز والبردي

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٢.

(٢) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، مرجع سابق، ص ٣٢٨.

ونسيج الكتان من مصر.... ومقابل البضائع المستوردة تصدر زيت الزيتون والعسل والرخام والرصاص... الخ، وقد كشفت الآثار سعة التجارة الأثينية ومراكز التجارة والصناعة اليونانية الأخرى... وبعكس التجارة الداخلية الصغرى كانت التجارة الخارجية الضخمة تأتي بمرباح هائلة.^١

(٣) الحضارة الرومانية

تقسيم العمل

كان العبيد "يمثلون القاعدة الاقتصادية لمجموع النظام العبودي حيث كانوا يعملون في جميع ميادين الإنتاج دون استثناء بالإضافة إلى عملهم في البيوت.... فكان العبيد يعملون كسواق للعربات الخاصة وفلاحين في الحدائق المنزلية وكتاب وسكرتاريتين.... الخ"^٢.

كانت الدولة الرومانية تلجأ للحروب لكي تزيد من قوة العمل من الأسرى الذين يتحولون لعبيد وكان "النظام العبودي هو الذي كان قد ممكن - على نطاق واسع نسبيا - من تقسيم العمل بين الصناعة والزراعة"^٣، ولذلك كان العمل في العصر الروماني في صور عبودية، وكان لمفكري الرومان موقف من الرق؛ فبدأوا "يشككون في كون النظام المذكور نظاما طبيعيا كما كان يؤكد فلاسفة اليونان... وعندما بدأ جلب العبيد من الخارج ينضب نتيجة انتهاء

(١) الحضارات القديمة، ترجمة: نسيم وأكيم اليازجي، مرجع سابق، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

(٢) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص، ١٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٩٨.

فترة الفتوحات الرومانية تزعزع مجموع النظام الاقتصادي الروماني الذي كان قائماً على عواتق العبيد، وقد أدى ذلك إلى تردي الصناعة والتجارة^١.

ساد في العصر الروماني التقسيم المهني وليس تقسيم العمل بصورته الحديثة، فقد " كانت التجارة والصناعة الحرفية أساس الحياة الاقتصادية للمدن الرومانية؛ فإلى جانب الإنتاج الحرفي المنزلي الواسع الانتشار كان جزء كبير من الصناعة يتم في وحدات كبيرة على أساس إجارة العمل الحرفي وخاصة في الصناعات التصديرية والصناعات الماهرة الدقيقة، وقد نشأ نوع من التخصص الأقليمي في أنواع الصناعة الدقيقة، فاختصت صيدا مثلاً بالصناعات الزجاجية، وبعض المدن السويسرية بالصناعات البرونزية، ومدن فرنسية بالصناعات الخرفية، ومدن في آسيا الصغرى بالصناعات الغذائية... إلخ"^٢.

يظهر التخصص في العمل في الإمبراطورية الرومانية متجلى في عملية البناء مثلاً؛ فنجد أنها كانت عملية "حسنة التنظيم عظيمة التخصص فكان حاملو الأشجار يقطعون الأشجار ويوردونها، وصناع الخشب يصنعون الأثاث، وصانعوا الأسمنت يخلطونه، والمشيدون يضعون الأساس، والقباءون يثبتون العقود، ومقيموا الجدران يرفعون الحوائط، والطلاسون يطلونها بالجص، والمبيضون يطلونها بالجير، وصانعوا الأدوات الصحية يصنعون أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص وكان المبلطون يفرشون الأرض بالرخام"^٣.

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٦٥.

(٣) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل بيروت، الجزء العاشر، ص ٢١٧.

نجد أن آدم سميث الذي "اعتمد في نظريته عن تقسيم العمل الاجتماعي على كتابات هيوم وهجسون إلا أن الأخيرين يعترفان صراحة في مؤلفاتهما بأنهما مدينان بالشئ الكثير حول هذه النظرية للكتاب الرومان".^١

السوق

اتسعت التجارة في الحضارة الرومانية اتساعاً لم يسبق له مثيل، وذلك بسبب إصلاح الإدارة والحكم ووسائل النقل وكانت "هناك أسواق يومية وأخرى دورية، وكان أصحاب الحوانيت يساومون المشتريين ويخسرون الموازين ويرقبون في حذر مفتشي الحكومة الذين كانت مهمتهم مراقبة المكاييل والموازين، وكان أرقى من هؤلاء في السلم التجاري الحوانيت التي تصنع بنفسها سلعتها، وكانت هذه الحوانيت عماد الصناعة والتجارة جميعاً".^٢

كان اقتصاد الحضارة الرومانية يقوم على خيارات الدول التي تستولي عليها، وكانت تتاجر وتنقل السلع من وإلى مدنها حيث إن "الكيان الاقتصادي لروما يقوم من حيث الجوهر على نهب المستعمرات وعلى الربا والاحتكار، ولم يكن قائماً على الصناعة لعدم توفر الشروط التكنيكية لازدهارها حينئذ".^٣ وكانوا يرفضون الوسائل التي توفر المجهود العضلي خوفاً من البطالة، ولكن كان هناك آلات تستخدم ولكن كان الإقبال عليها ضعيفاً، وكانت "قدرة الشعب

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(٢) ول وايريل ديورانت، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٦٠.

على الشراء أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات أو تشجع عليه " ١ .
كانت مصر تحت سيطرة الرومان، وكانت الإسكندرية من أهم المدن التجارية في الحضارة الرومانية؛ فكانت تقام فيها الصناعات وكانت يصدر منها الإنتاج، وكانت الأسواق فيها تتوسط المدن، وكان هناك مكان مخصص لكل نوع تجارة، وكان "العمل بالتجارة يتطلب موافقة الدولة، فعلى الشخص الذي يرغب في المزاولة أن يتقدم بطلب رسمي إلى كاتب المدينة... وكان أهم ما يشغل الدولة هو توفير المواد الغذائية في الأسواق والحد من جشع التجار، وفي نفس الوقت انتظم التجار كغيرهم من الطوائف في نقابات؛ فنقابة لتجار الخبز والأخرى لبائعي الجعة والثالثة لتجار الزيت والنبيد إلخ." ٢ .

كانت التجارة الخارجية منتعشة في الحضارة الرومانية، وكانت عملية الاستيراد في روما أكبر من عمليه التصدير حتى إن إيطاليا استمرت "مائتي عام وميزان التجارة في غير صالحها؛ فقد كانت تشتري أكثر مما تبيع، وكانت راضية بذلك مغتبطه." ٣ ، وكانت هذه السعادة في روما سببها التمتع بكل منتجات الإمبراطورية والتمتع بسلع المستعمرات من نسيج وزجاج وغذاء وكل المنتجات الاستهلاكية والترفيه والترفيهية، ولذلك " كانت هناك تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية... وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم

(١) ول وايريل ديوران، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٢١٨

(٢) زبيدة محمد عطا، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، دار الأمين للطبع والنشر، طبعه أولى، ١٩٩٤، ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) ول وايريل ديوران، قصة الحضارة، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

مائتي عام، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر؛ وذلك لأن إيطاليا لم تحاول قط أن تتعادل صادراتها مع وارداتها.^١ كانت الدولة الرومانية تحاول السيطرة على الأسواق؛ فكانت تهتم بالتسعير وتعلن شهريا عن الأسعار التي يجب الالتزام بها، وكان هذا لمواجهة الزيادة المتتالية في الأسعار، وكان مرسوم الأسعار التي تصدره الإمبراطورية دقيقاً يشمل كل أنواع السلع وأسعارها والحرف وأسعارها وبدقة متناهية، وقد وضع الإمبراطور عقوبات رادعة تصل إلى الإعدام، وقد برر الإمبراطور إصداره لهذا المرسوم الشهري بأن "هناك فئة تملكها الجشع بحيث لم تعد تأبه لما يحيق بالجنس البشري من الشر، وكلما زادت المعاناة ازداد جشعهم وأموالهم، فكان لا بد من قمعهم بالقانون."^٢

(٤) الحضارة المسيحية

تقسيم العمل

كان النظام السائد قبل ظهور المسيحية في العمل هو نظام الرق، وجاءت "المسيحية لتحرير الرقيق والدعوة للعمل الصالح وإنصاف الضعفاء والفقراء واستنكار الاستغلال والاضطهاد... لقد كانت تعاليم المسيح الخاصة بأخوة البشر والمحبة العامة بينهم تتناقض تماما مع نظام العبودية... ونرى التعاليم المسيحية تقرر لأول مرة في التاريخ القيمة المطلقة

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) زبيدة محمد عطا، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، مرجع سابق، ص ١٥٩.

للعمل من الناحيتين المادية والروحية.^١

تضاءلت الملكية البشرية (العبودية) في هذه الفترة، وكان العمل في شكل أقنان، وكان النظام الإقطاعي يقوم على التزامات وواجبات متبادلة بين ملاك الأرض والأقنان؛ حيث كان "على رقيق الأرض أن يظل مرتبطاً بالأرض التي يحوزها لإنتاج ما يكفيه من طعام، وأن يقدم خدماته في الأرض مقابل ما يحصل عليه من حماية سيده، والذي أعطى بدوره الحق في السيطرة على رقيق الأرض والأراضي ذات الأهمية مقابل خدمته لسيده."^٢، وكانت الكنيسة في هذه المرحلة هي صاحبة ملكية مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، وهي من تقدم الحماية لأقنان الأرض، وكانت في هذه المرحلة العمالة في صورة مصالح متبادلة بين القن والكنيسة، ولم يظهر تقسيم العمل بصورته الحديثة في هذه المرحلة فكان التخصص هو السائد في هذه المرحلة.

السوق

عندما نتحدث عن السوق في العهد الكنسي نتحدث عن السوق الخارجية المتمثلة في التجارة الخارجية، ثم نلقي نظرة على السوق الداخلية؛ فأما السوق الخارجية فكانت تعاني من أزمة كبيرة بسبب سيطرة الكنيسة، وكانت التجارة منكماشة بشكل كبير؛ ففي سنة ستمائة ميلادياً "لم يعد هناك سوى القليل من الطرق التجارية الصالحة والتي تربط الغرب الأوربي بالشرق..... والكثير من السلع القادمة من الشرق توقفت بسبب عدم توافر الأمن في تلك الطرق

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٥٩.

(٢) أي. راي كانتري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، ترجمة: سمير كريم، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، د.

ت، ص ٤٣.

التجارية وفي البحار، وعانى الغرب الأوربي من العجز الواضح في ميزان التجارة إذ لم يستطع أن يصدر سوى الرقيق والسيوف الفرنجية وبعض المواد الخام مثل الأخشاب والمعادن" ^١.

تشير الدراسات إلى أن الأسواق الداخلية في هذه المرحلة والمتمثلة في التجارة والتجار كانت تسير لتبادل ضروريات المعيشة مثل الأطعمة والملابس وغيرها، لذلك كانت هناك "بعض الطرق الداخلية ظلت مستخدمة، حيث قام الباعة الجائلون بالتردد على السكان المحليين إما سيراً على الأقدام أو في صحبة بعض دواب الحمل، إلا أن هؤلاء الباعة الجوالين واجهتهم كثير من الصعاب التي عانوا منها مثل الضرائب المرتفعة على متاجرهم وكذلك قطاع الطرق واللصوص إلى جانب ندرة النقود ونقص المنبع الذي يجلبون منه سلعهم، وفي كل أنحاء الغرب الأوربي كان هناك تضائل مستمر في طبقة التجار.... ومما لا شك فيه أن الفترة الزمنية من القرن السادس وحتى القرن الثامن الميلادي تعتبر فترة توقف ونسيان" ^٢.

٥) الحضارة الإسلامية

تقسيم العمل

عند التحدث عن تقسيم العمل يجب الإشارة إلى ان الدين الإسلامي جاء بمبدأ تحرير العبيد، لذلك لم يكن هناك توسع في استخدام العبيد في جميع

(١) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٢٧.

(٢) موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص ٢٧، ٢٨.

المجالات، لذلك لم يكونوا طبقة منتجة في هذه الحضارة، وكانت معظم الأنشطة تدار عن طريق الأحرار في جميع المجالات، وذلك عكس الحضارات السابقة لهذه الحضارة، وكان تقسيم العمل على صورة التخصص في الأنشطة، فقد " أكد الإسلام على حسن استغلال الموارد الاقتصادية والاهتمام بالإنتاج الزراعي والحيواني كأحد الموارد الهامة في تلك الفترة، كما شجع الإسلام العمل وأمر به واهتم برفع إنتاجية المسلم وتعلم الحرف.... كما ركز الإسلام على الصناعة وتأثيرها كأمر أساسي في تقدم المجتمع.... أما في الجانب الزراعي فقد ساهم التخصص في إنتاج المنتجات الزراعية في بعض أقاليم الدولة الإسلامية." ^١

تحدث الدمشقي بالتفصيل عن تقسيم العمل في كتابه (الإشارة إلى محاسن التجارة) في فصل بعنوان (موضع الحاجة إلى المال الصامت) وقد أشار إلى أن لكل إنسان حاجات متعددة مثل الغذاء والكساء والمأوى، ومع تعدد احتياجاته فإن قدرته لن تفي بسد جميع حاجاته، لذلك تتعدد الحرف وتقسم الأعمال لإنتاج هذه الحاجات حيث إن هذه الحاجات "تحتاج إلى أنواع من الصناعات حتى تتكون، ثم حتى تتم كما يفعل في النبات وحاجته أن يزرع أو يغرس ثم يسقى، ويرى ثم يحصد أو يلقط، ثم يحتاج إلى صناعة أخرى تكون لجمال الانتفاع، كحاجة القمح بعد حصاده إلى الدراس والغريلة والتنقية والطحن والنخل والعجن والخبز حتى يصلح أن يتغذى به..... ولم يكن الواحد من الناس لقصر عمره أن يتكلف جميع الصناعات كلها، وإن كان فيه احتمال لتعلم كثير منها فليس يقدر بجمعها كلها ألبتة حتى يحيط بها من أولها

(١) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٦٣.

إلى آخرها؛ لأن الصناعات مضمومة بعضها إلى بعض كالبناء يحتاج إلى النجار، والنجار يحتاج إلى الحداد،

وصناع الحديد يحتاجون إلى صناعة أصحاب المعادن، وتلك الصناعات تحتاج إلى أن يعين بعضهم بعضاً.^١

كذلك تحدث ابن خلدون عن تقسيم العمل والتخصص في مقدمته؛ فتحدث عن عجز الفرد وعدم قدرته في أن يوفر كل حاجته بنفسه، وأنه يحتاج للتعاون مع الآخرين لتوفير حاجته عن طريق التخصص وتقسيم العمل بينهم في جميع المجالات للوصول للإشباع من جميع الحاجات، حيث قال بأن "قدرة الواحد من البشر مقتصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري."^٢

افترض ابن خلدون أن الإنسان إن استطاع أن يأكل الحبوب بدون علاج فإنه سوف يحتاج أيضاً إلى مساعدين ومتخصصين في الزراعة في مراحلها المختلفة ليصل إلى هذه الحبوب ليأكلها، وهنا إشارة لمراحل العمل بالزراعية والتخصص في العمل الزراعي؛ فيقول: "هب أنه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حبا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه؛ الزراعة

(١) أبو فضل جعفر بن علي الدمشقي، مخطوطة الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة قيمة جيد الأغراض ورديتها وغشوش المدلسين فيها، مصر ١٩٧٧م، معجم المطبوعات ١: ٣٤١، ص ٣.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٦٥.

والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن توفى بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد؛ فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف.^١

السوق

كان السوق الداخلي في الحضارة الإسلامية يحظى باهتمام كبير، فقد وضع للسوق آدابا، وقد رتب على السوق رقابة ميدانية عن طريق الحسبة^٢، وكان رسول الله ﷺ يقول بهذه الحسبة في العديد من الطرق كمنع الغش وعدم التسعير إلا عن الضرورة، وألا يبيع حاضر لباد، وألا يبيع الإنسان ما ليس عنده، وكذلك منع الربا.^٣ وأدت الفتوحات الإسلامية إلى ظهور الأسواق الخارجية في هذه الحضارة، وإلى قيام نظام اقتصادي يرتكز على "تبادل تجارى واسع بين حضرات الدولة الإسلامية ليستبدل بذلك النظام الريفي الصغير الذي كان سائدا في ذلك الوقت"^٤.

زخرت الحضارة الإسلامية بالمفكرين الذين تناولوا التعاملات الاقتصادية في الأسواق، وقد خصص يحيى بن عمر كتابًا خاصًا بأحكام السوق والتعاملات في الأسواق، وقد فصل فيه مجموعة من التعاملات التي تحدث في السوق من

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(٢) الحسبة : هي ولاية من الحاكم للحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانة للمجتمع من الانحراف، ولتحقيق مصالح الناس الدنيوية والدينية.

(٣) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٦.

غش في البيعات وغش الموازين والمكاييل وكذلك الاحتكار، وسوف نذكر أمر الاحتكار حيث إنه قال في المحتكر " أنه إذا احتكر الطعام وكان ذلك مضراً بالناس في السوق: أرى أن يباع عليهم ويكون لهم رأس مالهم والربح يتصدق به أدبا لهم وينهوا عن ذلك، فمن عاد ضرب وطيف به وسجن."^١

هناك دراسة أخرى عن الأسواق في الحضارة الإسلامية لمجموعة من المؤلفين المهتمين بالحضارات الشرقية، أشارت هذه الدراسة إلى أن أسواق المدن الإسلامية كانت تتسم بمميزات تحصنها وتميزها عن الحضارات الأخرى، مثل دور السوق في تنظيم الشؤون الاقتصادية والمالية، حيث أصبحت "هذه المؤسسة لتساع عمليات البيع والشراء والإنتاج والأعمال الحرفية مركزاً قيادياً لشؤون المدينة الاقتصادية والمالية، ولهذا الاعتبار أيضاً كان لها المكانة المحورية سياسياً ودينياً، وهذا الفهم يجعل من السوق مؤسسة معادلة للمنطقة المركزية المخصصة في المدن الكبرى في العصر الحاضر للتعاملات التجارية."^٢

كانت الأسواق الخارجية في الحضارة الإسلامية ذات شأن عظيم، وذلك بسبب الفتوحات الإسلامية وانفتاح الدولة الإسلامية على العالم الخارجي، فقد اتسمت الدولة الإسلامية "بتصدير البضائع والانفتاح التجاري مع الشعوب الأخرى مما ساهم في امتلاك ثروات مالية عظيمة من عائدات التصدير... وكان لسيطرة الأمة الإسلامية على البحر المتوسط الأثر في توسع التجارة لدى المسلمين، وخاصة وأن السفن قد احتكرت عملية النقل البحري

١ (يحيى بن عمر الأندلسي، كتاب أحكام السوق، كتب الوثائق إسبانيا الإسلامية، ص ٧٦، ٦٦.

٢ (البازار السوق في التراث الإسلامي، مجموعة من المؤلفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية، ص ٣.

بين الموانئ المختلفة".^١، وكانت معظم التجار الخارجية هي تجارة بينه بين الأقاليم الإسلامية، وكذلك تجارة مع الحضارات الأخرى مثل بلاد الصين، وساهمت هذه التجارة الخارجية لزيادة التبادل التجاري، وكثرة النشاط والاستيراد والتصدير.

ثانيا : تقسيم العمل والسوق في الفكر الحديث

(١) التجاريين

تقسيم العمل

كان هذا النظام هو نظام يسوده مصلحة التجار، وكان هناك تحالف بين الحكومة ومنشأة الأعمال، فكانت الحكومة تسيطر على الاقتصاد لصالح التجار ومصالحهم، بغرض زيادة الثروة القومية من خلال تجميع الذهب والفضة، وكان تراكم رأس المال يؤدي إلى " التوسع في نظام المصانع البسيطة والتي أقيمت في إنجلترا والتي أدت إلى زيادة درجة التخصص والإنتاجية وانتعاش الإنتاج والتجارة والأعمال".^٢، وكان نظام التخصص هو السائد في هذه المرحلة فالعمل في التجارة أو العمل في الصناعة أو العمل في الزراعة هو السائد في هذه المرحلة، ولم يظهر تقسيم العمل بالصورة الحديثة في هذه المرحلة.

من المعروف أن تقسيم العمل مرهون بتطور القوى الإنتاجية والتي لم تتحقق بالصورة الحديثة في هذا العصر؛ حيث إن تقسيم العمل في هذه الحقبة كان وفقا لطبيعة النشاط الاقتصادي بين عمل زراعي للاكتفاء الذاتي، وعمل

(١) فؤاد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢) أي. راي كانتربري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٦٥.

صناعي لإشباع المجتمع من الصناعات البسيطة ولاستيعاب تراكم رأس المال، وعمل في التجارة والخدمات والتي كانت تستهدف تراكم الذهب والفضة.

كانت العمالة في هذه الحقبة لها شكل خاص فلم يكن تقسيم العمل يظهر بوضوح، بل كانت " الصناعات المحلية في غالبيتها تتم داخل الأسرة المعيشية حيث يقوم الزوج والزوجة والأبناء بصنع الأقمشة من المواد الأولية التي يزودهم بها التاجر، ولم يكن هناك أجر يدفع؛ فصاحب العمل لم يكن يدفع مقابل العمل إلا ما هو ضروري للتحكم في الناتج."^١

السوق

بدأ يظهر نظام السوق في عصر الماركنتيلية، وقد " انحرف كثيرا عن النظام الإقطاعي، وقد أدى إلى ظهور التاجر المستقل وإلى سلوك جديد وهو تأكيد مبدأ الفردية، ومن المحتمل أيضاً إلى نظام اقتصادي جديد هو اقتصاد السوق."^٢، ولكن كان هناك اتفاق بين التجار على أنظمة المنافسة وأنظمة الاحتكار؛ فنجد "موقف التجار السلبي تجاه المنافسة لأنهم لم يكونوا يرحبون بها، وقد كانت هناك موافقة على الاحتكار أو على التحكم الاحتكاري في الأسعار والمنتجات."^٣

مع تزايد التجارة في هذا العصر كان هناك شكل للسوق في هذه المرحلة حيث كانت التجارة " تتم محليا أو عبر مسافات طويلة، وكانت هناك أسواق ذات طابع مختلف تباع فيها الأقمشة والغزل والنبيد والجلود والأحذية والقمح

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٢) أي. راي كانتري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٣) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٥٢.

وأشياء أخرى كثيرة في الأسواق الخيرية وفي البيوت الخاصة وفي القاعات الكبيرة والساحات المجاورة، وكانت السفن تقوم بنقل المنتجات حتى من بلاد أشد بعدا.^١، وقد ظهرت الشركات المساهمة في هذه الفترة، "وكانت كل هذه الشركات تمنح احتكارا للتجارة في منطقتها المخصصة أو المفضلة، وكان يتعين أيضا على كل شركة أن تقاوم عن طريق العمل المسلح أو التهديد به غارات الاحتكارات الوطنية الأخرى التي حصلت على امتيازات مماثلة، ولقد بدأت الشركة المساهمة كأداة للتجارة."^٢

ظهر ارتفاع الأسعار مع عملية تراكم الذهب في النظام التجاري؛ حيث كان شغف الماركانتيلين بالذهب والفضة قد أثر على مستوى الأسعار في الأسواق حيث إن "الكميات الوفيرة من النقود في المملكة تجعل السلع الوطنية أعلى ثمنا وهكذا فإنه قد يبدو الأمر متناقضا؛ فمع تشجيع تدفق الذهب ترتفع الأسعار إلى أعلى، ومن ثمَّ تجعل السلع الوطنية أعلى ثمنا... وعندئذ يؤدي ارتفاع الأسعار المحلية لنقص الصادرات مما يذهب بالفائض التجاري."^٣، ونلاحظ من هذا أن الأسواق الداخلية تتأثر بارتفاع أسعارها والأسواق الخارجية تتأثر بنقص الصادرات نتيجة ارتفاع أسعار السلع المحلية.

(١) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٥.

(٣) أي. راي كانتربري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٦٥، ٦٦.

تقسيم العمل

تشبع الطبيعيون بالفلسفة الطبيعية، واعتقدوا أن هناك قوانين طبيعية تحكم النشاط الاقتصادي وتسييره بنظام حتى يصل بصورة تلقائية إلى التوازن الطبيعي، ونجد أن النشاط الزراعي هو من أهم أوجه النشاط على الإطلاق في هذا النظام من حيث الإنتاج ومن حيث العمالة، واعتبر النظام الطبيعي العمال الزراعيين هم الطبقة الوحيدة المنتجة، وأي عمالة لنشاط آخر هي طبقة عقيمة، ومن هنا فإن تقسيم العمل في فكر الطبيعيين يهتم بتقسيم العمل الزراعي بكل أنواعه.

كانت فرنسا قد احتفظت بالاهتمام الزراعي حيث "ظل للزراعة فيها سحرها الخاص، وفي ذلك الوقت أصبح كما كانت الحال منذ ذلك الحين كانت الزراعة في فرنسا أكثر من حرفة، وكانت كما يمكن أن تسمى الآن طريقة حياة كما كانت بقدر لا يستهان به شكلا من أشكال الفن، فأنواع الجبن الفرنسية والفواكه والأنبذة بطبيعة الحال كانت لها شخصية مقبولة خاصة بها." ^١، ومن هنا نستنتج نوعية تقسيم العمل في النظام الطبيعي، حيث إنها ستكون دائما تقسيماً للعمل في الإنتاج الزراعي، وحتى إذا كان في الصناعة فإنه سيكون في الصناعات التحويلية من المنتج الزراعي إلى صناعي أي صناعات أساسها الزراعة أيضاً.

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٥٩.

كانت العمالة في هذه المرحلة عمالة الأبقان، أو رقيق الأرض، وكانت الأعمال التي يقوم بها رقيق الأرض تماثل تماما عمل العبيد في الاقتصاد الروماني، ولكن كان هناك روابط تربط رقيق الأرض بملاك الأرض حيث كان هناك مزايا واضحة مختلفة عن العبودية؛ "فقد كانوا يتمتعون ببعض الثمار الناشئة عن عملهم ويتمتعون بدرجة من الحماية من هجمات النهب والسلب".^١ ، وكان كتاب الفيزوقراط قد "هبوا للدفاع عن مصالح العمال في مزارع فلاحية الأراضي بفرنسا ويعارضون مصالح أصحاب الأراضي الفرنسيين".^٢ ، ويتضح أن العمال الزراعيين على وجه الخصوص في هذه المرحلة كانت أوضاعهم عسيرة حيث نادى الفيزوقراط برفع الضرائب عن عمال الزراعة، ونادوا برفع الإعفاءات عن العمال الصناعيين، وذلك لتشجيع العمالة الزراعية لاعتبارها النشاط الرئيسي المنتج في المجتمع.

نستطيع أن نطلق على تقسيم العمل في الفكر الطبيعي لفظ تقسيم العمل الدولي، وهو تخصص معين تقوم به بعض الدول، فكان أصحاب الفكر الطبيعي في فرنسا وكانت فرنسا تتبنى الفكر الزراعي وبناء على ذلك يمكن القول بأن تخصص العمل لديها في مجال الزراعة بكل ما تحتاجه من أنواع عمل.

السوق

يعتبر الطبيعيون هم واضعي أسس المذهب الفردي، أو مذهب الحرية، وهم أصحاب عبارة (دعه يعمل دعه يمر) ومن أهم مبادئ الطبيعيين هو حرية

(١) أي. راي كانتيري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

التجارة غير المشروطة، أما الاحتكار فهو من الأمور غير المفروضة لديهم، فمع نقل الطبيعيون الاهتمام من التبادل إلى الإنتاج أدى إلى عدم الاهتمام بعملية التبادل واعتبارها عملية غير مجزية ولا تكون ثروة.

تبنت المدرسة الطبيعية تحرير التجارة الداخلية والخارجية لأن ذلك يكفل للزراع زيادة دخلهم، وذلك لاتساع الأسواق أمامهم، وكان لديهم مفكرين يدافعون عن التجارة؛ فوجد روبير جاك تورجو من رواد مدارس الفيزوقراط في فرنسا، وكان ابن تاجر غني، وقد دافع عن مصالح التجارة فقام مع تشجيع الزراعة بدعم التجارة المحلية وتحسين الطرق والحد من المظالم الضريبية، وكان يؤيد التجارة الحرة في الحبوب وإلغاء الاحتكارات، لذلك "اتحد ضده حشد من أصحاب المصالح المكتسبة"^١، وبذلك تظهر سياسات هذه المرحلة من عدم الممانعة من الاحتكار مع حرية الأسواق والاهتمام بالتسويق الذي يصب في مصالح الزراعة.

اهتم الطبيعيون بالزراعة واعتبروها النشاط الأكثر أهمية، واعتبروا أن التبادل في السلع غير الزراعية ليس له أهمية إلا في حالة عجز الدولة عن تصنيع سلع معينة فقط؛ أما التبادل الزراعي فهو الأهم حيث إن "المبادلة الوحيدة التي تعتبر مجدية ونافعة هي التي تنقل المنتجات الزراعية إلى أيدي المستهلكين، لذا طالب الفيزوقراط بإطلاق حرية تجارة الحبوب لتوسيع دائرة دوران الثروة مما يؤمن للحبوب سعرا جيدا، أي سعرا مرتفعا يعود بالخير على الشعب ويشكل حافزا لتنمية الزراعة وهي مصدر الثروة."^٢

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢) محمد عمر أبو عبده، عبد الحميد محمد شعبان، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١٦١.

تقسيم العمل

من أهم المفكرين في الفكر الكلاسيكي هو آدم سميث، حيث قام بتخصيص جزء من كتابة ثروة الأمم لفكرة تقسيم العمل، واعتبر أن تقسيم العمل هو أكبر تطور في العملية الإنتاجية، وقد أشار إلى أن تقسيم العمل له آثار تنعكس على المجتمع كله، حيث إنه أتاح اتساع عملية الإنتاج لتغطية متطلبات أعداد كبيرة من الناس، فيقول: "هذه الزيادة في كمية الشغل التي يمكن للعدد نفسه من الناس أن يقوم بها جراء تقسيم العمل إنما تعزى إلى ثلاثة ظروف مختلفة، أولاً: زيادة المهارة لدى كل عامل مخصوص، ثانياً: الاقتصاد في الوقت الذي يهدر عادة في الانتقال من نوع معين من العمل إلى نوع آخر، وأخيراً: اختراع عدد كبير من الآلات التي تسهل العمل وتختزله وتمكن رجلاً واحداً من القيام بعمل عدة رجال." ^١

يرى سميث أن من مميزات تقسيم العمل أنه "يختزل مهمة كل رجل إلى مجرد عملية بسيطة واحدة، ويجعل هذه العملية شغله الشاغل طيلة حياته" ^٢، كما أن هناك ميزة أخرى وهي أن "اختراع هذه الآلات التي تسهل العمل وتختزله إلى هذا الحد يبدو ناتجاً في الأصل عن تقسيم العمل." ^٣، وقد أشار سميث

(١) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨.

إلى أن هناك نتائج لتقسيم العمل، منها أن تركيز العامل في تخصصه يؤدي إلى توصله لأسهل طريقة لأداء هذا العمل، وذلك لأن "كامل انتباه كل رجل يتركز بصورة طبيعية على موضوع واحد بسيط جدا."^١، ويرى سميث أن لتقسيم العمل العديد من المميزات منها المكتسبة وتكون "جراة توفير الوقت الذي يهدر عادة خلال عملية الانتقال من نوع من الأعمال إلى عمل آخر هي في الواقع أكبر مما قد يتبادر إلى ذهننا للوهلة الأولى، فمن المستحيل أن ينتقل المرء بسرعة من نوع من الأعمال إلى نوع آخر يزاول في مكان آخر وبأدوات مختلفة تماما."^٢.

يرى كذلك أن تقسيم العمل يزيد من عدد التخصصات في العمل الواحد، وهذه الزيادة تؤدي إلى "زيادة المهارة وتوفير الوقت فيصير كل فرد إدري بفرعه الخاص وأخبر، وينجز المزيد من العمل، وتتراكم المعلومات كثيرا جراة ذلك."^٣ وكذلك من نتائج تقسيم العمل تزايد عدد المنتجات والسلع المنتجة، وذلك لأن "الصانع يمد الآخرين بكل ما يحتاجون إليه، وهم يمدونه بالوفرة نفسها مما يحتاج إليه هو، وتنتشر بذلك وفرة عامة في مختلف مراتب المجتمع"^٤.

يرى سميث أن تقسيم العمل يؤدي إلى ظهور التفاوت في المواهب الطبيعية بين الأفراد، وهذا الاختلاف والتفاوت يكون نافعا، وذلك لأن "أشد السجايا تباينا بين اثنين تعود بالمنفعة عليهما معا، فالمنتجات المختلفة لمواهبهم المتباينة تفضى عبر الاستعداد العام للمعاوضة والمقايضة والمبادلة فيما يبدو إلى تكوين

(١) المرجع السابق، ص ١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

(٣) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ١٩، ٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٠.

مخزون مشترك يشتري كل رجل منه أي جزء يحتاج إليه من منتجات مواهب الناس الآخرين.^١

أشار آدم سميث إلى أن هناك دواعي لتقسيم العمل مثل المقايضة أو المفاوضة أو الشراء، حيث "يحصل بعضنا من بعض على جل ما نحتاج إليه من خدمات، فإن الاستعداد للمقايضة نفسه هو الذي يخلق الداعي إلى تقسيم العمل".^٢، فالإنسان عندما يريد أن يحصل على سلعة فيجب عليه أن يتقن عملاً معيناً ليستطيع أن يبادلها بالسلعة التي يريد الحصول عليها، ويتخصص في صنع هذه السلعة ويتميز حتى يصبح عمله الخاص، وهنا يستفيد من مهارته ويحقق رغباته بالمقايضة أو الشراء، حيث إن "التأكد من مبادلة كل ذلك القسم الزائد من إنتاج عمله والفائض عن استهلاكه الخاص لقاء أقسام زائدة كهذه من إنتاج أعمال آخرين حسبما تدعو الحاجة إلى ذلك، فيتشجع كل رجل على الانكباب على شغله الخاص، وترقية ما قد يملكه من فطرة أو موهبة لهذا النوع الخاص من الشغل وبلوغ غاية الكمال فيه".^٣

ربط آدم سميث تقسيم العمل بسعة السوق، وذكر أن هناك ارتباطاً بين تقسيم العمل والسوق، حيث إن قوة التبادل هي السبب في تقسيم العمل، حيث إنه عند صغر حجم السوق لا يجد الأفراد داعياً لبذل جهد وإنتاج، لأنهم لن يستطيعوا تصريفه فيحدث تراكم للفائض، ويرى كذلك أن هناك مؤشرات تؤثر على حجم السوق مثل وجود النقل المائي حيث إنه "تقام السوق لكل

(١) المرجع السابق، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦.

أصناف الصنائع بصورة أوسع من السوق المعتمدة على النقل البرى، كذلك فإن الصنائع على اختلاف الواحها تبدأ بالتفرع إلى فروع وتتطور على ساحل البحر، وعلى ضفاف الأنهار القابلة للملاحة النهريّة.^١

يتوقف الربط بين سعة السوق وتقسيم العمل في رأي سميث على قدرة السوق على تصريف الفائض من الإنتاج؛ فإن حدث هذا التصريف للإنتاج زاد تقسيم العمل. وقد ربط سميث بين اتساع السوق والمنافذ المائية فيرى أن البلاد البعيدة عن البحار والأنهار يضيق سوقها مهما كان لديها من موارد، حيث إن "قوة التبادل هي مدعاة إلى تقسيم العمل. وينبغي لمدى هذا التقسيم أن يكون دائما محدودًا بمدى هذه القوة، أو بعبارة أخرى بسعة السوق، فعندما يكون السوق صغيرا لا يجد الشخص أي حافز يدفعه لينذر نفسه كلياً لشغل واحد، وذلك لافتقاده القوة لمبادلة كل ما يزيد عن إنتاج شغله الخاص، والفائض عن استهلاكه الخاص مقابل ما يحتاج إليه من بعض منتجات شغل صناعات أخرى".^٢

حدد سميث بعض الأمور التي يحتاجها تقسيم العمل وزيادة الإنتاج حتى تتكون الثروات، منها السوق الواسعة، والحكومة الراعية التي لا تتدخل في النشاط ولكن يكون عندها القدرة على حماية الأفراد وحماية رءوس الأموال وتأمينها بالقوانين حتى يتثنى بناء المشروعات وتأمين أجور العمال، ويكون لديها القدرة على تأمين بنية تحتية ووضع نظام مالي عادل لا يرهق أصحاب الأعمال ولا يعيق توسعهم في المشروعات.

(١) المرجع السابق، ص ٣٠

(٢) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٢٩.

السوق

يرى آدم سميث أن قوة التبادل تأتي من سعة السوق، وأن سعة السوق تأتي مع تقسيم العمل وزيادة الإنتاج؛ فيرى أنه "عندما يكون السوق صغيرا لا يجد الشخص أي حافز يدفعه لينذر نفسه كلياً لشغل واحد"^١، وفي نفس الوقت هناك أصناف من الصنائع يجب أن تتواجد في سوق كبيرة، فكلما كان السوق كبيراً زاد التبادل وزاد العمل، وإن سعة السوق تتناسب طردياً مع زيادة الإنتاج والثروة حيث إن المدن الصغيرة يجب فيها بالإلمام بجميع المهن؛ ففي المدن الصغيرة يجب على كل مزارع " أن يكون قصاباً وخبازاً وصانع جعة لأسرته الخاصة.... ويضطر أصحاب الصنائع الريفيون في كل موضع تقريباً أن يشغلوا في مختلف فروع الصنائع المتقاربة بعضها مع بعض"^٢، وبذلك لا يظهر في المدن الصغيرة الأسواق بوضوح حيث تقل الصناعة، ويقل التخصص والتقسيم مع صغر السوق، وبالتالي فلن يوجد فائض، وإن وجد فائض سيكون تصريفه ضعيفاً لصغر حجم السوق.

يرى سميث أن هناك أسباباً تؤدي لسعة السوق، منها وجود وسائل نقل بحرية بين الدول، فيرى أن المدينتين المتصلتين بحريا يتمتعون "بتجارة واسعة بينهما، وهما تتيجان سوقاً بصورة متبادلة تمنح كل منهما تشجيعاً عظيماً لصناعة الأخرى."^٣، كذلك يرى أن نوعية النشاط تؤثر على حجم السوق، حيث إن هناك نوعيات من النشاط لا تصلح مع الأسواق الصغيرة، ويجب أن تقام

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٣) المرجع السابق، ٣١، ٣٢.

لها أسواق كبيرة، يقول سميث: "فالحمال مثلا لا يستطيع أن يجد عملا يكسب منه قوته إذ إن القرية مكان ضيق جدا عليه، والسوق ليست كبيرة لتتيح له شغلا مستمرا."^١، كذلك يرى سميث أن تقسيم

العمل يحتاج لأسواق واسعة لتصريف الفائض من تقسيم العمل.

يرى سميث أن الحرية في الأسواق هي القاعدة التي تؤدي بالسوق إلى التوازن، وأن عدم التدخل هو الضامن لحرية الأسواق، ويرى سميث أن الحرية الكاملة تجعل السوق يتوازن تلقائيا؛ فقد أشار سميث إلى المساومة التي تتم في الأسواق في عملية التبادل، فيقول: " التبادل لا يتوازن جراء أي مقياس دقيق بل بالمساومة والافراط فيها في السوق."^٢، ومن خلال عملية المساومة يكون البيع والشراء، ومن خلال الرغبة في الشراء يتكون الطلب الفعال والذي أشار إليه سميث أنه هو طلب "الذين يرغبون في دفع السعر الطبيعي لهذه السلعة أو القيمة الكاملة للربح والعمل والربح أي الكلفة التي لا بد من دفعها لإيصالها إلى هذا المكان."^٣، وقد فرق بين الطلب الفعلي والطلب المطلق وهو الطلب غير المصحوب بقدرة فعلية على الشراء.

يرى سميث أن توازن السوق يتم من خلال الطلب الفعال، فإذا قلَّ الطلب الفعال سيؤدي ذلك إلى زيادة المعروض من السلع، وبالتالي ينخفض التنافس على السلع فينخفض سعر السلع عن السعر الطبيعي لها، وهنا يبدأ حدوث تغير بالانخفاض في سعر بعض مكونات السلعة؛ "فإن كان هذا الجزء ريعا

(١) المرجع السابق، ص ٢٩.

(٢) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٣.

فإن من مصلحة أصحاب الأراضي سوف يدفعهم فوراً لسحب جزء من أراضيهم، وإذا كان هذا الجزء هو الأجر أو الربح فإن من مصلحة العمال أو مشغليهم سوف يدفعهم إلى سحب جزء من عملهم أو من رأس مالهم من هذا الاستثمار، وبذلك تتناقص الكمية المحمولة إلى السوق سريعاً بحيث لا تزيد عما هو كاف لتلبية الطلب الفعلي، ويرتفع مختلف أجزاء السعر إلى نسبتها الطبيعية وبالتالي السعر الكلي إلى السعر الطبيعي.^١ وبذلك فإن التوازن في الأسواق يتوقف على المنافسة الكاملة والحرية الكاملة، والحاكم هو الطلب الفعال.

يستثنى سميث الاحتكار من عملية التنافس والتوازن التلقائي سواء كان هذا الاحتكار فناً تقنياً في التصنيع، ويكون بفهم سر من أسرار التصنيع واحتكاره، أو احتكار تجاري يكون ممنوح لفرد أو لشركة، ويكون "بأن يقون السوق قليل المخزون باستمرار، وذلك عبر عدم تلبية الطلب الفعلي، ويبيعون سلعهم بأسعار تفوق كثيراً السعر الطبيعي ويزيدون أرباحهم زيادة فاحشه سواء كان قوامها الأجر أو الأرباح زيادة كبيرة فوق النسب الطبيعية."^٢ ويرى سميث ان في هذه الحالة فان سعر الاحتكار هو يسير عكس السعر التنافسي أي عكس السعر الطبيعي، ومع تطور النظام الكلاسيكي جاء الاحتكار كظاهرة اقتصادية نتيجة تطور هذا النظام ونتيجة كذلك لتطور الأسواق بسبب التقدم الكبير في وسائل الاتصال والنقل وهذا ما جعل "من السهل إنتاج ونقل الأموال الصناعية إلى مسافات بعيدة حتى تصل إلى أسواق

(١) المرجع السابق، ص ٨٤، ٨٥

(٢) المرجع السابق، ص ٩٠

لم تكن مفتوحة من قبل، وقد أدى ذلك إلى دفع الإنتاج إلى التركز في نقاط معينة لإمداد أسواق مجمعة، وقد أدت أسباب تتعلق بالقوة الاقتصادية والكفاية الفنية إلى عمليات تكوين المشروعات الكبيرة وظهرت الاتحادات الاحتكارية.^١

(٤) ماركس

تقسيم العمل

اهتم كارل ماركس بفكرة تقسيم العمل، وقد قام بتصنيف تقسيم العمل إلى تقسيم عمل اجتماعي، وهو مثل العمل في الأنشطة المختلفة في المجتمع مثل العمل في الزراعة والعمل في الصناعة والعمل بالتجارة، ثم قسم الأعمال الاجتماعية إلى أقسام أخرى؛ فمثلا الزراعة قسمها إلى ري وحرث وحصاد وغيره، وأطلق عليه التقسيم من الوجهة الخاصة، ثم زاد في التقسيم إلى التقسيم الأخير وهو تقسيم التفاصيل، وهو تقسيم العمل في الصناعات اليدوية، وأشار ماركس إلى نوع آخر من تقسيم العمل، وهو تقسيم العمل الأقليمي، ويعني تركز فروع معينة من العمل في أقاليم وجهات معينة.

أشار ماركس إلى أن هناك ارتباطاً بين تقسيم العمل الاجتماعي وتقسيم العمل في الصناعات اليدوية؛ حيث إن التقسيم للعمل في الصناعات اليدوية ينمي ويضعف التقسيم الاجتماعي للعمل، وأن التقسيم الاجتماعي للعمل يعتمد على كثافة السكان، ويزيد التقسيم الاجتماعي للعمل عن طريق زيادة

(١) فنشنز وفيتللو، الفكر الاقتصادي الحديث، ترجمة: محمد إبراهيم زيد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ٨٤.

التبادل بين المجالات إنتاج السلع المختلفة، وكلما اختلف الإنتاج زاد التقسيم الاجتماعي للعمل، وزاد التبادل مع هذا الاختلاف.

اهتم ماركس بتقسيم العمل في الصناعات اليدوية، وهو "تنظيم العمل حتى يظل جاريا حسب خطوط الحرفة اليدوية، ولذا يتوقف على القوة والمهارة والسرعة والدقة التي يتناول بها العامل الفردي عدده وأدواته.... وإلى نفس السبب الذي من أجله تظل المهارة في الحرفة أساس عملية الإنتاج ويرجع لتخصيص وظيفة جزئية لكل عامل، وبذلك تصير قوته على العمل أداة لهذه الوظيفة الجزئية بقية عمره." ^١، وقد أشار ماركس لأهمية التدريب للعملية الإنتاجية؛ فيرى أنه "لما كانت بعض وظائف العمل الجماعي منها البسيط ومنها المعقد نجد أن قوى العمل الفردية التي يتكون منها تتطلب درجات متباينة من التدريب، وبذلك يكون لها قيم متفاوتة." ^٢، ويترتب على هذه المهارات المتفاوتة ترتيب وتفاوت أجور العمال.

يشرح ماركس كيفية تخصص العمل في الصناعات اليدوية، ثم يوضح فوائد تقسيم العمل في عملية الإنتاج وما يضيفه تقسيم العمل لمهارة العامل فيقول: "إن العامل الذي يمارس نفس العملية البسيطة الواحدة طيلة حياته إنما يحول جسمه إلى آلة أوتوماتيكية متخصصة لتلك العملية، وهو الأمر الذي يترتب عليه أن يصير قادرا على أدائها بأسرع مما يستطيع من يؤدي سلسلة كاملة من عمليات مختلفة." ^٣. كذلك يرى ماركس أن مهارة العامل تزيد في الصناعات

(١) كارل ماركس، رأس المال، ترجمة: راشد النبراوي، الناشر مكتبة النهضة الحديثة، ص ٢٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٣) كارل ماركس، رأس المال، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

اليديوية مع نظام تقسيم العمل؛ فقال: "إن الصناعة اليديوية تولد مهارة العامل المختص بالعملية التفصيلية، وذلك لأنها تعمل بانتظام داخل الورشة على أن يصل إلى غايته."^١

استنتج ماركس أن المقارنة بين ورشة يديوية يقوم فيها العامل بكل مراحل الإنتاج تنتج أقل من مصنع يدوي يقوم فيه تقسيم العمل؛ فقال "إذا ما وازنا إنتاج المصنع اليدوي بالحرفة اليديوية المستقلة لوجدنا نظام المصانع اليديوية قادرا على أن ينتج مقداراً أكبر في وقت أقصر، وبذلك تزداد إنتاجية العمل."^٢ وذلك لأن "صاحب الحرفة اليديوية الذي يمارس مختلف العمليات التفصيلية اللازمة لعمل المنتج التام واحدة بعد الأخرى مضطر إلى تغيير مكانه وعدده من وقت إلى آخر، كما يعطل الانتقال من عملية إلى أخرى سير العمل، ولذا يحدث ثغرات في يوم العمل."^٣

يرى ماركس أن لتقسيم العمل ميزة أخرى، وهي "أن طريقة العمل التفصيلي تزداد اتقاناً وكمالاً بعد أن تصبح الوظيفة الوحيدة التي يختص بها شخص واحد، وذلك لأن التكرار المتواصل لنفس العملية الواحدة المحدودة وتركيز انتباه العامل في هذا الميدان الضيق يعلمانه بالتجربة كيف يدرك الغاية النافعة المرغوب فيها مع بذل الحد الأدنى من النشاط أو الطاقة، وتعيش أجيال عدة من العمال سوياً في نفس الوقت وتتعاون في نفس الصناعة اليديوية، ونجد ما

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٨، ٢٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٩٠.

تكسبه من حيل المهنة عن طريق التجربة تثبت دعائمه ويتراكم وتتأفله الأجيال. " ١

ربط ماركس بين التخصص في تقسيم العمل الذي يؤدي إلى التخصص في استخدام أدوات الإنتاج والآلات؛ حيث إن "عصر إنتاج المصانع اليدوية يعمل على تبسيط أدوات العمل ويؤدي إلى تحسينها ومضاعفاتها، وذلك بأن يجعلها ملائمة للوظائف الخاصة التي تناط بالعامل المتخصص في عملية تفصيلية." ٢، وقد أشار ماركس إلى أن مع التطور في صناعة الآلات أدى لتقلص دور العامل وانكماش الصناعات اليدوية، وكذلك على تقسيم العمل.

يرى ماركس أنه من الضروري في عملية تقسيم العمل أن تراعى المهارة التي يجب أن تتناسب مع كل عملية إنتاجية حيث إن كل عملية تحتاج إلى مهارة معينة، فهناك مهارة الدقة وهناك مهارة السرعة... الخ، ويرى ماركس أنه لا يوجد "فرد قد وهبته الطبيعة هذه المزايا جميعا إلى حد الكمال، فبعد أن يتم عزل العمليات المختلفة واستقلال كل منها يجرى فصل العمال وترتيبهم وتجميعهم في مجموعات تبعا لمواهبهم الغالبة، فإذا كانت مواهبهم الطبيعية أساس تقسيم العمل نجد الصناعة اليدوية من جهة أخرى تنمي فيهم قوى عاملة أعدتها الطبيعة لوظائف قليلة متخصصة." ٣

السوق

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٣) كارل ماركس، رأس المال، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

الاقتصاد عند ماركس اقتصاد مخطط يكون للدولة فيه دور مهم فنجد أن الأداء الاقتصادي يسعى لتحقيق هدف مخطط لا يكون عن طريق العمل التلقائي لقوى السوق، وإنما عن طريق التخطيط؛ حيث إنه لا مجال لقوى السوق في هذا الاقتصاد، ونلاحظ أنه من مرتكزات الفكر الماركسي زوال المنافسة التجارية، أي القضاء على المنافسة الفردية وخلق منافسة أخرى، وهي منافسة الإنتاج وزيادته لتحقيق المصلحة العامة من خلال التخطيط المركزي الشامل، كما اهتم ماركس بسوق العمل، أي سوق بيع وشراء جهد العامل، كما أشار ماركس إلى الاحتكار من خلال ممارسات الرأسمالية، كذلك اهتم بالأسواق الخارجية، وسنبداً بسوق العمل عند ماركس.

اهتم ماركس بسوق العمل، واعتبر ماركس أن جهد العامل سلعة تباع وتشتري ولها سوق، وهو السوق الذي اهتم به ماركس حيث اعتبر العمال سلعة تباع وتشتري، واهتم بالعرض والطلب على العمال، حيث إن العمال سلعة يسعى إليها الرأسمالي، حيث إن "العمل محول إلى بضاعة وخاضع بالتالي للقوانين التي تنظم الحركة العامة للأسعار... وأن ارتفاعاً عاماً في الأجور يؤدي إلى انخفاض عام في معدلات الأرباح"^١. ويعني ذلك أن العمال سلعة تدخل في العملية الإنتاجية، وسعرها يؤثر على ربح الرأسمالي، لذلك اهتم ماركس بسوق العمل، ولكنه لم يهتم بالعرض والطلب وتأثيرهم على سوق العمل في تحديد قيمة العمل؛ فقال: " لذلك ليس لنا عند بحث طبيعة هذه القيمة أن نهتم أي

(١) كارل ماركس، الأجور والأسعار والأرباح، دار التقدم موسكو، ص ٧٤.

اهتمام بما للعرض والطلب من تأثيرات مؤقتة على أسعار السوق، وهذا يتعلق بالأجور كما يتعلق بأسعار جميع البضائع الأخرى.^١

يرى ماركس أن لسوق العمل جانبان، الجانب الأول هو المشترون لقوة العمل والجانب الثاني هم البائعون لقوة العمل، فيقول: "إننا نجد في السوق من جهة فئة من المشتريين المالكين للأرض وللآلات وللمواد الأولية ووسائل العيش، أي جميع الأشياء التي هي باستثناء الأرض غير المزروعة نتاج للعمل، ومن جهة أخرى فئة من البائعين الذين ليس لديهم ما يبيعونه غير قوة عملهم وغير سواعدهم العاملة وادمغتهم، وأن بعضهم يشترون على الدوام بقصد اجتناء الربح والأثراء، بينما الآخرون يبيعون باستمرار لكي يقوموا اود المعيشة."^٢، كما يرى ماركس أن الرأسمالي يستغل قوة العمل التي يشتريها مثل أي بضاعة يقوم بشرائها، فيستهلكها ويستعملها ويجبر العامل على العمل مقابل ما يدفعه في شراء قوة العمل، فهو قد " اكتسب حق استخدام هذه القوة وتشغيلها طيلة اليوم كله أو الأسبوع كله."^٣، ويرى ماركس أن هناك ظلمًا يحدث في سوق العمل ضد العامل؛ وذلك لأن هناك ساعات في العمل تذهب لخزينة الرأسمالي، وتزيد من أرباحه.

ربط ماركس الأسعار في الأسواق بوقت العمل، وكذلك نوعه والخبرات والموهبة، فيرى أنه "تحدد قيمة قوة العمل كما تحدد قيمة كل بضاعة أخرى، ولما كان لمختلف أنواع قوة العمل قيم مختلفة أي أنها تتطلب لإنتاجها كميات

(١) المرجع السابق، ص ٣٠.

(٢) كارل ماركس، الأجور والأسعار والأرباح، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٥١.

من العمل مختلفة فلا بد أن تكون لها بالضرورة أسعار مختلفة في سوق العمل.^١ كذلك أرجع ماركس تغير الأسعار في سوق العمل على الدورات الاقتصادية حيث إن النظام الرأسمالي يمر " بهدوء وفطور وانتعاش متزايد فازدهار ففيض من الإنتاج فأزمة فركود، وأسعار البضائع في السوق ومعدلات الأرباح في السوق تتوافق وهذه الاطوار فهابطه إلى ما دون مستواها الوسطى احيانا، ومرتفعة عنه احيانا أخرى فاذا ما نظرتم إلى الدورة بكاملها فأنكم تلاحظون ان انحراف السعر في السوق يعوضه انحراف آخر، وان أسعار البضائع في السوق في حدود الدورة كلها تحدها إجمالاً قيمها، ففي أطوار هبوط أسعار السوق وأطوار الأزمة والركود لا بد للعامل إذا هو لم يطرح خارج الإنتاج أن تنخفض أجرته بصورة مؤكدة.^٢

انتقد ماركس النظام الرأسمالي وأشار أن من عيوبه الاحتكار في الأسواق؛ حيث إنه كان يرى " أن تغير التكنولوجيا وزيادة المنافسة يؤديان إلى خلق منشآت أقل فأقل وأضخم فأضخم فدرجة أعلى من التكنولوجيا ستتطلب مصنعا أكبر وأضخم ورأس مال أكثر للإنتاج، والمنافسة تسمح للقوى بالسيطرة على الضعيف والأقل قوة وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى ممارسات احتكارية، ورأس المال الاحتكاري إنما يعني ثروة هائلة مركزة في أيدي قلة يمكنها أن تسعر السلع بدون اعتبار للمستهلك.^٣، وبذلك رفض ماركس الاحتكار وعدم عدالة أسعاره للمستهلك وكذلك للعامل الذي هو بدوره مستهلك في الأسواق.

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٢.

(٣) أي. راي كانتربري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ١٧١.

أشار ماركس إلى أهمية الأسواق الخارجية والتجارة فيها، وأشار أن التجارة الخارجية تعظم الأرباح؛ فقال بأن "رئوس

الأموال الموظفة في التجار الخارجية يمكن أن تدر معدل ربح أعلى لأنها تتنافس في المقام الأول مع بضائع تنتجها بلدان أخرى في ظروف إنتاج أقل ملاءمة بحيث إن بلدًا أكثر تطورًا يبيع بضائعه بما يفوق قيمتها رغم أنه يبيعها بسعر أرخص من سعر البلدان المنافسة، ويرتفع معدل الربح لأن عمل بلد أكثر تطورًا يقدر كعمل ذي وزن نوعي أعلى..... وأن معدل الربح يكون أعلى بفعل تدني مستوى التطور، وكذلك بشأن درجة استغلال العمل بفعل استخدام العبيد والحمالين والفعلة المحليين الخ."^١

(٥) كينز

تقسيم العمل

يعتبر عملية تقسيم العمل في زمن كينز من المسلمات الاقتصادية التي لا يمكن لكينز أن يتحدث عنها ويعطيها من كتاباته، حيث إن النظام الكلاسيكي كان مسيطرًا على كل أفكار كينز؛ فقد كان كينز نيو كلاسيكي حيث إنه "قد قرأ كتاب مارشال عن المبادئ وشهد واستمع إلى محاضرات مارشال، وهكذا أصبح تقليديا على الرغم من كونه اقتصاديا نيو كلاسيكيا"^٢، ولكنه جاء بأفكار تضاف للنظام الكلاسيكي لمحاولة خروجه من الأزمة، وكانت أفكار كينز تركز على الخروج من ضغط الكساد العالمي ١٩٢٩ في محاولة

(١) كارل ماركس رأس المال، نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة: فالح عبد الجبار، دار التقدم موسكو، المجلد الثالث،

ص ٣٤٢، ٣٤١.

(٢) أي. راي كانتربري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

لإنقاذ اقتصاديات العالم الحديث، فقد تحدث كينز على مسلم التشغيل الكامل للعمالة، وقد قام بنقد هذه الفكرة، و"رأي كينز أن الاقتصاد الحديث لا يجد بالضرورة توازنه في العمالة الكاملة؛ بل يستطيع أن يجد هذا التوازن في وجود البطالة أي ما يسمى بتوازن العمالة الناقصة، وأن قانون ساي لم يعد ساريا."^١، وهذا يعني أن كينز كان يعتبر أن تقسيم العمل أمر قائم بالفعل ولكنه تحدث على كم تشغيل العمالة وارتباطه بالتوازن حيث إن قانون ساي كان يفترض توازن النظام تلقائيا من خلال قاعدة التشغيل الكامل؛ أما كينز فقد افترض وجود التوازن في تشغيل غير كامل، وبدأ يتحدث عن موضوعات أخرى مثل أجور العمال والبطالة، وتحدث عن البطالة الاحتكاكية وفسرها بأنها "عدة أشكال من الاختلال التي تمنع حدوث التشغيل الكامل بشكل مستمر."^٢

السوق

كان من أسباب ظهور أفكار كينز على الساحة هو الأزمة الاقتصادية ١٩٢٩، وكان من أهم مظاهرها هو اضطراب عنيف في الأسواق مثل الركود واضطراب الأسعار، وكذلك اضطراب في الأسواق الخارجية وذلك بسبب الانكماش، وجاءت توجيهات كينز لإجراء حزمة من الإجراءات التدخلية من جانب الحكومة لإصلاح هذه الاضطرابات، وكان يهدف من التدخل ضخ الأموال في أيدي المستهلكين عن طريق قيام الدولة بمشروعات استثمارية مختلفة

(١) جالبريث، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

(٢) جون ماينارد كينز، النظرية العامة للتشغيل والفائدة والنقود، ترجمة: إلهام عيداروس، مراجعة: عبد الله شحاتة خطاب، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ٢٠١٠، ص ٦٥.

لتشغيل المقاولين والعمال وضخ الأموال إليهم لتتحول هذه الأموال إلى طلب استهلاكي وإنتاجي فينشط الطلب ويتم الخروج من حالة الكساد في الأسواق ويتم القضاء على اضطرابات السوق والخروج من الكساد.

كان للكساد والأزمة الاقتصادية أثر كبير على الأسواق وتراكم البضائع، وانخفاض الأسعار والركود، وكذلك على أسعار العمالة حيث إن "الانكماش يؤدي إلى إفلاس المزارع ومنشآت الأعمال، بينما كانت الأجور المتهاوية تعمل على تجميد إنفاق المستهلكين، وتم تشجيع أرباب الصناعة على تحديد الأسعار بالحصانة التي وفرتها قوانين مناهضة الاحتكار، وتم وضع حد أدنى للأجور كما وضع حد أقصى لساعات العمل".^١، وكانت فترة الأزمة يوجد تناقض كبير بين حاجة ملحة إلى السلع ونقص كبير في الإنتاج وهذا ما جعل السلوك الاحتكاري يتواجد من التجار لنقص السلع والإنتاج.

يرى كينز أهمية حجم السوق للإنتاج حيث إن حجم السوق هو الذي يستوعب الإنتاج، ويتكون الاقتصاد في النموذج الكينزي من سوق للسلع والخدمات به أربع قطاعات: الاستهلاك وقطاع الأعمال وقطاع الحكومة وقطاع العالم الخارجي، ومع الركود والكساد يقل حجم الأسواق، ويرى كينز أن الحقن الحكومي سوف ينقذ الأسواق من الكساد والركود، فتدخل الدولة بالسياسة التوسعية سوف ينقذ الأسواق من الركود، كذلك يكون للحكومة دور آخر لإنقاذ الأسواق من الكساد وهو تأثير الضرائب على الإنفاق ففي حالة الركود والكساد تقوم الدولة بتقليل الضرائب فيؤدي ذلك إلى زيادة القوة الشرائية لدى الأفراد فيزيد الإنفاق، وبذلك تخرج الأسواق من حالة الركود

(١) أي. راي كانتري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

والكساد، وكذلك ينقذ الأفراد من البطالة لأن هذا الحقن الحكومي " سيرفع الدخل القومي والاستهلاك القومي بنسبة خمسين في المئة بعد ثلاث سنوات من الحقن الحكومي".^١

كان في عصر كينز حدوث انهيار للأسواق المالية ففي "الاسبوع الاخير من اكتوبر ١٩٢٩ انهارت الأسواق.... وذلك أن سيلاً من المبيعات التي لا يمكن التصرف فيها انمال على السوق من كل ناحية، وبكى السماسرة من فرط الإعياء وشقوا الجيوب ووقفوا مشدوهين وهم يرون ثروات هائلة تذوب كقطع السكر.... حيث اختفى ٤٠ بليون دولار من القيم"^٢، وكان يجب أن يكون هناك حلول لانهيار الأسواق؛ فكان "لابد من البدء بدفع محرك الاستثمار والذي يحرك السيارة الاقتصادية، وكان يأمل كينز أن يكون في الإنفاق الحكومي مثل هذا الدافع بأن ينشط طاقة الشعب الشرائية العامة...، وإذا لم يكن في الإمكان تنشيط الاستثمار ففي وسع الدولة تنشيط الاستهلاك، إذ بينما الاستثمار هو العنصر المتقلب الأهواء في النظام فإن الاستهلاك يهيئ القاعدة الكبيرة للنشاط الاقتصادي".^٣

يمكن القول بأن السوق في تفكير كينز جاء من واقع الأزمة التي كانت تمر بها الأسواق في ذلك الوقت فالركود والكساد الكبير وتراكم البضائع في الأسواق كان مظهر من مظاهر الأزمة الاقتصادية والتي أدت لظهور فكر كينز على الساحة؛ حيث إن التدخل الحكومي الذي اقترحه كينز كان يخدم وضع

(١) روبرت هيلبرونز، قادة الفكر الاقتصادي، ترجمة: راشد النبروي، مكتبة النهضة المصرية، ص ٣١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٥.

(٣) روبرت هيلبرونز، قادة الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣١٧:٣١٨.

الأسواق في الأزمة، وقد تم فرض قوانين لمناهضة الاحتكار، وقامت الحكومة بضخ الأموال لإنقاذ الأسواق من الركود؛ واستطاعت أفكار كينز أن تخرج بلاده من الأزمة، وأن تنقذ الأسواق من الكساد والركود السائد وقتذاك.

الفصل الثاني: نظرية القيمة

مقدمة

احتلت القيمة حيزًا كبيرًا من جانب المفكرين في جميع الحضارات، والقيمة لغويا هي "قيمة الشيء أي قدرة، وقيمة المتاع ثمنه"^١، وكذلك القيمة "هي ثمن الشيء بالتقويم، وقومت السلعة تقويمًا أي ثمنها أو قدرتها، والقيمة ما قوم به، فهو مقوم، والقيمة ما قدره أهل السوق وقرروه فيما بينهم، وروجوه في معاملاتهم"^٢.

شكلت نظرية القيمة محورا أساسيا في النظرية الاقتصادية حتى أطلق عليها علم الأثمان أو علم القيمة للدلالة على ما للقيمة من أهمية جعلتهم يصرفون جل اهتمامهم في البحث عن العوامل المحددة لقيمة السلع والخدمات الاقتصادية، ولثمن دور هام في الاقتصاد فالثمن هو الذي يحدد القرارات مثل توزيع الموارد بين فروع الإنتاج وطريقة الإنتاج، ومن سيحصل على هذا الإنتاج، والجهاز الرأسمالي بالكامل يقوم على جهاز الثمن.

يشكل الثمن ركناً هامًا في الدراسات الاقتصادية لأنه، من خلال الثمن نستطيع أن نلقي الضوء على الظواهر الاجتماعية، وهناك ثمن مطلق وثن نسبي، ونظريه القيمة تهتم بالثمن النسبي، والقيمة من الأفكار الاقتصادية الهامة وذلك لأهمية تحديد قيم السلع في عمليات التبادل أي ثمنها، وأطلق بعض المفكرين على نظرية القيمة لفظ اللغز (لغز القيمة) وذلك بسبب

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مصر، ٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية، ص ٧٦٨.

(٢) أحمد الشرياصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، دار الجيل، ١٩٨١م، ص ٣٧٦، ٣٧٧.

تفاوت أسعار الأشياء بعكس أهميتها مثل رخص سعر الماء مع جل أهميته للحياة.

كانت القيمة في بادئ الأمر لا نستطيع تمييزها عن السعر، فغالبا كانت قيمة الشيء تمثل سعره. واستمر هذا الوضع حتى ظهور التجاربيين والطبيعيين، ورغم اهتمام هذه المدارس بالثروة على المستوى الكلى إلا أنهم لم يعطوا مفهوما للقيمة يميزها عن السعر حيث إن القيمة لغويا تساوى الثمن، ولكن مع اعتبار أن السعر هو التعبير النقدي للقيمة، أما القيمة هي الثمن النسبي أي ثمن السلعة أو الخدمة منسوبا إلى غيرها من السلع والخدمات الأخرى.

سنحاول في هذا الفصل الإجابة على عدة أسئلة، عن ما هو مفهوم القيمة في فكر الحضارات المختلفة؟، وكذلك في فكر ابن خلدون، وكذلك ما هو وجه التشابه والاختلاف بين الفكر الاقتصادي عن القيمة على مر الحضارات وبين ابن خلدون؟ وهل كان لابن خلدون أسبقية عن بعض العصور؟ وهل تأثر ابن خلدون بعصور وحضارات ما قبله أم لم يتأثر؟ وسنقارن آراء ابن خلدون عن القيمة مع الآراء في الحضارات المختلفة.

سنتناول في هذا الفصل مبحثين المبحث الأول يتناول القيمة في مختلف العصور؛ والمبحث الثاني يتناول القيمة عند ابن خلدون، لكي نوضح الفروق بين فكر هذه العصور وبين فكر ابن خلدون.

المبحث الأول

نظرية القيمة في الفكر الاقتصادي

عندما نريد أن نتحدث عن نظرية القيمة يجب أن نبحث في تاريخ القيم إلى أن نصل إلى الفكر الحديث للقيمة، ونلاحظ أن القيمة كانت قبل الكلاسيك هي السعر الذي يقبله الأفراد في عملية التبادل، ودأب المفكرون القدامى والمحدثون على توضيح وتفسير معنى القيمة، وهناك قيمة استعمالية وقيمة تبادلية، وتتم نظرية القيمة بالقيمة التبادلية، وهناك ثمن مطلق وثن نسبي، وتتم نظرية القيمة بالثمن النسبي، أما المطلق فتهتم به نظرية النقود، ونحاول استعراض القيمة على مدى العصور من خلال بعض الأفكار لتوضيح تسلسل الأفكار في موضوع القيمة؛ فنجد مثلاً :

أولاً : القيمة في الفكر القديم والعصور الوسطى

(١) الحضارة المصرية القديمة

كان الإنسان في الحضارة الفرعونية يُقِّوم الأشياء ببعضها عن طريق المبادلة في المعاملات التجارية، "والواقع أن كل ما لدينا من نقوش عن سير المعاملات ينحصر ظاهراً في المبادلات"^١، وذلك لأنه حتى الآن لم يظهر في الحضارة الفرعونية القديمة ما يقول أن هناك طريقه للمعاملات إلا المبادلة بالمواد الطبيعية، وكانت القيمة في هذه الحضارة تكتسب من قيمة الشيء الاستعمالي واحتياج الأفراد له، ولكن لا نستطيع أن نجزم أن حضارة مثل الحضارة

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٢٣١.

الفرعونية لم تستطيع أن تُقوم سلعها بالعملة أو بمقياس متفق عليه يحدد القيم، حيث "إنها كانت لها نظام ضرائب ناضج غاية في الإتقان، على أن نظام المبادلة بلا نزاع لا يتفق في سذاجته مع كل الدقة التي نلاحظها في نظام الوراثة والبيع والوصايا"^١.

كانت عملية المبادلة تتم على السلع قليلة القيمة فكانت "الأسواق العامة للأفراد رقيقي الحال هي المكان المختار لقيام المبادلات بينهم فيما يحتاجون إليه من المأكولات والمصنوعات.... وفي هذه الأحوال لم تكن الحاجة ماسة إلى المعاملات بالنقد... وكانت المبادلات موجودة في مصر ولا تختلف عن البلاد الأخرى القطرية قبل أن يدخل فيها التعامل بالنقد"^٢.

إذا اعتبرنا أن المبادلة بالمواد الطبيعية هي أسلوب لتقييم السلع الصغيرة فإن الأشياء الكبيرة مثل المباني والأراضي والحيوانات "فلا نزاع في أن المبادلة ليست هي الطريقة التي تشبع أغراض مثل هذه بصفة دائمة مرضية"^٣، وهناك عوامل تؤكد أن هناك وسيلة أخرى سوى المبادلة بالمواد الطبيعية، وذلك لأنه ليس من المعقول في هذه الحضارة أن "تدفع الإدارة المرتبات لموظفيها بالمحاصيل، بل كانت العمليتان من غير شك تسيران جنباً لجنب على حسب الأقوال"^٤.

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٠.

(٣) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ٣٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

لذلك يمكن اعتبار الذهب هو وسيلة تبادل الأشياء الكبيرة، وذلك لاهتمام الدولة باستخراجه وتصنيعه وتوجيه مئآت العمال إلى المحاجر، "فكيف والحالة هذه لا يمكن أن نعتبر الذهب عاملا في المبادلات....لذلك من المحتمل في بعض الأعمال التجارية وخاصة التي كانت قيمتها عظيمة أنه كان النحاس والذهب يستعملان على هيئة خواتم لكل وزن معين كعمله."^١، وكان المعيار الرسمي للذهب هو (الشعت)؛ فكان "الدين من الذهب يساوى ١٢ شعت ونحن نعلم أن الدين يزن ٩٠ جرام، وعلى ذلك يكون الشعت وزنه سبعة ونصف جرام، ونعلم فوق ذلك أن الدين من الفضة يساوى ٦ شعت، ومن الرصاص يساوى ٣ شعت"^٢، ولا نتعجب لدخول الفضة والرصاص في التقييم حيث إنهما في هذه الفترة كانا نادري الوجود، ولا خلاف ولا نزاع في أن "المصري أول من فكر في العالم في إيجاد وحدة لها وزن معين للتعامل في كل أمور الدولة."^٣

(٢) الحضارة اليونانية

تعد الحضارة اليونانية من أبرز الحضارات القديمة التي ساهمت في بناء نظرية القيمة، ويعتبر من أهم الفلاسفة الذين تحدثوا عن القيمة في الحضارة اليونانية هو أفلاطون وأرسطو طاليس، وكان لأفلاطون رأي في النقود؛ فكان يرى أن "النقود هي مجرد رمز لتسهيل التبادل وقيمتها غير مستمدة من مادتها، ولهذا فقد كان أفلاطون ضد المسكوكات الذهبية والفضية ومن أنصار العملة ذات

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٦، ٢٣٧

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٥

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٦، ٢٤٥

القيمة داخل البلاد فقط.^١، وقد استطاع كل من أفلاطون وأرسطو للوصول إلى الكثير من المفاهيم الحديثة للتمييز بين قيمة الاستعمال وقيمة التبادل وتحديد وظائف النقود، وسوف نخص بالتفصيل أرسطو طاليس.

كان أرسطو هو صاحب الفضل في التفرقة بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية؛ حيث قال: " لكل قنية استعمالان، وكلاهما ذاتيتان، ولكن دون مماثلة بين ذاتيتهما، إذ الواحد مختص بالشئ والأخر غير مختص به، فالخذاء مثلا يحتذى ويتجر به، وهذا الوجه (من الانتفاع به) وذاك الوجه هما استعمالان له، والذي يقايز به غذاء أو نقدا من كان محتاجا إليه استعمله كخذاء، ولكن لا استعمالا خاصا إذا لم يجعل للمقايضة، وهذا نفس ما يقال عن بقية المقتنيات، فالمقايضة تشملها جميعا وتبتدى بما هو طبيعي بسبب إكثار البشر مما يحتاجون إليه أو أقلهم منه"^٢. ويرى أرسطو أن لكل قيمة منهم استعمالاً غير مشابه للأخر، ويضرب مثلاً بالخذاء بأنه يمكن أن يقتنى لقيمته كخذاء للاستعمال، أو يقتنى ليتاجر به، ويرى أرسطو أن الفرد الذي يبادل الخذاء بالغذاء أو بالنقد يكون محتاجا إليه لاستعماله كخذاء، واعتبر أنه في هذه الحالة لا يصلح الخذاء للمقايضة بالنسبة للشخص الذي اشتراه لاحتياجه له كقيمة استعمالية، ويرى أن هذه الفكرة تطبق على كل المقتنيات؛ فالذي يكون له قيمة استعمالية لا يصلح للمقايضة، فهنا يظهر أن ما يصلح للمقايضة يكون فائضاً عن الحاجة والاستعمال.

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٦٧

(٢) أرسطو طاليس، السياسات، مرجع سابق، ص ٢٦.

نلاحظ أن أرسطو قرر أن لكل سلعة استعمالين: الأول استعمال استهلاكي، والثاني استعمال للتبادل، وبذلك "اهتدى أرسطو في الحقيقة إلى اكتشاف من أهم الاكتشافات الاقتصادية وهو التميز المعروف بين قيمة الاستعمال وبين قيمة التبادل. ويشرح أرسطو بتفصيل تطور التبادل في شكلة الطبيعي (سد الحاجة) إلى شكله غير الطبيعي (مجرد الربح)."^١

قام أرسطو بشرح كل من القيمة الاستعملية والقيمة التبادلية، وكان لديه فهم واضح للفرقة بين القيم الاستعملية والتبادلية؛ فأوضح أن قوام القيمة الاستعملية الاقتناء وقوام القيمة التبادلية الشراء، وأطلق عليهما فن الاقتناء وفن المبادلة، فقام بتوضيح أهمية الاقتناء، وأنه يجب أن يكون للأشياء التي يحتاجها الإنسان للاستعمال، وأكد على معنى القيمة الاستعملية، وتحدث أنه يجب "معرفة أنفع المقتنيات عن خبرة، والعلم بالأمكنة التي تكون فيها المقتنيات أوفر فائدة، وبالأساليب التي توليها من النفع أجزله"^٢، ثم قام بتوضيح أهمية التبادل ووسيلته؛ فقال: "أما فن المبادلة فأهم أنواعه التجارة"^٣. ونلاحظ اهتمامه بالمنفعة وربطها بالقيمة، وتوضيح أن ما قلت منفعتة قلت قيمته والعكس.

استطاع أرسطو أن يحدد وظيفة النقود؛ فقد اكتشف وظيفة النقود كمقياس لقيمة التبادل، " فأشار أرسطو إلى وظيفة النقد (كمقياس للمحاسبة) أي بمقارنة السلع بما يساويها من السلع الأخرى، ووظيفتها (كوسيلة للادخار)

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٤٧.

(٢) أرسطو طاليس، السياسات، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

أي لشراء السلع في المستقبل.^١، كذلك كان لأرسطو رأي هام في سوء استعمال النقود، وهو الربا، "وهو استخدام النقود نفسها كمصدر لتكديس النقود، وقد هاجم هذا النظام على أساس كون النقود عقيمة، ويبدو أن هذا الرأي لأرسطو يعكس رغبته في تحديد نطاق التجارة وقصرها على أنواع معينة ووضعها على أساس أخلاقي.... وهذا الرأي الهام يضع أرسطو موضع المكتشف الأول في التاريخ للتمييز بين وظيفه النقود كوسيلة للتبادل وبين وظيفتها كرأس مال.^٢، حيث إن أرسطو كان يستنكر العمليات الربوية، وكان يعتبر أن النقود للتبادل فقط وليست وسيلة للإثراء والغنى.

(٣) الحضارة الرومانية

مرت الحضارة الرومانية بسلسلة من الأحداث أثرت على عملية التقييم؛ فكانت السلع في الحضارة الرومانية تقوم بالسلع في بادئ الأمر، ثم بعد ذلك كانت الإمبراطورية تصدر العملات لتقويم السلع بها، ولكن كان أحيانا يحدث أمور تؤثر على القيم؛ فقد "ظهرت محاولات لتزييف النقود بطلاء العملات البرونزية بطبقة من الفضة، وأحيانا سك النقود من الرصاص المطلي بطبقة من الفضة، وصدرت لأول مرة عقوبات ضد المزيفين المتلاعبين في العملة مثل الجلد والحبس.^٣، ولكن في بعض الأوقات كانت الإمبراطورية الرومانية تمر بأزمات تقوم معها "بتخفيض نسبة الفضة في النقود... وكان من

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٤٤٨

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٧

(٣) سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، طبعه ثانیه

١٩٩١، ص ٣٠٣.

نتيجة تخفيض قيمة العملات في الإمبراطورية ارتفاع الأسعار وانخفاض سعر الذهب إلى جانب هبوط سعر الفضة، واهتزت الثقة في الدينار الروماني، ورفضت الشعوب التعامل بالنقد المخفض، بينما ارتفعت أسعار العملات العتيقة ذات النسبة العالية من الفضة.^١، ويلاحظ أن التلاعب في العملات من الدولة أو الأفراد كان يؤثر على قيم الأشياء وتقييم للسلع.

كان من المهم العناية بتقييم السلع حتى لا تحدث أزمات، وكان النقد هو وسيلة التقييم، ومع انهيار النقد ينهار الاقتصاد، وقد حدث ذلك في فترة من فترات الإمبراطورية الرومانية، وذلك بسبب أن العملة الرومانية "مرت بسلسلة من الانكماش والتخفيض في القيمة لدرجة أن استخدام الدينار الروماني كعملة نقدية كان قد توقف تماما."^٢، وأحيانا كانت الفوضى في النظام النقدي تؤدي إلى "سك الألاف من العملات ذات قيمة الفضة المخفضة لتحل محل العملات القديمة بنفس النسبة الشرائية، ومن ثمَّ فقدت أهميتها في التعامل التجاري مما أدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا باهظا."^٣، وفي بعض العصور حدث "ارتفاع الأسعار ما بين أربعة عشر وعشرين مرة عما كانت عليه، وبالتالي ارتفعت رواتب الجنود، والسبب هو نقص معدن الفضة."^٤

تعرضت الإمبراطورية الرومانية إلى أزمات في فترات منها؛ فنجد أن هذه الأزمات ساعدت على انهيار النقد، وبالتالي انهيار القيم للسلع، فنجد "أن

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٢، ٣٠٣

(٢) المرجع السابق، ص ٣٨١

(٣) سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، مرجع سابق، ص ٣٩١.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٩١، ٣٩٢

الأباطرة عندما يجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة لجأوا إلى خلط الذهب بالفضة، والفضة بالنحاس، والنحاس بالرصاص، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب في النقد، وبسبب تزييف العملة أدى ذلك لاختفاء النقود الجيدة من السوق، وقصر التداول على النقود الرديئة، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا.^١

يؤثر الإصدار النقدي على القيم إذا كان هذا الإصدار لا يوازيه معادن، وقد قامت الإمبراطورية في بعض عصورها "بسك عملات كثيرة عن الرصيد الموازي لها من المعادن الثمينة، وذلك من أجل دفع رواتب الجنود وللإنفاق على الحملات الحربية، وكانت النتيجة تدهور قيمة العملة الرومانية لأن مناجم الفضة لم تعد تنتج.^٢، ونتج عن ذلك رفض الناس التعامل بالعملات وعادوا مرة أخرى للتقييم عن طريق المبادلات السلعية أي الرجوع للبداية، وذلك لعدم عدالة عملات تقييم السلع الخاصة بهم، لذلك قامت الإمبراطورية في بعض عصورها بأغلاق دور السك واقتصر السك على الدولة، وقامت الدولة بسك عملتين الأولى من الذهب الخالص والثانية من الفضة الخالصة، ولكن رأى علماء الاقتصاد أن هذا العمل أدى إلى "تدهور قيمة العملة الشرائية، ويرجعون ذلك أن الناس عندما علموا مقدما إلغاء النقود القديمة لجأوا للتخلص مما لديهم من عملات قديمة واستبدلوها بسلع ومواد مختلفة، وقد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، د . ت ، ص ١٧.

(٢) سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، مرجع سابق، ص ٤١٨.

أدت حمى التكالب على الشراء إلى ارتفاع باهظ في الأسعار وارتفاع مستوى تكاليف المعيشة بشكل مخيف.^١

تدخلت الإمبراطورية في التسعير لتأثيره على مستوى المعيشة للجنود؛ فقام الإمبراطور بإصدار لائحة للحد الأقصى للأسعار في كل السلع، وهي تعتبر " أعظم وثيقة اقتصادية يفتخر بها علماء التاريخ الاقتصادي بعد تجميع أجزائها من النقوش...، وقد جعل عقوبة المخالفة لهذه التسعير سواء كان البائع أو المشتري هو الموت... وإن كان المحتمل أن يكون هذا الإجراء قد نجح مؤقتاً، ولكنها لم يقض مطلقاً على صانعي الأزمات التموينية وتجار السوق السوداء الجشعين.^٢، ولكن في عام ٣١٢ ميلادياً قام الإمبراطور بتثبيت العملة الذهبية وأصدر عملة فضية، "وبهاتين العملتين استقام نظام التعامل الروماني، ودبت فيه الحياة، وساعدت الحكومة على جمع قيمة الضرائب العينية نقداً، بل إنها ساعدت على نهضة التعامل والتجارة وليس داخل الإمبراطورية بل على الصعيد العالمي، مما خلف للدولة البيزنطية نظاماً نقدياً قوياً ساعدها على الوقوف في وجه التحديات.^٣

كانت هناك أفكار هامة لدى المفكرين والفقهاء الرومان عن النقود، وقد أكدوا "على ارتباط وظيفتها النقدية بقيمتها السلعية، أي اعتبار الطبيعة السلعية للنقود أساس وظائفها النقدية، وقد طور هذا الفكر على الخصوص

(١) المرجع السابق، ص ٤١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٩.

(٣) سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسية والحضاري، مرجع سابق، ص ٤٤٧.

الفقيه الروماني بول (Paulus)، لذلك ميز القانون الروماني (قانون الألواح الاثني عشر) مثلاً بين الفائدة والتي وضع حد أعلى لها وبين الربا الذي منعه... أما الفلاسفة الرومان فإنهم شجبوا الربا، بل حتى الفائدة بكل عنف، حتى لقد ذهبوا إلى القول بأن أخذ الفائدة لا يقل إجراماً عن القتل العمد.^١

تعد الحضارتان المسيحية والإسلامية من أبرز الحضارات في العصور الوسطى، وقد ساهما في تأسيس نظرية القيمة، وهذه الحضارات لها سمة تشريعية، لأنها حضارات قامت على مبادئ دينية عقائدية.

(٤) الحضارة المسيحية

عندما نتحدث عن العصور الوسطى والحضارة المسيحية يظهر لنا فكرة القيمة متبلورة في الثمن العادل، وكانت قضية الثمن العادل تشغل العديد من مفكرين هذه الحقبة، ومؤدى هذه الفكرة أنه يوجد لكل سلعة ثمن عادل يركز على نفقة الإنتاج يستطيع البائع أن يحقق ربحاً معقولاً يسمح له بالحياة، وتكون كل محاوله لتحقيق كسب أكبر مخالفة لقواعد الأخلاق المسيحية.

هناك إشارات متعددة إلى نظرية القيمة في هذه المرحلة من خلال مفكري هذه الفترة، ومع ظهور الاحتكار ومشاكله بدء المفكرون في هذه الحقبة يتحدثون عن الثمن العادل، وكان من أهم المفكرين في هذه المرحلة القديس توما الإكويني، وكان له آراء هامة عن موضوع القيمة، فقد تحدث عن

(١) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٣٥٨

مشروعية الأسعار فقال: " إجابتي عن ذلك أنه لإثم عظيم أن يمارس الاحتيايل من أجل بيع شئ بأكثر من سعره العادل.... فبيع شئ بسعر أعلى مما يستحق أو شراؤه بضمن أرخص مما يستحق يعد في حد ذاته سلوكا غير عادل وغير قانوني. " وهكذا كان تطبيق السعر العادل

يفرض بوصفه التزاما دينيا. ^١

اهتم القديس توما الإكويني بقضية عدالة التسعير أي تحديد القيم العادلة للسلع تجنبا للجزور والظلم، وقد أطلق عليها العدالة التبادلية؛ فقال: "إن العدالة ضرورية في تحديد السعر وهي العالة التبادلية دون التوزيعية أي العدالة التي تحدد العلاقات بين الجزء والجزء وليست تلك التي تحدها بين الجزء والكل.... والعدالة التبادلية تعنى المساواة بين المتبادلين وتحقيق المساواة يتطلب إيجاد مقياس (لقيم التبادل) هذا المقياس هو النقود، أو بعبارة أخرى أن المساواة في التبادل تعنى المساواة في القيم المتبادلة، وهكذا فإن نظرية السعر العادل هو الذي يتفق مع القيمة، وأن السعر غير العادل هو الذي ينحرف زيادة أو هبوطا عن تلك القيمة." ^٢

كان لتوماس الإكويني اتجاه ديني في فكرة تجاه الأموال، وذلك مثل كل المفكرين الكنسيين في هذه المرحلة فقد "استنكر الإكويني إقراض النقود مقابل الحصول على الفائدة، كما استنكر التبادل التجاري من أجل الربح....، وكان

(١) جون كينث جالبريت، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٣٨، ٣٩.

(٢) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٤٠٣.

السعر العادل وفقاً لما كان يراه الإكوييني هو السعر الذي يدعم بقاء البائع في طبقته الاجتماعية.^١

يرى بعض المفكرين أن هناك بعض الانحرافات في فكر توما الإكوييني عن السعر العادل، فنجد ذهب "إلى أنه يمكن للبائع البيع بسعر أعلى من القيمة في حالة تعرضه لخسارة...، كذلك إمكانية الخروج عن القاعدة في أحوال أخرى، مثل سد نفقة النقل إلى الأسواق، أو في حالة قيام البائع بتحسينات على السلعة، أو لأن القيمة تغيرت بسبب تغير ظروف الزمان والمكان، أو بسبب الخطر الذي يتعرض له البائع أثناء قيامه بنقل السلع.^٢ وما يعتبره المفكرون انحرافاً عن السعر العادل يمكن اعتباره أخذ تكاليف الإنتاج داخل القيمة، وذلك مثل النقل وغيره من تكاليف الإنتاج المختلفة، وتعتبر هذه الانحرافات من وجهة نظر المفكرين هي تطور في فكر القديس توما الإكوييني وسبق لعصره في اعتبار تكاليف الإنتاج داخل القيمة.

(٥) الحضارة الإسلامية

يحكم الحضارة الإسلامية شريعة وأحكام إلهية، وأن القيمة (التسعير) في هذه الحضارة يخضع لضوابط إلهية فنجد في الكتاب - والذي يمثل القانون الرباني للعقيدة الإسلامية - ما يدل على عدالة الثمن؛ فنجد أكثر من إشارة في القرآن الكريم على أهمية العدالة في التسعير واستخدام القرآن التضاد لمعنى

(١) أي. راي كانتري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٤٠، ٤١.

(٢) إبراهيم كبة، دراسات في تاريخ الاقتصاد والفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ٤٠٧، ٤٠٨.

العدالة في التسعير وهو لفظ البخس، وتعنى انه "بئس (بخس) أي ناقص"^١، أي غير عادل.

نجد في سورة الشعراء، الآية ١٨٣ قوله تعالى: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، وفي سورة هود الآية، ٨٥ (يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)، وهنا عدم عدالة التسعير هو فساد، والفساد يترتب عليه في الفكر الإسلامي العقاب، ومن هذه النقطة تترتب جميع أفكار المفكرين في هذه الحضارة.

أشار المفكرون والفقهاء لفكرة الغبن، وهي "النقص في أحد العوضين بأن يكون أحدهما أقل مما يساوي البدل الأخر عند التعاقد؛ فهو من جهة الغابن تملك مال بما يزيد على قيمته، ومن جهة المغبون تملك مال بأكثر من قيمته"^٢، كذلك يقال "غبت فلانا إذا بايعته أو شاريته، فكان النقص عليه والغلبة لك، وهو أخذ الشيء بدون قيمته"^٣

أشار لفكرة الغبن (فساد القيمة) العديد من المفكرين مثل الإمام أبو حامد الغزالي، فقال: "المغابنة : فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما،

(١) رجب عبد الجواد إبراهيم، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، دار الأفاق العربية، طبعه أولى ٢٠٠٢، ص ٢٦.

(٢) نزيه حماد، معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، مرجع سابق، ص ٣٤١.

(٣) أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي الإسلامي، مرجع سابق، ص ٣١٦.

ولكن يراعى فيه التقريب."^١، وهذا يعني التقريب في الأسعار، والاعتدال في الربح بما لا يسمح بظلم للبائع أو للمشتري.

قد زاد الاهتمام بالنقود في الحضارة الإسلامية كوسيلة للتبادل وأصبح عنصرًا داعمًا للثقة في الوضع الاقتصادي في هذه الفترة، وأن "الذهب الذي جاء مع الغنائم والمستخرج من مناجم الأقطار الإسلامية كان المحرك الرئيسي لقوة العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية... كما توفرت للمسلمين موارد من الفضة من فتح الأندلس وأسيا الوسطى وشمال إيران مما عجل في سك النقود الإسلامية سواء كانت دنانير أو دراهم، وهذا ما مكن الدينار الإسلامي من الانتشار كأداة للتعامل التجاري، مما ساعد على تنامي التجارة البينية بين الأقطار الإسلامية، كما أن وجود العملة الإسلامية ذات القيمة المستقرة قد وسع من النفوذ الاقتصادي للمسلمين في معظم أنحاء العالم."^٢

أشارت الأفكار في هذه الحضارة للقيمة ولكن بطرق متفرقة متناثرة في عقول المفكرين؛ فنجد الدمشقي يتحدث عن القيمة المتوسطة للسلع ولتحديدها، ويرى "أن يسأل الثقات الخبيرين عن سعر ذلك في بلدهم على ما جرت به العادة في أكثر الأوقات المستمرة والزيادة المتعارفة فيه والنقص النادر، ويقيس بعض ذلك ببعض مضافا إلى نسبة الأحوال التي هم عليها من خوف أو أمن أو توفر وكثرة أو اختلال، وتستخرج بقريحتك لذلك الشيء قيمة متوسطة، أو تستعملها من ذوي المعرفة والأمانة منهم، فإن لكل بضاعة ولكل شئ مما

(١) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) فواد عبد الله العمر، تاريخ الاقتصاد الإسلامي وتطوره، مرجع سابق، ص ١٠٦.

يمكن بيعه قيمة متوسطة معروفه عند أهل الخبرة"^١. ونلاحظ مراعاة الدمشقي في القيمة المتوسطة سؤال الثقات، ومراعاة الأحوال التي تحيط بالسلعة مثل الأمن أو خوف، ومثل الوفرة أو النقص، ومن خلال كل ذلك يستطيع الفرد الذكي استخراج السعر المتوسط للقيمة التي يستحقها المنتج.

تحدث الفقيه يحيى بن عمر عن الغش في العملات وتغليظ العقوبة على من يقوم بهذا العمل، ويرى يحيى بن عمر أن "يسند الوالي أو الأمير وظيفة (صاحب السوق) إلى أوثق من يعرف ببلده، وأن يكون أول واجب على متولي هذا العمل هو أن يراقب العمل المتداول في البلد، فإن رأى فيها زيفا كأن تكون مخلوطة بالنحاس مثلا فعليه أن يتعقب المزيفين ويعاقبهم بكل قسوة"^٢، وهنا قد فطن يحيى بن عمر لخطورة تزيف العملات وأهمية عقاب المزيفين، كما قام يحيى بن عمر بإعطاء نصيحة للوالي بأن يعطي الأهمية الأولى للبحث عن المزيفين، ويعطي أهمية لهذه المسألة قبل أي أمر من أمور السوق، حيث "لا يقبل النظر إن ظهر في سوقهم دراهم مبهرجة ومخلوطة بالنحاس بأن يشدد فيها ويبحث عنم أحدثها، فإذا ظفر به أناله من شدة العقوبة، وأمر أن يطاف به الأسواق لينكله ويشرد به من خلفه"^٣.

(١) أبو فضل جعفر بن علي الدمشقي، مخطوطة الإشارة في محاسن التجارة ومعرفة قيمة جيد الأغراض وورديتها وغشوش المدلسين فيها، مرجع سابق، ص ٧.

(٢) يحيى بن عمر الأندلسي، أحكام السوق، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٦.

ثانيا : القيمة في فكر العصور الحديثة

(١) التجاريون

ظهر نظام اقتصادي في أوروبا هو التجاريون، وهم من يطلق عليهم الميركنتلية، وهو اسم مشتق من الإيطالي (التاجر)، وهي أول مدرسة في الرأسمالية، وقد امتد زمامهم من منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، لم يكن في هذه الفترة نظاما فكريا يذكر، ولكن اديرت الدولة بفكر تجارها، وكان شغف التجاريين بالذهب والفضة قد "جعلهم يدركون العلاقة المباشرة بين كمية الأموال ومستوى الأسعار، وكما عبر أحد الميركنتيليين عن ذلك بأن الكميات الوفيرة من النقود في المملكة تجعل السلع الوطنية أعلى ثمنًا."١، وهنا يظهر معرفتهم بارتباط زيادة النقود بارتفاع الأسعار.

كان محور فكر الميركنتلية يركز على تجميع أكبر حجم من العملة وهي الذهب والفضة، وكانت القيمة للأشياء في هذه الفترة هي سعرها، وكان الهدف الأكبر هو تجميع الثروة في صورة ذهب وفضة، حتى إن "كريستوفر كولمبس نفسه هو أكثر من عبر عن هذه الرغبة تعبيرا قويا عندما قال بأن الذهب شئ رائع، وكل من يمتلكه يستطيع أن يحصل على كل ما يرغب فيه"٢. وكانت الصناعات المنزلية هي السائدة، وكان التجار لا يرحبون بالمنافسة، ويوافقوا على الاحتكار، وكان تراكم الذهب والفضة هدفاً عاماً وخاصاً، "وتراجع مفهوم السعر العادل أمام الميركنتلية لأن الشاغل الرئيسي

(١) أي. راي كانتري، موجز تاريخ علم الاقتصاد، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢) جون كينث جالبريت، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٤٩.

للتجار ليس أن تكون الأسعار شديدة الارتفاع، وإنما لا تكون - بسبب المنافسة - شديدة الانخفاض"^١، وكان من أبرز مفكري هذه المرحلة :

وليام بيتي

كان لوليام بيتي مساهمات بارزة في نظرية القيمة، "لقد قيل إن بيتي من حيث المبدأ كان له الفضل الأول بين رجال المدارس الغربية في التأكيد على أن العمل هو أساس تحديد القيمة، وذلك بعبارته الشهيرة "إن العمل هو الأب والأساس الفاعل للثروة بينما الأرض هي الأم"، ويؤكد ذلك عندما يتحدث عن ثروة الأمة التي يعتبرها نتيجة عمل سابق أو عمل بذل في الماضي، ويقرر بيتي أن العنصرين الإنتاجيين الأصليين هما العمل والأرض"^٢. وحاول بيتي إيجاد وحدة قياس أو معيار لقياس الكميات المتاحة من الأرض أو العمل، وذلك للتعبير عن القوة الإنتاجية المؤلفة من الأرض والعمل، ولكن فشلت محاولاته لإيجاد هذا المعيار، ولكن هذه المحاولات مهدت لتطور في نظريته القيمة.

ريتشارد كانتيلون

تعد نظرية القيمة من أساسيات الاقتصاد عند كانتيلون، وقد تيقن كانتيلون إلى أن نظرية الأرض والعمل في القيمة هي نظرية غير مرضيه، لذلك فقد اتخذ طريقاً مغايراً، واعتبر أن التكاثر الإنساني صناعة، وأدى هذا الفكر إلى الوصول لنظرية للسكان، ومفادها: "إذا لم تكن هناك حدود لموارد الإعاشة

(١) المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) محمد عمر أبو عبده، عبد الحميد محمد شعبان، تاريخ الفكر الاقتصادي، مرجع سابق، ص ١١٨، ١١٩.

فإن الرجال سوف يتكاثرون مثل الفئران في مخزن الحبوب^١. وقد استخدم نظرية السكان كمكون رئيسي في نظرية القيمة، فكان يرى أن الموارد محدودة بكمية الأرض، وبسبب محدودية الموارد سوف تتباطئ الزيادة السكانية لتصل إلى السكون، ويسود أجر الكفاف والذي لا يسمح بالزيادة السكانية، وقد توصل إلى أنه في حالة السكون سنحتاج إلى فدان ونصف إلى ست أفدنة بخصوبة متوسطة لكل فرد في حالة السكون، وبالوصول إلى ذلك يمكننا الوصول للقيم الحقيقية عن طريق الأرض، "فالقيمة الحقيقية لكل شيء يستخدمه الإنسان متناسبة مع كمية الأرض التي يتم استخدامها لإنتاجها وللمحافظة عليها بواسطة أولئك القائمين عليها"^٢، وبافتراض ثبات الغلة للحجم انتهى إلى نظرية قيمة الأرض.

(٢) الطبيعيون

الفيزوقراط هي علم النظام الطبيعي، فهم أول من قال بوجود قوانين طبيعية تحكم الأمور الاقتصادية، ولا يوجد لإرادة الإنسان تدخل فيه، فهو نظام إلهي يصلح لتحقيق مصالح البشر عند الأخذ به.

ظهر هذا النظام وتوطد في فرنسا لاهتمامها بالزراعة، وذلك لأن الزراعة في فرنسا أسلوب حياة، وكانت المصالح الزراعية تحكم فرنسا، وكان للمزارعين الدور الأساسي، وللتجار الدور الثانوي، وللطبيعيين مذهب هام هو الناتج

(Richard, 1931, 1755) 'Essai sur la nature du commerce en general', with Ch 10, Bit 1, (1) Cantillon H Higgs. London: Macmillan. ed. English trans with (Richard, 1931, 1755) 'Essai sur la nature du commerce en general', with Ch 10, Bit 1, (2) Cantillon H Higgs. London: Macmillan. ed. English trans

الصافي، "ومؤداه أن الثروة كلها تنشأ من الزراعة، ولا ينشأ شئ منها في أي صناعة أو تجاره أو حرفة أخرى، فالتجار بوجه خاص يشترون ويبيعون الناتج نفسه قبل الشراء وبعد البيع دون أن يضاف إليه شئ خلال ذلك، والشئ نفسه يحدث، وأن يكن في شئ من الالتباس في الصناعة... أي الصناعة التحويلية، فكل ما تفعله هذه الأخيرة أنها تضيف قدرا من قوة العمل إلى منتجات التربة، ولكنها لا تنشئ شيئا جديدا"^١، ومن أهم المفكرين في هذه المرحلة :

فرانسوا كيزناي

قدم كيزناي الجدول الاقتصادي والذي يعتبر من أهم أعماله، حيث قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات، هم: المزارعون، والملاك، والصناع، واعتبر أن السلع تدور بين هذه الطبقات، وكان كيزناي من مدرسة الطبيعيين والتي تعتبر أن الزراعة هي أهم نشاط منتج في المجتمع، ويقوم عليها كل النشاطات الأخرى، وبالتالي فإن "الأرض هي المصدر الوحيد للثروة، وأن الزراعة هي التي تسبب زيادة الثروة.... وأن كل شئ غير مفيد للزراعة سيضر بالأمة والدولة، وكل شئ يشجع الزراعة سيكون مربحا للأمة والدولة"^٢. وهنا نلاحظ عدم اهتمام كيزناي بالقيمة والتسعير، وذلك لأن اهتمامه انصب على حركة التدفقات الاقتصادية داخل المجتمع، ولذلك نستطيع القول بأن اسهامات الطبيعيين لم تؤثر أو تضيف في نظرية القيمة.

(١) جون كينث جالبريت، تاريخ الفكر الاقتصادي الماضي صورة الحاضر، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢) جورج نايهانز، تاريخ النظرية الاقتصادية الإسهامات الكلاسيكية ١٧٢٠ - ١٩٨٠، ترجمة: صقر أحمد صقر،

المكتبة الاكاديمية ١٩٩٧، ص ٨٠.

يعتبر الفكر التجاري والفكر الطبيعي لم يعطوا مفهومًا واضحًا للقيمة يميزها عن السعر، كذلك تحليلاتهم لا تميز بين القيمة والثروة، وفي الحقيقة يرجع الفضل للكلاسيك في توضيح نظرية القيمة، وشرح العوامل المحددة لها كما سنوضح.

(٣) الكلاسيك

عندما نتحدث عن القيمة في الحقبة الكلاسيكية يجب أن نبحت عن الأسباب التي أدت إلى البحث عن القيم، وما المشكلة التي واجهت المفكرين لإرساء قواعد لتحديد القيم، فنجد أنه ظهر مع الفكر الكلاسيكي تقسيم العمل والتخصص، وأدى ظهورهما إلى زيادة الإنتاج ووجود فائض الإنتاج، وفائض الإنتاج أدى لظهور السوق ليتم عملية التبادل لحصول الأفراد على احتياجاتهم من لوازم الإنتاج أو الاستهلاك، ولذلك كان يجب أن يكون هناك تكافؤ في عملية التبادل وألا يتحول المنتجون من الإنتاج لأنشطة أخرى يكون فيها التقييم أكثر عدلاً، وإذا حدث ذلك يحتل النشاط الإنتاجي، وبذلك فإن تكافؤ التبادل يكون هامًا في استمرار المنتجين في العملية الإنتاجية، لذلك كان من المهم وجود معيار عادل للتبادل، وعمل المفكرين الكلاسيك على البحث عن هذا المعيار ومن أهمهم على الإطلاق آدم سميث والذي اهتم في كتابة ثروة الأمم بمعيار التبادل أي قيم السلع.

آدم سميث

شغلت فكرة التبادل وأهمية تصريف الفائض من الإنتاج تفكير آدم سميث فبدأ يتطرق لتقييم السلع، وذلك لأنه يرى أن التقييم الخاطئ للسلع

يمكن أن يحدث عرقلة لعملية التبادل، حيث إن التبادل لا يتم إلا إذا توافرت المنفعة لجميع الأطراف ، فيقول: "لا بد أن قوة المبادلة هذه كانت عملياتها تتعرقل مرارا، وتتوقف عند بداية تقسيم العمل؛ فهذا الرجل يمتلك سلعة معينة أكثر مما يحتاج إليه، بينما يمتلك رجل آخر أقل، لذلك سيسر الأول إذا ما تخلص من جزء من هذه الوفرة، والثاني إذا ما اشتراه، ولكن إذا اتفقا وإن لم يكن عند الثاني شئ مما يحتاج إليه الأول فلن تتم المبادلة بينهما...، كما أنهم جميعا بلا منفعة متبادلة بعضهم لبعض"^١

تدرج سميث في عرض موضوع القيمة وتحدث عن السلع التي كانت يقوم بها السلع الأخرى لتتم عملية التبادل فقال: "إن الأشياء كانت في الأزمنة القديمة تثمن بعدد رؤوس الماشية التي بذلت بدلا عنها.....ومثله نوع من الأصداف في بعض أنحاء ساحل الهند، وسمك القد المجفف في نيو فاوند لاند،.....حيث مازال بعض أصحاب الصنائع يحملون فيما روى لي حفنة من المسامير بدلا من النقود إلى المخبز وإلى بائع الجعة"^٢، ويستمر سميث في شرح تطور عملية التقييم حتى يصل للنقود ويقول: "إن الناس في جميع البلدان قد عقدوا العزم جراء أسباب قاهرة على إيلاء الأفضلية في هذا الاستعمال للمعادن دون سائر السلع"^٣، ويستمر سميث في شرح فوائد ومميزات استخدام النقود لعملية التبادل.

(١) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٣٥، ٣٦.

(٢) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٧

قام آدم سميث بالتفريق بين معنى القيمة الاستعمالية والتبادلية؛ فقال:
"فهي تعرب أحيانا عن منفعة شئ معين، وأحيانا تدل على القدرة على شراء
سلع أخرى تمكننا منها حيازة هذا الشئ، فالأولى تسمى (قيمة الاستعمال)
والأخرى (قيمة تبادلية)، فالأشياء ذات القيمة الاستعمالية الكبرى غالبا ما
تكون لها قيمة تبادلية قليلة أو معدومة وبالعكس فالأشياء ذات القيمة
التبادلية الكبرى غالبا ما تكون قيمتها الاستعمالية قليلة أو معدومة، ولا شئ
أنفع من الماء ولكنه لا يكاد يشتري به شئ ولا يكاد يبادل به شئ، وعلى
العكس فالجوهرة لا تكاد تكون لها قيمة في الاستعمال، ولكن يمكن في كثير
من الأحيان لكمية كبيرة من السلع الأخرى أن تبادل به"^١

قام سميث بتوضيح المقياس الحقيقي والأساسي لتحديد القيمة، وهو
العمل؛ فقال بأن "العمل إذن هو مقياس القيمة التبادلية الحقيقي للسلع
كلها.... العمل كان الثمن الأول، ومال الابتاع الذي كان يبذل للحصول
على كل الأشياء لم يكن الذهب ولا الفضة بل العمل، وهو ما يتم به ابتاع
كل ثروات العالم في الأصل."^٢. ويرى سميث أن الجهد البشري أي العمل
يشترى، وأن أصحاب الثروات لديهم قوة الشراء، وأن حجم الثروات يتوقف
على شراء الجهد سواء بالرخص أو العكس، فيقول: "وأما القوة التي يمنحه
إياها امتلاك الثروة مباشرة وفورا إنما هي قوة الشراء، أي استحقاق معين لكل
العمل أو كل إنتاج العمل الموجود حينها في السوق، وتكون ثروته أكبر أو
أصغر بالمقياس إلى مدى هذه القوة تحديدا، أو إلى كمية عمل الناس الآخرين

(١) المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥، ٤٦.

أو هو الشيء نفسه نتاج عمل الناس الآخرين الذي تمكنه ثروته من ابتياعه أو استحقاقه.^١

قام سميث بوضع عامل آخر مع العمل لتحديد القيمة وهو المشقة والبراعة في إنتاج العمل، فيرى أن "الاختلاف في كمية الجهد المبذول والبراعة المستعانة ينبغي أن يؤخذ أيضًا في الحسبان، فقد يكون ثمة مزيد من عمل ساعة من الشغل الشاق مما يوجد في ساعتين من التجارة السهلة، أو في الانكباب ساعة على صنعة استغرق صاحبها عشر سنوات في اكتسابها مما قد يوجد في عمل شهر في صناعة عادية بادية للعيان، ولكن ليس من السهل إيجاد أي مقياس دقيق للمشقة أو للبراعة، والحق أنه في تبادل مختلف منتجات العمل على أنواعها يؤخذ أمر المشقة والبراعة عادة في الحسبان."^٢

يرى سميث أن المعادن كالذهب والفضة تتغير قيمتهم بتوافر المناجم أو قتلها، أما العمل والجهد البشري هو صاحب ثبات القيمة ويرى سميث أن غلاء الأسعار أو رخصها يتوقف على كمية العمل المبذول، وأن رخص السلعة من قلة العمل المبذول فيها، والعكس صحيح؛ فيقول: "فالغالي هو عزيز المنال والذي يكلف الحصول عليه كثيرا من العمل، وأما الرخيص فهو ما يسهل الوصول إليه أو الذي لا يكلف إلا القليل جدا من العمل، فالعمل وحده هو المتغير في قيمته الذاتية، وهو المقياس الحقيقي والنهائي الذي يمكن لقيمة كافة السلع أن تقارن به، وأن تقارن في كل الأزمنة والأمكنة أنه سعرها

(١) المرجع السابق، ٤٦.

(٢) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٤٧.

الحقيقي، أما النقد فهو سعرها الاسمي فقط.^١، وينبه سميث أنه أحياناً رخص السلع لا يكون بسبب العمل المبذول فيها ولكن بسبب نوع السلعة وقيمتها وشدة الاحتياج إليها عند من يستخدمها.

أوضح سميث العامل الزمني في طريقة تحديد القيمة؛ فيرى أنه على المدى الزمني البعيد يكون العمل هو الأفضل في التقييم؛ أما في الفترات القريبة فإن النقد يمكن أن يكون هو وسيلة التقييم، ويرى سميث أن العمل في الفترات البعيدة أفضل لأن قيمة العمل ثابتة من زمن إلى زمن والجهد لا يتغير، فيقول: "العمل كما يبدو بوضوح هو المقياس الشامل والدقيق الأوحده للقيمة أو المعيار الوحيد الذي يمكننا بواسطته مقارنة قيم مختلف السلع في كل الأزمنة والأمكنة، فمن المسلم به أننا لا نستطيع تقدير القيمة الحقيقية لمختلف السلع من قرن إلى قرن بكميات الفضة التي كانت تبذل ثمنها لها، ولا نستطيع تقديرها من سنة إلى سنة بكميات الحنطة، أما بكميات العمل ففي وسعنا أن نقدره بأقصى درجات الدقة من قرن إلى قرن ومن سنة إلى سنة.^٢، أما في المدى القصير فإننا نجد أن النقد يمكن أن يقيم بطريقة عادلة؛ فيقول: "فالمال هو المقياس الدقيق للقيمة التبادلية لكل السلع في الزمان نفسة والمكان نفسه، ولكن لا يتصف بهذه الصفة إلا في الزمان نفسه والمكان نفسة فقط.^٣"

تحدث سميث عن الثمن، وهو أمر مختلف عن القيمة، حيث إن الثمن يستلزم وجود النقود، ويتحدد الثمن في السوق للتبادل بإضافة عوامل أخرى

(١) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٥.

إلى قوة العمل؛ فأضاف سميث إلى العمل عاملاً آخر وهو الربح لتقييم السلع وتسعيرها، وأوضح أن العمل المبذول ليس هو المقيم الوحيد لسعر السلع، وإنما أيضاً ما ينفقه صاحب رأس المال من بضائع وخامات يمكن أن تتفاوت في قيمتها، فيقول: "إن القيمة التي يضيفها العاملون إلى المواد تنحل إلى قسمين، أحدهما يوفى أجور العاملين، والآخر أرباح رب العمل على كامل رأس مال المواد والأجور التي قدمها، وما كان لهذا الشخص أن يهتم بتشغيلهم لو لم يكن يتوقع من بيع ثمرة أعمالهم شيئاً أكثر من مجرد تعويض رأس المال الذي خاطر به"^١، ويوضح سميث أن العمل ليس هو المقيم الوحيد للسلع، وإنما ما ينفقه أيضاً صاحب العمل من بضائع وخامات متفاوتة القيمة، وقد تكون نسبة العمل ثابتة ولكن الأرباح تختلف حسب تفاوت سعر الخامات، ويوضح سميث أن لرأس المال وأرباحه أهمية حيث إنه من قدم الأجور ووفر المواد الخام للعامل لإخراج السلعة.

يضيف آدم سميث كذلك عاملاً ثالثاً يضاف للعمل ورأس المال وهو عامل الأرض وريعها، حيث إن الأرض عندما كانت مشاعاً لا يملكها الأفراد فإن السلع المستخرجة منها كانت تقيم بجهد العامل، أما مع التحضر أصبحت الأرض ملكية لأفراد، وهنا ظهر الريع، وهو حق لمالك الأرض، يعتبر سميث أن ريع الأرض هو المكون الثالث للتسعير وتقييم السلع، فيقول: "إن القيمة الحقيقية لكافة الأقسام المختلفة المكونة للسعر إنما تقاس بكمية العمل الذي يستطيع كل منها أن يبتاعها أو يستحقها، فالعمل لا يقتصر على قياس قيمة ذلك القسم من السعر الذي يعود إلى العمل، بل ذاك الذي

(١) المرجع السابق، ص ٧٢.

يعود إلى الربح وذاك العائد إلى الربح... إن سعر كل سلعة في أي مجتمع ينحل إلى هذا أو ذاك من هذه الأقسام الثلاثة، أو إلى هذه الثلاثة كلها، وفي أي مجتمع متطور تدخل الثلاثة كلها بدرجات متفاوتة كمكونات لتركيبية سعر العدد الأكبر من السلع"^١.

تحدث سميث عن التقييم للسلع عن طريق وضع سعر كفاء لها، وحدد عوامل التقييم والتسعير بالعمل والأرباح والربح، بدأ بتصنيف هذا السعر إلى سعر طبيعي وسعر سوق، فيرى أن السعر الطبيعي هو "عندما يكون سعر أية سلعة ليس أكثر أو أقل مما هو كاف لدفع ربح الأرض وأجور العمل وأرباح رأس المال المستثمر في إنشائها وإعدادها ونقلها إلى السوق وفقا للنسب الطبيعية لهذه الثلاثة، فالسعر الذي تباع به هذه السلعة يسمى سعرها الطبيعي...وهنا تباع السلعة بسعر بلا أدنى أرباح أو خسارة للتاجر"^٢، أما سعر السوق فهو السعر الفعلي الذي تباع به السلعة، وقد يكون أعلى من السعر الطبيعي أو أدنى من السعر الطبيعي أو مساويا له تماما، ويتوقف ذلك على الطلب الفعلي لهذه السلعة، وبدأ في شرح حالات الطلب وتأثيرها على السعر، فيقول: "إن أية سلعة تنتقل إلى السوق إذا تدنت كميتها عن الطلب الفعلي فإن كل الذين يرغبون في دفع القيمة الكلية للربح والأجور والربح التي يجب دفعها لنقلها إلى هناك لن يستطيعوا الحصول على الكمية التي يريدونها، وبدلا من أن يقبلوا عليها فحسب فإن البعض منهم سييدي الاستعداد لدفع المزيد، وعلى الفور ينشأ بينهم التنافس ويرتفع سعر السوق شيئا ما فوق

(١) المرجع السابق، ص ٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١، ٨٢.

السعر الطبيعي...، وعندما تزيد الكمية المنقولة إلى السوق على الطلب الفعلي... ينخفض سعر السوق بعض الشيء عن السعر الطبيعي، وعندما تكون الكمية المحمولة إلى السوق تكفي لتلبية الطلب الفعلي ولا تزيد فإن سعر السوق يصبح أما مساويا تماما للسعر الطبيعي أو يقترب بشكل معقول من هذا السعر^١

تحدث سميث عن النقد وعن العملات فقال "مع تقدم الصناعة وجدت الأمم التجارية أنه من الأنسب لها أن تسك القطع النقدية من عدة معادن، الذهب للدفعات الكبرى، والفضة للمشتريات المعتدلة القيمة، والنحاس أو سواه من المعادن للقيمة الأدنى".^٢، كما تحدث عن السعر النقدي، قال: "السعر النقدي للسلع إنما هو دائما كمية الذهب الخالص أو الفضة الخالصة التي تباع بها، من دون أي النفات إلى تسمية القطع النقدية".^٣

قسم سميث الأسعار إلى سعر حقيقي وسعر اسمي، وربط السعر الاسمي بتغير قيمة الذهب والفضة، وقال بأن السعر الطبيعي هو الذي لا يزيد ولا يقل عن تكلفة "ربع الأرض وأجور العمال وأرباح رأس المال المستثمر في إنشائها وإعدادها ونقلها إلى السوق".^٤، أما سعر السوق فهو السعر الفعلي الذي يباع به السلعة، وقد "يكون أعلى من سعرها الطبيعي أو أدنى منه أو مساويا له تماما".^٥، وأشار سميث أنه يوجد ظروف طبيعية تؤدي لارتفاع السعر عن

(١) آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، مرجع سابق، ص ٨٣، ٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٨١.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٢.

السعر الطبيعي، مثل جودة الأرض وخصوبتها وكمية إنتاجها متناسبة مع الطلب الفعلي، فإن كان إنتاج الأرض أقل من الطلب على السلعة أدى ذلك لارتفاع الأسعار، فيقول: "إن أمثال هذه الارتفاعات في السعر السوقي ناجمة عن تأثير أسباب طبيعية قد تحول دون تلبية الطلب الفعلي تلبية كاملة وقد يستمر مفعولها إلى الأبد."^١

(٤) ماركس

اهتم ماركس بتحليل ثروات المجتمع من خلال الإنتاج وفكرة تكس البضائع، وبدأ في تحليل البضاعة والتي

تلي الحاجات البشرية من خلال الاستعمال، وأوضح أن لهذه البضائع منافع، فقال: "إن منفعة الشيء تجعل له قيمة استعمالية...، ولدى النظر في القيم الاستعمالية يقتضي الأمر دائما تحديدها كمياً...، ولا تتحقق القيمة الاستعمالية إلا من خلال الاستعمال أو الاستهلاك...، وتعتبر القيم الاستعمالية في الوقت ذاته حاملات مادية للقيمة التبادلية، وتبدو القيمة التبادلية قبل كل شيء كعلاقة كمية، وكنسبة يجري بموجبها تبادل قيم استعمالية من نوع ما بقيم استعمالية من نوع آخر."^٢

أوضح ماركس أن القيم الاستعمالية هي قيم كيفية، أي تهتم بكيفية إشباع الحاجات الاستهلاكية، أما القيم التبادلية هي كمية، لأنه كلما زادت كميتها زادت قيمتها فقال: "لا تتمايز البضائع عن بعضها البعض بوصفها قيما

(١) المرجع السابق، ص ٩٠.

(٢) كارل ماركس، رأس المال، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٤.

استعمالية من الناحية الكيفية بالدرجة الأولى، أما بوصفها قيمة تبادلية فلا يمكن أن تختلف إلا من الناحية الكمية، وبالتالي فإنها لا تنطوي ولا على ذرة واحده من القيمة الاستعمالية.^١

ينتقل ماركس في محاول لتوضيح ما هو عامل اكتساب القيمة، فيقول:
"القيمة الاستعمالية أو إحدى الخيرات ليست لها قيمة إلا لأنه تجسد أو تجسم فيها عمل بشري مجرد ... إن ذلك سيكون بكمية ما تتضمنه من العمل الذي هو "الماهية الخالفة للقيمة"...، وقيمة البضاعة ستكون أكبر كلما كان الشخص الذي ينتجها أكثر خمولا وأقل براعة...، وإن كافة البضائع بوصفها قيمة ما هي إلا كميات معينة من وقت العمل المتبلور.^٢، ولولا العمل ما كانت القيمة، ولكن هناك قيم استعمالية هامة، ولكنها لا تقيم لأنها لم يبذل فيها جهدٌ بشريٌّ، وذلك "عندما لا تكون منفعة هذا الشيء للإنسان ناجمة عن العمل، ومن أمثلة ذلك الهواء والأرض.... كما يمكن للشيء أن يكون نافعاً، وأن يكون ناتجاً لعمل الإنسان دون أن يكون بضاعة فالشخص الذي يلبي بناتج عمله حاجته الذاتية إنما يخلق قيمة استعمالية ولا يخلق بضاعه.^٣

اكتشف ماركس العامل الازدواجي للبضائع من حيث كونها لها قيمة استعمالية عندما يجرى عليها عمل ملموس وتكون منتجات نافعة للاستعمال، أما عندما تكون لها قيمة تبادلية عندما يجرى عليها عمل مجرد

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٨ : ٦٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٦٢.

ويخرج منتجات لا يهم نوعها ولا فائدتها لمنتجها لأنها خلقت للتبادل فقط، فيقول: "إذا تجردنا عن القيمة الاستعمالية لأجساد البضائع فلا يتبقى لدى هذه الأجساد سوى خاصية واحدة هي أنها منتجات للعمل، ولكن ناتج العمل ذاته يكتسب الآن شكلاً جديداً، ومع أننا قد تجردنا عن القيمة الاستعمالية فإننا قد تجردنا أيضاً في الوقت ذاته عن تلك الأقسام المكونة والأشكال لجسده البضاعي التي تجعله قيمة استعمالية...، إذ إن كافة الخصائص التي تدرك بالحواس قد اضمحلت فيه... بل ترجع كلها إلى العمل البشري المتماثل الواحد أي العمل البشري المجرد."^١، وقال كذلك: "إن أي عمل هو من جهة إنفاق لقوة العمل البشرية بالمعنى الفسيولوجي، فهو بصفته هذه عمل بشري متماثل أو مجرد يشكل قيمة البضائع، كما أن أي عمل من جهة ثانية إنفاق لقوة العمل البشرية بشكل خاص هادف هو بصفته هذه عمل نافع ملموس ويخلق القيم الاستعمالية."^٢

١ (كارل ماركس، رأس المال، مرجع سابق، ص ٥٨.

٢ (المرجع السابق، ص ٧٠.

المبحث الثاني

نظرية القيمة في فكر ابن خلدون

ولد ابن خلدون بتونس سنة (٧٣٢ هـ - ١٣٣٢ ميلاديا)، وقد حفظ القرآن منذ طفولته وتولى عدة مناصب سياسية ودينية، كما تولى قضاء المالكية بمصر وقام بالتدريس في الازهر الشريف، وتوفي بمصر سنة (٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ ميلاديا).^١

اهتم ابن خلدون بعلم الاجتماع والسياسة، وجاءت أفكاره الاقتصادية متفرقة في هذه المناقشات، وجاء الفكر الاقتصادي لديه من خلال رصده للتعاملات داخل المجتمع البشري، وكان لابن خلدون منهج في تناوله للمسائل الاقتصادية، وذلك بمناقشة نظام الحياة من الجانب الاجتماعي والسياسي، ومن هذه المناقشة اكتشف التشابك في العلاقات واستنتج أفكاره، وكان يتبع منهجًا استقرائيًا واقعيًا، فتناول تأثير الأحداث التاريخية والموقع الجغرافي على جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية وكذلك الاقتصادية، ومن خلال هذا التأثير حلل سلوك الأفراد والجماعات، وكذلك حلل المشاهدات والوقائع فاستخدم المنهج الاستنباطي لاستخراج قواعد عامة كانت دائما محاطة بالفهم للشريعة الإسلامية.

استقى ابن خلدون علومه من الحضارات الأخرى حيث إن الحضارة الإسلامية قد بنيت على قراءات الحضارات الأخرى، فقد قراء علماء وفقهاء الحضارة الإسلامية لأفلاطون وأرسطو وقاموا بترجمة هذه الكتب وتعلموا منها

(١) انظر : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، مرجع سابق، ص ١٢٢.

الفلسفة فظهرت الفلسفة الإسلامية والتي يطغى عليها الفكر الإسلامي فنجد الكثير من المفكرين وقد تأثروا بقراءات الحضارات الأخرى؛ ولا يستبعد تأثر ابن خلدون بأفكار أفلاطون وأرسطو عن القيمة حيث تم استعراض أفكارهم عن القيمة في الفصل السابق.

ظهرت بوضوح أفكار ابن خلدون الاقتصادية في كتاباته، على الرغم من أنه لم يذكر في كتاباته لفظ الاقتصاد صراحة، وقد أشار ابن خلدون إلى قيمة الأموال والحفاظ عليها من الغش والتدليس وكان تصنيع الأموال في هذا العصر يسمى السكة، وهي "النظر في النقود المتعامل بها بين الناس، وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص"، وكان أي نقص في قيمة الأموال من حيث وزنها يعتبر تزييف وهو أمر يلقي اهتمام الدولة، وكان هناك اختلاف في قيم النقود من دولة لأخرى، "وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازن بالأفاق والأمصار وسائر الأعمال"^٢ أي أن قيمة العملة تختلف من قطر إلى قطر، وكان دور الدولة الحفاظ على قيمهم من الغش والتدليس لحفظ حقوق المتعاملين بهذه الأموال.

استطاع ابن خلدون أن يشرح القيم الحرة، وهي الهبات الإلهية أو الثروات الطبيعية، مثل الرياح والأمطار والشمس والأرض الخصبة، وقد نبه أن هذه الخيرات تحتاج إلى السعي للاستفادة منها لاستغلالها في متطلباتها، وكذلك يمكن الاستثمار فيها لجلب الثروات من خلال العمل فيها، فقال: "قد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله، إلا أنها إنما تكون معينة،

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

ولابد من سعيه معها، فتكون له تلك المكاسب معاشا إن كانت بمقدار
الضرورة والحاجة، ورياشا وامتولا إن زادت على ذلك.^١، هنا يشرح ابن
خلدون أن هناك قيماً لا تأتي بالسعي أو بالجهد الإنساني، ولكنها تضيف
إلى القيمة بوجودها؛ فأحيانا القيمة تأتي من السعي، وأحيانا بلا سعي أو
جهد، وذلك مثل الأمطار المصلحة للزراعة والتي تعطى قيمة للزراعة بلا جهد
بشري، ولكنه ينبه أن العمل البشري هو ما يضيف على هذه الهبات قيماً،
فكلما زاد العمل البشري عليها زادت قيمتها.

اعتمدت الدراسة في هذا الجزء على كتاب المقدمة لابن خلدون، وهو
مقدمة لكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن
عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ويشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء،
الجزء الأول هو طبيعة العمران في الخليقة، والثاني تاريخ العرب والإسلام،
والثالث أخبار البربر وتاريخ المغرب وفيه فصل كبير وهو ترجمة ابن خلدون
لنفسه تحت عنوان (ابن خلدون ورحلته شرقا وغربا) .

سنحاول في هذا الجزء البحث والتجميع لمعظم الأفكار التي تخص نظريه
القيمة، وسوف نبدأ بأنواع القيمة عند ابن خلدون، ثم نتناول محددات القيمة
عند ابن خلدون، مثل القيمة من خلال العمل، والقيمة من خلال تكاليف
الإنتاج، والقيمة من خلال المنفعة، والقيمة من خلال آلية السوق (العرض
والطلب)، كما سنذكر انفراد ابن خلدون بمحددات لها تأثير على القيمة مثل
تجارة السلطان، وأخلاق التجار والضرائب والآفات السنوية كما سنوضح.

(١) المرجع السابق، ص ٤٦١.

أولاً : أنواع القيمة في فكر ابن خلدون

قسم ابن خلدون القيمة إلى نوعين رئيسيين هما القيمة الاستعمالية ووضع لها شروط، والقيمة التبادلية ووضع لها شروطاً أيضاً.

(١) القيمة الاستعمالية :

تعني القيمة الاستعمالية قيمة السلعة بالنسبة لمستخدمها، أي ما تمثله السلعة من أهمية واحتياج لمستخدم هذه السلعة، وقام ابن خلدون بشرح القيمة الاستعمالية، فقال: "ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجته سمي ذلك رزقا...، إن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا."^١. وقام ابن خلدون بإطلاق لفظ رزق على القيمة الاستعمالية، وقد وضع ابن خلدون في الفقرة السابقة شروطاً للقيمة الاستعمالية، وهي :

- الاقتناء الفعلي والحصول على السلعة.
- أن يكون الشيء المقتنى ذو منفعة فعلية حاصلة بالاقتناء.
- أن يحقق الشيء المقتنى منفعة محققة فعلية للفرد.

(٢) القيمة التبادلية :

تعتبر القيمة التبادلية هي قيمة السلعة مقابل سلعة أخرى، وهو ما يعرف بثمن السلعة، وقام ابن خلدون بشرح معنى القيمة التبادلية، فقال: "ما

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٦١، ٤٦٢.

حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض، فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منه في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعضاض عنها.^١ وقام ابن خلدون بإطلاق لفظ الكسب على ما يدخره الإنسان للتبادل أي على القيمة التبادلية له، وقد قام ابن خلدون بوضع شروطاً محددة للقيمة التبادلية، وهي :

- الاقتناء الفعلي والحصول على السلعة عن طريق السعي بنفسه وبقدرته.
- الاستغناء عن هذه السلعة والاكتفاء عنها، أي ليس لها قيمة استعمالية للفرد.
- شرط حصول الآخرين عليها أن يكون بعوض.

نلاحظ هنا أن ابن خلدون استخدم في مقدمته عدة مصطلحات تفيد معنى التبادل، مثل: المعاملة والتجارة والعوض.

ثانياً : محددات القيمة في فكر ابن خلدون

(١) القيمة من خلال العمل :

اهتم ابن خلدون بالعمل وجعله مصدر الثروات، واستطاع ابن خلدون أن يفرق بين ما يستهلك من العمل وما يدخر من العمل للاستفادة منه، وسمى المستهلك رزقاً والمدخر كسباً، ومن المدخرات تتكون الثروات، وتحدث ابن خلدون عن قيمة العمل وأهميته في الادخار، وتحدث كذلك عن الأعمال

(١) المرجع السابق، ص ٤٦١.

الظاهرة، مثل الصناعة والأعمال المخفية مثل الأعمال التي تكون في الحيوان والنبات، فإطعام الحيوان والاهتمام به عمل ولكنه غير ظاهر، كذلك الزراعة فالأعمال فيها غير ظاهرة من حرث وسقي، واعتبر ابن خلدون أنه لولا الأعمال المخفية في الحيوان والنبات لما صلحت هذه السلع ولا كانت نافعة، فقال: "إن لم ينتفع به في شيء من مصالحه ولا حاجته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا.... ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه..... فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عمل بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان أو النبات أو المعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع."¹

أشار ابن خلدون أن العمل هو أساس القيمة، وأن هناك علاقه طردية بين العمل والقيمة، وكلما زاد العمل على المنتج زادت قيمته، فإن كان العمل يشتمل على عمل ظاهر وعمل مخفي، وذلك من خلال منتجات تدخل في الصناعة، ومختزل فيها قيم أيضاً من خلال عمل تم عليها، فهنا تزيد قيمة العمل في المنتج لوجود عمل ظاهر ومخفي، لذلك تزيد قيمته بقدر الأعمال التي تمت عليه، فيقول: "إن ما يفيد الإنسان ويقتنيه من الممتلكات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله، وهو القصد بالقنية، إذ ليس هنالك إلا العمل، وليس بمقصود بنفسه للقنية، وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٦٢

فيهما أكثر، فقيمته أكثر، وإن كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به، إذ لولا العمل ما تحصل قنيتها، وقد تكون ملاحظه العمل ظاهره في الكثير منها فتجعل له حصه من القيمة عظمت أو صغرت... فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية.^١، ونلاحظ هنا أن للعمل دورًا لتكوين القيمة، ولكنه ليس الدور الوحيد، بل هناك عوامل أخرى، حيث إنه ذكر لفظ في الكثير منها وهذا يعني وجود عوامل أخرى كما سنوضح لاحقًا.

تناول ابن خلدون العمل وزيادة القيم بسبب العمل، وزيادة الثروات بسبب زيادة القيم في مواطن عديدة من مقدمته فيقول "ان ما توفر عمراناه من الأقطار، وتعددت الأمم في جهاته وكثر ساكنه، اتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم، والسبب في ذلك كله ما ذكرناه من كثره الأعمال..... وكثره العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الأعمال التي هي سببه"^٢

أشار ابن خلدون لأهمية التعلم لاكتساب الخبرات في الأعمال، وسمى الخبرة ملكه، وجعل الإنتاج يحصل من جهد جسماني وجهد عقلي، وبدأ يوضح أن العمل الجسماني يحتاج ممارسة وتدريب عملي، ويكون ذلك أفضل من التعلم النظري، وأنه كلما زادت الممارسة العملية زادت الخبرة، وكلما كان المعلم متميزًا والمتلقي كذلك زادت الخبرة، وبذلك تزيد قيم المنتجات، فيقول:

(١) المرجع السابق، ص ٤٦٢، ٤٦٣

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

"اعلم أن الصناعة هي ملكه في أمر عملي فكري، وبكونه عمليا هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة رأسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة، ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم؛ فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر، وعلى قدر ملكة التعليم وجودة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته."^١، وبذلك يكون ابن خلدون قد تحدث عن العمل لإعطاء القيمة للأعمال وأضاف للعمل الخبرة والممارسة والمهارة لزيادة القيمة.

(٢) القيمة من خلال تكاليف الإنتاج :

أشار ابن خلدون أن هناك محددات أخرى للقيمة مع العمل، وأوضح أن للعمل حصة، سواء كبرت أم صغرت هذه الحصة، فقال: "قد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها، فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت."^٢، وأشار ابن خلدون أن هناك قيماً يسعى إليها الإنسان بالعمل وهو عنصر لتحديد القيمة، وذلك ليستطيع تحقيق متطلباته وضرورياته، "فالإنسان متى اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى إلى اقتناء المكاسب لينفق ما آتاه الله منه في تحصيل حاجاته وضرورياته بدفع الاعواض عنها."^٣، وكذلك هناك أعمال تضاف لزيادة قيمة المنتجات الزراعية، وهي

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢، ٤٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٦١.

تعتبر من تكاليف الإنتاج الزراعي، فقال: "وقد تدخل أيضًا في قيمة الأوقات قيمة علاجها في الفلح.... فاحتاجوا إلى علاج المزارع والفدن لإصلاح نباتها وفلحها، وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم."^١، وهنا تظهر تكاليف الإنتاج الزراعي في الأرض الأقل خصوبة، وكذلك يظهر تكاليف الإنفاق عليها لجعلها منتجة ولزيادة قيمتها وإنتاجها.

أطلق ابن خلدون على الزراعة ومنتجاتها لفظ صناعة الفلاحة، وذلك لما تتضمنه من أعمال وتكاليف حتى يتم إخراج سلعها، وقد عدد الأعمال التي تدل على تكلفة عمل في كل مرحله فقال "هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأوقات والحبوب بالقيام على اثاره الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله، واستخراج حبه من غلافه، وإحكام الأعمال لذلك، وتحصيل أسبابه ودواعيه."^٢

تحدث ابن خلدون عن تكاليف النقل وتأثيرها على الأسعار، فإن "نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأكثر أرباحا واکفل بحواله الأسواق... وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابلًا بالأمن فإنه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر ويرخص أثمانها."^٣. وهنا يوضح ابن خلدون تكاليف النقل وخطورة النقل والذي يؤثر على الأسعار بالزيادة بسبب إضافة هذه التكلفة على السلع فتزيد قيمتها.

(١) المرجع السابق، ص ٤٤٢.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٧.

تحدث ابن خلدون كذلك عن تكاليف تزيد من القيم، وهي الضرائب، والتي تضاف على التكلفة فتزيد من السعر؛ فيقول: "قد يدخل أيضاً في قيمة الأوقات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق وأبواب المصر وللجباة في منافع يفرضونها على البياعات لأنفسهم، ولذلك كانت الأسعار في الأمصار أعلى من أسعار البادية."^١. وكذلك تحدث عن "المغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات يعظم فيها الغلاء في المرافق، والأوقات، والأعمال."^٢

(٣) القيمة من خلال المنفعة :

ربط ابن خلدون القيمة بالمنفعة، فجعل قيمة العقار تنخفض مع قلة منفعته، وأحيانا أخرى ترتفع بزيادة منفعته، فيقول: "فإن العقار في أوآخر الدولة وأول الأخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعي المصر إلى الخراب تقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الأحوال فترخص قيمتها.....، وقد استجد المصر شبابه باستفحال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال حسنة تحصل معها الغبطة في العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمتها."^٣، وكان المترفون يمتلكون العقارات لمنفعة تعود عليهم في حياتهم وعلى أبنائهم بعد رحيلهم؛ فكانت تقتنى العقارات بسبب "الخشية على من يترك خلفه من الذرية الضعاف ليكون مرباهم به، ورزقهم فيه، ونشؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فإذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها

(١) المرجع السابق، ص ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤٥.

بأنفسهم، وربما يكون من الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار قواما لحاله.^١، وبسبب زيادة منفعة العقارات كانت تزيد قيمتها، والرغبة في اقتنائها.

ذكر ابن خلدون المنفعة بأنها لا تتحقق للفرد إلا إذا كانت السلعة تسد ضرورة أو حاجة وتحقق له مصلحة، وأي مقتنى ذو منفعة يكون له قيمة، وقد ضرب مثلاً بالأموال المتمثلة في الذهب والفضة وأنهما يحققان مصالح ومنفعة مع ندورهما مما يجعل لهما قيمة للاقتناء، وما لا يحقق منفعة ولا مصلحة لا قيمة له عند الأفراد فيقول: "فتكون له تلك المكاسب معاشا إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة، ورياشا وتممولا إن زادت عن ذلك، ثم أن الحاصل أو المقتنى، إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمّي ذلك رزقا"^٢. كذلك تحدث عن العملة فقال: إن "الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول، وهما الذخيرة والقنية لأهل العالم في الغالب."^٣

تحدث كذلك ابن خلدون عن المدن قليلة العمران، وقد أوضح أن السلع التي تزيد منفعتها يغلو ثمنها والتي يقل منفعتها يقل ثمنها؛ فالإنتاج وحجمه يؤثر على المنفعة، حيث إنه إذا قل الإنتاج وقلت السلع زاد الطلب عليها للرغبة في منفعتها فزاد سعرها، ويذكر هنا أيضاً أن الاحتكار لهذه المنتجات له تأثير على القيمة يغلو ثمنها، أما المباني السكنية فإن الطلب عليها قليل

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٦٢.

لقلة منفعتها فيخفض سعرها، فيقول: "أما الأمصار الصغيرة، والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه بأيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم ويغلو ثمنه على مستامه (طالبيها)، وأما مرافقهم فلا تدعو إليها أيضًا حاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال؛ فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره." ^١

٤) القيمة من خلال آلية السوق (العرض والطلب) :

اهتم ابن خلدون بالعرض والطلب وأوضح تأثيرهم على القيمة، وتحدث بأن التلاعب بالأسعار في الشراء والبيع يؤثر على العرض والطلب وكساد الأسواق بالسلب؛ فيقول: إن من "الظلم وإفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم باجنس الأثمان، ثم فرض البضاع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب، والاكراه في الشراء والبيع.... يتناقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الأسواق ويطل معاش الرعايا لأن عامته من البيع والشراء، وإذا كانت الأسواق عطلا منها بطل معاشهم." ^٢

يشير ابن خلدون إلى صناعة البناء وزيادة الطلب عليها مع زيادة التنمية والعمران، ويقل الطلب على صناعة البناء بنقص العمران؛ فيقول: " فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات بكثرة الأعمال حينئذ

(١) المرجع السابق، ص ٤٤١.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٥٤، ٣٥٥.

وكثر الصناعات إلى أن تبلغ غايتها من ذلك، وإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصناعات لأجل ذلك ففقدت الإجابة في البناء والأحكام والمغالاة عليه بالتنميق، ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما.^١

أشار ابن خلدون إلى أنه مع انتشار الغنى وارتفاع مستوى المعيشة ينتشر الترف والإسراف في الإنفاق الاستهلاكي، ويزيد الطلب على المنتجات الاستهلاكية ويؤدي ذلك إلى زيادة قيمة المنتجات الاستهلاكية وزيادة أرباحها فينتجها المنتجون فيزيد عرضها، فيقول: "كذلك أن العامل الجيد الأداء والمرغوب فيه يؤدي لارتفاع قيمة هذا العامل وارتفاع أجره، وبالتالي ارتفاع مستوى معيشته؛ فيقول في ذلك: "إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم، فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته إلى التأنق في المساكن والملابس، واستجادة الآنية والماعون، واتخاذ الخدم والمرائب، وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها؛ فتتنفق أسواق الأعمال والصناعات، ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم."^٢

تحدث ابن خلدون عن المدن الكثيرة العمران والتي يكون فيها زيادة في الطلب مع قلة العرض، وذكر كيف يؤدي ذلك لارتفاع القيم وغلاء الأسعار، "وأن المصر إذا كان مستبحرا موفور العمران كثير حاجات الترف، توفرت

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٨.

حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورا بالغا، ويكثر المستامون (الطالبين) لها، وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الأغراض ويبدل أهل الرفه والترف أثمانها بإسراف في الغلاء لحاجتهم إليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه.^١ كذلك تحدث عن المدن قليلة العمران والتي يكون فيها العرض قليلاً والطلب كبيراً نتيجة تأخر هذه المدن في العمران والتصنيع، وأن هذا يؤدي أيضاً لغلاء الأسعار؛ فقال: " أما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه بأيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم، ويغلو ثمنه على مستأمنه، وأما مرافقه فلا تدعو إليها أيضاً الحاجة لقلة الساكن وضعف الأحوال؛ فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره.^٢، وهنا يذكر ابن خلدون أن المساكن في هذه الأنواع من المدن قليلة العمران تكون متوفرة والطلب عليها قليل وبالتالي أسعارها منخفضة.

يشير أيضاً ابن خلدون أن الطلب على قوة العمل وأصحاب الحرف يزيد من قيمتهم وأسعارهم، وأنه مع الترف تزيد الحاجة إلى تشغيل الآخرين فيزيد سعرهم، فيقول بأنه مع " كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنتهم فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسه في الاستثثار بها فيعتز الفعلة والصناع وأهل

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤١.

الحرف، وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.^١، فمع زيادة الطلب زاد سعر العمالة.

ذكر ابن خلدون أهمية الاهتمام بالطلب على السلع الاستهلاكية الأساسية، والذي يحتاجه كل طبقات المجتمع؛ فيقول: "التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغني والفقير والسلطان والسوقة إذ في ذلك نفاق سلعته."^٢، وهنا تزيد القيمة في السلع الشائعة الاستعمال وتزيد الأرباح. وحذر ابن خلدون من الاحتكار، وقال إنه وبال على صاحبه ويفسد الأموال، حيث إن الاحتكار يؤثر على العرض بالانخفاض بسبب اخفاء السلع لحين غلاء سعرها لزيادة المكاسب، فيقول ابن خلدون: إن "الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا."^٣

استطاع ابن خلدون أن يفرق بين الطلب الكمالي والذي يزيد قيمته بسبب زيادة تكلفته، ونمط استهلاكه حيث إن مستهلكيه من الأثرياء والمترفين، وبين الطلب الضروري، والذي تقل قيمته، ويكون مستهلكيه من العامة، فيقول: "إنه إذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفيت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ إلى الكماليات من المعاش.....وعلى مقدار عمران البلدان تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ وجودة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة، وأما العمران

(١) المرجع السابق، ص ٤٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧٨.

البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط، خاصة المستعمل في الضرورات.... وإذا وجدت هذه بعد فلا يوجد فيه كاملة ولا مستجادة؛ وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة.^١

استطاع ابن خلدون أن يضيف عدة عوامل أخرى تؤثر على القيمة، وهذه العوامل التي أشار لها ابن خلدون كانت إشارة لتطور فكر ابن خلدون وسبق له ولفكره في هذا العصر، ونذكر منها التجارة من السلطان، وهو ما يعني في العصور الحديثة دور الدولة، كذلك أخلاق التجار وهو في العصر الحديث ما يطلق عليه أخلاقيات الاقتصاد أو الاقتصاد الأخلاقي، كذلك الضرائب ودورها في التأثير على القيم، كذلك تطرق ابن خلدون للكوارث والحوادث الطبيعية والتي تؤدي إلى نقص الإنتاج فتؤثر على القيم، كذلك ارتباط التنمية بارتفاع أسعار العمالة الماهرة، كما سنوضح لاحقاً.

ثالثاً : محددات تؤثر على القيمة في فكر ابن خلدون

هناك محددات أخرى لدى ابن خلدون تؤثر على القيم نذكر منها :

- التجارة من السلطان، وهو ما يطلق عليه حديثاً دور الدولة.
- أخلاق التجار، وهو المعروف بالأخلاق الاقتصادية.
- الضرائب، وهي جزء من مالية الدولة حديثاً.
- الآفات السماوية، وهي جزء من مصطلح التغيرات المناخية حديثاً.
- الاعتماد، وهو زيادة عدد السكان.

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٨٣.

التجارة من السلطان

تحدث ابن خلدون أن التجارة من الدولة تؤدي إلى التغير في الأسعار والقيم مرة بالانخفاض ومرة بالارتفاع، ويؤدي ذلك إلى الضرر الجسيم على الرعية؛ حيث إن للدولة سلطة تجعلها حين تتعامل من الرعية في التجارة فإنها تكون الأقوى بما تملكه من أموال، وهنا مع امكانيات الدولة وسلطتها تقوم بالشراء بأجنس الأسعار، وتمنع الرعية من شراء احتياجاتهم فيؤدي ذلك الرعية، فيرى ابن خلدون أن هذا يؤدي إلى " أن السلطان قد ينزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غضبا، وبإيسر ثمن؛ إذ لا يجد من ينافسه في شرائه فييخس ثمنه على بائعه."، وتنخفض أسعار السلع مع التجار ويبيعوها بأقل الأسعار ويخسروا أموالهم.

يأتي الدور على الدولة لتبيع ما حصده من تجارة وزراعة تقوم ببيعها بأعلى الأثمان وأزيد لتحقيق الأرباح، ويكون ذلك أيضاً من خلال سلطة الدولة فيصدرون الأوامر بشراء السلع بأسعار مرتفعة ليزيد مكسب الدولة ويدفع التجار كل ثرواتهم في بضائع تبقى جامدة بأيديهم لارتفاع سعر شرائها، وأحيانا يحتاج هؤلاء التجار لأموال فيبيعوها بأقل من أسعارها فيخسروا رءوس أموالهم ويقعدون عن التجارة، فيرى أنهم قد "يكلفون أهل تلك الأصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون في أثمانها إلا القيم وأزيد، فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم، وتبقى تلك البضائع بأيديهم عروضاً جامدة... وربما تدعوهم الضرورة إلى شئ من المال فيبيعون تلك السلع على

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

كساد من الأسواق بأبخس ثمن، وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب برأس ماله فيقعد عن سوقه.^١، وهنا نلاحظ تأثير القيم والأسعار بتدخل الدولة في التجارة والزراعة، حيث إن تدخل الدولة يظهر عدم التكافؤ بين الرعية وبين الدولة، وبذلك يظهر احتكار الدولة وإزاحتها للأفراد من الأسواق.

تقوم الدولة بشراء البضائع والسلع من الواردين وهو ما يطلق عليه في هذا الوقت الاستيراد، وتكون قدرة الدولة على الاستيراد كبيرة لاتساع مالية الدولة؛ فتقوم بعد ذلك بفرض أسعار للبيع على أفراد الدولة، ويكون هذا السعر مرتفعاً لجمع الأموال بسرعة، وبذلك تكون الدولة بتدخلها تفرض القيم على السلع، حيث "يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين إلى بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاءون، ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن."^٢، وهنا يظهر دور الدولة في التدخل في التقييم للأسعار مع تجارتها وتدخلها.

أخلاق التجار

أشار ابن خلدون إلى الاحتكار، وهو من السلوكيات الخاطئة للتجار والتي تؤثر على قيم السلع، وذلك بقيامهم بإخفاء السلع فيزيد الطلب عليها مع قلة توافرها فيرتفع سعرها وحينئذ يقوم التاجر بخراجها لتزيد مكاسبه، فيعمل على " أن يخترن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٧.

فيعظم ربحه.^١، وأشار ابن خلدون إلى احتياج الناس للسلع المحتكرة خاصة لو كانت من الأقوات واضطرارهم لشرائها بأعلى القيم؛ فيقول: " إن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا."^٢، ويكون هذا الدفع للأموال في حالة الاحتكار بأعلى الأثمان.

تحدث كذلك على أن هناك ممارسات من التجار تجعل الأسعار غير عادلة وبعيدة عن حقيقتها؛ فيرى ابن خلدون أنه "لا بد من الغش والتطفيف المحجف بالبضائع، والمطل في الأثمان المحجف بالربح."^٣، وهنا يبين أن انحطاط خلق التاجر، واستخدامه مختلف الأساليب لبيع السلعة؛ كالغش والتدليس والخلاصة والحلف، يترك أثره في قيمة السلعة، فجميع هذه الأساليب تؤدي إلى جعل قيمة السلعة في البيع بعيدة عن القيمة العادلة لها.

الضرائب

أشار ابن خلدون لدور الضرائب في التأثير على الأسعار والقيم، وذلك سواء بزيادة الضرائب أو بنقص الضرائب فمع زيادة الضرائب تزيد التكاليف فترتفع القيم، ومع نقص الضرائب تقل الأموال بأيدي الرعية بسبب قلة الرواتب فيقل الشراء وتنخفض القيم بسبب الكساد كما سنرى.

تؤثر الضرائب وما تفرضه الدولة على الرعية في الأسعار، حيث إن هذه الضرائب تزيد من التكاليف على التاجر فينقل عبئها على المستهلك فيزيد

(١) المرجع السابق، ص ٤٧٧.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٧٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٨٠.

السعر، وهنا التأثير الأول في الأسعار وهو زيادة السعر؛ ثم ينصرف الأفراد عن الاستهلاك بسبب غلاء الأسعار؛ وهذا بدوره يؤدي إلى كساد الأسواق وانخفاض الأسعار بسبب الكساد، وهنا التأثير الثاني على الأسعار؛ ويؤدي الكساد إلى انصراف الناس عن العمل بسبب الخسائر، فيقول أنه "يستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على البيعات ويفرض لها قدرا معلوما على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في أموال المدينة.... فتكسد الأسواق لفساد الآمال."^١؛ واعتبر ابن خلدون أن هذا الكساد وانصراف الناس عن العمل هو "عدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاجها من أيديهم"^٢، وهنا تغير الأسعار والقيم يتأثر بارتفاع الضرائب.

يري ابن خلدون أهمية الضرائب وتحصيلها حتى تستطيع الدولة دفع مرتبات موظفيها وهم الفئة الأكثر استهلاكا في الأسواق، وأن نقص تحصيل الضرائب يؤدي لنقص الاستهلاك وانتشار الكساد وانخفاض الأسعار؛ فقال بأن نقص العطاء من السلطان هو نقص في تحصيل الجباية "والسبب في ذلك هي الدولة والسلطان هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران، فاذا احتجن (احتجز) السلطان الأموال أو الجبايات، أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية.... وقلت نفقاتهم جملة - وهم معظم السواد - ونفقاتهم أكثر مادة للأسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الأسواق، وتضعف الأرباح في المتاجر لقلة الأموال."^٣، وهنا يربط ابن خلدون

(١) المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٣) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٣٥٠، ٣٥١.

الضرائب بالاستهلاك وانخفاض الأسعار والكساد، ونستطيع أن نقول أن لابن خلدون الريادة الفكرية في فكره تنشيط الأموال بأيدي المستهلكين للخروج من الكساد، وهي فكره كينز للخروج من الأزمة سنة ١٩٢٩م.

الآفات السماوية

اعتبر ابن خلدون الآفات السماوية مثل نقص الأمطار أو أمراض الزرع وغيره مما يؤثر على الإنتاج الزراعي بالسلب من الأمور التي تؤثر على القيمة، وذلك لأن الآفات السماوية تؤدي لنقصان الزراعة أو إصابتها فيقل المحصول مع زيادة الطلب عليه مما يؤدي لارتفاع سعره في الأسواق.

بدأ ابن خلدون بإظهار تأثير الأمطار على القيم، وذلك بزيادة أو نقص الزراعة وارتباطها بكمية الأمطار حيث إن "طبيعة العالم في كثرة الأمطار وقلتها مختلفة، والمطر يقوى ويضعف، ويقل ويكثر، والزرع والثمار والضرع على نسبه، إلا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكار، فإذا فقد الاحتكار عظم توقع الناس للمجاعات فعلا الزرع."^١

أشار ابن خلدون إلى رخص الأسعار مع زيادة الإنتاج، وقد استثنى من هذا الرخص حالات حدوث آفات سماوية لأنه في هذه الحالة ترتفع الأسعار وذلك لانخفاض الإنتاج، ولولا هذه الآفات لكان التبادل بدون ثمن بسبب الوفرة، وأنه لولا تخزين الناس للسلع خوفا من هذه الآفات وتوابعها من نقص الإنتاج لبذلت هذه السلع بلا ثمن، ومع زيادة إنتاج السلع "ترخص أسعارها

(١) المرجع السابق، ص ٣٧٠.

في الغالب إلا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما يتوقع مع تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها.^١

الاعتماد

يرى ابن خلدون أنه كلما زاد عدد السكان كلما زاد الإنتاج، وزاد العمران حيث إن "نفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة، والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته من معاشه، وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفه منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافا.^٢، وهنا إشارة بأنه كلما زاد عدد السكان زاد العمل والإنتاج وهو ما يطلق عليه الاعتماد.

فمع زيادة عدد السكان وزيادة العمران، يترتب على ذلك زيادة الإنتاج والترف والتأنق في الصناعات، وبالتالي تزيد قيمة العمالة ويرتفع مكاسبهم بسبب ارتفاع مهارتهم وقيم أعمالهم، حيث إن "المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم، فكثرت مكاسبهم ضرورة، ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس، واستجدادة الآنية والمعاون واتخاذ الخدم والمراكب، وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتتفق أسواق الأعمال والصنائع، ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل

(١) المرجع السابق، ص ٤٤١.

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٣٨.

أعمالهم.^١، وكذلك يرى ابن خلدون أنه مع زيادة السكان والتنمية يزيد الترف ويحتاج الأفراد إلى العمالة فيرتفع ثمنها، فمع " كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم إلى امتهان غيرهم وإلى استعمال الصناع في مهنتهم فيبدلون في ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمة ومنافسة في الاستئثار بها، فيعتز الفعلة والصناع وأهل الحرف وتغلو أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك.^٢

كذلك كلما قل عدد السكان قلت الأعمال وقل الإنتاج وانخفضت التنمية، وبالتالي قل الترف وانخفض دخل العمال، وذلك لقلّة أعمالهم وقلّة مهاراتهم وقلّة كسبهم وتحولهم لفقراء بسبب ضعف قيمة العامل، حيث إن " الأمصار التي لا تفي أعمالها بضرورتها، ولا تعد من الأمصار؛ إذ هي من قبيل القرى والمداشر فلذلك نجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضرورتهم، ولا يفضل لهم عنها ما يتماثلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم، فهم لذلك مساكين محاييج.^٣، ويظهر هنا ارتباط التنمية بالغي والفقر للعمال، فمع زيادة التنمية يزيد الترف وجودة الصناعة، فيزيد قيمة وسعر العمال لمهارتهم وخبراتهم، وعلى العكس فمع انخفاض التنمية تقل جوده الإنتاج وتقل مهارة العمالة، فيترب على ذلك فقر العمال.

(١) المرجع السابق، ص ٤٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤١.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٩.

أشار ابن خلدون إلى ارتباط عدد السكان بأسعار الحاجات الأساسية والكمالية، فكلما زاد عدد السكان رخص أسعار الضروري وزاد سعر الكمالي، وإذا قل عدد السكان يزيد سعر الضروري، حيث إنه " إذا استبحر المصر وكثر ساكنه، رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه، وغلت أسعار الكمالي من الآدام والفواكه وما يتبعها، وإذا قل ساكن المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس من ذلك..... وأما الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، فيتمسكون بما يحصل منه بأيديهم ويحتكرونه فيعز وجوده لديهم، ويغلو ثمنه على مستأمنه. "١

يفسر ابن خلدون ذلك بأن مع زيادة عدد السكان يقوم الأفراد بإنتاج السلع الضرورية بكثرة، فيكون هناك فائض في إنتاجها يؤدي إلى انخفاض قيمتها وانخفاض سعرها، وأن "السبب في ذلك أن الحبوب من ضرورات القوت، فتتوفر الدواعي على اتخاذها إذ كل أحد لا يهمل قوتاً لنفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته، فيعم اتخاذها أهل المصر أجمع، أو الأكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه، لا بد من ذلك، وكل متخذ لقوته تفضل عنه وعن أهل بيته فضلة كثيرة تسد خلة كثيرين من أهل ذلك المصر، فتفضل الأقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب. "٢، أي أن الإنتاج يكفي الأفراد والفائض يقومون بعرضه فيزيد عن حاجات السكان، لأن كل الأفراد

(١) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص ٤٤٠، ٤٤١

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤٠، ٤٤١

تنتج الضروري فمع زيادة العرض تنخفض الأسعار، وهنا يرجع ابن خلدون هذا الانخفاض لزيادة عدد السكان أي زيادة إنتاجهم.

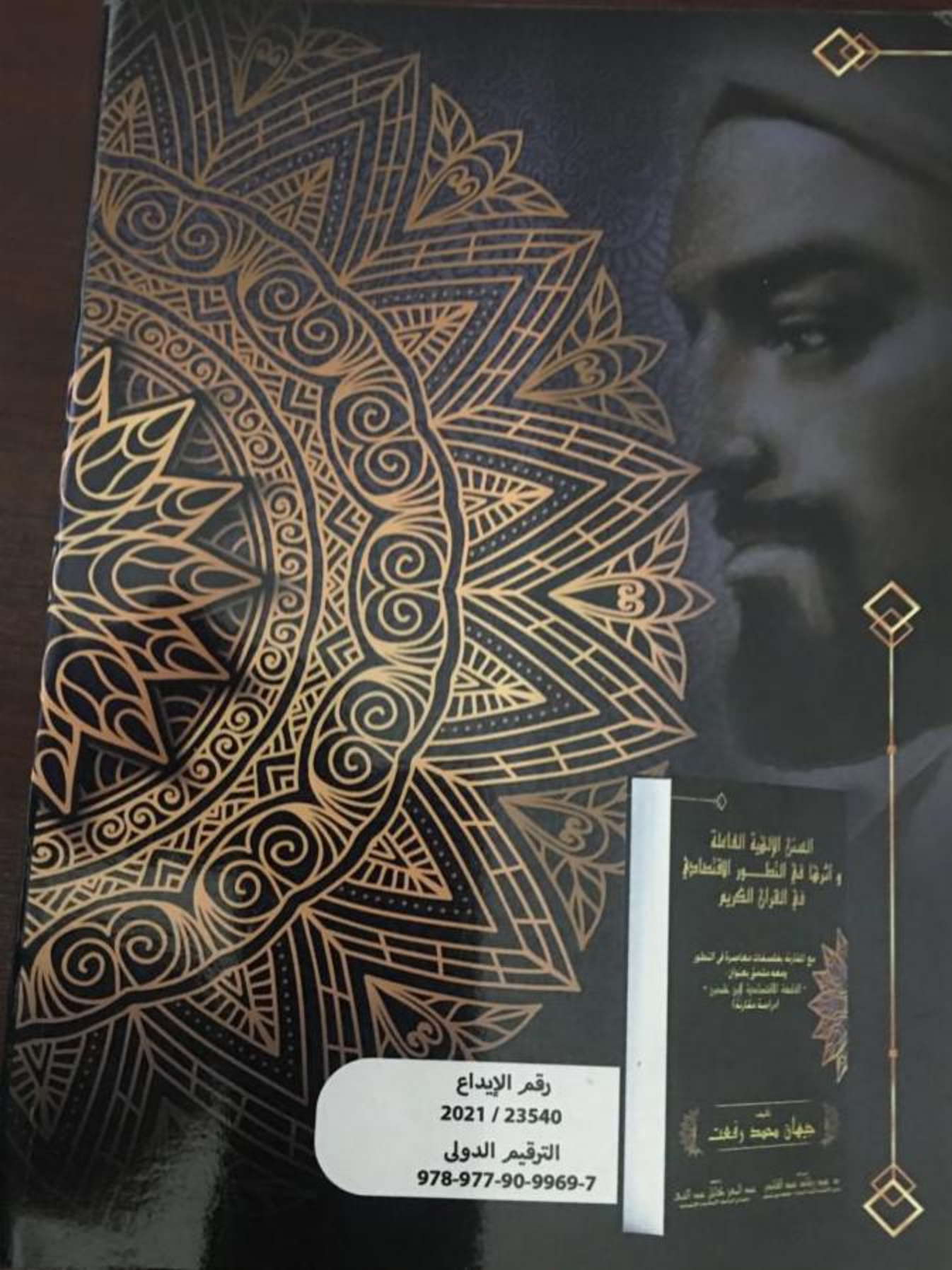
استطاع ابن خلدون أن يربط بين القيم وعدد السكان في نقطتين؛ النقطة الأولى هي زيادة أسعار العمالة مع زيادة عدد السكان والتنمية والتألق في الصناعات والترف، والنقطة الثانية هي ارتباط سعر السلع الضرورية والسلع الكمالية بعدد السكان وقدرتهم على التنمية والإنتاج.

رقم الايداع

2021/23540

الترقيم الدولي

978-977-90-9963-7



القرآن الإلهية العظمة
و أثرها في التطور الاقتصادي
في القرآن الكريم

مع تلبية احتياجات معاصرة في التطور
معه كل شيء يمكن
• اللغة الإنجليزية أو أخرى •
إقامة مقروءة

جيهان ميديا و
الطباعة

© جميع الحقوق محفوظة
www.jehaanmedia.com

رقم الإيداع
2021 / 23540
الترقيم الدولي
978-977-90-9969-7



السنتج الإلهية الفائلة و أثرها في التطور الإقتصادي في القراج الكريم

مع المقارنة بفلسفات معاصرة في التطور
ومعه ملحق بعنوان :
“ الفلسفة الإقتصادية للإبن خلدون ”
(دراسة مقارنة)



تأليف:

جيهان محمد رفعت



راجعه:
عبد المعز كامل عبد النبي
باحث في الدراسات الإسلامية و الإقتصادية

قدم له:
ط. عيد رشاد عبد القادر
مدرس الإقتصاد-كلية التجارة - جامعه عين شمس